

جمال البنا

كلامك  
كلامك

كلام الأديان التوحيد

كلام الفقهاء التقليد

محاكمة الفكر المصري

دار الفكر الإسلامي

١٩٥ شارع الجيش - القاهرة ١١٢٧١

تليفون : ٩٣٦٤٩٤



﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى  
وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا  
نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ .  
(سبا ١٦)

إن الذى خلق الحقيقة علماً  
لم يُخل من أهل الحقيقة جيلاً  
شوفى



## مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

---

أثارت الشهادة التي أدلى بها فضيلة الشيخ محمد الغزالي في قضية مقتل الكاتب الصحفى فرج فودة يوم ١٩٩٣/٦/٢٢ عاصفة من الاهتمام واستحوزت على رأى العام المصرى وقتئذ ، وأعدت إلى السطح مرة أخرى تلك القضية المُستَكِنَة فى القاع دون حسم - قضية الردة التي نرى أنها فى حقيقة الحال قضية حرية الفكر ، وفجرت مايحيط بها من مسائل ...

والكتاب الذى بين يدينا يتخذ من هذه الواقعة - أى - شهادة الشيخ الغزالي ، وما أثارته من تأييد أو تنديد نقطه انطلاقه ، وهو لايرى فى هذا التأييد أو التنديد - إلا « انتطاح عنزين » ، يعنى انها قضية ليس لها أصل حقيقى يرر النطاح ، وإنما هى ثمرة « التقليد » من ناحية ، و« الادعاء » من ناحية أخرى ؛ ففقهاء التقليد يتمسكون بما جاء فى فقه الأسلاف ، ويرفضون الاجتهاد ، بينما ينساق أدعياء « التتوير » كما أطلقوا على أنفسهم وراء شعارات وزیوف وظواهر لأصل لها فى الحقيقة .

ويبدأ الكتاب فيفند دعوى حد الردة - ويذهب إلى أنه « لا حد . . لا . . .  
استتابة . . لا تعزير » ويضع - للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه - نهاية لهذه  
القضية بعد مناقشة مستفيضة لما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية . . أما الذين  
ة في آذانهم وقر وأفقدتهم هواء ، فإنك لاتسمع الصم الدعاء . .

ثم يندار الكتاب على أدعياء التنوير ويسقط الآلهة الزائفة التي يتعبدونها :  
الاشتراكية - الحضارة الأوروبية - القومية العربية ، ويتبع تجربتي التنوير المزعومتين :  
تجربة محمد علي ، وتجربة عبدالناصر ويكشف حقيقتهما ويتقصى الكتاب في باب  
مستقل أزمة أدعياء التنوير . وهو يرى أنها « إشكالية الصراع بين الدات والموضوع »  
والموضوع الذي يكون علينا جميعاً أن نلتزم به هو « مصر » التي يمثل الإيمان بالدين  
جذر حضارتها ومحور مجتمعا وأصل وجدانها ، وأى دعوة تتجاهل الدين فإن مصر  
تلفظها ، ومن ثم فإن دعوات التنوير المزعومة لاتجد قبولا - رغم أن كل أجهزة الإعلام  
والتأثير في أيديهم . . وقد تجاهل أدعياء التنوير هذا الأصل الأصيل في المجتمع  
المصرى . . بتأثير عوامل ذاتية هي الثقافة الأوروبية التي أبعدتهم عن جذورهم ،  
والانتماء السياسى الذى ادعى الاشتراكية حيناً من الدهر ، وتجهم للإسلام . . وأخيراً  
فهناك قلة مؤثرة من غير المسلمين - تأثرت بتصورات خاصة أو بتوجيه قيادات كنسية  
بحيث وضعت نفسها في مواجهة الإسلام ؛ فما قد يؤدي إلى كسب له يعنى خسارة  
لها . . وقد عالج الفصل الخاص « بمحاجز الدين » معالجة مستفيضة وضع الاقليه القبطية  
في مصر - وكيف يمكن أن تكون عنصراً بناءً في المجتمع المصرى .

وكما بدأ الكتاب بفصل عن « عندما ينتطح العنزان » فانه يختم بفصل « عندما  
تتصافع اليدان » يدعو الفريقين إلى كلمة سواء وهو يضع مشروعاً للأجيال من عشر  
نقاط لكل من فقهاء التقليد . وأدعياء التنوير إذا أخذ كل منهما به . فعندئذ تتصافح  
اليدان .

من هذا يتضح أن الكتاب يكاد يكون محاكمة لفكر المجتمع المصرى السائد . الذى  
انطوى وتقوقع من ناحية وشط وانفلت من ناحيه اخرى .

\*\*\*

وقد أَلَفَ الناس ان من يؤيد اليمين .. يعارض اليسار ، ومن يقول نعم للأول يقول لا للثاني ، اما أن يعارض كاتب الفريقين معاً ، ويقول كلا ثم كلا ، فانه يقطع الجسور ، ويوقد شمعتة من طرفيا ، ويوقف نفسه في طريق مسدود ، فالفكر الاسلامى في يد فقهاء التقليد ، وأجهزة الاعلام والصحافة في يد أذعياء التوير .

ولكن ليس هذا هو المهم ..

المهم هو «الحقيقة» .

وعندما تكون الحقيقة بهذا الحجم ، وعندما يتهددها الخطر ، وتطلب من حمايتها التضحية ..  
فلا تردد ، ولا مجاملة ، ولا خوف من لوم  
لامم ..

﴿ فاقض ماأنت قاض  
إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾

جمال البنا

شوال ١٤١٤ هـ

أبريل ١٩٩٤ م

القاهرة

## **الباب الأول**

### **كلا لفهاء التقليد**

---

**الفصل الأول : عندما ينتطح العنزان**

**الفصل الثاني : شهادة الشيخ الغزالي وتوابعها**

**الفصل الثالث : دلالات الشهادة وتوابعها**

**الفصل الرابع : لا حد ، لا استتابه ، لا تعزير**



## الفصل الأول

### عندما ينتطح العنزان

في الحديث النبوي الذي جرى مجرى الأمثال « لا ينتطح فيها عنزان » ومعنى الحديث - كما شرحه صاحب النهاية - « أى لا يلتقى اثنان ضعيفان ، لأن النطاح من شأن التيوس والكباش لا العنوز ، وهو إشارة إلى قضية مخصومة لا يجرى فيها خلف أو نزاع<sup>(٥)</sup> » .

والقضية التي هي موضوع هذا الكتاب يمكن أن تكون قضية مخصومة لا يجرى فيها خلف أو نزاع ، ولا ينتطح فيها عنزان ، فضلا عن الكباش والتيوس ، ولكن - المفارقة - أنها كادت تمزق المجتمع المصرى وقد شغلته وشغلت ساسته وصحافته ردحا طويلا ، ولا تزال تنتظر الحل !

فمن ناحية نجد الشيوخ والفقهاء يحملون بأيمانهم ما خلفه لهم الأسلاف من موروثات فقه وأحكام ، وهم يحملون هذه الأسفار من ألف عام ، منذ أن أغلق باب الاجتهاد وقد عكفوا عليها كما عكف آباؤهم ، وكما عكف أجدادهم

(٥) النهاية لابن الاثير ، ص ١٥٣ ، الجزء الرابع .

رجوعا القهقري إلى القرن الرابع الهجرى ، وقد درسوها في الجامعات سواء منها الدينية أو « المدنية » ولا يملكون لها تغييرا أو يستطيعون فيها تجديدا لأن هذا سيعرض للخطر الكيان القائم المستقر من ألف عام ربما بما في ذلك أوضاعهم نفسها ، وقد اكتسب هذا الوضع قداسة الدين وجلال القدم وطرزته أسماء الأئمة العظام ، فتغييره ليس بالأمر السهل ، وقد يكون أصعب ما في عملية التغيير أنه ليس هناك بديل ، أو أن الدليل ليس بالوضوح والجلء الذى يستحق الدخول في المعركة ، لأنهم لم يعرفوا غير هذا التراث فلا يستطيعون عه فكাকা ولأن غيرهم لم يحكموا هذا التراث ، فلا يمكنهم معالجته نقدا وتمحيصا ولا جدال أن فيه الكثير الطيب على كل حال .

وفي الطرف الآخر تقف مجموعات تلقت دراساتها في جامعات أوروبية ، أو استقتها من مراجع غربية ، ونشأت في حوض « البورجوازية » المدنية التى قطعت أصولها بالقرية والتقاليد ، وانتتمت إلى أحزاب سياسية - سواءً بحكم الإيمان أو المصالح والأوضاع - وارتبطت بنظام الحكم الذى لم يكن في فترة ما من تاريخ مصر الحديث الحديث إسلاميا - بوجه خاص - بل تأثر بدعاوى بعيدة عن الإسلام . . فحملوا دعوى « التنوير<sup>(١)</sup> » الذى عندما نحلل مفرداته - من كتاباتهم - يتضح أنها الدولة العلمانية والفصل بين الدين والدولة . . والقول إن الدين مسألة خاصة بين الفرد والله ، ولا علاقة له بالنظم السياسية - باختصار النموذج الأوروبى له . . . ولما كان معظمهم حاذقا وذكيا وتعلم في مدرسة الانتهازية العظمى في العصر الحديث - أعنى بها الشيوعية - التى تصطنع الشعارات وتسبغ على نفسها ما تريد من صفات . . إلخ ؛ فإنها ربطت دعواها بالمشروع الحضارى المزعوم الذى عمل له محمد علي وجمال عبدالناصر وقام بفضل دعاة التنوير من رفاة رافع الطهطاوى حتى طه حسين . . . إلخ .

وهم في التكييف الفكرى لا يفضلون فقهاء التقليد . . ومن أجل هذا قلنا أدعياء « التنوير » ، فقهاء التقليد يقلدون شيوخ الماضى ، وأدعياء التنوير يقلدون « خواجهات » أوروبا ، ولم يستطع لا هؤلاء ولا أولئك - أن يجهدوا فكرهم في التوصل إلى الحل الذى يتفق مع طبيعة هذه البلاد . . ويمكن أن ينتصر على تحديات العصر .

(١) أنظر التعليق على هذا التعبير ص ٩٤ .

ومنذ أن جاء نابليون هذه البلاد ، ودك بمدافعه العالم القديم ، وأدخل مصر قسرا . . العصر الحديث ! ولا تزال قضية الانتقال قائمة لم تحل ، ولم تنته ، ولم تكن مصر سعيدة الحظ كاليابان - مع أنها بدأت قبلها - ولم ترزق بإمبراطور حكيم كالإمبراطور «ميجي» يضع نصب عينيه المصلحة العليا للبلاد وللشعب والنهضة بهما وإنما رزقت في أول الحقبة وآخرها بطاغيتين عسكريين - محمد علي وعبدالناصر - استهدف كل واحد منهما إنشاء إمبراطورية تحمل اسمه ويكون هو محورها ، فباء بالفشل وجر الخزي والخذلان على البلاد .

نعم ، ظهر جمال الدين الأفغاني ، وأمضى في هذه البلاد ثمانى سنوات ، وكان يمكن أن يؤدي عمله إلى التجديد الإسلامى المنشود ، ولكن فشل الثورة العراقية أدى لأن تنزلق الدعوة الإسلامية من بين يديّ الشيخ محمد عبده - تلميذ الأفغاني الأثير - انزلاقة نوعية وليست كمية ، فأخذت طابعا إسلاميا تساوميا وليس ثوريا كفاحيا ، ومهدت هذه الانزلاقة لانزلاقة أخرى على يدّي سعد زغلول - تلميذ محمد عبده الأثير - الذى بدأ الليبرالية/ البورجوازية المصرية وأبعد الإسلام إلى ركن قصى من أركان المجتمع ! أما الهيئة التى تعلقت بها القلوب وبنيت عليها الآمال - الإخوان المسلمون - فإن استشهاد مرشدها أصابها بنكسة لم تقم منها بعد . . .

وخلال الانقلاب الناصرى أعلنها عبدالناصر حربا شعواء على الإسلام والدعوة الإسلامية ، وبسط حكم الإرهاب الذى أخرج الأصوات حتى جاءت ١٩٦٧ ودمرت كل ما أقامه تدميرا . . !

وجاء السادات وقد تعلم الدرس ووعاه ، فطرد الخبراء الروس ، وأفرج عن المسجونين وبدأ نوعا من التعاطف مع الاتجاه الإسلامى ، فكسب حرب رمضان ، ولكنه احتفظ بحاشية السوء ، وتستر على الأخطاء الفاحشة ، وترك عددا من كبار المجرمين يفلت من العقاب .

باختصار ، لم يكن السادات مستعدا للقيام بثورة تطهر البلاد من قاذورات العهد الناصرى والمجموعة المنتفعة لأنه هو نفسه كان من ضمنها ، ولأنه أراد أن يبقى عليها كقوة يحقق بها نوعا من التوازن مع القوى الأخرى . . ونتيجة لتردداته ، فقد انقلب على حلفائه الإسلاميين ، ومات ضحية لكلمته المبطوطة « لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين » . . وكان يجب على أذعياء العلمانية أن ينصبوا له تماثلا ، لا أن يقذفوه بالطوب !

وجاء مبارك لينهى حكم ضباط ٢٣ يوليو ، ولكن الشلة هي الشلة ، وبقايا المنتفعين من الناصرية تنصدر المناصب ، فيرأس كبيرهم مجلس الشعب ويضرب بالحريات والضمانات وأحكام القضاء عرض الحائط ، بينما يلى أحد ضباط صلاح نصر وزارة الإعلام ، وتُعطى وزارة الثقافة لرسام مغمور يتخيل أن الصورة التي يرسمها تباع بسبعين ألفاً لعبقريته الخاصة ، وليس لمنصبه الوزارى ٠٠!

خلال هذه الحقبة الطويلة ( ١٨٠٠ - ١٩٩٠ ) لم يعنَ أى حاكم بمعالجة الأزمة الحضارية معالجة موضوعية ٠٠ محمد على ، وعبدالناصر ٠٠ وأتباعه عزفوا عن الإسلام وحاولوا مجاملته مرة وعداوته مرات أخرى ٠٠ أما المرحلة البورجوازية في تاريخ البلاد - من دستور ٢٣ حتى انقلاب ١٩٥٢ فكانت أيضا عازفة عن الإسلام ، وإن حدث هذا بطريقتها الخاصة التي تختلف عن الطرق العسكرية لمحمد على وعبدالناصر .

وكانت الأخطاء تتراكم مع كل جيل ، والمشكلة تتعمد مع كل إجراء وتسويف حتى أصبحت تركة ثقيلة تحمل كل أوزار العهود الماضية ، من إرهاب الحكومات ، ومن الفساد والكسب الحرام ، ومن تزيف إرادة الشعب ( ٩٩.٩٩٪ ) وكفى ! ناهيك بالوصمة الكبرى : الاعتقالات وممارسات التعذيب في السجن الحرى أيام عبدالناصر ، وفي سجون أمن الدولة أيام السادات و مبارك ، وقهر الشعب وإذلال كرامته ٠٠

\*\*\*

ولكن الخلاف الإيديولوجى لم يأخذ طابع التقطب إلا في الفترة الأخيرة ، لأن المجتمع المصرى في المرحلة الليبرالية البورجوازية ( من دستور ٢٣ حتى انقلاب ١٩٥٢ ) توصل إلى وسائل أرضت المؤسسة الدينية الرسمية بحيث سكتت على ممارسات عديدة لهذا المجتمع مخالفة للشريعة كالتعامل بالربا في الحكومة والبنوك ، وتناول الخمر في المجال العامة ، وإباحة البغاء والقمار ٠٠٠ إلخ ولم يكن من الطبيعى للمؤسسة الدينية وقد أغمضت العينين على هذه المخالفات الصارخة أن تثير قضية مثل قتل المرتد ، أو على الأقل محاكمته ؛ لأن هذه القضية لها حساسياتها ؛ ولأنها تصدم أول ماتصدم الأساس الذى يقوم عليه المجتمع البورجوازى ، وهو الحرية ٠٠٠ لهذا أمكن لأحد الكتاب ( إسماعيل أدهم ) أن يصدر كتابه « لماذا أنا ملحد ؟ » وأمكن لسلامة موسى أن يعالج نشأة فكرة الله ، أو لمصطفى محمود في مرحلته الفكرية الأولى أن يصدر كتابه

عن الله والإنسان الذى يناقض الفكرة الإسلامية . . . وعندما عورض كتاب « من هنا نبدأ » للشيخ خالد محمد خالد ، فإن هذه المعارضة قامت بدعايه للكتاب يتمناها أى مؤلف وكانت خيرا وبركة عليه .

أما الإخوان المسلمون الذين كان يمكن أن يثيروا هذه القضية ، فقد اهتموا ببناء أنفسهم وتقديم الأهم على المهم ، وكان الأستاذ البنا رحمه الله على أعظم جانب من الفطنة والذكاء . . . وعندما تعرض فى مقدمة تفسيره لظه حسين وخلف الله ، فإنه أشار إليهما فى كياسة وذوق ونقد موضوعى خالص .

وخلال حكم عبدالناصر أحرص الإرهاب والتعذيب كل صور المعارضة ، وأعدم سيد قطب الذى وضع بذرة الاتجاهات المتشددة ، فجعله شهيدا ، وأضفى على دعوته الإكليل الأحمر . . .

وإنما أخذ الصراع شكل التقطب فى عهد السادات كرد فعل للإرهاب الناصرى وللممارسات التى مارسها زبانيته وزبانية عبدالحكيم عامر فى السجن الحرى ووجد فرصته بمجرد الإفراج عن المعتقلين وإيقاف الإرهاب الحكومى ، وماكان السادات ليستطيع أن يحكم بالارهاب إلى الأبد !

وكان رد الفعل بحجم وقوة الفعل ، وقد يعجب الإنسان من أين جاءت كل هذه الجماعات الإسلامية التى اتسمت بالعنف والتطرف ؟ والرد لدى صلاح نصر وشمس بدران وهزة البسيونى ، وماقاموا به من المنكرات التى يندى لها جبين الإنسانية .

لقد وضعوا بذرتها فى سجونهم ، ثم كتمتها ونفخت فيها الديكتاتوريه والفساد . . . ولم يستطع السادات - خاصة فى السنوات الخمس الاخيرة من حكمه - أن يتحرر من التركة الثقيلة لما أشرنا إليه من أسباب ، وقامت وزارة الداخلية بدور يماثل إلى حد ما الدور الذى كانت تقوم به المخابرات العسكرية . . . وفى سجون « أمن الدولة » ترعرعت جماعات الجهاد ، كما ترعرعت من قبلها جماعة التكفير والهجرة والقطبيون فى سجون عبدالناصر . . .

وبصرف النظر عن الأعمال العنيفة لهذه الجماعات ، فإنها استطاعت أن تنشئ رأيا عاما متشددا ومنهجيا للإسلام - وهو الفهم الذى عارضه كثير من المفكرين ومن الشيوخ ، وعلى رأسهم الشيخ محمد الغزالي ، دون أن يكسبوا كثيرا لأن حماقات العهد

كانت أكبر نصير للمتطرفين - كما أطلق عليهم - ٠٠ ففى الجو الذى ينتشر فيه الفساد والكسب غير المشروع وتتراكم الثروات بالبلايين فى أيدى حفنة من « أبناء الأكاير » بالرشوة والمحسوبة والعمولات وفضائح الاستيراد والتصدير ٠٠ وفى مناخ كبت الحريات والحكم بقانون طوارئء لأكثر من إثنى عشر سنة ، واستمرار ممارسات التعذيب والإرهاب البوليسية ٠٠ وفى ظل سياسة خارجية تتسم بالاستسلام والمهانة ( بخذ مثلا الموقف المخزى لحكومة مصر تجاه مأساة البوسنة ، وعجز الحكومة عن أى عمل ، أو احتجاج أو حتى سحب سفير أو مقاطعة تجارية ) فى الوقت الذى تمارس العنف فى تفتيش البيوت واعتقال المشبوهين وسياسة « الضرب فى المليون » هذا السجل الأسود الطويل جعل من جنون بعض الجماعات الإسلامية الوجه الآخر لعملة واحدة هى سياسة الحكومة ، ولا يمكن الحديث عن هذه إلا بالحديث عن تلك ! ٠٠

\*\*\*

فى إحدى المقامرات ، التى عرف بها السادات ، سمحت الحكومة بوضع قانون لمحاكمة المرتد ٠٠٠

ما قصة هذا القانون ؟ كيف ظهر ؟ ولماذا ؟ هل كان مجرد ( بالون اختبار ؟ ) هل كان محاولة لاستقطاب المعسكر الإسلامى ؟ ٠٠!

هذه قضية ليس لدينا الكثير الذى نقوله عنها ٠٠ ولا يهمنى فى الحقيقة لأننا لانقدم تأريخاً أو نتابع سياسة هذه الحقبة ٠٠ وما يعيننا هو أنه للمرة الأولى فى تاريخ مصر الحديثة يوضع قانون إقامة حد للردة ٠٠!

وقد كان هذا القانون سبباً فى أن عجلنا باصدار كتابنا « حرية الاعتقاد فى الإسلام » الذى نقد هذا القانون نقداً مرأ .

ولما كان هذا الكتاب - رغم أنه أعيد طبعه فى بيروت - لم يظفر بما يستحقه من الشهرة والذيعوع ٠٠ فنحن ننقل هنا ما جاء به عن هذا القانون :

« ٠٠٠ ولكن الصحف طلعت علينا - ونحن نكتب هذا الفصل من كتابنا - بنبأ مثير هو موافقة مجلس الدولة على مشروع قانون بإقامة حد الردة ، ويقضى القانون كما نشرت الأهرام ( يوم ١٩٧٧/٨/٦ ) بإعدام المرتد عن الإسلام عمدا بقول صريح أو بفعل قطعى والسجن عشر سنوات لمن ارتد مرة أخرى<sup>(١)</sup> ،

(١) أى إذا كان قد تاب وسقط عنه الحد ، ثم عاد .

وعقوبات رادة إذ وقعت الردة من قاصر ( !! ) والردة تثبت بالإقرار مرة واحدة أو بشهادة رجلين ، ومنع المرتد من التصرف في أمواله . . وهذه هي عناوين الخبر ، وقد تضمنت التفاصيل أنه إذا كان الجاني - على حد تعبير الأهرام - قد أتم السابعة ولم يم العاشرة فللقاضي أن يوجه في الجلسة أو يأمر بتسليمه إلى أحد والديه أو إلى ولي نفسه أو بإيداعه إحدى مؤسسات الرعاية الإجتماعية الخاصة بالأحداث ، وإذا كان قد أتم العاشرة ولم يم الخامسة عشرة يعاقب بضربه بعصا رفيعة من عشر إلى خمسين ضربة . . . إلخ !

وينص مشروع القانون بأن كل من حرض غيره على ارتكاب ما يكون جريمة الردة يعاقب بالعقوبة المقررة للشريك إذا لم يترتب على هذا التحريض أى أثر يعاقب بنفس العقوبة على التحريض المبين بالقانون .

ولا تسرى على الجريمة الحدية الأحكام المقررة في قانون الإجراءات الجنائية في شأن سقوط العقوبة بانقضاء المدة ولا يجوز إبدال العقوبة الحدية ولا العفو عنها .

كما يحظر على المتهم بالردة التصرف في أمواله أو إدارتها ، وكل تصرف أو التزام يصدر منه خلال فترة اتهامه يكون معلقا على البت في أمره . . .

إن هذا القانون أمر لا يكاد يصدق ! . .

ما هذا أيها السادة . . .

هل أصابتكم جنة ؟ أجماعة تكفير جديدة ؟ هل تريدون أن تنصبوا محرقة ، أو أن تدخلوا في الإسلام السمح محكمة بابوية يضع قضاتها العمائم ؟! أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟! ومن يضل الله فلن تجد له سيلا . .

إن هذا القانون ردة تشريعية حقيقية لعلاج ردة إسلامية وهمية . . .

ولو صدر فسيكون لحساب المغفلين والجهلة وأعداء الإسلام :

المغفلين الذين يظنون أنه يحقق خيرا في حين أنه شر ماحق . . . وليس ما هو أدل على غفلتهم من هذا الظن .

والجهلة الذين لم يعلموا تجربة التاريخ في الحديث . والقديم . . وكيف أن كل حنجر على الفكر يؤخر البشرية ، ويؤخر الفكرة المطلوب حمايتها ، وأن أى قانون يوضع لذلك إنما تستفيد منه السلطة القائمة ، والأوضاع المقررة .

وأعداء الإسلام الذين سيقولون إن المسلمين إنما يقرون الله بالوحدانية ومحمد  
بالرسالة . . . تطبيقا لقانون العقوبات .

وبعد كل هذا أفلم يخطر للذين وضعوا هذا المشروع أنه قد يأتي بعكس ما أريد منه .  
إن الاتهام يكسب المتهم عطف الجماهير فإذا رفض هذا المتهم ( الاستتابة )  
المزعومة وفضل أن يقتل في سبيل رأيه - كأننا ما كان - فإن هذا الوقوف سيجعله  
شهيدا من شهداء حرية الرأي وسيطرز حواشى الإلحاد بالبطولة الأمر الذى حدث  
بالفعل بالنسبة لضحايا المحاكمات البابوية في المسيحية .

وإذا قبل المتهم الاستتابة جنا فأى انتصار كسبته المحكمة ؟

ولا يمكن للاستتابة أن تصل إلى أبعد من هذين ، مادامت صادرة من السلطة .  
إن الاستتابة للرجال هي كبيت الطاعة للنساء ، وفي الوقت الذى يتمرد فيه  
النساء - ولهن الحق - على بيت الطاعة يريد المشروع أن يوجد بيت طاعة للرجال . . .  
وأخيرا فهل يعلم الذين وضعوا مشروع هذا القانون مدى اتساع الباب الذى  
فتحوه بصرف النظر عن الاستغلال وتحكم السلطة . . . إلخ .

اطوروا هذه الصفحة قبل أن تتحول إلى فضيحة لم يسمع بمثلها في تاريخ البلاد . . .  
أو تاريخ التشريع . . .

وتوبوا إلى باربيكم . . . فقد اقرتم إننا عظيما ، وأوشكم أن توقعوا البلاد في  
نكسة في التشريع لا تقل عن نكسة ١٩٦٧ في السياسة . . .

واقروا القرآن . . . وتدبروه . . . واستعيدوا ما تعلمتموه في كليات الحقوق ا  
وإذا أردتم تطبيق الشريعة الإسلامية حقا وصدقا ، فأصدروا القانون الذى يقطع  
أيدى اللصوص الكبار والختلسين والذين يثرون على حساب لقمة عيش المواطن الفقير  
ويجعلون حياته عذابا متصلا .

فإن هذا أجدى في الإصلاح ، وأقرب إلى الله . . . انتهى .

\*\*\*

هذا هو ما قلناه سنة ١٩٧٧ م ، عندما أريد إصدار قانون عن حد للمرتد ،  
أوردناه هنا ليعلم القراء أننا في سنة ١٩٩٤ م إنما نكرر ما قلناه منذ خمسة عشر عاما!  
ولكن هيئات ، ما من سميع ، أو مجيب !!



## الفصل الثاني

### شهادة الشيخ محمد الغزالي

#### وتابعها

---

ودارت الأيام ، أو قل : الأعوام . .

وعند محاكمة قتلة الكاتب الصحفى فرج فودة فى يونيو سنة ١٩٩٣ م طلب الدفاع أن يسمع شهادة الشيخ محمد الغزالي عن بعض ملاسبات القضية ، واستجابت المحكمة . وعندما حضر الشيخ الغزالي قدم إليه الدفاع عدداً من الأسئلة التى صيغت بمهارة وفنية ، وبما يخدم وجهة نظره . . ورد الشيخ الغزالي بشجاعة وموضوعية .

وكان يمكن أن ينتهى الأمر هنا ؛ ولا يظفر سوى بسطور فى الصحف اليومية . ولكن رد الشيخ أثار أذعياء التنوير ، وظفر بمساحة كبيرة من الصحافة وظل شغلها الشاغل لأكثر من شهر . . وقال خالد محيي الدين فى صدر صحيفة الأهالى إنها أشد من مائة قبلة . . .

## الشهادة :

وفيما يلي شهادة الشيخ الغزالي نقلاً عن جريدة الشعب . التي نشرتها تحت عنوان<sup>(١)</sup> :

الرافض لتطبيق الشريعة الإسلامية «مرتد، والمستهزئ بها كافر،

في تمام العاشرة صباحاً تم إحضار المتهمين وأدخلوا قفص الاتهام وسط هتافات مدوية مرددين :

« إسلامية .. إسلامية، شرع الله عز وجل .. الإسلام هو الحل، كما أتشدوا بعض الأتاشيد الإسلامية .

وجلس المتهمون لتبدأ إجراءات الجلسة في العاشرة والنصف حيث أشار رئيس محكمة أمن الدولة العليا «طوارئ» إلى الحاجب لكي ينادى على الشاهد .

ووسط صمت وترقب دخل الداعية الإسلامي الكبير فضيلة الشيخ الغزالي .

- رئيس المحكمة : إسمك وسنك ووظيفتك .

- الشيخ الغزالي : محمد الغزالي أحمد السقا - ٧٦ عاما وعضو مجمع البحوث الإسلامية .

س : مامعلوماتك عن الحادث ؟

ج : لا توجد لدى أية معلومات وقد حضرت بناء على طلب الدفاع .

وأشار رئيس المحكمة إلى هيئة الدفاع لكي توجه أسئلتها إلى الشاهد .

وبدأ د . عبد الحلیم مندور المحامي ورئيس الهيئة في توجيه أسئلته للشيخ الغزالي .

### الإسلام نظام شامل

س : هل الإسلام دين ودولة وما معنى هذه المقولة ؟

ج : الإسلام عقيدة وشريعة وعبادات ومعاملات وإيمان ونظام ودين ودولة ، ومعنى هذه المقولة ذكرته الآية الكريمة في قول الله عز وجل : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكي شيء ﴾ .

﴿ أفتغير الله ابتغى حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ .

(١) نشرت الشهادة في كل الصحف . والنص الذي نقله هو عن جريدة الشعب التي صدرت يوم الجمعة ٢٥ يونيو سنة ١٩٩٣ أما الشهادة نفسها فقد كانت يوم الثلاثاء ٢٢ يونيو سنة ١٩٩٣ .

الإسلام دين شامل ومنذ أن بدأت دعوته من ١٥ قرناً وهو دين ودولة ، لم تتفصل فيه السلطة الزمنية عن المعاني الروحية .

وقد جاءت النصوص متشابهة في أركان شتى مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ ، وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ ﴾ .  
وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ .

وفي الإسلام عبادة شخصية كالصيام ، وعبادة جنائية كالقصاص ، وعبادة دولية كالجهاد . فالعبادة واحدة وإن اختلفت اتجاهاتها .

كما أن أطول آية في القرآن هي آية الذنن وهو دين اقتصادي .

وبالإحصاء والاستقراء نجد أن الإسلام دين للفرد وللمجتمع والدولة ، وأنه ما ترك شيئاً إلا وتحدث فيه مادام هذا الشيء يتصل بنظام الحياة وشئون الناس .

س : هل تطبيق الشريعة الإسلامية واجب ؟

ج - الإجابة من القرآن في قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُوا بِمَا فِي شَجَرِ بَيْنِهِمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .  
وقوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

### ضياح الشريعة

س : ما حكم من يجاهر برفض تطبيق الشريعة الإسلامية استهزاء ؟

ج : لقد كانت الشريعة الإسلامية تحكم العالم العربي والإسلامي كله حتى دخل الاستعمار العالمي الصليبي - وكرهه للإسلام واضح - فألقى أنواع القصاص وأحكام الشريعة الإسلامية وأنواع التعازير والحدود ، وحكم الناس بالهوى فيما يشاءون .

وقد سحب الاستعمار العسكري استعمار ثقافي . . ومهمة الاستعمار الثقافي هي جعل الناس يظنونون إلى ضياح تشريعاتهم وتعطيل أحكام الله نون أن يتبرموا .

فإن الله تعالى يقول : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ .

وأشعر بغصة لأن الآية مشطوبة في المجتمع ، فالقانون يقول إذا اتفق شخصان بإرادة حرة على موقعة هذه الجريمة فإنه في هذه الحالة لا تعتبر جريمة وتسمى حباً أو عشقاً .

وبذلك فإن نص الشريعة قد عطل وأرهقت روحها ، وكيف يقبل المسلم هذا الكلام أو يستريح لهذا الوضع .

وبالتالي كيف يستهزأ بي إذا قلت يجب تطبيق الشريعة ؟ وهناك أناس كثيرون يريدون تعطيل الشريعة ، ويجادلون في صلاحيتها ، ويثبتون حكم الإعدام الذي أصدرته الحكومات

الأجنبية والاستعمار العالمي على هذه الشريعة التي شرفنا الله بها ، ويستهلزون بنا عندما نقول : لابد أن يحكم شرع الله . .

والاعتراض على تطبيق الشريعة والاستهزاء بها كفر .

س : ما حكم من جاهر برفض تطبيق الشريعة الشريعة ككراً أو استهزاء ؟

ج : إنه ليس بمؤمن مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ وفي آية ثانية «الظالمون»، وفي ثالثة «الفاسقون» .

### خارج عن الملة

س : ما حكم من يدعو إلى استبدال حكم الله بشريعة وضعية تحل الحرام وتحرم الحلال ؟

ج : يقول الله تعالى : ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾ .

إنه ليس بمؤمن يقيناً ويقول الله تعالى في أمثال هؤلاء : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ويريدون أن يحاكموا إلى الطواغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ .

س : هل يعتبر هذا العمل عملاً كفيراً يخرج صاحبه من الملة ؟

ج : لقد رفض الحكم بما أنزل الله جهراً واستهزاء وهو بلا شك يخرج من الملة .

س : ما حكم المسلم أو مدعى الإسلام إذا أتى هذا الفعل الكفري وقد علم بما فيه ومراميه ؟

ج : أنا أحض الشبهات وأقدم الأدلة التي تؤيدني في قولي وأبين الحق ، هذه هي مهمتي كداعية ، وليس تلمس الصوب لأتني لا أفرح بإبداع أقدام الناس في الشبهات ، وإنما أنا طبيب أعالج المرض وأريد إنقاذهم من الجرائم التي تكاد تفتك بهم ، فإذا كان الإنسان عنيداً ويرفض كل ما أقوله ويأبى إلا تكذيب الله ورسوله فلا أستطيع أن أقول إنه مؤمن .

س : هل يجوز أن ينطق الإنسان بالشهادتين ، وفي نفس الوقت يجهر برفض تطبيق الشريعة ويدعو إلى استبدال شرع الله بشرائع الطواغيت من البشر ؟

ج : إن الله عز وجل يقول في هذا الصنف من الناس : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ .

بل إن بعض الناس كان يحلف أنه مؤمن ولكن جبهته وتقاصه عن الدفاع عن الإسلام نفى الدين عنه .

إن الإيمان باتفاق الطمء قول وعقيدة وعمل ، إن ديننا اسمه الإسلام أي الخضوع لله .

س : هل من يأتي هذه الأعمال يعتبر مفارقاً للجماعة ، ومرتبداً عن الإسلام ؟

ج : نعم يعتبر مرتبداً عن الإسلام .

س : ما حكم هذا المرتد شرعاً ؟

ج : أن يستتاب ، وإذا لم يرجع يقتل ، وهذا هو الحكم العام بإجماع كثير من الفقهاء .  
وأما أنا فأرى أنه يجوز للحاكم إيداعه في سجن مؤبد .

كما لو أن مرتدأ هرب فلا يجرى البحث عنه ويبرأ المجتمع منه لأن في بقاءه خطراً على الأمة .

س : من الذى يملك إقامة الحد على المرتد الذى يجب قتله ؟

ج : المفروض أن جهاز القضاء هو الذى يقوم بهذه المهمة ، وتطبيق الحدود والتعازير والأخذ بالقصاص هي أمور من اختصاصه وليس لأحد الناس حتى لا تتحول الأمور إلى فوضى .

س : ماذا لو كان القانون لا يعاقب على الردة والقضاء لا ينفذ حكمها ؟

ج : يكون القانون معيباً وتكون هناك فوضى في المجتمع .

س : هل يبقى الحد على أصله من وجوب إقامته ؟

ج : حكم الله لا ينفى أحد ، والحد واجب الإيقاع .

س : ماذا لو أوقعه فرد من آحاد الناس ؟

ج : يعتبر مفتتاً على السلطة ، وأدى ما ينبغى أن تقوم به السلطة .

س : هل يعتبر مفتتاً على السلطة إذا كانت لا تطبق هذا الحكم ؟

ج : نعم يعتبر مفتتاً .

س : هل هناك عقوبة للافتئات على السلطة ؟

ج : لا أنكر أية عقوبة في الإسلام .

وعقب إدلاء الداعية الإسلامية الكبير الشيخ الغزالي بشهادته ، سأل رئيس المحكمة أعضاء نيابة أمن الدولة إذا كانوا يريدون توجيه أسئلة للشاهد فأجابوا بالنفى .

وفي نهاية الجلسة طلب الدفاع سماع شهادة د . محمود مزروعة الأستاذ بجامعة الأزهر ، ووعد الدفاع بتقديم تقرير شرعى للشيخ عبد العزيز بن باز مفتى الديار السعودية عن كتب فرج فوده ، وقررت المحكمة التأجيل لجلسة ٣ يوليو القادم .

\*\*\*

وخلال الفترة من ٧/١٨ حتى ٨/٥ وقد تناول الكاتب الصحفى الأستاذ صلاح منتصر موضوع الشادة فى عموده اليومى بجريدة الأهرام بأسئلة قدمها إلى الشيخ الغزالي ، الذى أجاب عليها ثم أفسح الأستاذ منتصر المجال لبعض تعليقات القراء فضلاً عن تعقيبه هو .

وسنورد هذه الأسئلة . . والإجابات والتعليقات لأنها تلقي ضوءاً على الشهادة ،  
وعلى تلقي الجمهور لها .

ففي يوم ٧/١٨ ، وفي عموده اليومي (مجرد رأى) كتب الأستاذ صلاح منتصر  
تحت عنوان :

### أسئلة إلى الغزالي

فضيلة الشيخ محمد الغزالي له منا كل احترام وتقدير بالإضافة إلى ما نعرفه عن علمه  
وجهده الكبير للقيام بدور الداعية الذي يتمنى قوة المسلمين وخروجهم من مرحلة الضعف  
والهوان التي يمرون بها اليوم .

ولقد كانت لفضيلة الشيخ الغزالي شهادة أمام المحكمة التي يمثل أمامها المتهمون  
باغتتيال الدكتور فرج فودة ، وحسنا تم نشر هذه الشهادة بالنص حتى نعرف على وجه الدقة  
ما قاله فضيلة الشيخ وان كان أحد الزملاء (الأستاذ فهمي هويدى اهرام ٧/٦) قد وجد أن  
حديث الشيخ أمام المحكمة يحتاج إلى إيضاح للعامة فكتب يحاول هذا الشرح تحت عنوان  
«حاشية على شهادة الغزالي» ، ولكن يبدو أن الحاشية في حاجة إلى حاشية . . وليس في  
الدين حرج كما تعلمنا . . كما أن الدين كمنصور للحياة لابد أن يصل إلى الناس ببساطة حتى  
وان كان معقدا في بعض التفاصيل لكن مهمة الداعية أن يسهل لا يصعب ، وهو ما جعلني  
أرجو فضيلة الشيخ الغزالي بعد أن قرأت شهادته ، وبعد أن قرأت الحاشية التابعة لشهادته ،  
ان يجيب عن هذه الأسئلة التي اتصور أن ملايين مثلي قد سألوها وينتظرون من فضيلة الشيخ  
اجابة عنها .

إن اسئلتى يا فضيلة الشيخ هي :

- ١ - أي الدرجات أعلى في المعصية : الكافر أم المرتد ؟
- ٢ - متى يكون الفرد كافرا ومتى يكون مرتدا ؟
- ٣ - من الذى يملك تكفير فرد ومن الذى يملك الحكم عليه بالردة ؟
- ٤ - هل يحتاج الأمر السابق إلى فقهاء ودعاة دارسين وبطريقة علنية وواضحة . . أم  
يستطيعه أي فرد أو جماعة وبطريقة سرية ومغلقة ؟
- ٥ - هناك من الدارسين من يشكك في حد الردة ويقول إن حد الردة ليس موجودا صراحة  
في القرآن الكريم . . فهل هذا صحيح ؟
- ٦ - هل يتعارض ما ورد في القرآن الكريم عن حرية العقيدة واعتبار الحكم على اسلام  
الفرد من اختصاص الحق سبحانه وتعالى ، مع القول بحق أي فرد أو جماعة في تكفير فرد  
أو الحكم بانه مرتد ؟

وفى ٧/٢٠ نشر الأستاذ صلاح منتصر تحت عنوان :

### «رد من الغزالي»

أبدأ أولا وأشكر فضيلة الشيخ محمد الغزالي على سرعة استجابته بالرد على ماوجهته الى فضيلته من أسئلة «أهرام الأحد ٧/١٨»، وقد أرسلها لي مكتوبة بخط اليد مع مقدمة بأمل نشرها كاملة دون تخصيص ،فانى قمت عنكم بمهمة الايجاز واحسب أن أى نقص فى العبارة يفسد الرد وهذا مالايرضيكم، وهأنذا انشر نص الرد كاملا :

١ - أى الدرجتين أعلى فى المعصية : الكافر أو المرتد ؟

جواب : الكافر أقل سوءا من المرتد ! فانى قد اشترك فى عمل تجارى مثلا مع كافر بالإسلام يهوديا كان أو نصرانيا ، وقد اتزوج يهودية أو نصرانية وفى كلتا الحالتين يجب على البر بهم وبذل الود لهم ، أما المرتد فهو كخائن الوطن منبوذ مكروه ، وقد استعمر الأوروبيون أرضنا ومحووا شرائعنا وشعائرنا فمن انضم إليهم فى حربنا وسخر من ديننا وترائنا فقد انضم إليهم فى عداوتهم فكيف نصادقه ؟

٢ - متى يكون الفرد كافرا ومتى يكون مرتدا ؟

جواب : الكافر امرؤ خالى البال من تعاليم الإسلام . لعنوا لم يبلغه أو بلغته ولم يلتفت بها ، ولا سبيل لنا عليه إلا إذا اعتدى علينا ، أما المرتد فهو رجل كان منا وعرف مانحن عليه ثم رأى لمأرب خاص أن يلضم إلى خصومنا ، وأن يؤيدهم بما يستطيع . أى أنه خانن غاير ، أما ان كانت لديه شبهة عقلية فلا بد من إزالة شبهته ومحو مايتعلق به من أوهام ولو ظل سنين على قيد الحياة .

٣ - من الذى يملك تكفير فرد أو الحكم عليه بالردة ؟

جواب : أهل الذكر وحدهم - أعنى الراسخين فى العلم - فلن اتهام فرد بالكفر جريمة والإسلام دين مضبوط التعاليم ؛ فمن استباح الخمر مثلا وسخر من حرمتها ، أو من ترك الصلاة جأحدا واستهزأ بشريعتها فليس بمسلم ، بل هو ناقض للمجتمع ، ومنكر للوحي وخارج على الأمة .

وسلطة الاتهام بالكفر محددة وليست كلاً مباحا لأى انسان .

٤ - هل يحتاج الأمر السابق الى فقهاء ودعاة دارسين وبطريقة علنية واضحة أم يستطيعه أى فرد أو جماعة وبطريقة سرية مغلقة ؟

جواب : قلنا إن الفقهاء الثقات وحدهم هم مصدر الفتوى ، وأربهم يكون واضحا ومعلنا ، إلا إذا كان الإسلام مضطهدا وحرية العمل به مصادرة . . إن جو الحرية الرحب هو الذى يستطيع الأخذ والرد فيه ، وإن تكون الحرية لطرف واحد بداهة ، بل تضمن الحرية لجميع الأطراف يقولون مآلديهم فى أمان .  
وبقيت أربعة أسئلة أخرى سبق أن وجهتها الى فضيلة الشيخ أكمل بإن الله غدا رده عليها .

وتابع يوم ٧/٢١ نشر بقية الردود تحت عنوان :

### «بقية رد الغزالي»

في عمود أمس نشرت النص الكامل لما تضمنته رسالة فضيلة الشيخ محمد الغزالي ردا على أربعة أسئلة سبق أن وجهتها إليه ، وفيما يلي بقية إجاباته عن أربعة أسئلة أخرى أنشراها بالنص دون انتقاص حرف واحد حتى علامات التعجب ، فهي كما وردت في رسالة فضيلته :

٥ - هناك بعض الدارسين الذين يشككون في حد الردة ويقولون إنه ليس موجودا صراحة في القرآن الكريم فهل هذا صحيح ؟

جواب : نعم لم يرد في القرآن الكريم قتل المرتد وإنما وردت بذلك السنن الصحاح . وعندي أن جريمة الردة متفاوتة السوء والخطر ، وقد تستحق القتل إذا ساوت ما نسميه الآن الخيانة العظمى ، أو ما نسميه الخروج المسلح على الدولة ، وقد تكون شبهة عارضة يكتفى فيها بالتوبة النصوح ، وأمام القضاء تعرف الحقيقة ويتحدد العقاب العدل ويوزن خطأ كل فرد !!

٦ - هل يتعارض ماورد في القرآن الكريم واعتبار الحكم على إسلام الفرد من اختصاص الحق سبحانه وتعالى ، مع القول بحق أي فرد أو جماعة في تكفير فرد أو الحكم بأنه مرتد ؟

جواب : إن قلوب الناس توكل إلى الله يبيكين . ولكن لمسالكهم حدودا وضوابط من وضع الله ذاته وإلا سرت الفوضى بين الناس . فمن يدعو إلى ترك العلاقات الجنسية حرة ، ويمارس في جريمة الزنا وعقوبتها لا يمكن اعتباره مسلما لأنه مخاصم لحكم الله وخارج عليه . ولذلك قال في ضرورة الطاعة التامة : ﴿ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ . فما العمل إذا لم يتب ويقم الصلاة ويؤت الزكاة ؟ حكم الله واضح .

٧ - اشتريت في مناقرة مع فرج فودة لأني كنت طالما - إذا شرحت له الحق ، وبسطت أثلته - أن أعود بالرجل إلى الإيمان ، ولكني وجدته يكره الإسلام ونظامه ، وينكر صلاحية أحكامه للبقاء . أي أنه يؤيد حكم الإعدام الذي أصدره الاستعمار على شريعتنا وينحاز إلى أعدائنا بصراحة !!

هذا وقد أصدر نفر من علماء الأزهر كتابا تضمن ما تنسب إلى فرج فودة من خروج على الإسلام واستهزاء بتعاليمه ويستطيع الأستاذ صلاح منتصر أن يقرأ هذا الكتاب . . . ذلك وأقول أخيرا أنني رجل من الدعاة إلى الله ، لا أتمنى إلا الحرية لي ولخصومي على السواء ، وأكره العدوان والمشاكسة ، ولكني أشكو من أن ديني يجار عليه وينتقص منه ويحرم أهله ما يسيء في عصرنا بحقوق الإنسان ، وإن المنتمين إلى هذا الدين في طور سيرهم من تاريخه وتكاد تذهب كراماتهم الخاصة والعامة في مهب الرياح . . .

محمد الغزالي

ثم يبقى سؤال أظن من خلقنا على فضيلة الشيخ أن يجيب عنه وهو : ماذا إذا قتل إنسان إنسانا آخر بحجة أنه كفر أو ارتد . ماهي عقوبته ؟ هل يقتل قصاصا أم تعزيرا أم نقول - كما قد فهم البعض من شهادتكم أمام المحكمة - بأنه لا عقوبة عليه ؟



وفي يوم ٧/٢٦ - وفي العمود نفسه «مجرد رأى ، نشر الأستاذ صلاح منتصر  
تحت عنوان :

### «الافتئات على السلطة»

عبارة «الافتئات على السلطة» من العبارات التي نكرها فضيلة الشيخ محمد الغزالي في  
شهادته أمام المحكمة التي تحاكم المتهمين باغتيال فرج فودة ، وقد أثار تعليقات كثيرة  
لأنه نكر أن حكم الله بالنسبة للمرتد لا يلغيه أحد ، وأن الحد واجب إقامته فإذا أوقفه فرد  
من آحاد الناس يعتبر مفتكتا على السلطة وأدى ما ينبغي أن تقوم به السلطة ، وليس هناك  
عقوبة ينكرها في الاسلام للافتئات على السلطة .

وفي رده على سؤال ماذا إذا قتل انسان آخرأ بحجة أنه كفر أو ارتد فإنه قال : ليس  
للجمهور إقامة الحدود ، أو إيقاع العقوبات من قصاص وتعزير فذلك للقضاء ، ومن فعل  
شيئا من ذلك فقد افتتت على السلطة ، وهنا يقوم القضاء بتعزيره . وإذا كان الجنيدي ينسخ  
القديم فالواضح أن فضيلة الشيخ الغزالي لم يشر في رده المكتوب إلى أن الافتئات على  
السلطة ليس عليها عقوبة في الإسلام .

وحتى يكون الحوار موضوعيا وقانونيا فلا بد أن نسأل أولا ماهو المقصود «بالسلطة» . . . ومن  
هي السلطة التي افتتت عليها فرد أو مجموعة من الناس إذا قتل أو قتلت شخصا بحجة أنه ارتد ؟

ان « السلطة» في معناها القانوني هي الجهة صاحبة الحق ، وفي قضية التكفير أو الردة  
فان هناك ثلاث سلطات خاصة بها : سلطة اتهام واصحابها كما نكر فضيلة الشيخ الغزالي  
أهل الذكر والفقهاء الثقات وحدهم ، وسلطة المحاكمة وجهتها كما قال الشيخ الغزالي  
القضاء ، ثم سلطة تنفيذ العقوبة التي يصدرها القضاء والمختص بتنفيذها الدولة .

فإذا قيل إن فردا أو مجموعة قامت بقتل انسان بحجة تكفيره أو اعتباره مرتدا ، وقيل  
بعد ذلك إن هذا الفرد أو هذه الجماعة افتتتت على السلطة ، فأى سلطة افتتتت عليها ؟ هل  
افتتتت على سلطة الاتهام أم على سلطة القضاء أم على سلطة الدولة في تنفيذ العقوبة ؟

المفهوم الضيق هو تصور أنه افتتتت على سلطة الدولة ، وهذا مفهوم يمثل قمة الخطأ ،  
لأنه لم يكن هناك أصلا اتهام وجهته سلطة مختصة ، وقضاء انعقدت أمامه المحاكمة ،  
وعقوبة صدرت بعد ذلك حتى يقال بعد ذلك إن الدولة أهملت أو تراخت في تنفيذها لأن حد  
الله لا يلغيه أحد . . . نعم حد الله لا يلغيه أحد ، لكن كل حد له شروطه ، وقبل تنفيذ عقوبة  
الحد يجب التأكد أولا من وجود هذه الشروط ، ولهذا إذا كان صحيحا القول بأن الاسلام لم  
يتضمن عقوبة على الافتئات على سلطة الدولة ، فالصحيح عقلا ومنطقا أن هذا الافتئات  
الذي لا عقوبة عليه إنما هو على سلطة الدولة إذا أهملت في تنفيذ عقوبة حكم بها على شخص  
لخروجه على حد الله . . . هنا يمكن القول ان الاسلام لم يتضمن عقوبة . . . لكن أمام واقعة  
لم ينعقد فيها اتهام أو محاكمة أو صدور عقوبة فلا أظن أن احدا يستطيع القول أننا مازلنا  
في اطار الافتئات على السلطة التي لا عقوبة عليها في الاسلام ؟

وفي يوم ٧/٢٧ - نشر الأستاذ صلاح منتصر تحت عنوان :

### «رسالة من المفتى»

من فضيلة المفتى الدكتور محمد سيد طنطاوي تلقيت الرسالة التالية : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته قرأت - بعناية - الأسئلة التي وجهتموها إلى فضيلة أستاذنا الشيخ محمد الغزالي ، بمناسبة شهادته أمام المحكمة التي يمثل أمامها المتهمون باغتيال الدكتور فرج فودة ، كما قرأت - بعناية أيضا - إجابة فضيلته على أسئلتكم ، وإن تطيق على كل ذلك يتلخص فيما يلي :

١ - أزيد فضيلته في أن المرتد الذي يحارب الإسلام - كذبا وزورا - أشد سوءا من الكافر الذي لا يتعرض لعقوبتي ولا أتعرض لعقوبته ، ولا أجامله ولا يجاملني إلا بالتي هي أحسن ، لأن العقائد لا تباع ولا تشتري ، والمرتد بإصراره ومجاهرته بالسفيرة بأحكام الإسلام بدون دليل أو برهان ، هو أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين .

٢ - أزيد فضيلته في أن الكافر إنسان لم يسبق له الدخول في الإسلام ، ولا سبيل لنا عليه إلا إذا اعتدى علينا ، ولا نستطيع إكراهه على الدخول في الإسلام لأنه لا إكراه في الدين ، أما المرتد فهو إنسان كان مسلما ، ثم خرج عن الإسلام وأساء إليه وإلى أهله عن سوء نية ، وسخر من أحكامه وآدابه وتشريعاته دون دليل أو برهان ، والذي يملك الحكم على إنسان ما بأنه مرتد ، هم الفقهاء المشهود لهم بالرسوخ في العلم ، بعد مناقشته وسماع شهادته ، وبعد التأكد من إصراره على نبذ ما ثبت من الدين بالضرورة ، كإنكاره للقرآن ، وإستباحته لما حرمه الله - تعالى - كالزنا وشرب الخمر ، واستخفافه بالآداب الإسلامية . .

٣ - أزيد فضيلته في أن جريمة الردة متفاوتة السوء والخطر ، وأسوأ وأخطر أصناف المرتدين هم أولئك الذين يجاهرون بذلك ، ويلصقون التهم الباطلة عن عمد وإصرار بأحكام الإسلام ، والقضاء العادل هو الذي ينزل العقوبة الرادعة بكل إنسان على حسب حجم جرمته ، وقد تصل هذه العقوبة إلى القتل .

٤ - أزيد فضيلته في أن القضاء وحده هو الذي يثبت في مصير المرتد وفق شريعة الله - تعالى - وأنه ليس للجمهور إقامة الحدود أو إيقاع العقوبات من قصاص أو تعزير فذلك للقضاء وحده ، لأننا لو فتحنا هذا الباب لعامة الناس لعمت الفوضى ولقتل فلان فلاتنا بتهمة أنه مرتد ، وإذا حدث أن اعتدى شخص على آخر بحجة أن هذا الآخر مرتد ، وجبت محاكمة هذا المعتدى أمام القضاء لينزل به العقوبة التي يراها مناسبة .

وعما قريب - بإذن الله - سأكتب بحثا مفصلا حول هذا الموضوع ، ومن الله - تعالى - وحده ، نستمد العون والتوفيق .

محمد سيد طنطاوي  
مفتى الديار المصرية

وابتداء من يوم ٧/٢٨ بدأ الأستاذ صلاح متصرف في نشر بعض الآراء التي وصلته تعليقا على كلام الشيخ الغزالي ، فنشر تحت عنوان :

### ليس بينها الردة،

ردا على ماأثاره الشيخ الغزالي حول الردة وقتل المرتد تتوقف أمام بعض الحقائق الهامة التي أوجزها كمايلي :

١ - جاءت آيات القرآن واضحة وصريحة في أن من يرتد عن دينه بل وأكثر من مرة ويزداد كفرا حتى يموت على الكفر لا حقا عليه عقوبة لمجرد رده مصداقا لقوله تعالى - على سبيل المثال - ﴿ ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ﴾ . . . ولهذا قال الفقهاء بقتل المرتد اذا كان محاربا ومقاتلا للإسلام والمسلمين .

٢ - اختلف القائلون بحد الردة حول العقوبة فقال بعض الفقهاء باستتابة المرتد لفترة ثم قتله على حين قال آخرون باستتابته أبدا وعدم قتله على الاطلاق . . . وقد ورد هذا الخلاف في العديد من كتب الفقه مثل كتاب (فقه السنة) للشيخ سيد سابق . . .

وقد وقع الشيخ الغزالي في تناقض حينما أجاز في فتواه قتل المرتد على حين نكر أن له رأيا شخصيا بأن يسجن المرتد سجنا مؤبدا وألا يجرى البحث عنه اذا ماهرب . . . وهذه الخلافات في حد ذاتها تقطع بعدم وجود حد للردة حيث يعرف الفقهاء الحد بأنه عقوبة ثابتة ومحددة لا تقبل الزيادة أو النقصان أو التبدل أو التغيير . . . ولهذا ورد في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة أن الحدود المتفق عليها هي ثلاثة فقط وهي ( حد السرقة والزنا والذف) ليس من بينها حد الردة .

٣ - اعتمد القائلون بهذا الحد على الحديث المنسوب الى سيدنا رسول الله ﷺ ( من بدل دينه فاقتلوه) . . . وقد رد بعض الفقهاء بأن هذا الحديث يتعارض مع النصوص القرآنية التي تحدد أن العقوبة للمرتد عقوبة يتكفل بها المولى عز وجل في الدنيا والآخرة وليس هناك أي عقاب يوقع على المرتد في الدنيا لمجرد رده طالما لم يكن محاربا . . . كما قال كثير من الفقهاء إن هذا الحديث من أحاديث الآحاد التي لا يؤخذ بها في الحدود الشرعية . . . وقد أورد ذلك الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر السابق في كتابه (الإسلام عقيدة وشريعة) . . . كما قال آخرون أنه لا يمكن الأخذ بهذا الحديث على إطلاقه لأنه يعنى قتل من ينتقل من دين إلى دين من غير المسلمين كمن ينتقل من النصرانية إلى اليهودية على سبيل المثال فيجب قتله وإن ذلك فقد أنكر الكثير من الفقهاء الاستناد على هذا الحديث كدليل على قتل المرتد .

دكتور حامد حسان

أخصائي الأذن والأنف والحنجرة

وواصل الأستاذ صلاح نصر ما بدأه من تعليقات ففى يوم ٧/٣١ نشر تحت عنوان :

### (إثبات جريمة الردة)

عن كتاب المسئولية الجنائية فى الفقه الإسلامى الذى أرسله لى مؤلفه الدكتور أحمد فتحي بهنسى انقل ما يلى خاصا بجريمة الردة .

١ - المرتد هو الذى يكفر بعد إسلامه ، والردة فى اللغة تعنى الرجوع عن الشىء الى غيره ، أى أنها بالمعنى الدينى الخروج عن الإسلام الى غيره .

٢ - أصل هذه الجريمة ما ورد فى القرآن الكريم من قوله تعالى : ﴿ ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ( سورة البقرة ) ، وفى آية أخرى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ (سورة المائدة) ، وقوله ﷺ : من بدل دينه فاقتلوه .

٣ - فى تثبت جريمة الردة لابد من توافر ثلاثة أركان : فعل ماضى ، وشروط خاصة فى المرتد ، ثم القصد الجنائى .

أما الفعل الماضى فإنه فى جريمة الردة الخروج عن الدين الإسلامى الى أى دين آخر كتابى أو غير كتابى ، أو الى غير دين ، وقد يكون ذلك بالقول كما قد يكون بالفعل .

أما عن شروط المرتد فهى : أن يكون مسلما ( إذ أن أحكام هذه الجريمة لا تتعلق إلا بالنسبة للمسلمين ) وأن يكون بالغا عاقلا ( فالصبي والمجنون لا يعتبر رنتهما ) وأن يكون مختارا ( فالمكره لا تصح رنته لقوله تعالى : ﴿ الا من اكراه وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ ) .

أما عن القصد الجنائى فإن القصد المطلوب فى هذه الجريمة هو قصد خاص ؛ أى لا يكفى القصد الجنائى العام اللازم فى أغلب الجرائم ، وهو إتيان الفعل مع العلم به ، بل لابد أن المرتد الكفر . فمن يحرق القرآن لأجل شفاء مريض كما يفعل المشعوذون لا يكون مرتدا ، ومن يأتى بسخيف القول غير قاصد للكفر لا يعتبر مرتدا ، ومن ينطق بالكفر تحت تأثير العذاب ولم يقصده لا يكون مرتدا .

٤ - من أول آثار جريمة الردة وجوب العقوبة ؛ فإذا ثبتت جريمة الردة يحبس المرتد ثلاثة أيام بلياليها يستتاب فيها (فى ذلك قول عمر وعلي وعطاء ومالك والثورى والأوزاعى واسحق وأصحاب الرأى وأحد قولين للشافعى) . وقد اختلفت الأقوال فى كيفية الاستتابة فقال البعض : يطلب منه التوبة إلى الله فى كل يوم من الأيام الثلاثة مرة واحدة كل يوم .

٥ - الإثبات فى جريمة الردة : تثبت هذه الجريمة بطريقتين ، حكمها حكم باقى الجرائم : بالإقرار وبشهادة الشهود . ورأى كتب الشافعية أن الردة تثبت بالبينة ولا يجب تفصيل الشهادة بها ، أما رأى باقى الفقهاء فهو أنه يلزم تفصيل الشهادة فيها . فلا يكتفى بالقاضى بقول الشاهد أن المرتد كفر ، بل لابد أن يبين ما كفر به بيانا واضحا لا إجمال فيه بأن يقول الشاهد كفر بقوله كذا أو بفعله كذا لاحتمال أن يكون الشاهد يعتقد أن ما وقع منه كفر وهو فى الواقع ليس كذلك .

وفي يوم ١/٨/١٩٩٣ نشر الأستاذ صلاح منتصر في عموده تحت عنوان :

### «أسئلة وتعليقات»

هذا هو العمود رقم ١١ في سلسلة القضايا التي فتحنا الحوار فيها مع فضيلة الشيخ محمد الغزالي ، ومازال الحوار مستمرا ولن أنشر رسالة واحدة فيها خروج على الموضوعية . ومن يسأل عن الهدف أقول إنه أكثر من هدف أهمها في رأيي أن يتعلم الشباب ألا يعرف قضايا الدين من مجرد كتاب قرأه أو رأى سمعه ، وان عظمة الإسلام في تحريض الإنسان على استخدام العقل الذي ميزه الله به . . . وأختار من عديد الرسائل هذه الفقرات :

● ● هناك إجماع بين الفقهاء أكد عليه فضيلة الشيخ الغزالي وهو أن حد الردة لم يرد به نص قرآني وانما ورد في حديث آحاد (رأى رواه واحد عن واحد حتى رسول الله ) وهو الحديث الذي يقول : من بدل دينه فاقتلوه ، . . .

وقد أصدرت لجنة الفتوى بالأزهر الشريف بتاريخ ١٩٩٠/٢/١ فتوى معناها ( أن حديث الآحاد لا يفيد اليقين ، ولا فرق في ذلك بين أحاديث الصحيحين وغيرها ، وأن أحاديث الآحاد - لذلك - لا تستقل باثبات الإيجاب والتحريم ) . وقد وافق فضيلة الشيخ الغزالي على هذه الفتوى بدليل أنه أوردها في كتابه «تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل» ص ١٧٦ ، فإذا كانت أحاديث الآحاد لا تستقل باثبات الإيجاب والتحريم ، فهل يجوز أن تستقل باثبات الحدود ؟

لواء محمد شبل

دبلوم دراسات اسلامية

● ● رغم اعتراف فضيلة الشيخ الغزالي بأن القرآن الكريم لم يذكر عقوبة للمرتد وان العقوبة التي ذكرها هي اجتهاد شخصي منه ، إلا أن فضيلته يقول إن المرتد ، يرفع أمره الى القضاء ليبت في مصيره وفق حكم الله ، فإذا كان هناك حكم الله يحكم به القضاء - كما يقول فضيلته - فلماذا اذن الاجتهاد الشخصي من فضيلته ؟

دكتور عادل رشاد غزال

أستاذ مساعد بطب قناة السويس

نفس الشيء أحيل سؤالك الى فضيلة الشيخ الغزالي . . .

● ● أرى أن عدم ذكر حد للردة في القرآن الكريم هو أعظم تحد من العلي القدير برسوخ هذا الدين المعجزة ، فالمرتد أتفه من أن يشكل قيمة للإسلام ، وإلا هل أنت تنتقص من البحر شينا إذا ملأت منه كوبا ؟

المعتز بالله الشريفي

محاسب

● ● عند مناقشة أي اتهام بوجه لفرج فودة أرجو مراعاة التفرقة بين ماذا كان الرأي الذي قاله فودة قصد به التهم على الشريعة أم على رجال الشريعة ، ذلك أن لكل منهما حكما يختلف عن الآخر ، فهجومه على الشريعة شيء وعلى رجال الشريعة شيء آخر .  
د . على نصير

وما زال الحوار مستمرا .

وفي يوم ٨/٢ واصل الأستاذ صلاح منتصر نشر التعليقات فجاء تحت عنوان :

### « من يملك الاستتابة ؟ »

أوضحت التعليقات التي نشرتموها تعليقا على شهادة فضيلة الشيخ محمد الغزالي خلو الآيات القرآنية من نص يقضى بقتل المرتد ، وإن المرجع الوحيد هو الحديث ، من بدل دينه فاقتلوه، رغم معارضة كثير من الفقهاء لهذا الحديث لتناقضه مع القرآن من جهة ولأنه من أحاديث الآحاد التي لا يؤخذ بها في مسائل الحدود من جهة أخرى . . (لأنه على الجانب الآخر هناك عشرات الروايات المتفقة مع القرآن والتي تقطع بعدم قتل المرتد ومنها : ما رواه البخاري ج ٤ ص ٩٦ ومسلم بشرح النووي ج ٩ ص ٤٥٥ من أن اعرابيا بايع الرسول ثم جاءه قائلا : يا محمد أقلني من بيعتي ، فأبى الرسول وكررها الاعرابي ثلاثا ثم خرج من المدينة ، فقال الرسول : «أما المدينة كالكبير تنلني خبيثها وينضح طيبها» ، ويذكر الحافظ بن حجر والأمام النووي نقلًا عن القاضي عياض وشرح النووي على مسلم : «أنه رغم كونها حالة ردة ظاهرة ومع ذلك لم يعاقبه الرسول ولا أمر بعاقبه بل تركه يخرج من المدينة دون أن يعرض له أحد» ، وقال الشوكاني في (نيل الأوطار) : «لم يثبت أن رسول الله عاقب على الردة بالقتل» ، كما روى عن البخاري ج ٤ ص ٢٤٦ كتاب الشعب : «أن رجلا نصرانيا أسلم ثم ارتد نصرانيا مرة أخرى فاماته الله فدفنوه ، ولم يعاقبه الرسول على رده» ، وهناك العديد من الروايات التي تنسب إلى سيدنا عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وغيرهما مفادها أنهم لم يحكموا بقتل المرتدين .

والنقطة الثانية التي أريد أن أعلق عليها هي نقطة «الاستتابة» ، فقد ذكر فضيلة الشيخ الغزالي في شهادته أن المرتد يجب استتابته قبل معاقبته وهو مائيس له أساس في الدين أو الشرع حيث توضح الآيات العديدة أن الله تعالى هو وحده المختص بقبول التوبة أو رفضها . ذلك أن مناط التوبة هو قلب الإنسان ، ولا يطلع على القلوب إلا خالقها . ولأنه لا أساس لزعم الاستتابة في الدين أو الشرع فقد اختلف القائلون به . فمنهم من قال يستتاب أياما ومنهم من قال شهورا والبعض قال يستتاب طوال حياة المرتد ، بل إننا سمعنا مؤخرًا من شاهد في المحكمة بأنه لا ترجى توبته ، ومنهم من قال : (بقتل وإن تاب) ! ولعل السؤال إلى كل هؤلاء الذين يدعون إلى استتابة المرتد هو : إذا منح انسان ما نفسه الحق في أن يستتیب غيره من الناس ، فهل يملك أيضا ضمان قبول هذه التوبة في حين يقول الحق تبارك

وتعالى : ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ﴾ وإذا كان هناك من يقولون بحلهم فى عقاب المرتد بقتله فهل يملكون فى المقابل مكافأة من يؤمن بأن يضمّنوا له دخول الجنة على أساس أن الذى يملك هذه لأبد أن يملك أيضا تلك ؟ أليس ذلك مشاركة الله تعالى فى أخص خصوصيات الألوهية وهى قبول التوبة من عباده ورفضها ؟ .

لواء متقاعد  
حسام سويلم

وفى يوم ٨/٣ نشر الأستاذ صلاح منتصر تحت عنوان :

### «تعليق من الغزالي»

الأحاديث النبوية أنواع أشهرها الأحاديث المتواترة ، والآحادية ، والحسنة ، والضعيفة .

والأحاديث المتواترة هى التى سمعها عن الرسول عليه أفضل الصلاة جمع من الناس ونقلوها الى جمع أكبر وهؤلاء قاموا بنقلها الى جمع آخر وهكذا . . وهذه الأحاديث المتواترة محدودة ومعنودة ، وصحتها جميعا مؤكدة ، أما أحاديث الآحاد فهى التى نقلها عن الرسول واحد أو إثنان ثم رواها واحد الى آخر وهكذا . . فإذا كان هؤلاء الرواة من الثقة المشهود لهم بالأمانة والصدق اعتبرت الأحاديث صحيحة ، وتتغير درجة الأحاديث من الحسنة الى الضعيفة بحسب الرواة .

وتعقبيا على ما قبل حول حد الردة تلغيت الرد التالى من فضيلة الشيخ محمد الغزالي انشره بعلامات التعجب التى وردت فيه .

(إن القول بأن حد الردة لم يجرء إلا عن طريق أحاديث الآحاد قول فيه مجازفة وبعد عن الصواب ! كيف وقد تواتر تاريخيا أن المسلمين جميعا قاتلوا وراء أبى بكر رضى الله عنه المرتدين ومانعى الزكاة معا ؟ وقد ظلت الحرب قرابة سنتين ؟ أين مكان حديث الآحاد فى هذا الأجماع ؟ والذى نراه أن جريمة الردة لها مراتب ، أو تطلق على أنواع متفاوتة من النكوص على الأعقاب :

١ - فهناك من يكفر فى نفسه أو فى بيته ، وهذا لن نشق عن صدره ولا نقتحم له بيتا ، وليبقى على حاله حتى يموت ، فإذا ترك دار الإسلام الى أرض أخرى فلن نسمى الى استعادته ولا رده الله .

٢ - وهناك من يمارق الجماعة باعلان حرب على النص ، فيعان [ ملحوظة من عندى أى يجاهر علنا ] بترك الصلاة ومنع الزكاة ، وإباحة الخمر والزنا وتعطيل الشرائع .

ولما كان الإسلام عقيدة وشريعة فلن نقض المعاملات والعبادات سواء فى الخروج منه ومخاصمة أمته ، وهذا هو الذى يقدم للمحاكمة ويستتاب . فإن بقى على مروقه قتل والاترك .

٣ - وقد استطاع الاستعمار تجنيد أفراد يعملون معه على ضرب الإسلام وهدم أوامره ونواحيه ، وبلغ هؤلاء حدا هائلا فى النكابة بالدين والنيل من تعاليمه المقررة ، إنها ردة جديدة تشبه ما وقع أيام أبى بكر والسكوت عليها ايدان بالاتبان على الإسلام من القواعد ولذلك قررنا التصدى لها حتى تنتهى ) .

محمد الفزالى

وبدا الأستاذ صلاح منتصر فى نشر رأيه الخاص يوم ١٩٩٣/٨/٤ فتحت  
عنوان :

### «أختلف مع الشيخ»

ليسج لى فضيلة الشيخ محمد الفزالى وقد أمضينا نحو أسبوعين فى مناقشة هادئة وموضوعية لقضية أثارها أقواله - ولا أقوال شهادته - أمام المحكمة ، أن اختلف معه فى بعض الآراء والأحكام دون أن يفسد هذا الخلاف ما بيننا من ود وتقدير . . .

أما الرأى فهو الخاص بإشارته الى المرتد وقول فضيلته ، أما المرتد فهو رجل كان منا وعرف مانحن عليه ثم رأى لمأرب خاص أن ينضم الى خصومنا وأن يؤيدهم بما يستطيع ، . . . وعبارة «كان منا وعرف مانحن عليه» توحى بأن المسلمين مجموعة خاصة لهم طقوس سرية لايعرفها غيرهم ، أو أن هناك أحوالا أو نقاطا معينة نخفيها عن خصومنا ولا تكشفها لهم ، وقد خالنا أحد المسلمين . وعرف بها وانضم الى هؤلاء الخصوم وحاربنا بما عرف عنا من نقاط ضعف كانوا يجهلونها . . .

وقد لا يكون هذا هو المعنى الذى قصده فضيلة الشيخ الفزالى والأغلب أنه أراد أن يبسط فهم جريمة المرتد ويقرها من خيانة الوطن الا أن الكلمات التى استخدمها فضيلته أوصلتنا الى معنى آخر لا يتلق أبدا مع الواقع . . . فلسنا نحن المسلمين جمعية خاصة لها طقوس سرية ولافيها من نقاط الضعف ما نحاول أن نخفيه ، ولايبيننا من يدبر المؤمرات التى فى حاجة الى أن يقضى بها من كان منا وعرف مانحن عليه . . . فأركان العبادة فى الإسلام لاتجرى سرا بل لعل أبرز ما فيها العلانية ، الصلاة فى المساجد وفى الميادين ، والحج شعائره ينقلها التلفزيون على الهواء ، والصيام أمره معروف للكافة ، وخطباء المساجد تنقل الميكروفونات خطبهم أيام الجمع والمناسبات . . . فلا سر نخفيه ولا نقاط ضعف نخشاها من الإسلام ، ولو كانت هناك هذه النقاط لكانت فى المسلمين وليس فى الإسلام . . .

الحكم الذى اختلف فيه مع فضيلة الشيخ هو حكمه على فرج فودة وقد ذكر فيما كتبه لى ونشرته هنا [أهرام ٧/٢١] ، لقد اشتركت مع فرج فودة فى مناظرة لأنى كنت طامعا إذا شرحت له الحق وبسطت أئلته أن أعود بالرجل الى الإيمان ولكنى وجدته يكره الإسلام ونظامه وينكر صلاحية أحكامه للبقاء ، أى أنه يؤيد حكم الإعدام الذى أصدره الاستعمار على شريعتنا وينحاز الى أعدائنا بصراحة ، والكلمات كما هو واضح بالغة القسوة من رجل فاضل



تكن له كل التقدير والاحترام ، وقد يكون هذا هو رأى الشيخ فى رجل أصبح فى رحاب ربه الذى نيس بعد عدله عدل ، ولكن هل هذا هو رأى الشرع ؟

ان حكم الشيخ جاء محددا عندما نكر أنه ذهب لمناظرة معه لأنه كان ظامعا أن يعود بالرجل الى الإيمان ، ولكنى وجدته يكره الإسلام ونظامه وينكر صلاحية أحكامه للبقاء ، . . وهذا يعنى أن فرج فودة فى هذه المناظرة قال ما يعكس كراهيته للإسلام وانكر صلاحية أحكامه للبقاء . . فماذا قال ؟

وفى اليوم التالى ٨/٥ استكمل الأستاذ صلاح منتصر ما كان بدأه فى اليوم السابق ، فنشر تحت عنوان :

### «هذه هى أقواله»

لفضيلة الأستاذ محمد الغزالى عبارات رائعة جميلة منها قوله ، إذا كان الحوار الهادئ الواعى واجبا مع غير المسلمين فهو مع المسلمين أوجب ، وأيضا قوله : «أنكر رأيك وأيده بالدليل الذى تملكه وانتظر بعنذ أن أتجاوب معك فإذا لم يكن لديك دليل مقنع فلا سبيل لك على .»

ودليلى يا فضيلة الشيخ فى خلافى معكم بالنسبة لحكمكم على فرج فودة هو ما قاله فى المناظرة التى اشتركت مع فيها والتى ذكرت بعدها أنه تأكد لك فيها أنه يكره الإسلام ونظامه وينكر صلاحية أحكامه للبقاء .

وماجرى فى هذه المناظرة يا فضيلة الشيخ مسجل وموثق بالصوت والصورة . وأنا هنا أنقل على لسانه ما قاله قرب ختام المناظرة وكان نصه مايلى : هناك شيء سمعته وأرجو أن تكون أنتى اخطأته . فى بداية حديث الأستاذ الجليل الدكتور محمد عمارة قال إن بيدى الدولة المدنية دولة لا ديدية وهو مايعنى رفضه الدولة المننية . . سيادة المستشار الجليل الأستاذ مأمون الهضيبى قال بعد ذلك إنه يقبل الدولة المدنية على أن يحكم فيها بشرع الله . والله كدت أن أقوم لأقبله فهذا مايريد . ثم يبقى شيء وهو مسائل الحدود ومسائل الشريعة وهذه لنا فيها رأى ومن خلال جوهر الإسلام . ولذا أنا قلت إن الحوار هو الحل فأرجو أن تتاح فرص للحوار لأن الكلمة أقوى من السيف دائما القرآن بدأ باقرا وسنظل نتحاور حتى نوقف نزيف الدم ونصل الى كلمة سواء . وأنا أؤكد لكم أن مايقال ليس خلافا بين أنصار الإسلام واعداء الإسلام ، وإنما هو خلاف رؤى . رؤى لا تتناقض مع الإسلام . لكن الفريق الذى انتمى إليه لم يرد أبدا أن الإسلام هو دين العنف . أبدا الإسلام دين القول بالتى هى أحسن ولذلك نحن ندين الإرهاب لأنه قول وفعل بالتى هى أسوأ . الإسلام عندما يفهم ويجتهد فيه تختلف الصورة . إن التاريخ نقل إلينا فى عصر العباسيين حوار أبى حنيفة مع ملحد . . والتاريخ نقل إلينا كتابات الملحدين داخل الدولة الإسلامية عندما كانت الدولة الإسلامية فى قمة حضارتها . لم يرتفع الإسلام بالسيف . كان الحديث بالحروف وليس بالكلماتشكوف .

أدعو الله للجميع أن يهتدوا بهدى الإسلام وهو دين الرحمة وأن يهديهم الله لأن يضعوا الإسلام في مكانه العزيز بعيدا عن الإختلاف وعن الفرقة وعن الأرباب وعن الدم وعن المطامح وعن المطامع .

هذا بعض ما قاله فرج فودة في المناظرة فهل يفهم أحد من كلامه أنه يكره الإسلام وينكر صلاحية أحكامه للبقاء ؟ . وربما كان لفضيلة الشيخ الغزالي أو غيره رأيهم الشخصي في نوايا الرجل ، ولكن هل نحن نحاكم نواياه أم أقواله وأفعاله ؟ إن دليلنا عليه أقواله ، أما نواياه فحسابه عنها أمام خالقه وحده وليس فينا على وجه الأرض من يستطيع أن يقول إنه شق صدره !

وكانت جريدة الأهرام قد تناولت الموضوع في عددها الأسبوعي يوم الجمعة ٧/١٦ (ص ٢٤) وتحت عناوين :

«حتى لا تستغل أحاديث الردة في تشويه العقيدة»

حرية الاعتقاد الديني كفلها الإسلام وعقوباته للمرتدين مسئولية  
ولى الأمر

نشرت رأى استاذين دون أن تلاحظ أن الرأيين يناقضان عناوينها !!  
وجاء في كلمة الأهرام :

حسنت لجنة الفتوى بالأزهر الشريف في بيانها الذي نشر في الأسبوع الماضى العديد من النقاط بالنسبة لقضية الردة والمرتدين وقدمت الملهج الإسلامى الصحيح والمتكامل فى التعامل مع هذه القضية بما تستوجبه من علم وتدقيق وشمول وبما يتفق مع النظرة الحضارية للإسلام وبما يتسق مع مبادئه العظيمة التى رسخت قيمة العلم والعقل فى الإيمان .

وقد أكدت الفتوى نقطة بالغة الأهمية صيانة للإسلام والمسلمين من الفتن والقلقل وحماية للمجتمعات الإسلامية من الفوضى حيث ركزت على أن مسئولية التعامل مع هذه القضية هى مسئولية ولى الأمر وليست مسئولية الآحاد من الناس وأنه لا يحق لفرد أن يتهم الآخرين بالكفر أو ينعته بالمرتدين بحكم أن تلك مسئولية ولى الأمر ومن يفوضهم من المسئولين المختصين .

وفى ظل الهجمة الشرسة على الإسلام التى تسعى إلى تشويه حقائقه وقواعده الراسخة التى كرمت الإنسان واحاطت حرته بسياج منيع من الضمانات لاتجعل من إطلاق تهمة الكفر أو الردة أمرا سهلا بل وتلزم ولى الأمر باستتابه المرتد وإبراء نmente إذا رجع عن رده . . فإن ابضاح حقيقة الموقف الإسلامى من هذا الأمر يصبح مسئولية المجتمعات الإسلامية أمام الغير حفاظا على صورة الإسلام .

ومن الغريب أن بعض وسائل الإعلام الغربي تشن حملة ضارية على الإسلام وتتهمه بالإعتداء على حرية العقيدة هي نفسها التي تخلف من المأساة الدامية للمسلمين في البوسنة والهرسك وتجاهل حقوقهم الدينية والإنسانية مما يدل على أن الحضارة الغربية قد بلغت قمة التراجع والتخلف والهمجية ، وهذا لا يبرر على الإطلاق خلط الأوراق وتحميل الإسلام بغير ما يحتمل والتصميم على إثارة قضايا قديمة حسنها الإسلام ومازال الغرب عاجزا عن فهمها بدليل موقفه في البوسنة والهرسك .

البداية كانت مع الدكتور أحمد حمد أحمد أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة قطر الذي قال إن هناك مجموعة من الحقائق لابد من طرحها ، وأولى هذه الحقائق هي أن محور الحياة بما تتطلبه من ألوان النشاط في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها هو الإنسان الذي كرمه الله - جل علاه - وفضله على كثير ممن خلق وسخر له مافى السموات ومافى الأرض جميعا ، أما الثانية والتي تكثرن بهذه الحقيقة فهي أن الإنسان في أمس الحاجة وهو يخوض غمار هذه الحياة ويكدح فيها الى منهج حكيم يجنبه الضلال وينقذه من المخاطر والأهوال . والحقيقة الثالثة التي هي قوام هاتين الحقيقتين هي أن هذا المنهج الحكيم لن يكون الا من عند الله العلي القدير الذي صنع الإنسان وصنع الكون الذي سخره له ؛ فإن الصانع هو الذي يعرف كل صغيرة وكبيرة وكل دقيقة وجلية فيما صنع ؛ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ فإذا كان الإنسان الذي هو محور ألوان النشاط في هذا الملكوت من صنع الله وإذا كان هذا الملكوت المسخر له من صنع الله . فلماذا لا يكون المنهج الإسلامي هو الذي يسير عليه وهو يمارس ألوان نشاطه ؟

□ كيف يمكن أن تتعكس هذه الحقائق الثلاث على قضية حرية العقيدة ؟

□ في اجابته أوضح محدثنا أن المتأمل لرحلة الفكر الوضعي ولاسيما الفكر الغربي مع قضية الحرية عموما لابد وأن يلمس قصوره عن ادراك المفهوم الصحيح للحرية ؛ فهو يحاول فهم الحرية من خلال نظريته الحبيسة في نطاق ضيق ، فقد قام بتضييق رحاب الحياة الواسعة على نفسه ثم أتبرى بصرخ من هذا الضيق ويحاول الخلاص منه دون جدوى وسبب ذلك هو نظريته الحبيسة في نطاق المادية التي افككتها النظرة الصائبة .

□ إذا كان الإنسان قد فقد أو ضل طريقه لمفهوم الحرية فما هي الحرية الحقيقية من منظور الفكر الإسلامي ؟

أجاب محدثنا قائلا إن مفهوم الحرية لابد أن يتسق مع التكوين الفكري لكل انسان سليم الفطرة ومن ثم فالحرية هي تعظيم الله ورفض أي شيء يعلو عليه ، أو هي العبودية لله لالشيء سواه .

□ ولكن ماهي أوجه الاختلاف بين موقف الشريعة الإسلامية والنظم الوضعية من حرية العقيدة ؟

□ أكد د . أحمد رشاد طاحون بجامعة الزقازيق الحاصل على الدكتوراه في موضوع

حرية العقيدة الدينية في الشريعة الإسلامية ، إن حرية العقيدة في الشريعة الإسلامية قد تفرقت منذ فجر البعثة المحمدية مصداق ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ . وإذا كانت حرية العقيدة في النظم الوضعية تقتضى فصل الدين عن الدولة والأخذ بمبدأ العلمانية فإن تفرير حرية العقيدة في الإسلام تلك النظم الشامل لشتى مناهى الحياة وتكون حاجة لفصل الدين عن الدولة . أيضا ترى النظم الوضعية في تفريرها لحرية العقيدة يعين حرية الإنسان في الاعتقاد بدين معين وحرية في الاحاد والدعوى إليه . ولكن الشريعة الإسلامية لا تفر الاحاد لتنافيه مع الفطرة الإنسانية ولما أجمع عليه البشر منذ وجد الإنسان على هذه الأرض<sup>1</sup> .

□ هنا نشور قضية الردة خاصة أن اعداء الإسلام يلوحون بأن موقف الإسلام من المرتدين هو اعتداء على حرية الإنسان في الاعتقاد مما يدعو الى طرح الأسباب التي دعت إلى تجريم الإسلام للردة عنه .

□ □ أوضح محنتنا في رده علينا ، أن أساس الإيمان في الإسلام هو الاقتناع القلبي والتحرر الوجداني من كل زيغ وضلال والتحرر من التقليد الأعمى ومن سلطان الهوى . لذلك كان الإيمان المقبول هو الناشء عن رضا واختيار واقتناع بالدليل .

وإذا ما أردت مثل هذا الإنسان عن الإسلام فذلك يعنى أنه إما عايب بالدين وبكيان المجتمع وإما هادم لنظامه الاجتماعي ؛ فالإسلام نظام شامل متكامل ينظم سائر فروع الحياة حيث ينظم العلاقة بين العبد وربيه كما ينظم العلاقة بين أفراد المجتمع ويبينهم وبين سلطات الدولة وينظم سلطات الدولة على أساس ما جاءت به الشريعة من قيم ومثل متمثلة في مصادرها الشرعية ، والمردت يعن خروجه على هذا النظام الاجتماعي والقانوني والاقتصاد والسياسي فضلا عن انتكازه لقضية الإيمان من أساسها .

إن فهذا المرتد لم يؤمن عن اقتناع انما كان إيمانه بقصد الفساد أمر هذه الأمة كما حدث من اليهود في المرحلة المعدنية عندما كانوا يأمرون قومهم بالإيمان أول النهار والكفر آخره ومن شأن هذا وهم أهل كتاب أن يتشكك المسلمون في أمر دينهم وذلك كما جاء في القرآن الكريم حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ . وقد ذكر ابن كثير في تفسيره أن هذه مكيدة أرادها اليهود ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم وحتى يقول الجهلة من الناس إنما ردهم الى دينهم اطلعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين ولهذا قالوا لعلهم يرجعون .

□ ولكن قد يكون الأرتداد بسبب مآثر في نفس المسلم من شبهات أو عدم اقتناع بأمر من أمور الإسلام وليس بدافع العبث ؟

□ □ أوضح محنتنا أنه في هذه الحالة يجب على ولي الأمر أن يزيل عنه هذه الشبهة ويساعده على التخلص مما يساوره من شكوك وهواجس حتى يقتنع اقتناعا كاملا بالإسلام أما إذا أصر على موقفه فيجب توقيع العقوبة عليه . لأنه يعلم أن نفوذ الإسلام يقتضى الاقتناع الكامل والإيمان الصادق . والإسلام في تلك ليس بدعة فأى نظام وضعى بقر عقوبة الاعدام لمن يرتكب جريمة هدم البنيان الاجتماعي للدولة أو الخروج عن النظام العام للدولة .

وكلام الأستاذين مثال «نمطى» لتطويع المبادئ لما تهوى الأنفس وما استقر فى الأذهان من مفاهيم سابقة ، وأثر الطبيعة المزاجية والنفسية على إصدار الأحكام ويتفق مع ما أجمعوا عليه من أن الغرض من الردة هو العبث بالإسلام والكيد له والتآمر عليه ، دون أن يخطر له خاطرة عن حرية اعتقاد أو فكر .

\*\*\*

وقد أثار الموضوع اهتمام كل الصحف تقريباً ، وكتب معظم المفكرين الإسلاميين ، بما فيهم بالطبع الأستاذ فهمى هويدى الذى كتب فى جريدة الأهرام فى مقاله الأسبوعى يدافع عن الشيخ الغزالى ويلفت النظر لنقطة فى غاية الأهمية تلك هى أنه كان يجيب على أسئلة محددة تعمدتها الدفاع لتبرئة موكله . ولم يكن أمامه مناص من الرد ومثل هذا الرد لا يعد فتوى أو رأياً علمياً مجرداً . وسترده إشارات عديدة إلى هذا المقال الهام . .

ونشرت جريدة الحياة تحقيقاً صحفياً جاءها من مراسلها إبراهيم قاعود وضياء عبد الحميد . بالقاهرة - فى العدد الصادر فى ١٨/٧/١٩٩٣ - تحت عنوان :

### «شهادة الغزالى فى قضية فرج فوده»

جاء فيه :

□ لا تزال شهادة الداعية الإسلامى الشيخ محمد الغزالى أمام محكمة أمن الدولة المصرية العليا الشهر الماضى تثير عاصفة من الانتقادات والجدل المحتدم بين جمهور المثقفين المصريين وعلماء الدين ، فى ما يتعلق بتوقيعتها وفحواها ، ولأنها فى جانب منها تنتزع من الدولة ولايتها على الأفراد وحققها فى القصاص ، كما أنها كانت مفاجأة للشارع المصرى الذى يعرف عن الغزالى اعتداله . وشهدت صفحات الجرائد والمجلات المصرية جدلاً بين مؤيدى شهادة الغزالى ومعارضيه ، ويرى الجانب الأخير أن فتوى الغزالى تفتح مجالاً واسعاً للمزيد من عمليات الإرهاب، ضد صاحب أى فكر واجتهاد ، واعتباره مرتداً يجب قتله تطبيقاً لحد الردة .

ومما زاد من اشتعال الجدل واحتدامه دخول الأثر على الخط بإصدار لجنة الفتوى التابعة له بياناً جاء فيه : «من يبادل من تلقاء نفسه بقتل شخص مرتد لا بد أن يعاقب ، فالعقوبة منوطة بحكم من القضاء وليست متروكة للأفراد» . وما زالت القضية تتفاعل والجدل يزداد سخونة واحتداماً .

واستطلعت ، الحياة، آراء بعض العلماء والمفكرين الإسلاميين حو هذه القضية ، الردة . .  
ومن يملك حق الحكم بارتداد مسلم عن دينه ، ؟ .

وكانت محكمة أمن الدولة العليا المصرية التى تنتظر فى قضية اغتيال الكاتب الدكتور فرج فوده استدعت - بناء على طلب الدفاع - الشيخ محمد الغزالى كشاهد ، ودار بينه وبين الدفاع حوار حول حكم الردة . وقال الشيخ أن حكم المرتد القتل .

وأضاف الفزالي : «إن حكم الله لا يُلغيه أحد ولو نفذه أحد الناس ، فإنه يكون مقتدا على السلطة» ، وعندما سأته ممثل الدفاع إذا كانت هناك عقوبة على الافتئات على السلطة إسلامياً ، قال الفزالي : «لا أنكر أن لها عقوبة» .

هذه الشهادة أثارت نوعاً من الارتياح لدى الجماعات الإسلامية التي طالما هاجمت الشيخ الفزالي بسبب كتاباته حتى أنها كانت تتهمه بأنه من علماء الحكومة .

وأعرب أحد أبرز قيادات هذه الجماعة وهو صفوت عبد الغنى الذى يحاكم فى قضية اغتيال فرج فوده ورفعت المحجوب عن اعتزازه بشهادة الفزالي وأنه حتى فى حال صدور أحكام بإعدام ضد المتهمين فى قضية اغتيال فوده فإنه تكليفهم هذه الشهادة .

وهاجمت بعض الصحف المصرية بخاصة «روز اليوسف» شهادة الفزالي واعتبرتها «فتوى تصب فى مصلحة التطرف والمتطرفين» واتهمت الرجل بأنه «مفتى التطرف الجديد» والمفتى القديم هو الشيخ عمر عبد الرحمن الذى يثير الجدل حول أقامته فى الولايات المتحدة ، ولكن الصحف المعبرة عن التيار الإسلامى مثل «الشعب» و «الاحرار» انحازت الى جانب شهادة الفزالي وثار جدل طويل فى الشارع المصرى حول هذه الشهادة ومدى سلامتها ، خصوصاً مع استمرار أعمال العنف التى ترتكبها الجماعات المتطرفة ضد أجهزة الأمن ورموز السلطة .

وفى محاولة لحسم الخلاف حول الشهادة صدر بيان شرعى (فتوى) من لجنة الفتوى فى الأزهر من نون طلب من احد، كما يقول رئيسها الشيخ عطية صقر ، وصدر البيان باجماع آراء أعضاء اللجنة وهم : الشيوخ محمود عبد المتجلى وعبد الجليل شلبى وأحمد مسلم وعبد العظيم الحموى وصالح حتوت .

وجاء فى بيان لجنة الفتوى الصادر فى ٨ تموز (يوليو) الماضى فى تحديد معنى الردة ومن هو المرتد : «ان ردة الفرد تحصل بانكاره ما ظم من الدين بالضرورة كالمعتقد وأركان الإسلام الأساسية أو بالاستهزاء بها والظعن فى صلاحيتها لتقديم الفكر والسلوك» .

وفى عقاب المرتد قال بيان اللجنة : «قرر الطمأن أن يستتاب المرتد لمدة ، اختلفت فيها آراء الطمأن ، فإذا رجع المرتد فقد أبرأ نمته ، وإن لم يرجع وجبت عقوبته» .

وفى تحديد العقوبة أوردت اللجنة قول الرسول ﷺ : «من بدل دينه فاقتلوه» . مع أنه لا يمكن أن تتم العقوبة الا بتوافر أمرين :

- التأكد من ثبوت الجريمة واستقصاء كل ملبساتها والاطمئنان الى عدم وجود أى شبهة فيها وذلك بناء على قول رسول الله ﷺ : «ان رأوا الحدود بالشبهات» ، وهذا التأكد لا يكون الا بمعرفة المسؤولين المختصين الذين يملكون من الوسائل ما يمكنهم من التحقق من أركان الجريمة ونفى الشبهات عنها .

- الأمر الثانى : ان العقوبة ، اذا وجبت ، لا يجوز تنفيذها الا بمعرفة من قاموا بتحقيق

أسبابها ، أما من يوقع عقوبة حدية من دون إذن من ولي الأمر فإنه بذلك يكون ارتكب إثماً عظيماً له عقوبته الشديدة في الآخرة ، ويجوز لولي الأمر أن يعاقبه عقوبة تعزيرية منعاً للفوضى وإقراراً للأمن والنظام ، وأكد بيان اللجنة أن الإسلام حرم على المسلم الارتداد عن دينه مصداقاً لقول الله تعالى : ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فبئس ما كان له ما كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ .

ومن جهتها احتجت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان على شهادة الشيخ الغزالي ورفضتها وأعلنت أنها ضد حقوق الإنسان وتسيء إلى الإسلام .

## لا أحكم على فرج فوده

يقول الدكتور الحسيني أبو فرحة ، رئيس قسم التفسير في كلية البنات - جامعة الأزهر :  
إن الردة بمفهومها في الإسلام تعني رجوع المسلم عن الإسلام وخروجه منه بعد دخوله فيه ، والردة كفر وزيادة لأن المرتد كفر بخروجه من الإسلام ، أما الزيادة فهي أنه تلاعب بالإسلام والمسلمين ، .

وأضاف إن اليهود في عهد النبي ، ﷺ ، كانوا يدخلون في الإسلام في أول النهار ويرجعون عنه في آخره ، وأتفقوا على ذلك في ما بينهم وهدفهم كما صرحوا به هو أن يرتد المسلمون عن الإسلام ، وقال الله تعالى في القرآن الكريم مشيراً إلى ذلك : ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ .

ويضيف أبو فرحة : تأسيساً على ذلك فإن المرتد كافر وإذا دعا إلى كفره وأعلن الحرب على الإسلام فتلك جريمة أخرى وهذه ما نطلق عليها الزيادة ، فهناك من يرتد فقط وهناك من يرتد ويشتمل بالدعوة إلى الردة ، وبهذا تبين لنا أن المرتد إذا دعا غيره إلى الردة يكون ارتكب ثلاث جرائم :

- أولاً : الكفر .
- ثانياً : محاولة بليغة غيره من المسلمين .
- ثالثاً : دعوته إلى الردة وإعلانه الحرب على الإسلام .

والإسلام جعل عقوبة المرتد استتابته ، فإن تاب على عنه ، وإن لم يتب قتل كفراً وليس حداً كما يظن البعض ، ولا يغسل ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين .

وأضاف : «بالنسبة إلى الكاتب فرج فوده فأنتى لم أقرأ له كلمة ولم أسمع منه كلمة ، كنت فقط اسمع من الزملاء أنه يهاجم الإسلام ، فأجتنب نفسي قراءة ما يؤذي نفسي ، وبالتالي لا أستطيع الحكم عليه» .

وقال عن فتوى الشيخ الغزالي : «أرى أنه أشار إلى أن المرتد أشد كفراً من الكافر نفسه ، لأنه رجع عن الإسلام بعد دخوله فيه ، وأزيد هنا أن المرتد إذا كان داعياً إلى ردة فذلك

جريمة ثلاثة خصوصا في الوقت الذي نجد فيه أن المؤسسات الإسلامية تنتهك قدسيته ،  
ولا تجد من يحرص عليها .

## استنابة المرتد

أما الشيخ منصور الرفاعي عبيد ، مدير عام المساجد في وزارة الأوقاف المصرية ،  
فيقول : مفهوم الردة في الإسلام هو أن المؤمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم  
الآخر ، ونعرفه أيضا من علاقته بالمجتمع المسلم الذي يعيش فيه ، ثم نجده فجأة يبدأ  
بالاستهزاء والسخرية بالقيم الدينية وبالمبادئ الإسلامية ويأتي بأفعال تبين أنه غير مؤمن ،  
وغير معترف بالآنيان ، أي أنه أرتد عن دينه ، ولم يقبل العمل والسير على نهجه ،  
ويستهزئ بالقيم التي رسمها دينه ، وإلى هذا أشارت الآية الكريمة : ﴿إن الذين آمنوا ثم  
كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ .

وأضاف : إن الإسلام ينظر إلى هذا الساحر نظرة احتقار لأنه خرج على ما تعارف عليه  
القوم الذين نشأ بينهم ، وعلى العلماء أن ينهبوه فإن تاب ورجع وأعلن أنه ندم على ما فات  
ثم سار على نهج القيم الدينية فإنه عندئذ يكون مؤمنا صادقا ، وعلى الحاكم أيضا أن يحضره  
ويحبسه . ويمنع عنه كل منذات الحياة حتى يتوب فإن تاب ورجع ، بفك سجنه وأن تمسك  
بأرانه فإنه يقتل تنفيذًا للحكم الشرعي .

ولكن هل تترك عملية تنفيذ القتل إلى عامة الناس أم أنه لابد وان توكل إلى ولي الأمر  
حتى لا تعم الفوضى ، وبخاصة أن فتوى الشيخ الغزالي أباحت قتل المرتد على يد أي كان  
من المسلمين من دون الرجوع إلى الحاكم ، ومن دون عقاب له بعد ذلك ؟

قال الشيخ عبيد : «إن فتوى الشيخ الغزالي في قضية الدكتور فرج فوده صحيحة ، وما  
أدلى به من آراء سليم ، لأن الشيخ الغزالي له علمه ومكانته ومعرفته ، وما أدلى به بناء  
على ما لديه من علم ومعرفة ، وما مر به من تجارب وخبرة ؛ لأنه مارس العمل الميداني في  
الدعوة إلى الله قرابة ٥٠ عاما فهو في رأيه الذي أسسه على ما لديه من علم ، صادق  
تماما !

وأضاف ان الشيخ الغزالي أكد في فتواه أنه يجب أن تترك للحاكم مسؤولية تنفيذ حكم  
الإعدام في المرتد ، فإن نفذ الحكم أحد من عامة المسلمين فقد افتات على السلطة ، والأمر  
هنا متروك لولي الأمر في عقابه ، فله حق التعزير الذي يصل إلى حد القتل حسبما يراه  
من حجم الجريمة التي وقعت ، بيد أن الشرع لم يوجب قتل من قتل المرتد ولكنه ترك الأمر  
لولي الأمر ، إن الإسلام أوكل إلى الحاكم أن ينظم المجتمع بقوانين وقواعد يراها تحقق  
الانضباط داخل المجتمع ، أخذا من قول الله وهدى نبيه ، وعلى هذا فإن الإسلام أوجب قتل  
من قتل بغير حق ، لأن عملية تنفيذ الحكم متروكة إلى ولي الأمر حتى لا تعم الفوضى  
والاضطرابات التي نخشى على المجتمع منها ، فتكون الخلقة الاجتماعية .

لذا فإن الشيخ الغزالي على حق ، ولكن حديثه يحتاج إلى شرح ، فنحن نؤيده في ما ذهب



إليه ، ونوكل الأمر في النهاية إلى الحاكم ولا نلتفت عليه ، وإنما نضع الأمور في نصابها ليكون الأمن والاستقرار .

## شهادة خاطئة

ويقول الكاتب والباحث الإسلامي الدكتور أحمد شوقي الفنجري : «الواقع أن هناك من حاول الدفاع عن هذه الشهادة التي صدرت من الشيخ محمد الغزالي فهي شهادة قيلت في محكمة وليست فتوى وهناك من قال إنها فتوى وليست شهادة . وأعتبر أن ما صدر من شيخ كبير له قدره ومكانته الدينية خطأ كبير ، وكنا نتمنى أن يرد الغزالي ويصحح المفاهيم ، كما أن المحامي ورطه في أشياء لم تكن على باله ، وكونه عالما لا يمنعه من الخطأ ، كان علماء المسلمين يفتون ويتراجعون عن فتواهم ويتمنى من الشيخ الغزالي أن يرد على التساؤلات وعلامات الاستفهام التي فهمت أنها تدعو إلى نشر المذابح والقتل بين المسلمين ، وهذا لا نريده ، لذلك نطلب منه تصحيح الخطأ حتى ولو اضطر إلى التراجع عن أقواله . وعليه أن يرد على كل التساؤلات في مقال واضح . أما عن الشهادة ذاتها فهي تضمنت خطأين : الأول : يتعلق بتوصيف المرتد ومن هو ؟ الحديث الشريف يقول : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله فإذا قالوها فقد عصموا دماءهم وأموالهم وحسابهم بعد ذلك على الله» ، معنى هذا أن من يقول لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله مهما قال من آراء بعد ذلك في تطبيق الشريعة لا يعتبر مرتدأ ، فالحكم في ارتداد أي فرد يجب أن يصدر من لجنة قضائية من أهل الذكر والفتوى وأن يسأل الشخص في شهادته بالإسلام ويناقش في آرائه فإذا لم يكن في هذه الآراء ما ينفي الشهادتين فلا يمكن اعتباره مرتدا والا اعتبرنا جميع المسلمين الذين يفكرون في صالح الإسلام متهمين بالردة .

ثانيا : بالنسبة إلى تطبيق العقوبة لا يجوز لأي فرد أو جماعة خارج سلطات الدولة أن تنفذ العقوبة ، وينبغي أن تنفذها لجنة مكونة من هؤلاء الذين حاكموا المتهم بالردة ، ويكون من خلال السلطة .

بقي سؤال تثيره الجماعات المتطرفة وهو : إذا كانت الدولة لم تحاكم هذا الشخص المشتبه بارتداده ولم تقم بتنفيذ أي حكم الردة فإن هذا أيضا لا يجيز لأي فرد أو جماعة أن يتطوع بالمحاكمة ولا بالتنفيذ ، ولكن عليهم من خلال القنوات الشرعية أن يطالبوا الدولة باجراء هذه المحاكمة .

## توقيت قاتل

وعقب الكاتب الإسلامي حامد سليمان على شهادة الغزالي قائلا : «هناك قصة معروفة في صدر الإسلام : عندما نهر الرسول ﷺ أحد قاداته بعد أن قتل أحد المحاربين من صفوف الأعداء فقال قولته الشهيرة : «هلا شققت عن قلبه ، ورأى أن الحكم بارتداد أي إنسان ليس في يد أي إنسان عادي ، فمن يشهد بالشهادتين فهو معصوم من القتل ، ومصر ليست دولة

تطبيق الشريعة الإسلامية كى نطالب القاضى بتطبيق الحدود ، كيف نطالب قاضيا بتطبيق قانون غير معمول به اصلاً ، لابد للصفوة المنتخبة من الأمة أن تتفق حول هذه المسألة ، وليس لفرد الحق فى تنفيذ ذلك ، واعتبر أن ما قاله الشيخ الغزالي مجرد رأى شخصى وليس فتوى ، فالفتوى لابد أن تكون جماعية وليست فردية ، كما أن توقفت ما قاله الشيخ الغزالي سبباً للغاية فهناك من أباح قتل الناس فى الشوارع ، والشيخ الغزالي معروف باعتداله وسماحته فكيف يصب الزيت على النار فى مثل هذا التوقيت ؟

## أخالف الشيخ الغزالي

أما أحمد صبحى منصور ، الأستاذ السابق فى جامعة الأزهر فله رأى مختلف تماماً فى هذه القضية واستدل على ذلك بأراء الشيخ الغزالي نفسه خصوصاً ما جاء منها فى كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» فيقول : «يمكننا أن نتعرف الى رأى الشيخ الغزالي الحقيقى من خلال ما أورده فى هذا الكتاب بالنسبة الى حد الردة ، إذ يقول : «اللى احصيت أكثر من منى آية فى القرآن الكريم تؤكد على حرية الاعتقاد فى الإسلام ، وأنه لا إكراه فى الدين» .

وأضاف منصور أن الشيخ الغزالي اعترف فى الكتاب المشار إليه بأن أحاديث الآحاد لا يبقى أن يؤخذ منها أمور العقائد وأمر التشريع ، خصوصاً ما يخص فى التشريع عمليات سفك الدماء والأموال لأنه معلوم أن أحاديث الآحاد تشكل أكثر من ٩٩ فى المئة من الأحاديث ، ومنها الصحيح ومنها الضعيف ، وسواء كان حد الردة معتمداً على احاديث صحيحة عند بعضهم ، أو احاديث ضعيفة عند آخر فإنها ليست لقيام تشريع على أساسه تقتل النفس ، خصوصاً وأن الشيخ الغزالي فى الكتاب نفسه يهاجم الذين يأخذون بتلك الأحاديث ،

واعتبر أن الشيخ الغزالي فى هذا الكتاب كان ضد حد الردة ولكنه فى حقيقة الأمر نسى نفسه ونسى ما كتبه ، بسبب خصامه مع الدكتور فرج فوده ، والسبب معروف .

أما الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر فامتنع عن ذكر رأيه فى هذه القضية ، واكتفى بأنه : «لا يصح أن نهدم علماءنا الاجلاء ، ولا يصح أن نناقض بعضنا بعضاً لأن الشيخ الغزالي عالم فاضل ووجهة نظره فى هذه القضية صحيحة ، الا أن الدفاع لم يمهله الوقت الكافى لشرح وجهة نظره فقد سأله أسئلة مختصرة ، وبالتالي كانت شهادته مختصرة ، ولم يكن يقصد بها ذلك ، والمعلية تحتاج الى شرح وتفسير» .

\*\*\*

قد يُظن أن ما قدمناه من استشهادات وأقوال يكفى ، ولكن الحقيقة أن القضية تستحق المزيد خاصة وأن الصحافة لم تقصر - ما بين تأييد وتنديد - فى معالجتها وقام بهذا كتاب ومفكرون لهم وزنهم ، لهذا فسنبضيف إلى قدمنا مقالين : أحدهما

بقلم فضيلة المفتي الشيخ طنطاوى ونشره فى أهرام ١٠/٨/١٩٩٣ فى سلسلة مقالاته عن «الافتاء» وجاء تحت عنوان «كلمة عن الردة والمرتدين» تحدث فيها فضيلة الشيخ طويلاً عن حرية الاعتقاد فى الإسلام وسماحته - وانه لا يكفر الا المصر على الكفر ، واستطرد فقال :

الحقيقة السابعة : أن الردة يقصد بها فى اصطلاح الفقهاء : رجوع المسلم العاقل البالغ عن الإسلام باختياره دون اكراه ، إذ الإكراه على التلفظ بكلمة الكفر ، لا يفرج المسلم عن اسلامه مادام قلبه مطمئناً بالإيمان .

قال تعالى : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ [سورة النحل : الآية ١٠٦] .

والمسلم لا يعد مرتداً إلا إذا أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة ، كإتكاره لوحدانية الله - تعالى - ونبوة محمد - ﷺ - وأن القرآن من عند الله ، وكاستهزائه بشعائر الإسلام وأركانها وآدابه وأحكامه .

وكاستحلاله لما حرم الله - تعالى - كشراب الخمر ، وتعاطى الربا . وقتل النفس ...

والذى يملك الحكم بارتداده هم أهل العلم الذين يوثق بفقههم وأمانتهم ، بعد مناقشتهم له ، ومحاولتهم إزالة الشبهات التى اتحرفت بتكبيره إلى الباطل ، وبعد استنابته لفترة قد تكون ثلاثة أيام أو أكثر مادام هناك أمل فى إقناعه وفى إزالة شبهاته ، وبعد تحذيره من سوء عاقبة ارتداده فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [سورة البقرة : ٢١٧] .

ولايصح رمى المسلم بالردة الا اذا حكم الراسخون فى العلم بذلك ، لقد نسب إلى الإمام مالك أنه قال : من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ، ويحتمل الإسلام من وجه واحد ، حمل أمره على الإسلام ،

الحقيقة الثامنة : أن المرتد اذا أصر على رده عن الإسلام ، وجاهر بذلك ، وأساء إلى الإسلام والمسلمين ، وحكم بذلك الراسخون فى علمهم وفقهم ، رفع أمره إلى الهيئات القضائية المختصة بالفصل فى مثل هذه الأمور ، لئى تصدر حكمها العادل المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية ، وهذا الحكم قد يصل إلى القتل أو إلى ما هو أقل من ذلك كالسجن ، إذ أمام القضاء العادل المختص تعرف الحقيقة ، ويتحدد العقاب ، المناسب ، ويوزن خطأ كل فرد بميزان العدالة الدقيق .

ومبلغ علمى أن قانون العقوبات المصرى ، قد وردت عليه تعديلات ، تتضمن عقوبات رادعة ، لكل من يهاجمون العقائد الدينية ، ويشككون فى صحة أحكام الشريعة الإسلامية ، ويسخرون منها ...

الحقيقة التاسعة : أن تحديد العقوبة على المرتد وتلقيها من حق ولي الأمر أو نائبه كالهيات القضائية والتفويضية ، ولا يصح للأفراد أن يقوموا بهذه المهمة التي هي من اختصاص ولي الأمر أو نائبه ، وذلك لأن من شأن الأمة المنظمة أن يكون لها راع يرعاها ، ويفصل في أمورها ، ويعينه على ذلك أهل الحل والعقد ، وأرباب المشورة والرأي ، وأصحاب القدرة على المساعدة والمعونة ، ولأن الأمة تتكون من أفراد تتعدد مصالحهم ، وتختلف مشاربيهم وأفكارهم وآراؤهم تبعاً لمؤثرات متنوعة ، ولو ترك لكل فرد يفعل ما يريد على حسب هواه ، لصارت الأمور فوضى في الأمة ، ولسادها الاضطراب والفساد .

قال القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿يأياها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ ٢٠٠ ج ٢ ص ٢٤٤ .

• لا خلاف في أن القصاص في القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر ، فرض عليهم النهوض به ، وإقامة الحدود ، وغير ذلك ، لأن الله - تعالى - خاطب جميع المؤمنين بالقصاص ، ثم لا ينهي للمؤمنين جميعاً أن يجتمعوا على القصاص ، فاقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص وغيره من الحدود .

وهكذا نرى أن هناك إجماعاً من الفقهاء على أن تنفيذ الحدود ، وتحديد العقوبات على الجرائم ، من واجب ولي الأمر أو نائبه ، كالهيات القضائية والتفويضية ، حماية لأمن الأمة ، وصيانة لها من الاضطراب والفساد .

الحقيقة العاشرة: أن أي فرد أو جماعة تقوم بقتل شخص أو الاعتداء عليه بحجة أنه مرتد ، وبغير إذن ولي الأمر أو نائبه ، يكون هذا الفرد أو تلك الجماعة قد تجاوزت حدودها واعتدت على حق غيرها ، ويجب محاكمة ذلك الفرد أو تلك الجماعة أمام الهيات القضائية المختصة التي تزن الأمور بميزان العدل ، وتحكم بالعقوبة التي تراها مناسبة .

وهذا - أيضاً - مما أجمع عليه العلماء ، وقررت شريعة الإسلام التي تقوم على العدالة والنظام الدقيق ، وإعطاء كل ذي حق حقه دون إفراط أو تفريط .

هذا ، وإن دين الإسلام واضح في عقائده وعبادته وتشريعاته وأحكامه وآدابه . . . ومن دخله عن اقتناع ويقين فمرحبا به ، ومن خرج منه فيما بينه وبين نفسه لأن أحكامه لا تتفق مع هواه وشهوته وأطماعه وردائه . . . فإلى حيث ألفت ، والله - تعالى يقول : ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ أما الذي يجاهر بالخروج من الإسلام ، ثم يسخر من أحكامه ، ويهاجم تشريعاته وآدابه . ويؤذنب نبيه - ﷺ - وأتباعه بكل نقبسه ، كذبا وزورا وبحثا عن المال أو الشهرة الزائلة ، فنحن له بالمرصاد ، ويجب أن تنزل به الهيات القضائية ما يستحق من عقاب ، لا من أجل رنته فحسب ، وإنما من أجل كذبه وفجوره وقذفه للأطهار ، وتعمده الإساءة إلى الحق وأهله ومحاربه الله ورسوله ، وصديق الله إذ يقول : ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، لوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

والمقال الثاني هو ما نشرته مجلة «اخبار الأدب» [العدد الثاني - ١٩٩٣/٨/١ - ص ١٢] بقلم الخامى النايه الدكتور محمد عصفور تحت عنوان «الشيخ الغزالي المفتري عليه» استعرض فيه أقوال الشيخ الغزالي وتعليقات خصومه وانصاره جاء فيه :

إن اغتيال أصحاب الأقلام ( مهما كانت درجة الاستفزاز أو الاستجابة لآرائهم ) ظاهرة من أخطر الظواهر التي تصاب بها الدول النامية أو المتخلفة ! لأنها تعنى تعطيل نفة الحوار - لغة العقل - واطلاق الانفعالات الطائشة وتلجير مشاعر الكراهية والتعصب . . . على نحو ما يظهر في تعطيل الحوار والمناقشة والجدل وإحلال العنف واطلاق الرصاص . . . ومحاولات الاغتيال ، ومع الأسف الشديد أن تكثرن هذه الظاهرة دانما بعقيدة ما : سواء كانت ،الوطنية، أو ،الدينية، ولكنها تنتهي دائما إلى ،الاجتيال، واللافت للنظر أن مصر الحديثة قد شهدت صورتين من هذه الظاهرة مرة في عهد الاحتلال البريطاني وحكم وهيمنة السفارة البريطانية بالتعاون مع السراى . . . وتشهده الآن في ظل الأحكام العرفية الممتدة منذ اثني عشر عاما . . . وهو ما يدعو كثيرين من المحللين إلى الربط بين جرائم الاغتيال السياسي وبين نظام الحكم القاهر أو الاستثنائي . فهل يعنى ذلك أن التخوين (اتهام الضحية بالعمالة للاحتلال) والتكفير (اتهام الضحية بالردة) لهما مصدر واحد ، وينتهيان إلى نتيجة واحدة ؟ إن جرائم الاغتيال السياسي الشهيرة في مصر الحديثة ( ابتداء من اغتيال بطرس غالى مرورا باغتيال أمين عثمان ثم أحمد ماهر) قد أنصبت على رموز السلطة ، أما الجرائم الحديثة باستثناء اغتيال السادات فإنها قد استهدفت بعض أصحاب الأقلام (محاولة اغتيال مكرم محمد أحمد ثم اغتيال د . فرج فودة) وقد أكد الكثيرون أن ثمت بواعث دينية وراء هذه الاغتيالات بما فيها اغتيال السادات . غير أن ما يجب التنبيه إليه أن صرف الاغتيال عن رموز السلطة وتوجيهه إلى حملة الأقلام يمثل ظاهرة غاية في الخطورة ، ليس فقط لأنه تهديد عنيف لغير الضحايا بأن يكفوا عن التفكير أو التجديد ، وإنما كذلك لأن يظهر للرأى العام عجز خصوم الضحية عن اقتناعه بسلامة ما يدعون إليه أو ما ينادون به ! وبالنسبة لاغتيال د . فرج فوده بالذات صور د . أحمد صبحى منصور (الأهالى ٧/٦) إن الخلاف بين الشيخ الغزالي وبين د . فرج فودة كان يدور حول موضوع الإسلام والحكم ، وهل هو دين ودولة . وأن د . فرج فودة في مناظرتين قد انتصر على دعاة الدولة الدينية مطالباً بابعاد الإسلام عن أهواء السياسة وأطماع المزايدين ، مستعرضاً الأدلة العلمية والتاريخية المؤيدة لوجهة نظره متحدياً خصومه أن يقدموا برنامجاً للحكم طالما يطالبونه بالحكم . . . ويتطرف د . منصور في هذا التصوير فيدعى أنه شق على خصوم د . فرج فودة أن ينهزموا أمامه مرتين ، وأنهم لن يستطيعوا الوقوف أمامه ، فأصدروا عليه حكم الإعدام ، وأن الذين دبروا المؤامرة عندما عجزوا عن مواجهة د . فرج فودة بالكلمة أطلقوا عليه الرشاش من خلف ! بل إن د . منصور يدعى أن للتطرف جناحين أحدهما منى والآخر عسكري ! وأن الجناح المنى يدعى

الاستقارة والاعتدال بينما ينثر في كلامه أحاديث التطرف والتعصب ، قد نجح في التلاعب بالنصوص واستجداء المشاعر بعد التلاعب بعقول الشباب والعدالة ، حتى إذا تقدم فارس شجاع مثل فرج فودة ليظهرهم على حقيقتهم انقلب حقدهم عليه فتاوى تدعو لقتله .. ثم قام الجناح العسكري للتطرف بتكليف الجريمة ..!! وعندما ألقى الشيخ الغزالي بشهادته بعد استدعاء الدفاع له في المحكمة قامت الدنيا ولم تقعد حسب تعبير فهمي هويدي .

## الضحية

والواقع أن شهادة الشيخ محمد الغزالي في محاكمة المتهمين باغتيال د . فرج فودة كانت مثار تعليقات غاضبة من جانب المدافعين عن أفكار وتصورات د . فرج فودة .. وإذا كان الشيخ مصطفى عاصي (الأهالي ٧/٦) اكتفى بالتعليق بعنوان (المستبشرون هل يفتنون باب التكفير) تطرق د . أحمد صبحي منصور في اتهاماته فزعم أنه (بعد أن رحل فرج فودة ، خلا الجو للشيخ الغزالي كي يتهمه بالكفر والردة وهو واثق أن خصمه قد ذهب إلى الدار الآخرة ، ولن يستطيع أن يلجمه كما كان يفعل .. فتناول على عقيدة فرج فودة بعد موته وبعد رحيله .. ولو كان يعتقد أن فرج فودة مرتد أو كافر فما الذي منعه أن يعلن ذلك في المناظرة أمام فرج فودة والناس أجمعين ، إنه عجز عن ذلك في حضور فرج فودة ، لأن فرج كان حريصا على تأكيد هويته الإسلامية معليا من شأن الإسلام .. معتبرا نفسه مدافعا عن صحيح الإسلام ، وقال إنه مع الدستور القائم على مبادئ الشريعة ، وأنه مع تطبيق الشريعة بشرط أن يقوم الفقهاء باجتهاد وستنبير فيها .. غير أن د . منصور يدعى أن مهارة د . فرج في المناظرة وثقته في نفسه ، وتضائل خصومه أمامه زادهم عليه حقدًا ، واعتبروه متطاولا على الشيخ الغزالي حين انتصر عليه ، وأن الشيخ الغزالي (في غمرة حقدته قد كشف عن هويته الحقيقية وانتمائه للجناح المدني المتطرف) ! وأن هذا ما تكشف في محاكمة الإرهابيين .. بالإشارة إلى حد الردة المزعوم .

ولقد حرصت أن أسجل (بقدر ما تسمح به المساحة) وجهة النظر المنددة .. بآثاره موضوع الردة أمام القضاء الجنائي (سواء في شهادة الشيخ محمد الغزالي أو في شهادة د . محمود مزروعة) لكي أتبه إلى أن المحاكمة في جريمة اغتيال د . فرج فودة تفجر مشكلات كثيرة تثار أمام القضاء الجنائي الذي تنحصر مهمته في تطبيق القانون بالنسبة لجريمة اغتيال عادية ليس من شأن السمات المميزة لشخصية الضحية أو ما اتهم به من ردة ليس من شأن ذلك كله أن ينفي حقيقة هامة وهي أن كاتبها قد اغتيل بدوافع دينية محضه .. وهو أمر له دلالاته بل ونتائجها الخطيرة حيث يعبر عن ظاهرة حديثة على الأقل في مصر .

## الفارق كبير بين الرأي والتحقيق أو الاستهزاء

أرجو أن ألفت النظر إلى أن ظاهرة «التكفير» ليست ظاهرة جديدة في مصر الحديثة ، وإنما الجديد فيها العنف المصاحب لها والذي يبلغ أحيانا حد الاغتتيال . فلقد تعرض د . طه حسين ، والشيخ على عبد الرازق ، وقاسم أمين ، وأحمد لطفى السيد ، ود . زكى نجيب محمود . الخ الخ تعرض هؤلاء جميعا وغيرهم لهجوم شديد من جانب الأوساط الدينية . وقد بلغ ذروته بالنسبة لطفه حسين وكتابه في الشعر الجاهلى ، فى تبليغ النيابة العامة وأجراء التحقيق وفصل الدكتور طه من الجامعة . . غير أنه لم يحدث أى اعتداء مادى عليه أو أى ممن اعتبروا دعاة العلمانية . . فما الذى جرى حتى تتم محاولة اغتيال صحفى وترتكب جريمة اغتيال كاتب كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة الخطيرة ؟!

وبماذا نفس هذا الجو المعادى لأى تصوير قصصى يعتبر مناهضا للعقيدة أو أى بحث أكاديمى يُعتبر انتقادا متطاولا على الدين ؟!

فلقد قامت ضجة صحفية بعد الحكم بالحبس على علاء حامد عن قصص نشرها اعتبرت متعرضة للدين . . وقامت ضجة صحفية أخرى بالنسبة للدكتور أبو زيد عن بعض دراساته أو أبحاثه التى تقدم بها للترقية إلى وظيفة أستاذ حيث حجت عنه الترقية استنادا إلى تقرير كتبه رئيس اللجنة العلمية اتهم فيها الدكتور أبو زيد بالكفر . . ولئن كان هذا القرار موضوع طعن بالإلغاء أمام محكمة القضاء الإدارى ( مجلس الدولة ) ، فإن المثير للعجب حقا أن يعلن أن رئيس جامعة القاهرة بعث يستفتى الأزهر فيما قدمه ونشره الدكتور أبو زيد . . وما هو أشد اثاره الدعوى التى رفعها بعض الأشخاص ( وعلى رأسهم مستشار سابق بمجلس الدولة ) أمام دائرة من دوائر محكمة الأحوال الشخصية بطلب التزويج بين الدكتور أبو زيد وزوجته ( وهى أيضا أستاذة مساعدة ) استنادا إلى كفر الزوج أو رذته ورغم عنف هذه الاجراءات إلا أنها أخف بكثير من اغتيال الدكتور فرج فودة . . وهو وإن كان أمرا لا سابقة له فى تاريخ مصر . . إلا أنه يبدو أنه قد تأثر بالفتوى الخمينية باعتبار اغتيال سلمان رشدى ( بسبب روايته آيات شيطانية ) واجبا دينيا يكافأ بمكافأة مالية ضخمة !

### المشكلات التى تفجرها قضية اغتيال

#### د . فرج فودة

ولعل قضية اغتيال د . فرج فودة تحمل نمونجا مثاليا لجريمة الارهاب الفكرى التى أصبحت للأسف الظاهرة المميزة للحضارة المعاصرة : فالارهاب الفكرى تمارسه الدولة الحديثة من خلال الهيمنة الاعلامية الأيديولوجية وفى المقابل تمارس التيارات الأصولية المتطرفة فى عنفها وعدوانها وارهابها الفكرى هى الأخرى باغتيال من تعتبرهم أعداء العقيدة أو الدين وتكون المشكلات الواجب مواجهتها من الكثرة والتعقيد بحيث يحار المعلق بأبيها يبدأ ؟!

- هل كان د . فرج فودة ضحية ممارسته لحرية الفكر والرأى .
- وهل تم الاغتتيال نتيجة تحريض بعض علماء الدين الذين أفتوا بدينه أو كفره .
- وهل تمثل محاكمة مفتالى د . فرج فودة وقد طرح موضوع الردة محاكمة لعقيدة المعنى عليه ؟
- وهل يمكن أن تجد جريمة الاغتتيال تبريرا لها الأفتاء بأن قتل المرتد يمكن أن يقوم به آحاد الناس ؟

إن هذه المشكلات كلها لابد وأن تواجه بصراحة وأمانة ، وقد تكون القضية المطروحة على القضاء ، الفرصة الهامة لمعالجة أخطر أزمة أو مشكلة تواجه التيارات الإسلامية والتي يعد أقوى اتهام لها هو الإتهام بالارهاب الدموى لأى فكر مستتبيرا !

## حرية الفكر أو الرأى لا تتسع لحرية الإهانة والتطاول والاستفزاز

أول ما يجب تأكيده أن أية حرية ليست حرية مطلقة وإنما هى دائمة مقيدة بالأا يشكل التعبير عنها عدوانا على الآخرين ، فحرية الرأى لا تعنى القذف أو التطاول - وحرية الفكر أو حرية الاعتقاد تعتبر من الحريات النسيقة بشخص الانسان والتي لا بتصور تكبيدها ما دامت محصورة فى عقل صاحبها ، أما اذا خرجت الى العالم الخارجى بالتعبير عنها فإنها عندئذ تخضع للقيد الجوهري وهو الا تؤذى الآخرين وحتى بالنسبة للمعتقدات الدينية فإن دستور ٢٣ قد أخضع ممارسة شعائرها وطقوسها لقيد جوهري هو عدم اخلالها بالنظام العام أو الآداب .

وذلك فإن ، ما يتصوره البعض - حرية فكر أو رأى مطلقة تصور خاطيء فما يسمى بحق أو حرية الإبداع يستحيل أن يؤدى الى التهجم أو التطاول على معتقدات الجماعة أو قيمها الدينية . . وهذا قيد أساسى جوهري ، لابد أن يوضع فى الأعتبار عند تناول شهادة علماء الدين بالنسبة لما نشره د . فرج فودة ، واعتبره البعض المصاحا عن الردة . . أو تهجما على الإسلام والعلماء .

واعترافى الخاص أن ما يدور اليوم من مجادلات حادة حول حريات العقيدة والفكر والرأى ، سوف تظل مجادلات عبثية ولا طائل من ورائها ، مانعنا لم نلتزم بالضوابط الشرعية والدستورية والمنطقية فى شأن ما يعتبر وما لا يعتبر كفرا وردة ، وما يعتبر رأيا جديرا بالحماية أو اهانة واجبة الردع . . أو تطاولا أو استفزازا لمشاعر أية طائفة من الناس . فهذا فهمى هويدى ينقل ما اكده الشيخ الفزالى باحترام حرية الرأى والحوار . . أما ما يجاوز ذلك من استفزاز واهانة ، فإنه أمر يستوجب الزجر . إن الشيخ مصطفى عاصى ينسب الى الشيخ الفزالى تكفيره للمخالف لرأيه ويتساءل ما هو نموذج الحكم الدينى الذى يراد تطبيقه والذى يعتبر معارضه كافرا : هل ما كان مطبقا فى عصر الراشدين والذى لم يزد عمره على أربعين عاما فقط ، أم ما تلا ذلك من عصور تالية تنسب نفسها زورا الى الإسلام ؟



والواقع أن الشيخ الغزالي لم يتطرق إلى هذا الموضوع تحديدا وإنما كانت شهادته مركزة في العدوان الاستفزازي على مشاعر المسلمين وعقيدتهم ، وهو ما عبر عنه فهمي هويدي الأهرام ٧/٦ بقوله : « إن الشيخ الغزالي دعا إلى ضرورة التفرقة بين الحوار في الشأن الإسلامي وبين الشتم والسب والسخرية » فالأول مطلوب إلى أبعد مدى ، حيث الاختلاف بين الناس في الرأي - كما في الجنس والملة - هو سنة من سنن الله ، وخطاب الإسلام لم يزجر الذين خالفوا الإسلام وانتقدوا أصوله وتعاليمه ، طالما كان في الأمر حوار ، فمقام الحوار مقدر ومحترم ، حتى ولو تعرض بالنقد للشريعة ذاتها . . . ولكن الأمر يختلف حين يتكبد الخطاب ويُسب الإسلام ويُشهر به من جانب بعض المسلمين بصورة فجأة تعبر عن كراهة للدين وازدراء به وخيانة له في هذه الحالة ، فإذا كانت خيانة الوطن تعد جريمة عظمى تستجلب لصاحبها أقسى العقوبات فإن خيانة الدين ليست دونها خطرا ، ولا أقل من أن تعامل بالمثل ، . فما هو هذا الأمر الذي جعل شهادة الشيخ الغزالي موضوع مثار هجوم شديد إلى ما نسب زورا إلى الشيخ الغزالي وقبل أن نتناول هذه الشهادة بالتعليق نرى من الضروري أن نشير بوجه خاص إلى أن الشيخ الغزالي ليس فقط من المفكرين الإسلاميين المستبشرين ، ولكنه كذلك من كبار أهل العلم ورموزه الشامخة ، ولذلك فإن خصومه ( في كافة المعسكرات ) انتهزوا هذه الفرصة حسبما وصف ذلك فهمي هويدي الأهرام ٦ يوليو - واستخدموا شحنات مكثفة من العبارات والأوصاف المسمومة والجارحة ، وحرفوا شهادته لإثبات أن الكل إرهابيون ومضطرفون .

● وندد آخرون بالشهادة باعتبارها تصريحا باغتيال المخالفين للرأى في شأن العنف أو الطبيعة السياسية للإسلام وأنه دين ودولة .

وقال آخرون إن فكرة إجازة نيابة الأفراد عن الدولة في قتل المرتد ، أمر يعرض أي مجتمع للدمار ، والتحكم من جانب من يرون في الرأى المعارض ارتدادا أو كفرا وقد استنكرت منظمة حقوق الإنسان ما تصورته رأيا للشيخ الغزالي لا يعاقب مقتصب سلطة العقاب من الأفراد .

والحقيقة أن معظم الأسئلة التي وجهت إلى الشيخ الغزالي أسئلة إيحائية صيغت بطريقة ذكية تؤدى إلى إجابات تساند الدفاع في موقفه حتى لو كان هذا الموقف مناهضا لجواهر الشهادة وحقيقتها .

وليس صحيحا ما نسب إلى الشيخ الغزالي من إقراره فكرة نيابة الأفراد عن السلطة في إنفاذ الأحكام نون عقوبة مقررة لهم في الإسلام ، لأن في هذا المنطق مدعاة للفوضى وتخريب المجتمع . ومردود بموقف أبي بكر في حربه ضد المرتدين الممتنعين عن دفع الزكاة .

والحقيقة كما نكرها فهمي هويدي أن الشيخ الغزالي اعتبر الفرد الذي يفرض نفسه نائبا عن السلطة في إقامة الحد الذي عطلته هذه السلطة - اعتبر الشيخ هذا الفرد طبقا للمصطلح الأصولي ' مفتنتا على السلطة، والافتئات هو تجاوز الحدود والتعدى واغتصاب السلطة جريمة لا يتصور أن تمر بغير عقاب ، وإلا عمت الفوضى المجتمع ووقعت مفاسد وشرور عدة . وعندما سئل عن عقوبة الافتئات على السلطة قال إنه لا يذكر أن الإسلام قرر عقوبة على ذلك . وهذا صحيح فليس في الإسلام والقرآن والسنة عقوبة ، حدية ، أو معينة مثل تلك العقوبات المقررة على السرقة والزنا وشرب الخمر والحراية . والإجماع منعقد مع ذلك على أن لهذه الجريمة عقوبة تقديرية يحددها النظام القانوني القائم .

## الشيخ الغزالي المفترى عليه :

واستقادي الخاص أن عالما جليلا لم يظلم كما ظلم الشيخ محمد الغزالي بسبب شهادته التي ألقى بها في قضية اغتيال د . فرج فودة حيث جرى تلوين الكلام والخروج به من جوهره ، فهو قد ظلم إذ استدعى للشهادة في قضية اغتيال صورتها الصحف الرسمية على أنها اغتيال بسبب رأى معارض عبر به كاتب جر عن فهم متحضر للدولة الحديثة أى الدولة غير الدينية . وأيا كان الرأى فى صواب أو عدم صواب خطة الدفاع فى محاكمة عقيدة أو فكر رجل ميت ربما قد يوحى بأن دوافع الجريمة دوافع دينية متعصبة ، فإن اتساع صدر القضاء لسماح شهادات علماء الإسلام فى شأن الردة، وطبيعتها ، وما إذا كان موضوع الصلة بين الدين والدولة يدخل فى نطاق العقيدة فيعتبر المنكر له كافرا أو مرتدا . . كل ذلك يزيد مشكلة الإسلام السياسى تعقيدا ، ويضع العلماء الشهود فى حرج ولاسيما بالنسبة لاغتيال إنسان - أيا كان رأى القاتل فيه - بئس قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا . والقرآن الكريم نتيجة لتأكيد هذا المبدأ يفرض القصاص - قصاص الدولة - مطلباً إلهياً لا استثناء منه . وليست فكرة الطبيعة العقائدية للإسلام السياسى بالمعارضة مع الطبيعة المدنية للحكم هى مصدر الخلاف الوحيد فى القضية المطروحة وإنما أيضا التكفير الذى ينسب الى من يجهر بالطبيعة المدنية للحكم . من الذى يملك توجيه هذا الإتهام ؟! هل يمكن أن ينوب أحد الأفراد أو جماعة من الجماعات محل الدولة فى هذا الشأن ؟! وحتى إذا جاز ذلك ، فإن الدولة نفسها إذا هى أخذت هذا الأمر بين يديها ، فلا بد وأن يكون ذلك من خلال القضاء بإجراءاته وضمائنه ، بينما فى حالة قيام آحاد الناس باغتصاب سلطة الدولة تتوحد كافة السلطات فيهم ، فهم موجهو الإتهام ، وهم القضاة الذين يبدلون ، وهم فى النهاية ينفذون الحكم الذى يصدر فى غيبة التهمة ! وهى نتائج مرعبة حذر منها الشيخ الغزالي فى شهادته عندما سئل عن من يملك إقامة الحد على المرتد : فقال أن تلك وظيفة السلطة وليست لآحاد الناس والا تحولت الأمور الى فوضى .

وموضوع الردة موضوع دقيق وهو فضلا عن ذلك محل خلاف سواء بالنسبة لاثباته أو بالنسبة للجهة المخولة شرعا توقيعه .

وبينما يذهب البعض الى أن الردة ليست من بين الجرائم التى تدخل فى نطاق الحدود بل لا تدخل فى باب التعزير !! استنادا الى أنه لم يرد نص فى القرآن على وضع عقاب الردة ضمن الحدود ، وأن المرتد يترك وشأنه إلى قيام الساعة ، وأن تركه وشأنه قد يدفع به مع الزمن إلى التوبة ، وعند ذلك يغفر الله له . ويعتبر الدكتور محمد أحمد خلف الله أن القرآن وهو المصدر الأول للتشريع تكون لأحكامه الأولوية على ما عداها من أحاديث أو أجماع أو اجتهاد . (الأهالى ٧/٧) .

بينما يذهب آخرون الى أن جمهور العلماء يعتبرون قتل المرتد فرضا على الأمة كافة وإن تسعى الى توقيفه ، وإذا لم يقتل أثمت الأمة . (شهادة الدكتور مزروعة - الشعب ٧/٦) .

## ظلموا الشيخ الغزالي :

وبالنسبة للجهة المخولة شرعا بتوقيع العقاب على المرتد - المجمع عليه حتى ممن يوجبون قتل المرتد - أن ولي الأمر هو وحده المنوط بتوقيع العقوبة وتنفيذها فالدكتور محمود مزروعة يقرر في شهادته : ( أن المنوط به ايقاع حد الردة - كشأن الحدود كلها - هو ولي الأمر عن طريق النظم القضائية الموجودة ، ويلزم الأمة أن تنصح له وتوجهه وأن تطلب وتلج أن ينفذ حكم الله كما أمر وإلا أثمت الأمة كلها ، ويتحمل ولي الأمر وزر ما يحدث من فوضى وفساد وضلال في المجتمع كله إذا لم يقم الحدود ) .

غير أن الدفاع ضغط على الشاهد بتذكيره بأن إجماع الأمة الأربعة على جواز قيام آحاد الأمة بإيقاع الحد على الحاكم ، ولذلك طلب الدفاع من المحكمة توجيه هذا السؤال إلى الشاهد على أساس أنه إذا كان من الجائز قيام آحاد الأمة بإيقاع الحد على الحاكم الجائر فيكون الأولى جواز ذلك بالنسبة لمن هو أدنى من الحاكم . وقد كانت اجابة الشاهد غير قاطعة فهو يقول : ( إذا ترك الحاكم تطبيق الحكم على المرتد فسنظل ننصح الحاكم أن ينفذ حد الله ويترك إقامة الحد له ! أما إذا كان الذي تركه الحاكم ولم يقم عليه الحد مثار فتنة ومنشأ ضلال للآخرين وجب على الأمة أن تنتخب منها أو تنتخب بعض أفرادها لأراحة الناس من هذا الشر وإقامة الحد عليه لأن الإبقاء عليه ابقاء على نار مشتعلة في المجتمع ، لأنه إذا كان داعية ضلال ، وأذاعة فساد ، ونذر حياته للاساءة الى الإسلام والدعوة الى الضلال ، فإنه بذلك يمهّد السبيل لغيره للارتداد عن دين الله ) .

غير ان الشيخ الغزالي قد ظلم لأنه قد نسب إليه البعض أنه استباح دم المعارضين بالمجان !! وفضلا عن عدم صحة هذا الاتهام ، فإن فهمي هويدي قد سجل اندهاشه ازام حفاوة بعض الصحف المعبرة عن الحالة الإسلامية بما التبس من كلام الشيخ الغزالي ، فقد أبرزت الشعب عدد ٦/٢٦ في عناوين عرضا لشهادته أن ( تطبيق الأفراد لحد الردة ٠٠ لا عقاب عليه ! ) بينما نشرت ( النور ) عدد ٦ /٣٠ عناوين بارزة للموضوع ادعى أحدها أنه ، لا عقاب على قاتل المرتد ، ! والشيخ برىء من هذه الأقوال !

فهل صحيح أن شهادة الشيخ الغزالي واجاباته سوف يؤولها الدفاع ويستنتج من مجملها أن المجنى عليه ( كان خارجا على الملة ودمه مباح ) ؟ وبالتالي فالجناة لم يرتكبوا إثما وإنما نفذوا شرعا وهنا ممكن الخطر إذ يظل باب الشر مفتوحا أمام الاختيالات السياسية لكل المخالفين في الرأي ( الشيخ مصطفى عاصي الأهالي ١٩٩٣/٧/٧ ) .

ويتناقض هذا القول مع تحذير الشيخ الغزالي حين سئل عن يملك إقامة الحد على المرتد ، فقال إن تلك وظيفة السلطة ، وليس لآحاد الناس ، والاتحوالت الأمور الى فوضى .

يضاف الى ذلك أن من هاجموا الشيخ ومن انحرفوا بأقواله خلطوا بين صفتين صفة الشاهد ( الذي احببت الأسئلة به لمكانته ) وبين صفة الفقيه أو المفتي الذي يستشار بدون احاطة بالكتمان ! وفي تعبير فهمي هويدي : ( ان الشيخ الغزالي كان في مقام الشهادة ولم يكن في مقام الفتوى . وفي مقام الشهادة لا يكون عليه أكثر من أن يعرض ما هو ثابت

من نصوص شرعية في الموضوع أو ما هو مقرر من أحكام عامة في الفقه الإسلامي ، أما في مقام الفتوى فإنه يقوم بتزليل تلك النصوص والأحكام على الواقع ومن ثم يقدر مختلف ظروف اللحظة التاريخية من اجتماعية وسياسية وثقافية . ثم يوازن بين المصالح والمفاسد . ويصدر بعد ذلك فتواه في الموضوع . ومن قبيل ذلك فتوى ابن تيمية بالتفاسي عن تناول الخمر من التتار الذين مخلوا حديثا الإسلام استنادا الى أن الله حرم الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبى الذرية وأخذ الأموال ) وهكذا رأى ابن تيمية أن مفسدة شرب الخمر أقل ضررا من مفسدة ترويع المسلمين ونهب أموالهم ، غير أنه يضاف الى ذلك أن الدفاع صمم اسئلته بحيث تخدم اغراضا محددة ابتغاها لكي يدافع عن موكله ، وبعض تلك الاسئلة لم تكن تترك مجالا للمجيب لكي يذهب الى المسار الذي رسمه المحامي . ومن هذا القبيل السؤال عن حكم من يجاهر برفض تطبيق الشريعة كفرا أو استهزاء واستبد أن يكون الرفض ناشئا عن قلة العلم أو عن الالتباس في الفهم أو التخوف من نشوء احتمالات سلبية معينة ومن قبيلها الكلام عن السلطة الدينية أو التعددية أو وضع الأقليات أو غير ذلك . فالأسئلة التي طرحها الدفاع استجابات لاتتزع اجابات بذاتها لا خيار فيها ! تطرح سؤالا عن حكم الشرع فيمن يجهر برفض تطبيق الشريعة مجاهرا بالكفر أو بالاستهزاء بها ، وسؤال آخر عن يدافع عن ابدال الشرع بقانون وضعي لا يصدر عن أهل العدل والرشد وليس عن الطواغيت من البشر ، والتي تحل الحرام وتحرم الحلال !! وكانت الاجابة بالادانة حتما !

ويبدو أن مطالعة مدار في جلسة مناقشة د . محمود مزروعة أنه سئل صراحة هل الإسلام دين ودولة ؟ فأجاب أن جوهر الإسلام أنه لا يوجد فيه ما يسمى دين فقط وما يسمى دولة ، لأنه لا فصل في الإسلام بين الدين والدولة . وان كلمة دين تعني الحكم وأن من يدعو الى تعطيل الحكم بالشريعة خارج عن الملة لأنه عطل دين الله . والذي يفضل عليه تشريعا آخر هو ادخل في باب الكفر ، لأنه فضل الخلق على الخالق . . ( الشعب ٦/٧ ) .

بينما سئل الشيخ الغزالي عن حكم الإسلام فيمن يجهر برفض تطبيق الشريعة واستبدالها بشرائع الطواغيت من البشر ، التي تدعو الى تحليل الحرام وتحريم الحلال . فالسؤال يركز - كما قال فهمي هويدي - على مواصفات معينة وليس عن عموم الشرائع الوضعية التي قد لا تحل الحرام أو تحرم الحلال وقد تكون صادرة عن أهل العدل والرشد وليس عن الطواغيت . وكان رد الشيخ أن أمر هذا الشخص ليس مجرد رفض تطبيق الشريعة ولكنه دأع الى هدمها والسخرية منها انكارا وكفرا فهو اذن مرتد وليس مجرد منافق يقتصر على التحفظ على تطبيق الشريعة أو بعض أحكامها خوفا أو جهلا بضماناتها ومقاصدها وانما يصبح صاحب شبهة تزول بالحوار والمناقشة . فاذا لم تزل فإنه في أسوأ الأحوال يعد منافقا لا يعاقب على موقفه وقد كان في عهد رسول الله منافقون اشارت اليهم آيات قرآنية عديدة ، لكن لم يعرف أن احدا منهم تعرض للعقاب . ( الأحد ٦/٧ ) وبينما كانت اجابات الشيخ الغزالي بعيدة كل البعد عن تكفير من يدعو الى الفصل بين الدين والدولة في الإسلام لاعتبارات هامة . فإن د . مزروعة كان قاطعا في اتهام العلمانيين بالكفر .

## الفصل الثالث

### دلالات الشهادة وتوابعها

من هذا العرض الشامل للشهادة وتوابعها - تتضح الدلالات التالية :

(١) أن المؤسسة الدينية المشيخية . . كانت متفقة الرأي تقريبا لأنها رجعت إلى المراجع الفقهية السلفية القديمة التي وضعت منذ ألف عام - في مناخ وتأثير عوامل وملابسات مختلفة تماما ، ولم يستطع أى واحد منها أن يتحرر من أحكامها ، أو يكيف القضية التكييف الأصولى والموضوعى ، ولهذا فلم يختلف أحد منهم في تكفير المرتد ، أو أن الحد هو الموت . . وأختلف بعضهم في الاستتابة ( وهذا الخلاف موجود في المراجع الفقهية ) وظن بعضهم أنهم توصلوا إلى الحل وخلصوا من المأزق بالتأكيد على أن توقيع الحد هو من اختصاص السلطة - وكان القضية قد سويت ، وماعلموا أن البلاء كل البلاء هو في السلطة ! وأن ايكال هذا الأمر إليها هو كاعطاء القط مفتاح الكرار كما يقولون .

وبالطبع ، فيبدو أن التركيز على هذه النقطة كان للتخلص من الحرج ورمى الكرة في يد الحكم . . . ولكن أين يذهبون من الله إذا كانوا قد نجوا من الحاكم ، وهل يقبلون أن يكونوا كرجال الكنيسة الذين كانوا يسلمون « الهراطقة » للسلطة المدنية لتوقيع العقاب . . . دون أن يسفك دمه ! لأن الكنيسة تمقت الدماء ! وكان معنى هذا أن يحرق حياً !!

(٢) كشفت الشهادة عن مدى ما تتمتع به « المؤسسة الدينية » من نفوذ وقوة ، وهذا أمر طبيعي في هذا البلد المؤمن . . . ولكن النقطة التي يمكن أن تشد عن النطاق هي أن القضية ليست من مسلمات الاسلام ، بل هي تعارض صريح القرآن والآيات المتكررة فيه . مع هذا فقد سلم معظم الكتاب « المدنيين » بما جاء في الشهادة . . . ونهج بعض الكتاب منهج الفقهاء ، باختلاف بسيط هو أن الكتاب حولوا الأمر إلى الفقهاء باعتبارهم أهل الاختصاص . . . وليس هذا هو شأن الكتاب المفكرين وإنما هو شأن الكتبة و « المستوظفين » الذين يكون أقرب تصرف لهم للتخلص هو التأشير « يحول إلى . . . » .

وقد تكون هناك عوامل أخرى جعلت هؤلاء الكتاب في النهاية يؤثرون العافية !

وفي ضوء ذلك يمكن أن نفهم ما جاء في كلمة الأستاذ أحمد بهجت في  
أهرام يوم ١٩٩٣/٧/٢٨ ( ص ٢ ) :

إن الحرية الدينية مكلولة في الإسلام ، وحق الانسان في الاختيار عقيدته لا نقاش فيه ، ودخول الإنسان في الإسلام لا يكلفه أكثر من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وخروجه من الإسلام لا يكلفه إلا عدم القنائة بهذه الشهادة . . . أو انكار معلوم من الدين بالضرورة . . . ويخلو القرآن من نص يعاقب المرتد عن الإسلام عقاباً نديوياً . . . يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » . . . وهذا نص لا يتضمن عقوبة نديوية ، ورغم ذلك فقد جعل الفقه عقوبة على المرتد . . . وينبغي هنا أن نفرق بين أمرين : أن يكون المرتد قد خرج على الإسلام كموقف عقلي بحت ، بمعنى أنه لم يعد يؤمن بالله ولا برسوله ، ولكنه ترك المسلمين في حالهم فلم يرفع يده أو لسانه لإيذائهم أو حرهم ، وهنا لا عقاب عليه لقوله تعالى « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . . . أما إذا خرج المرتد على الاسلام وبدأ يعارب المسلمين ويسخر من دينهم ويحاول هدم مجتمعهم ، فحكمه هنا هو حكم من يتجسس لمصلحة العدو . . . إنه يحاكم بتهمة الخيانة العظمى ، ولا مجال هنا للحديث عن الحرية لأن الانسان حر في موقفه العقلي وقناعاته الفكرية ، ولكنه ليس حراً في هدم النظام العام أو مقدسات مجتمعه .

واستسلم للفقهاء قطب الناصريين ضياء الدين داود عندما سأله مندوب مجلة الأهالي ( ٤ أغسطس ١٩٩٣ ص ٧ ) عن رأيه فقال :

- إذا كان في رجل مرتد يستتاب بكل الطرق الشرعية ، وإذا أصر على ارتداده ، ففي هذه الحالة فنحن أمامنا شخص في نظر الشرع أنه مرتد ، وحكم الله لا يختلف عليه أحد . . .

الإسلام فيه حرية فكر لغير المسلمين ، ابتداء من ، لا إكراه في الدين ، ولكن المرء متى دخل الإسلام فهو بحاسبه ويخضعه لحكمه ، وهناك قضية أخرى وهي اختلاف الدين مانع للميراث ، فالمحاكم انتهت على أن من ثبت ارتداده فهو في حكم الميت . والقضية الرئيسية التي لم تثبت فيها هي ما قاله الشيخ الغزالي أنه إذا جاء في نفسك وأنت تجلس معي الآن أننى أرتديت بحكم ما أعلنه من أفكار وآراء . . هل تحكم على أننى مرتد وكفرت وتلفذ على الحكم لمجرد أن الدولة لم تنفذه ؟ أنا لا أعتقد أن الشيخ الغزالي يقول هذا وإلا أصبحت المسألة فوضى ، ولا بد أن هناك سلطة ما من شأنها أن تراجع ما قاله هذا الشخص بعد أن يستتاب وإذا أصر في المرة الثالثة أصبح مرتدا .

أما من ينفذ الحكم ، فحتى في التعزير كان ذلك متروكا في بعض المراحل للقاضي ، وروفي بعد اجتهاد الفقهاء أن تراجع سلطة التعزير إلى الحاكم حتى لا يحدث تباين شديد في الأحكام . . .

أما القطب الناصري الآخر ، فريد عبدالكريم ، الذي وجهت إليه المجلة في التحقيق نفسه السؤال عن فتوى الشيخ الغزالي فإنه قال :

، إذا عدنا للفتوى التي نقصدها ، فأنا لا أستطيع أبدا أن أدعى فهم أو معرفة نصف أو عشر ما يعرفه الغزالي في الإسلام ، فهو قد عرض وجهة نظر الفقهاء في دفع المنكر باليد وحدد الرجل أن دفع المنكر باليد أساسا من مسئولية الحاكم .

وهذا صحيح ، وهكذا فإننى لا أستطيع إلا أن أسلم بأن ما قاله هو الصحيح ، ومن الذى يدعى على الغزالي عدم معرفته بقواعد الإسلام لا أحد يستطيع أن يقول هذا ؛

نحن لانستغرب أن يقف أقطاب الناصرية هذا الموقف ، لأنهم ورثة الإرهاب والتعذيب ، وإن كانت المجلة التي حققت معهم مدعية حرية الفكر هي وريثة ما هو أسوأ من الناصرية نفسها ، فالشيوعية لا تستيب « المرتد » ولكنها تعبت بفكره .

وتستخدم وسائل التكيف السيكولوجى وغسيل المخ والقضاء على الارادة حتى يعترف على نفسه بأنه مجرم !

ولما كان أدعياء التنوير هم عادة ما بين ناصرى أو شيوعى أو « عروى » ، فانهم - رغم ثورتهم العنيفة على الشهادة - لم يعالجوا القضية معالجة موضوعية ، وسوابقهم التاريخية نحو المخالفين اسوأ مما ذهب اليه الشيوخ على ماأشرنا ، وانساقوا فى دعاويهم عن « أسلمة » المجتمع والارهاب والخومينية إلى آخر هذا الهراء ، مما أفقد معارضتهم مصداقيتها الموضوعية .

(٣) وكشفت «الشهادة وتوابعها» عن قدر من الخلط فى المفاهيم . .  
فهناك المرتد الذى يرتد بناء على فكره الخاص أو دراسة أو محوطاته . . . إلخ  
فيرتد ويجلس فى بيته ولا يجاهر بردته .  
وهناك المرتد الذى يكتب كتابا أو ينشر مقالا عن آرائه وأسباب ردته . . مما يفهم أنه معارضة للإسلام أو دعوة - ولو ضمنية - للفكر الذى آمن به .

وهناك المرتد الذى ينضم إلى اعداء الإسلام ويعمل لتقويض معالم الإسلام .

أما الفقهاء فلم يفرقوا ، فالمرتد هو المرتد ، سواء جلس فى بيته أو دعا بدعوته إذ يترتب على الردة أحكام فى خاصة أهله وبيته . فاذا كان مرتدا حقا ، ففقه التقليد يفرق بينه وبين زوجته ، ويمنع من أن يدفن فى مقابر المسلمين ، ويصادر ماله . . .  
أطلع .

وهناك بعض الكتاب وجد أن من ارتد دون مجاهرة فلا سبيل عليه ولعله استأنس بالحديث « الناس كلهم معافون الا المجاهرين » .

وعلى كل حال ، فإن هذا الموقف من الكتاب المشهورين الذين يلحظون اعتبارات عديده ويؤثرون العافية لم يكن شأن بعض الذين أرسلوا بتعليقاتهم إلى الاستاذ صلاح منتصر فإنهم - مع أنهم لم يكونوا من الفقهاء المتخصصين ، ولا الكتاب المشهورين . وربما لهدن السبيين - بالذات - رفضوا موقف الاستسلام وأثاروا وجهات نظر غفل عنها الفقهاء المشهورون - وبرهنوا بذلك على أن فكرة أن المختصين هم وحدهم الجهة



التي تتوفر لها الرد السليم ، فكرة لاستقيم في مجال الفكر الديني ولا يمكن القياس فيها على مجال الطب والهندسة ، وأن الآية التي يستشهد بها الفقهاء ﴿ اسألوا أهل الذكر ﴾ لا يجوز أن تؤخذ بما يفسرونها !

(٤) كشفت « الشهادة وتوابعها » عن أنه ليس في هذا البلد إيمان عميق ، حقيقي ، مقدس بالحرية - كما يجب أن يكون الإيمان ، وكما تستحق الحرية ، .. إن مجرد إثارة موضوع الردة والأخذ والرد فيه ، دليل على هذا ، وقد آن لنا أن نفهم أن نقص الحرية هي أصل كل بلائنا ، خاصة من ١٩٥٢ حتى الآن ، وأن الذين ينادون بالحرية هم مجرد ببغاوات إذا تصوروا أنها تُقدّم بالتقسيت ، أو بصفة جزئية ، أو بعضها دون بعض ، أو تقدم على مراحل .. الحرية كل لا يتجزأ .. والذين يقولون ويكررون أن الإسلام يقرر الحرية ، ثم يعرّفون فيستنون منها أكثر مما يقولون ، ليسوا من الحرية ، ولا من الإسلام في شيء . ومن أسخف ما يساق في هذا الصدد الادعاء أن الإسلام يكفل الحرية لغير المسلم ، فله أن يكفر ، وأن يؤمن ، ولكنه لا يكفل الحرية للمسلم ! الله أبوهم ! كيف يستقيم هذا أصلا ومنطقا .. وهل الكافر أكرم عند الله من المسلم ؟ أو لا يدخل في ولايته .. وهل الإسلام الا دين الحرية أصلا وفرعا للناس كافة مسلمين وغير مسلمين ؟؟ في رسالتنا الموجزة ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ : « قضية الحرية في الإسلام » قلنا إن الحرية تتبع أصلا في الإسلام من الحق ، ولكن هناك حرية واحدة لا يمكن أن يكون عليها سلطان أو قيد حتى من الحق نفسه - هي حرية الفكر - لأنها هي التي تؤدي إلى الحق ، وهي التي تعرف الانسان بالحق ، وهي التي تحمي الحق من أن تلتصق به الاباطيل والزيف . فلا يمكن أن يكون الحق وصيا عليها أو معرّفا بها والإسلام لا يخشى مثل هذه الحرية على العكس إنه يرى أنها هي التي تقود إليه أولا ، ثم تحفظ الايمان ثانيا .. فهي التي تكشف عن الإسلام واستحقاقه الايمان ، ثم هي التي تحفظ للايمان نضارته وأصالته وحيويته ، لأن الحرية هواء متجدد ، والانغلاق مستنقع راكد !

وحاول أحد الكتاب أن يميز بين حرية الاعتقاد والفكر ، وبين حرية التعبير .. ورأى أن الأولى مكفولة بحكم القانون ، أما الثانية - حق التعبير - « فإنها تخضع ل ضمانات وقيود ، فإذا كانت حرية الفكر ترتبط بمفهوم مطلق فإن حرية التعبير ترتبط بمفهوم نسبي يتأثر بطبيعة النظام السياسي السائد والمناخ الاقتصادي

والاجتماعى والثقافى ، لذلك فقد حددت بعض نظم الحكم دوائر تمثل مناطق مقيدة  
لحرية التعبير ، ومنها على سبيل المثال بعض قضايا الأمن القومى كشتون القوات  
المسلحة والنشاط العسكرى للدولة وأسرارها الاستراتيجية ، كذلك بعض المسائل  
المتعلقة بالعقائد الدينية التى تعبر عن وجدان الإنسان ولا تخضع غالبا للجدل العقل  
ويعتبر المساس بها تجريحا لأصحابها ، ويتصل بهذه القضايا أيضا بعض الأمور الخاصة  
بالوحدة الوطنية وأوضاع الأقليات وكل ما يعتبر تحريضا على الفتنة الطائفية . .  
وهكذا نجد أن الإعلان عن الأفكار يختلف عن عملية الفكر ذاتها<sup>(١)</sup> . . .

فالكاتب هنا يفرق بين « الإعلان عن الأفكار » وبين « عملية التفكير ذاتها »  
ولكنه فى المقال نفسه يقول - وله كل الحق فى ذلك - « فلا حرية لفكر فى ظل القهر  
السياسى ، ولا استمرار لفلسفة فى ظل القيد الاقتصادى ، ولا سلامة لمفكر فى ظل  
الكبت الاجتماعى » .

نقول إن هذه كلها : القهر السياسى ، والقيد الاقتصادى ، والكبت الاجتماعى . .  
إنما تنشأ للقيود على الإعلان عن الأفكار ، ومن هنا نعود من حيث بدأنا ، بمعنى أن  
التفرقة ليست ذات طبيعة أصولية ؛ ولكنها تفرقة لما تفرضه النظم الحاكمة للعمل  
لمصلحتها هى . . حتى وإن ادعت مصلحة المجتمع ، وإلا فإن حرية الإعلان عن الفكر  
لا تفتقر عن حرية التفكير نفسها ، ولا تكتمل حرية التفكير إلا بها ولا يمكن تقبل  
أى قيود على حرية الفكر ، إلا على أساس الاستثناء الذى لا يكون منه مفر ، والضرورة  
التي تقدر بقدرها ، ولا يعد هذا بعد ذلك كله أمرا حسنا ، ولكن ضرورة سيقة علينا  
أن نخلص منها بقدر الطاقة

(٥) كشفت « الشهادة وتوابعها » عن الحالة النفسية التي تسيطر على الفقهاء والشيوخ  
بصفة خاصة ، وإن لم تقتصر عليهم ، وتكون مفرداتها : عدم تقدير الحرية حق  
قدرها ، أو حتى بعض قدرها ، والتمسك بالقديم المألوف والضيق بالجديد ، والنزعة  
الانطوائية التي ترفض الانفتاح وتعزف عن كل جديد أو مخالف ، وتظن فيه نوعا  
من العداء أو العبث . وقد جعل مشاعرهم حادة ، وعواطفهم مرهفة أن كثيرا  
من الذين يدعون إلى حرية الفكر يشنون الغارات على الدعوات الإسلامية ، وقد يسف

---

(١) الأستاذ الدكتور مصطفى الفقى فى جريدة الأهرام (١٨/٨/١٩٩٣ ص ١٧) تحت عنوان

(هل لدينا أزمة فكر) . . .

بعضهم إسفافا ملحوظا ، كما قد يكون من بينهم من يدعون للتحلل الخلقي ويعملون لإشاعة الفحشاء .

وقد يصور ذلك كله الكلمة التي نشرتها جريدة الشعب للشيخ محمد الغزالي في ( ١٧ / ٨ / ١٩٩٣ / ٢٨ صفر ٢٣١٤ هـ ) :

### هذا ديننا

لم يضع الاستعمار أوقاته سدى عندما وطئت أقدامه دار الإسلام ، لقد شرع لغوره يغير التشريع والتعليم والتربية والتقاليد جزأ بلائمه ، ومستقبلا يطمئن إليه ، وما قد نضجت الأنشواك التي بنرها ، ورأينا ناسا يفكرون بعقله ويضربون بيده ويحاولون تغيير الأخلاق والعقائد وفق مشيئته . . . والناظر عن قرب أو بعد يرى المثقفين قسمين ، قسما لم يتغير للإسلام ولاؤه ولا انتمائه ، وقسما آخر يعلن بكراهيته لشعائر الدين وشرائعه ، ورغبته في إسقاط ما بقي من آيات الإسلام في بلاده !! كانوا قديما شيوعيين ، ثم صاروا علمانيين . . . وتتغير الشارات التي يبدون فيها ، وتبقى صفاتهم على الإسلام وأمتة ثابتة لا تزيدها الأيام إلا ضراوة وغلوا . وهم مع ضيقهم بالإسلام ومعامله حراس على البقاء في ديارته ! لماذا ؟ حتى يؤدوا وظائفهم في تخريبه من الداخل ؛ إن دودة ، البلهارسيا ، تريد أن تبقى داخل الجسم لتعوق نموه ، وتلمس عذله ، وتجرحه إلى الموت جراً ، ولذلك رأينا هؤلاء المرتدين عن الإسلام يرفضون المعالنة بتركه ويحرصون على البقاء فيه !! لكنهم في الوقت نفسه لا يقيمون صلاة ولا يؤتون زكاة ، ولا يقرن الله بسبع أو طاعة ! إنهم يعرفون إسلاما بلا نصوص ولا أركان ، ويحاربون كل دعوة إلى الاحتكام إليه أو إحياء ما أمات الاستعمار من أمره . . . !! وقد سقطت الشيوعية في كل مكان نجدهم يمتلكون أزمة الترجيح ، ويفرضون إحداهم صراحة أو التواء ويحاربون رموز الإسلام بكل ما لديهم من طاقة ! لقد بلغت الأمور مرحلة لا تتحمل هذا النفاق ، ونحن نأبى كل الإباء أن يضرب الإسلام بأيد إسلامية ، لا مكان بعد اليوم للنس أو نفاق ، إما أن تكونوا أيها الناس مع الإسلام باطنا وعلانيا ، وإما أن تتركوه علانية وتكشفوا كلركم به ! ويعجبني قول المثقوب من شعراء الأقدمين .

فإذا أن تكون أخى بصدق

فأعرف منك غشى من سموني

وإما فاطرحنى ، واتخلى

عدوا اتقيك وتتلىنى !

لا مكان بيننا اليوم لمرتد يكره الكتاب والسنة ، ويصدم جماهير المؤمنين ، ثم يزعم نفاقاً أنه مسلم ! مسلم يحارب الله ورسوله ! باللعجب .

وقد كرر الشيخ الغزالي المعاني التي تضمنتها كلمته تلك في عدد من الكلمات التي نشرت في جريدة الشعب تباعا وغيرها ، مما يوضح أنها معان ثابتة ، مستقرة ، في نفسه . . وأن يكون هؤلاء لأَيصَلُون ، فهذا ما يقع إثمهم عليهم ، ولكن لم يصلوا اليوم ، فقد يصلون غدا ، وفي التوبة متسع حتى « الغرغرة » ولسنا نحن على كل حال بالذين نحاسبهم على هذا ، والقول أنهم « إما أن تكونوا أيها الناس مع الإسلام ، باطنا وظاهرا ، وإما أن تتركوه علانية وتكشفوا كفركم له » هو ما يوضح الطبيعة النفسية والمزاجية التي تسيطر على الإسلاميين ، فنحن لم نؤمر بالتنقيب عن الباطن ، ولا أن نعين الشيطان عليهم ، وإنما ندعو الله لهم بالهداية ، وأن نقول لهم - كما قال الرسول العظيم - « اللهم اهد قومي ، فإنهم لا يعلمون » وفي الوقت نفسه نرد عليهم الحججة بالحجة ، والبرهان بالبرهان ، وقد كان المنافقون يعيشون في المدينة ويكيدون للإسلام ، ويأتي إلى الرسول من يطلب قتلهم ، فيرفض ، وموقفه من كبيرهم عبدالله بن أبي معروف وكان صلى الله عليه وسلم آية في سلوك مسلك الداعية إلى الله . . وكان العرنى الجاني المشرك يأتيه فيقول له: «أسلم» فيقول «أجدني كارها» فلا يزيد على أن يقول : «أسلم ، وإن كنت كارها» . . فهذه هي المواقف التي يكون علينا أن نستضيء بها ونهتدى بهديها .

وفي كل كلمات الفقهاء التي أوردناها افتراض سابق ومؤكد عن عداوة يُضمَرها كل من يعالج الموضوع معالجة حرة ، وأن أي اختلاف جوهرى فيما يرون أنه معلوم من الدين بالضرورة ناهيك بالردة نفسها لأبداً وأن يقود إلى شر أو غناء ، ولهذا فإما أن يُفهم أو يُقَوِّم أما احتمال أن يكون حسن النية ، طالباً للحقيقة ، فأمر مستبعد وغير متصور ولهذا تأتي أحكامهم بالكفر والمروق . وكان حيراً لهم أن يردوا عليهم بالدليل والبرهان والمنطق ، والإسلام دين العقل والفكر والحوار . . وهذا الأسلوب بعد ، هو الذى يفحم خصومهم ، ويجردهم من سلاحهم ويلقمهم حجراً .

ولكن يحول دون أن يقزم الفقهاء بذلك أمران :

الأول : أنهم لا يجدون قنوات الإعلام من صحافة أو إذاعة تمكنهم من ذلك وتوصل آراءهم للناس ، ومع أن الدولة هي المسؤولة عن هذا الوضع عندما أسلمت أجهزة الاعلام إلى فئات بعينها ، وأورثتها هذه المناصب من أيام الناصرية ، حتى أصبح ذلك أشبه بتقليد . . نقول ، مع هذا ، فإن الإسلاميين مسئولون أيضا ، فلم يكن يعجزهم إصدار الصحف والتغلب على العقبات لو كانت لديهم العزيمة ، وإيثار الدعوة إلى الله ،

على الاستحواز على متاع الدنيا أو تأمين المستقبل المادى لهم ولأسرهم ، وقد أثر كثير من كبار الدعاة الاسلاميين أن يستثمروا أموالهم في « الريان » وغيره دون أن يفكروا في فتح صحف ودور نشر إسلامية - مع أن هذا هو الجهاد الحق الآن ، ونشاط اليساريين في هذا أضعاف نشاط الإسلاميين !

والثاني : وهو مرتبط بالأول ، أن الإسلاميين - حتى لو توفرت لهم الصحف - فإنهم لا يستطيعون إدارتها أو تديبها لعدم توافر المهارات الصحفية ولأن مستوى ونوعية ثقافتهم مما لا يتلاءم مع طبيعة الصحيفة ، ولو وجدوا الصحف ملأوها بالغثاء والاجترار والنقول من كتب التراث ، ولجعلوها - على أفضل الأحوال - كتابا . . . وهناك فرق بين الكتاب والصحيفة . . . وهذه الحقيقة المؤسفة تعود إلى أنهم أغلقوا على أنفسهم منافذ الثقافة والمعرفة ، وجهلوا اللغات ، وحتى الذين سافروا إلى الخارج وألموا باللغات ( وقد رأس مشيخة الأزهر من تعلم في السوربون ) فإنهم ذهبوا ، وعادوا « كصفوان عليه تراب أصابه وابل فتركه صلدا » . . . فلم يستفيدوا من علمهم الأوروبي شيئا ، ومن ثم فما كان يمكن أن يفيدوا به آخرين ، فما أبعدهم عما أراد الإسلام وعما أراد الرسول ، « اطلبوا العلم ولو في الصين » . . . « الحكمة ضالة المؤمن » . . . ولو ألموا بالثقافات الحديثة لوجدوا فيها ما يدعم موقفهم ، وما يفحم خصومهم ، فإن أذكى الأوروبيين وأفضل من يعنى منهم بالدرس يؤمن بالإسلام ، ولكنهم أسرى المزاج النفسى. والرواسب الثقافية الأزهرية السلفية المغلقة ، فلا يستطيعون تحررا منها ، بل لو قام غيرهم بالدفاع عن الإسلام بغير طريقتهم ( وربما أيضا بطريقتهم ) لقاوموه لأنه يستخدم أدوات وطرائق مختلفة ، أو لأنه ، بكل بساطة - لا يضع عمامة على رأسه ، فلا يكون من أهل الذكر . . .

## الفصل الرابع

### لا حد .. لا استتابه .. لا تعزير

على كل حال ...

فنحن نقول ، بأعلى أصواتنا : كلا ثم كلا ...

ونحن نرفض رفضا باتا ، قلبا وقالبا ، كل فكرة عن تكفير مرتد ، أو إقامة حد عليه ، أو تعزير ، بل نحن نرفض مبدأ التكفير أصلا من باب عدم الاختصاص ، ونرى أن الادعاءات عن حد للمرتد لا تقوم على قرآن أو سنة ولكنها من وضع الفقهاء ، طبقا لاجتهاداتهم ، وفي ضوء ظروف معينة تحكمت فيهم !

ولن يتسع المجال هنا لمعالجة موضوعية مفصلة ، خاصة وأنا عاجلنا هذه القضية في عدد من كتبنا مثل « حرية الاعتقاد في الإسلام » و « قضية الحرية في الإسلام » و « العودة إلى القرآن » .. ولهذا فسوف نشير إلى رؤوس الموضوعات ، وعلى من يرد الاستزادة أن يرجع إلى الكتب السابقة<sup>(\*)</sup> .

---

(\*) قامت بنشر هذه الكتب « دار الفكر الإسلامى »

وسندنا . . .

## أ - من القرآن

( ١ ) أن القرآن الكريم - على كثرة إشاراته إلى الردة صراحة ، وتكرارها المرة بعد الأخرى - لم يرتب عقوبة دنيوية عليها ، وإنما توعد المرتدين بغضب الله وسخطه وعقوبته في الآخرة .

وهذا سند واضح وصريح أن القرآن لم يرتب عقوبة دنيوية على الردة ، ويكون له قيمته من ناحية أن الحدود هي حق الشارع ، . . . والشارع هو الله تعالى .

( ٢ ) أن القرآن الكريم يقرر حرية الاعتقاد وبصورة مطلقة ليس عليها حد ، أو ورائها مزيد ، وآيات ذلك قد تزيد على المائتين ، كل واحدة تصدح الحجر ، وتُنطق البقر !

وهذا دليل إيجابي - بالاضافة إلى الدليل السلبي السابق - يجعل الذين يهتدون بهدى القرآن ، يعزفون عن أن يضعوا حدا يعارض المبدأ العام الذي سنه القرآن وكرره تكريرا وأكدته تأكيدا إيجابا وسلباً .

( ٣ ) يريد القرآن أن يقطع الطريق على كل تحايل أو تأويل ، فيقرر في عشرات الآيات ، وبصريح العبارات أن الفصل فيما يختلف فيه الناس من أمر العقيدة إنما مرده إلى الله وحده ، يوم القيامة وحده . . .

ففكرة التكفير أصلا مجافية لروح القرآن ، ولنص الآيات التي قصرت الفصل في ذلك على الله تعالى ، ولم يكفر الرسول أحدا ، بل نهى عن تكفير المنافقين وصلى على كبيرهم !

وفي كتابنا « رسالة إلى الدعوات الإسلامية من دعوة العمل الإسلامي » قلنا : إن دعوة العمل الإسلامي لا تكفر أحدا ، حتى الذي يقر على نفسه بالفكر - على أساس عدم الاختصاص وحسم شأفة ذلك الباب .

( ٤ ) إن القرآن الكريم إنما كان يعبر في هذا عن السنن التي وضعها الله للمجتمع الانساني ، وأنزل بها الكتاب ، فقضية الايمان والكفر هي قضية قلب ونية ،

ولا وجود لقلب مطمئن ، أو نية راضية الا في مناخ من الحرية التامة ، فاذا وجد أى نوع من القسر فانه سيكون على حساب صفاء النية وخلوصها ، فاذا كان المجمع الإسلامى هو بمجمع العقيدة ، فانه بالضرورة والتبعية يجمع الحرية ، فلا عقيدة بدون حرية .

ومن هذه السنن أن الهدى والضلال قسمة وأنها تعود إلى طبائع النفوس أكثر مما تعود إلى العقل والمنطق ، وهناك من أضله الله على علم ، وهناك من لايزيدهم القرآن إلا خسارا ، وهناك من يقولون « قلوبنا غلف وفي آذاننا وقر » . وسواء عليهم أنذرتهم أو لم تنذرهم ، ولافائدة من أى قسر على هؤلاء ، فلن يزيدهم إلا عنادا ، وقد يجعلهم أبطالا في عيون الآخرين ! يستوى في هذا الكافرون أصلاً والمرتدون لأن القرآن لم يفصل .

( ٥ ) من السنن التي وضعها الله وعبر عنها القرآن أن الرأى المخالف له دور ، ولهذا سمح بوجوده ، وهذا الدور هو إثارة الهمم للدفاع ودراسة ماقد يثيره هذا الرأى المخالف من نقاط ضعف ، وبدون ذلك تصبح الحياة الفكرية أشبه ببركة آسنة تفوح منها الروائح الكريهة ، وقد تتطرق اليها الاخطار دون أن يكشف عنها أحد حتى تتضخم وتتفاقم ويصعب علاجها !

بل يمكن أن تذهب بهذا العامل إلى أبعد مدى . . فان الله تعالى إنما أنظر إبليس إلى يوم القيامة ، وسمح له باستخدام خيله ورجله . . . إلخ ، لأنه تعالى يريد اختبار المؤمنين ، ولا يريد لهم حياة آسنة يكون الايمان فيها وراثه وعادة دون فكر أو إبتلاء .

( ٦ ) أن القرآن الكريم وضع تماما طريق الدعوة إلى الله وأنها تقوم على الحججة والبرهان والحكمة والموعظة الحسنة . . ومن يقرأ القرآن يؤمن أن الانبياء هم أعظم المعلمين ، وهم أول من سن طريقة الحوار وعنى القرآن الكريم بأن يؤكد أن الرسول ليس حفيظا ، ولا جبارا ، ولا حتى وكيلا ، وأنه ليس عليه هداهم وإنما عليه البلاغ . . وقد أورد دون حرج كل دعاوى المشركين وأقوالهم على الله والرسول ورد عليها بالحجة والبرهان .

وإنه لمن أعظم الأمور دلالة أن يقول القرآن الكريم للرسول المكلف بالدعوة والتبليغ : ﴿ ليس عليك هداهم ﴾ . . ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ . . ويوجهه ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ . . ﴿ وما عليك ألا ترضى ﴾ . . ﴿ من شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ﴾ . . ﴿ لا أعبد



ماتعبدون ، ولا أنتم عابدون ماعبدون ولا أنا عابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين<sup>(١)</sup> ﴿ ٥٥ ٥٠ ٥٠ ﴾ وينفى عن الرسول أن يكون على الناس حفيظاً أو وكيلاً . . . فبأى حق ، وبأى سلطة يجعل بعض الناس أنفسهم أوصياء على الناس ؟ . . . وبأى حق يفرضون هدايتهم فرضاً تحت إرهاب السيف ، ( لأنه ما لم يتوبوا ، فسيفقتلون !! )

اللهم إن هذا افتيات على الله ، وعلى رسوله .

القرآن الكريم إذن :

- يذكر الردة مرارا ثم لا يرتب عليها عقوبة دنيوية . . .
- يقرر حرية الاعتقاد كاملة غير منقوصة « من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .
- يؤكد أن الله تعالى وحده هو الذى يفصل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .
- يؤمن بأن الهدى والضلال قسمة لها أسباب عديدة . . .
- يؤمن أن الرأى المخالف له دور . . .
- جعل السبيل إلى الدعوة الحكمة والموعظة الحسنة ، ورفض أن يكون الرسول جبارا ، أو حفيظاً ، أو حتى وكيلاً ، وحدد له دوره بالبلاغ المبين .
- بناء على هذه الحثيات لا يكون هناك أى نوع من المحاسبة الدنيوية على حرية الاعتقاد ، إيمانا وكفرا ، وتكون قضية تكفير فرد ما مستبعدة على أساس عدم الاختصاص ، فليس من حقنا أن نقول : إن هذا مؤمن وهذا كافر ، هذا سيدخل الجنة وهذا سيدخل النار !! . فان هذا تأل على الله والفتيات على ما احتص به نفسه دون الناس .

\*\*\*

ب - من السنة :

نأتى إلى السنة ، والأحاديث التى أقام عليها بعض الفقهاء حكمهم فنقول بادية ذى بدء إن السنة تكون أصلا للتبليغ وإيضاح المبهم والمجمل مما جاء به القرآن ، كمايضاح طرق الصلاة ، ومقادير الزكاة ، وشعائر الحج . . . فقد وردت الصلاة والزكاة والحج فى القرآن مجملة ، وقامت السنة بتحديد تفاصيلها ، والفقهاء يقولون عن هذا « تفصيل مجمله وتقييد مطلقه ، وتخصيص عامه » !

ومن المسلم به أن الشارع هو الله تعالى ، وأن طاعة الرسول إنما تكون لان الله تعالى أمر بها ، فهى من طاعة الله ، ومن ثم فقد اختلف العلماء فيما إذا كانت السنة

(١) سورة الكافرون التى كان الرسول ﷺ يصل بها عادة رغبة الفجر حتى أيامه الأخيرة ، فلا يقال نسخت . فاذا قيل إنها عن الكافرين فنقول إنها ، من باب أولى ، تنطبق على المرتدين . . .

تستقل بتشريع أو تأت بحكم جديد غير مؤكد لما فى القرآن ، ولا مبين له ، وهى نقطة عاجلتها كل كتب « أصول الفقه » وكمثال على ذلك ما جاء فى كتاب « أصول التشريع الإسلامى » للشيخ على حسب الله :

### النوع الثالث :

ماكان مشتغلا على حكم جديد غير مؤكد لما فى القرآن ، ولا مبين له ، وقد اختلف العلماء فى هذا :

( ١ ) فقال بعضهم : قد تأتى السنة بما ليس فى الكتاب ، ولذلك أمر الله بطاعة رسوله مع الأمر بطاعته فى كثير من الآيات ، وأقر الرسول معاذًا على الرجوع إلى السنة إذا لم يجد فى الكتاب مايريد ، وذم من يترك سنته ويتمسك بالكتاب وحده فيما روى المقدم بن معد يكرب عنه رضي الله عنه : ( ألا وإلى قد أوتيت الكتاب ومثله معه ٠٠٠ إلخ ) ، وجاءت السنة بأحكام لم ترد فى الكتاب : كتحريم الحمر الأهلية ، وكل ذى ناب من السباع ، وتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها .

والرسول لا يأتى - فى هذا الباب - بما يناقض القرآن ، لأنه أعرف الخلق بما يبلغ عن ربه ، وأخبرهم بمقاصد الشريعة ، لعناية الله تعالى به ، وعصمته من الزيغ ، وتوفيقه إلى الحق ، وتسديده إلى الصواب .

( ٢ ) وقيل : إن السنة لا تأتى إلا بما له أصل فى الكتاب ، فإذا كانت مفصلة لمجمله ، أو مقيدة لمطلقه ، أو مخصصة لعامه - فهى موضحة للمراد منه ؛ وإذا جاءت بغير ذلك فالمقصود منها إما إلحاق فرع بأصله الذى خفى إلحاقه به ، وإما إلحاقه بأحد أصليين واضحين يتجاذبانه .

فمن الأول ما ورد فى السنة من تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها فإنه فى الحقيقة قياس على مانص عليه من تحريم الجمع بين الأختين ٠٠ ولذلك تعرض الحديث لبيان المصلحة المترتبة على الحكم إذ قال صلى الله عليه وسلم بعد النهى عن الجمع بين الاثنتين : ( فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم ) .

ومنه أيضا أن الله تعالى ذكر الفرائض مقدرة ، ولم يذكر من ميراث العصابات إلا ما نص عليه قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ ، وهو يقتضى أن العاصب من غير الأولاد والأخوة ليس له فرض مقدر ، بل يأخذ ما يبقى بعد أداء الفرائض ، ولكنه قياس قد يخفى ، فبينه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :

( ألقوا الفرائض بأهلها ، فما بقى فهو لأولى رجل ذكر )

ومن الثالتي أن الله تعالى أهل الطبيبات وحرّم الخبائث ، فمن الأشياء ما اتضح الحاقه باحد  
الأصلين ، ومنها ما اشتبه بالحرّم الاهلية وذى الناب والمخلّب ، فنصت السنة على ما يرفع  
الشبهة ، ويرجح أحد الجانبين المشتبهين ، بالنهي عن أكل الحرّم الأهلتي ، وكل ذى ناب  
من السباع ، وكل ذى مخلّب من الطير ، وإباحة أكل الضب والأرنب وماشابههما .

ومنه أيضا أن الله تعالى أهل شرب ما لا يسكر كاللبن والعسل ، وحرّم المسكر وهو الخمر ،  
فاشتمه بالأصلين ما ليس بمسكر ، ولكنه يخشى أن يسكر ، وهو نبيذ الدباء والمزفت والمقير  
ونحوها ، فهبت السنة أن هذا ملحق بالمسكر سدا للذريعة<sup>(١)</sup> .

وهكذا لاتأتي السنة بحكم إلا وله في الكتاب أصل يرجع . فهي  
خادمة له بتبيين مقاصده ، والإعانة على تطبيق أصوله وقواعده<sup>(٢)</sup> .  
إنتهى .

---

( ١ ) قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ وسألوه في حديث لهم عن الأشربة ، وكان الناس  
يكثر من الاتباض في أوعية الحنم والدباء والنقير والمزفت والمقير . فنهاهم عن الاتباض فيها ،  
لقرب العهد بشرب المسكر ، واستعمال هذه الأواني لحفظه ، فكان ما يبيد فيها يتأثر بما يتضح فيه  
منه ، فيكون الشارب منه معرضا للسكر من حيث لايريد ، وأباح لهم الشرب في ظروف الأدم دون  
سواها .

فلما ألفت الناس اجتناب المسكر ، وتخلصت تلك الأواني من آثاره . . زال سبب النهي ، فعاد  
بهم إلى الإباحة الأصلية : روى عبدالله بن بريدة عن أبيه : أن الرسول ﷺ قال : ( كنت نهيتكم  
عن الأشربة ألا تشربوا إلا في ظروف الأدم ، ألا فاشربوا في كل وعاء ، غير ألا تشربوا مسكرا ) ( راجع  
ص ١٧٨ ج ٢ : تيسير الوصول ) .

والحنم ( بفتح الحاء والتاء بيهما نون ساكنة ) : جرة كان يحمل إليهم فيها الخمر .  
والدباء ( بتشديد الدال مضمومة والباء مفتوحة ) : القرع اليابس . . كانوا يحرقون فيه العنب ثم يذفونونه  
حتى يهدر ثم يموت .

والنقير : وعاء يتخذ من أصل التحلة بالنقر ، وكانوا يندون فيه الرطب والبسر ويدعونونه حتى يهدر  
ثم يموت .

والمزفت والمقير . . ما طلى بالزفت أو القار من الأوعية . . .

( ٢ ) أصول التشريع الإسلامي للشيخ على حسب الله ص ٤٨ - ٤٩ الطبعة السادسة ١٩٨٢ .

يؤكد هذا المعنى أن لجنة الفتوى بالأزهر عندما سئلت هل من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم يعد كافراً أم لا . لما ردت بفتوى قالت : إن من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم منكر لشيء اختلف فيه الأئمة ولا يعد مما علم من الدين بالضرورة ، فلا يعد كافراً . ونورد هنا نص هذه الفتوى لأهميتها فيما نحن بصدده .

## الفتوى

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين وبعد . تنقسم الأحكام عند الجمهور إلى خمسة أقسام :

١ - الواجب : وهو ما ثبت طلبه من المكلف بنص صريح قطعي الثبوت وقطعي الدلالة ، بمعنى أن له معنى واحداً فلا يختلف في معناه المجتهدون من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة .

٢ - الحرام : هو ما طلب الشارع من المكلف تركه بنقل قطعي الثبوت وقطعي الدلالة من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة .

٣ - المنذوب : ما طلب الشارع فعله طلباً غير حتم ولا جازم يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه .

٤ - المكروه : ما طلب الشارع تركه طلباً غير حتم ويثاب على تركه ولا يعاقب على فعله .

٥ - المباح : ما خبر المكلف بين فعله وتركه ، أو لم يرد دليل فيه بالتحريم .

## وتنقسم السنة إلى متواترة وآحادية :

فالمتواترة : ما رواها جمع يستحيل أو يبعد أن يتفقوا على الكذب ، قال الحازمي في شروط الأئمة الخمسة ص ٣٧ : وإثبات التواتر في الحديث عسير جداً ، وقال الشاطبي في الجزء الأول من الاعتصام ص ١٣٥ : أعوز أن يوجد حديث متواتر ، واختلاف علماء السنة على

ثبوته وعنده : يرى الجمهور أن من أنكر استقلال السنة المتواترة بإثبات واجب أو محرم فقد كفر ، أقول أغلب السنن العملية متواترة .

والسنة الأحادية : هي ما رواه عدد دون التواتر عن النبي ﷺ ، وقد اختلف العلماء في استقلال السنة الأحادية بإثبات واجب أو محرم ، فذهب الشافعية ومن تبعهم إلى أن من أنكر ذلك في الأحكام العملية كالصلاة والصوم والحج والزكاة فهو كافر ، ومن أنكر ذلك في الأحكام العلمية كالإلهيات والرسالات وأخبار الآخرة والغيبيات فهو غير كافر لان الأحكام العلمية لا تثبت إلا بدليل قطعي من كتاب أو سنة رسوله المتواترة .

وذهب الحنفية ومن تبعهم إلى أن السنة الأحادية لا تستقل بإثبات واجب أو محرم سواء كان الواجب علمياً أو عملياً وعليه فلا يكفر منكرها ، وإلى هذا ذهب علماء أصول الفقه الحنفية فقال البروزي : دعوى علم اليقين بحديث الآحاد باطلة لأن خبر الآحاد محتتمل لا محالة ، ولا يقين مع احتمال ، ومن أنكر ذلك فقد سفه وأل عقله . . وبهذا أخذ الشيخ محمد عبده والشيخ أبو دقيقة وغيرهما ، يقول المرحوم الإمام محمد عبده : القرآن الكريم هو الدليل الوحيد الذي يعتمد عليه الإسلام في دعوته أما ما عداه مما ورد في الأحاديث سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف فليس مما يوجب القطع ، كما ذكر الشيخ شلتوت في كتابه : الإسلام عقيدة وشريعة ، قوله : إن الظن يلحق السنة من جهة الورود ( السند ) ومن جهة الدلالة ( المعنى ) كالتشبهة في اتصاله والاحتمال في دلالاته .

ويرى الإمام الشاطبي في كتابه ، الموافقات ، أن السنة لا تستقل بإثبات الواجب والمحرم لأن وظيفتها فقط تخصيص عام القرآن وتلييد مطلقه وتفسير مجمله ويجب أن يكون ذلك بالأحاديث المتواترة لا الأحادية .

ويؤيد آراء من سبق ذكرهم ما جاء في صحيح البخاري باب الوصية وصية الرسول ﷺ قبل وفاته عن طلحة بن مصرف قال : سألت عبد الله بن أبي أوفى : أوصى رسول الله ﷺ ؟ قال : لا . قلت : كيف وقد كتب الوصية على الناس أو أمروا بها ولم يوص فقال أوصى بكتاب الله . قال ابن حجر في شرح الحديث : أي التمسك به والعمل بمقتضاه إشارة إلى قوله ﷺ : تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله . واقتصر على الوصية بكتاب الله لكونه فيه تبيان كل شيء إما بطريق النص أو بطريق الاستنباط فإذا اتبع الناس ما في الكتاب عملوا بكل ما أمرهم به .

وحديث سلمان الفارسي : الحلال ما أحله الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه  
وما سكت عنه فهو عفو لكم .

وأجاب الشاطبي عما أورده الجمهور عليه من قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ  
وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء ٥٩) بأن المراد من وجوب طاعة الرسول إنما هو تخصيصه  
للعام وتقييده للمطلق وتفسيره للمجمل وذلك بالحديث المتواتر ، وأن كل ما جاء به النبي ﷺ  
يجب أن يكون من القرآن لقول عائشة رضی الله عنها عن النبي ﷺ : « كان خلقه القرآن ،  
وأن معنى قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النحل : ٨٩) إن السنة  
داخلة فيه في الجملة ، وأكد الشاطبي ذلك بقوله تعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾  
(الأنعام ٣٨) وقد رد على ما استدلل به الجمهور مما روى عن النبي ﷺ قوله :  
( يوشك أحدكم أن يقول : هذا كتاب الله ما كان من حلال فيه أهلناه وما كان من حرام  
حرمناه ألا من بلغه مني حديث فكذب به فقد كذب الله ورسوله ) بأن من بين  
رواة هذا الحديث زيد بن الحباب وهو كثير الخطأ ولذلك لم يرو عنه الشيخان حديثا  
واحدا .

وجاء بمسلم الثبوت والتحريم : « خبر الواحد لا يفيد اليقين لافرق في ذلك بين أحاديث  
الصحيحين وغيرهما ، .

ومما سبق يتضح أن الإيجاب والتحريم لا يثبتان إلا بالدليل اليقيني القطعي الثبوت  
والدلالة ، وهذا بالنسبة للسنة لا يتحقق إلا بالأحاديث المتواترة ، وحيث أنها تكاد تكون غير  
معلومة لعدم اتفاق العلماء عليها فإن السنة لا تستلل بإثبات الإيجاب والتحريم إلا أن تكون  
فعلية أو تنضاف إلى القرآن الكريم .

وعلى هذا فمن أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم فهو منكر لشيء اختلف فيه  
الأمم ولا يعد مما علم من الدين بالضرورة فلا يعد كافرا<sup>(١)</sup> .

---

(١) نشرت الفتوى بكتاب الشيخ محمد الغزالي تراثنا الفكرى ص ١٧٥ - ١٧٩ ومجلة الأحرار  
تاريخ ٩٣/٨/٥ وكتاب حد الردة د أحمد صبحي منصور .

وواضح من هذا الكلام أنه لا يرد في السنة شيء يصادم ويعارض القرآن ؛ فإذا جاءت أحاديث تضاد حرية الاعتقاد أو تفرض الإيمان قسرا ، فإن هذا يجب أن يخضع للمتحيص الذى قد ينتهى إلى عدم مصادمته للنص ، لأنه قد لا يكون منصبا على حرية الاعتقاد كما قد يظن ، ولكن على تفريق الأمة أو التمرد عليها ، كما هو الحال فى معظم الأحاديث التى نص فيها على حد لثارك دينه « المفارق للجماعة » وكانت الردة ترتبط ارتباطا وثيقا بالثورة على الإسلام ، وعلى دولته الناشئة ، أو بالرغبة فى التحلل من صلاحية الدولة برفض دفع الزكاة ، فهذه كانت عناصر الردة التى قاومها أبو بكر ، كما سيلي :

\*\*\*

ويعجب الإنسان عندما يرى أن قضية الردة لا تستند فى السنة على ما يتناسب مع وزنها ، سواء جاء هذا الوزن من طبيعتها - أى الردة عن الإسلام - أو من عقوبتها وهى القتل . . إذ لا يجرد المرء سوى ثلاثة أحاديث ، أو أربعة يدور عليها النقاش هى :

أولا - حديث العُرفيين : الذين قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام ولكنهم استوخموا الأرض فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال أفلا تخرجون مع راعينا فى إبله فتصيبون من ألبانها وأبوالها . . قالوا بلى . . فخرجوا ، فشربوا ، من ألبانها وأبوالها فصحوا ، فقتلوا الراعى وطردهوا النعم ، فأرسل رسول الله ﷺ فى أثرهم من قبض عليهم وقتلهم .

الحديث رواه البخارى ومسلم وبقية كتب الحديث وليس فيه ما ينم عن حد الردة ، بل ليس فى أغلب الروايات ما يشير صراحة إلى ردتهم ، ومعروف أن القتل عقوبته القتل ، فضلا عن عقوبتهم واستيافهم الأبل ، فلو لم يرتدوا لاستحقوا القتل . . وقد أورد مسلم الحديث فى « باب المحاربين والمرتدين » ، وأورده الشوكانى فى باب « المحاربين وقطاع الطرق » .

فلا يمكن أن يستند اليه فى أن القتل عقوبة الردة . . وهو ما دفع ابن تيمية للقول « هؤلاء قتلوا - مع الردة وأخذوا الأموال فصاروا قطاع طرق محاربين الله ورسوله » . . وتابعه ابن القيم فى زاد المعاد والطبرى فى تفسيره .

ثانيا - الحديث الثانى : هو الذى قرر فيه الرسول ﷺ أنه لا يجوز قتل مسلم إلا

في حالة من ثلاث : قتل نفس ، وزنا بعد إحصان ، والمارق عن الدين المفارق للجماعة . . . وهناك روايات عديدة للحديث تقرن معظمها - كروايات عبد الله ابن مسعود - الردة بمفارقة الجماعة ، بل إن رواية عائشة : « لا يحل قتل مسلم إلا في إحدى ثلاث خصال : زان محصن فبرجم ، ورجل قتل مسلماً متعمداً ، ورجل يخرج من الإسلام فيحارب الله عز وجل ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض » . وحتى لو أخذنا بظاهر الحديث ، فإن المارق للجماعة كان يعنى التحول للجماعة المناوئة للإسلام .

ورأى ابن تيمية أن رواية عائشة تفسر ما جاء في حديث ابن مسعود وغيره عن المارق عن الدين ، المارق للجماعة . . . وأن « فراق الجماعة إنما يكون بالحاربة » . وأنتقد كاتب معاصر هذا الرأي لابن تيمية ، ورأى أنه : « رأى فردى لم يتابعه عليه أحد »<sup>(١)</sup> وأن ابن تيمية اجتهد في تأويل الحديث فجانبه الصواب من جهتين : إحداهما أن صياغة الحديث نفسه واضحة لا تحتاج إلى تأويل ، لأن مثل هذا النص غنى عن التأويل ، وعلماء الأمة متفقون على أن النص الواضح الذي لا يمنع من العمل بظاهرة مانع شرعى أو عقلى يجب بقاؤه على ظاهره ولا يجوز صرفه عن ظاهره أبداً . . . وقد قلنا إن ظاهر « المارق للجماعة » يفسح مجال الاحتمال ، فليس هناك افتيات أو حذف للظاهر . وما جاز فيه الاحتمال بطل به الاستدلال . . . ويستطرد الكاتب

«والجهة الثانية التي جانب ابن تيمية فيها الصواب أن علماء الأمة من قبله ومن بعده يوردون حديث ابن مسعود : « التارك لدينه ، المارق للجماعة » دليلاً ثانياً بعد حديث : « من بدل دينه فاقتلوه » على وجوب قتل المرتد عن الإسلام إذا لم يتب . . . وحاشى لله أن يكون الفقهاء قد اجتمعوا على ضلالة أو باطل . . . إلخ » .

وقد كان يستطيع أن يقول إن كتب الأحاديث تضمنت روايات يقتصر فيها الحديث على الردة دون الإشارة إلى مفارقة الجماعة ، فقد جاء في سنن النسائي روايتان لحديث عن عثمان بن عفان لا يتضمنان المفارقة اقتصر فيهما الحديث على من « ارتد بعد إسلامه »

( ١ ) عقوبة الارتداد عن الدين بين الأدلة الشرعية وشبهات المنكرين ، تأليف د/ عبد العظيم ابراهيم المطعنى . ص ٣٩ ( مكتبة وهبة ) .



في رواية ابن عمر عن عثمان أو « يكفر بعد إسلامه فيقتل » في رواية يسر بن سعيد عن عثمان وتضمن مسند الأمام أحمد رواية عن عائشة بدون ذكر مفارقة أو محاربة . ولكن الموقف لا يتغير مع هذه الأحاديث بعد ورود أحداث ابن مسعود وعائشة وغيرهما التي تضمنت المفارقة والمحاربة . . مما يحسن معه التوقف لاحتمال أن يكون رواية حديث عثمان وعائشة عند الإمام أحمد لم يروا الحديث بالكامل ، أو من الأخذ بالأحوط في مثل هذا الحد الجسيم ، وهو المسلك الذي يتفق مع روح الشريعة .

ثالثا - الحديث الثالث ، والذي يعتبرونه أقوى ما في الباب هو ماجاء بنص :  
« من بدل دينه فاقتلوه » .

والحديث في البخارى وأبو داود في سننه ومالك في الموطأ والنسائي في السنن .  
قال صاحب نصب الراية : قلت روى من حديث ابن عباس ، ومن حديث معاوية بن حيدة ومن حديث عائشة .

أما حديث ابن عباس فاخرجه البخارى في كتاب الجهاد في استتابة المرتدين عن عكرمة أن عليا أتى بزنادقة فأحرقهم فبلغ ذلك ابن عباس فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لنهى رسول الله ﷺ : لاتعذبوا بعذاب الله ، ولقتلتم لقوله عليه السلام : « من بدل دينه فاقتلوه » ووهم الحاكم في المستدرک فرواه في كتاب الفضائل وقال على شرط البخارى ولم يخرجاه ، ورواه بن أبى شيبة وعبد الرزاق في مصنفهما بدون القصة . . حدثنا ابن عيينة عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ( من بدل دينه فاقتلوه ) لئنمى .

وأما حديث معاوية بن حيدة فأخرجه الطبراني في معجمه الكبير عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده معاوية بن حيدة . . قال قال رسول الله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه . . إن الله لا يقبل توبة عبد كفر بعد إسلامه » .

وأما حديث عائشة فأخرجه الطبراني في معجمه الوسيط عن أبى بكر الهذلي عن الحسن وشهر بن حوشب عن عائشة مرفوعا نحوه ، سواء<sup>(١)</sup> .

ولنا عن هذا الحديث كلام بالنسبة للسند والمتن معا . . .

أما السند ، فان الروايات المتكررة له تنتهى إلى عكرمة عن ابن عباس ، ومع أن عكرمة من أفضل رواة ابن عباس ، فقد استبعده مسلم ولم يخرج له الا حديثا واحداً

( ١ ) نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعي الجزء الثالث ص ٤٥٦ .

في الحج مقرونا بسعيد بن جبير ، « وإنما تركه لظن طائفة من العلماء فيه بأنه كذاب وبأنه كان يرى رأى الخوارج وبأنه كان يقبل جوائز الامراء » كما قال مؤلف « الحديث والمحدثون » الشيخ محمد أبو زهو وهو من أكثر الفقهاء ورعا . . وقد خصص الذهبي في ترجمته في ميزان اعتدال قرابة بصحفتين كبيرتين أورد فيهما مختلف الآراء فيه ما بين أنه بحر من البحور ، وأنه كذاب لا يحتج بحديثه .

والرواية الثانية عن بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة وقد وثق بهز جماعة بيننا اختلف فيه آخرون وتوقفوا في الاحتجاج به « ميزان الاعتدال ج ١ ص ١٦٥ » .

كما أن راوى الرواية الثالثة شهر بن حوشب وإن كان من الرواة المشهورين فقد اختلف فيه وقال بعضهم لا يحتج به أو تركوه .

ومع أن المحدثين عادة لا يردون أحاديث لمثل ما أوردناه من شباهات أو أقاويل عن الرواة ، وأنهم لا يرون أن ما قيل فيهم يوقف الاحتجاج بهم ، فقد يجوز لنا أن نتوقف إذا كان الأمر يتعلق بالقتل . . وأى حرج في أن نقف مثل موقف الأمام مسلم من عكرمة ؟ ؟ .

أما المتن : هناك أيضا شيء يحيك في النفس بالنسبة للمتن ، فقد جاء الحديث - رواية عكرمة في سياق حكاية أوردناها آنفا . . فكلمة « زنادقة » التي لو استقصينا تاريخها لظهر هذا التقصى أنها لم تشتهر في أيام الخلافة الراشدة . . كذلك تحريق على كرم الله وجهه لهم مع نهي الرسول واستبعاد أن يجهل على ما علمه بن عباس ، ثم ورود التعبير على إطلاقه مما يسمح بانطباقه على من يبدل دينه إلى الإسلام ، أو من يبدله من مسيحية إلى يهودية ، أو من يهودية إلى مسيحية ( وهو ما ذهب إليه بعض الأئمة ) وهو يناقض ما قرره الرسول : « من كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها<sup>(١)</sup> » . وفي الحديث رواية معاوية بن حيدة « إن الله لا يقبل توبة عبد كفر بعد إسلامه » وهو يخالف العديد من الآيات ، بل إنه يخالف أحاديث جاءت عن ردة البعض ثم ندموا فأرسلوا من يسأل هل من توبة لهم . . فنزلت آيات سورة آل عمران ﴿ كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم ، وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين (٨٦) أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله

(١) رسالة الرسول ﷺ إلى ملوك حمير - أنظر سيرة ابن هشام ص ٢٣٦ ج ٤ .

والملائكة والناس أجمعين (٨٧) خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون  
(٨٨) إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ، (٨٩) ٠٠

فرجعوا إلى الإسلام وحسن إسلامهم ، وهذا هو ما يتفق مع روح الإسلام ورشد  
التشريع ولم يذكروا أن الرسول طلبهم ليقتلهم أو يستبيهم ، كما كان يفترض لو كان  
هناك حد مقرر للردة . . .

ولو أخذ بنص رواية ابن حنبل ، لما كان للفقهاء إن يقرروا الاستتابة التي هي في  
شبه إجماع بينهم .

رابعا - واستدلوا أيضاً بما وقع في حديث معاذ « أن النبي ﷺ لما أرسله إلى  
اليمن قال له : أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه فإن عاد ، وإلا فاضرب عنقه ،  
وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها فإن عادت ، وإلا فاضرب عنقها » .

وجاء في فتح الباري : قال الحافظ وسنده حسن ، وهو نص في موضوع النزاع  
فيجب المصير إليه « ٠٠ وجاء الحديث في نصب الراية في صيغة مختلفة : أيما رجل  
ارتد عن الإسلام فادعه ، فإن تاب فاقبل منه وإن لم يتب فاضرب عنقه ، وأيما امرأة  
ارتدت عن الإسلام فادعها ، فإن تابت فاقبل منها وإن أبت فاستبها ٠٠ وأورده مصنفو  
جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير للإمام السيوطي ( حديث رقم  
٩٥٦٢ ص ٤٣١ ج ٣ ) ٠٠ وعلقوا في المامش ( وردت « فاسبها » في مراجع  
أخرى ) .

ومن هنا يتضح أنه لا يمكن « المصير إليه » كما ذهب الحافظ ، فضلا عما شاب  
سنده ؛ إذ هو من رواية محمد بن عبد الله العزمي وهو « متروك من السادسة » كما  
قال صاحب تقريب التهذيب ( ص ٣٣٠ ) .

وقد استعرض صاحب نصب الراية الأحاديث التي جاء فيها إشارة إلى قتل المرتدة ،  
والأحاديث المعارضة ، إذ اكتنف التعرّيج رواة الأحاديث الأولى ، خاصة ما جاء فيها  
عن أن النبي ﷺ قتل امرأة لردتها ( نصب الراية ص ٤٥٦ ج ٣ ) وهو أيضاً ما فعله  
الشوكاني في نيل الأوطار ( ج ٧ ) .

ويخالف الحكم بالقتل الأثر الذي جاء عن عمر بن الخطاب وأورده صاحب نصب  
الراية والشوكاني في نيل الأوطار عن الشافعي ٠٠ أن عمر قال لو قد قدموا عليه من  
بنى ثور : هل من مغربة ( بكسر الراء وفتحها ) خير قالوا : نعم أخذنا رجلا من العرب كفر  
بعد إسلامه فقدمناه فضربنا عنقه . فقال : هلا أدخلتموه جوف بيت فألقيتم إليه .

كل يوم رغيفا ثلاثة أيام واستبتموه لعله يتوب أو يراجع أمر الله اللهم إلى لم أشهد ،  
ولم آمر ولم أرض إذ بلغنى » .

وفي رواية أوردها الشوكاني ، ورواه البيهقي من حديث أنس قال لما نزلنا على تستر  
فذكر الحديث وفيه «فقدمت على عمر رضى الله عنه فقال : يا أنس ما فعل الستة رهط  
من بكر بن وائل الذين ارتدوا عن الإسلام فلحقوا بالمشركين . قلت : يا أمير المؤمنين  
قتلوا بالمعركة . فاسترجع ثم قلت : وهل كان سبيلهم إلا القتل . قال : نعم كنت  
أعرض عليهم الإسلام . . فإن أبوا أودعتم السجن» ١٦٠/٧ . فهذا نص يجعل  
العقوبة السجن لا القتل . . وليس هناك ما هو أشد من استنكار عمر : « اللهم إلى  
لم أشهد ولم آمر ، ولم أرض إذ بلغنى » .

\*\*\*

وقد يذكر هنا تواعد عمر بن الخطاب جبلة بن الأيهم القتل إن ارتد . وجبلة بن  
الأيهم هو آخر الملوك العرب الغساسنة الذين تحالفوا مع الروم وقد اشترك معهم ضد  
المسلمين في معركة اليرموك الفاصلة . فلما انهزم الروم أعلن جبلة بن الأيهم إسلامه  
وزار المدينة . وخلال طوافه بالبيت وطىء أحد الأعراب إزاره فلطمه لطمة أصابت  
عينيه . فاشتكى العربى إلى عمر بن الخطاب الذى احضر جبلة وأمره باسترضاء  
الاعرابى أو القصاص فقال له : « تقص منى وأنا ملك وهو سوقه » فقال له : إن  
الإسلام سوى بينكما . . فطلب مهله للتفكير انسل خلالها عائداً إلى الروم وارتد .  
وعاد إلى النصرانية .

ومن الواضح أن حالة جبلة حاله خاصة من ناحيتين : أولاً أنه قائد عسكري قاتل  
المسلمين قبل أن يعلن إسلامه بعد الهزيمة . ويغلب أن يقاتل المسلمين إذا ارتد خاصة  
والحرب سجال ورحاها دائرة فهذا عنصر بعيد عن الردة بمعنى حرية الفكر . . والثانية  
أنه رفض تطبيق قانون الدولة الذى يوجب المساواة . وهذا أيضاً عنصر جديد بعيد  
أيضاً عن الردة بمعناها المجرد . ولو كان جبلة بن الأيهم رجلاً عادياً لنفذ فيه القصاص  
فوراً ، أو لسجنه - إذا ارتد - كما رأى ذلك فى الحالة السابقة . ولكن جبلة بن  
الأيهم كان قائداً عسكرياً . . تورد على تنفيذ قوانين الدولة وهذه كلها عناصر تجعل  
القضية لانتطوى تحت قضية الردة المجردة وعمر بن الخطاب هو صاحب الصيحة اللهم  
إلى لم أشهد ، ولم آصره ولم أرض إذ بلغنى » .

وأهم من هذا كله أن رسول الله ﷺ لم يقتل أحداً لا رجلاً ولا امرأة للردة وحدها . وقد رفض أن يجيب أحد الأعراب عندما قال له : « يا محمد ألقني من بيعتي » ولكنه لم يلحق به أذى . ولا تعرف ملابسات الموضوع . وقد انتقد مؤلف « عقوبة الارتداد عن الدين بين الأدلة الشرعية وشبهات المنكرين » الذين ذهبوا إلى أن النبي ﷺ لم يقتل أحداً بتهمة الردة وعاب عليهم عدم الرجوع إلى المصادر الوثيقة . . . . . إلخ . . . . . ثم قال : « وفي عام الفتح أمر ﷺ بقتل ابن خطل وكان مسلماً ثم ارتد ورجع إلى مكة . . . ولما علم بقدوم موكب الفتح بقيادة صاحب الدعوة هرع إلى المسجد الحرام وتعلق بأستار الكعبة ورغم هذه الحيلة أمر النبي بقتله فقتل حداً للارتداد بالدين » . . . . . (١) .

فما هي قصة ابن خطل ؟

قال ابن اسحاق « وعبدالله بن خطل رجل من بنى قيس بن غالب وإنما أمر بقتله أنه كان مسلماً فبعثه رسول الله ﷺ مُصَدِّقاً . . . ( أى جامعاً للصدقات وهي الزكاة ) وبعث معه رجلاً من الأنصار وكان معه مولى له يخدمه . . . وكان مسلماً فنزل منزلاً ، وأمر المولى أن يذبح تيساً له فيصنع له طعاماً فنام فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً وكان له قيتان تتغيان بهجاء الرسول » .

فهذا التقصى التاريخي يوضح أن للرجل ماضياً جنائياً يستحق عليه القتل خلاف الردة .

وذكر مؤلف « عقوبة الارتداد » في مكان آخر من كتابه عن امرأة ارتدت يقال لها أم مروان ، أن الرسول أمر أن يعرض عليها الإسلام فإن تابت وإلا قتلت « وأحال في الهامش على مرجعه نيل الأوطار « للشوكاني ٢١٧/٧ وكان من الأمانة أن يذكر ما أورده الحافظ عن ضعف إسناد الحديث . وقد أورد الحديث الزيلعي في نصب الراية عن معمر بن بكار السعدي ثنا إبراهيم بن سعد عن الزهري عن محمد بن المنكدر عن جابر ، وقال ومعمر بن بكار في حديثه وهم ، وألحقه بحديث عن الدارقطني أيضاً عن محمد بن عبد الملك الأنصاري عن الزهري عن عائشة ، وقال : ومحمد بن عبد الملك هذا قال أحمد وغيره يضع الحديث وأورد الزيلعي حديث الدارقطني رواية عبدالله بن أذينة عن هشام بن الغاز عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : ارتدت امرأة

(١) المرجع السابق ص ٥٨ .

الإسلام فأمر رسول الله ﷺ أن يعرضوا عليها الإسلام فإن أسلمت وإلا قتلت فعرض عليها فأبى أن تسلم فقتلت . وقال : « وعبد الله بن أذينة جرحه ابن حبان وقال لا يجوز الاحتجاج به بحال ، وقال الدارقطني في المؤتلف والمختلف متروك ، ورواه ابن عدى في الكامل وقال عبدالله بن عطار بن أذينة منكر الحديث ولم أر للمتقدمين فيه كلاماً » ( ٤٥٨ نصب الراية ج ٣ ) .

وقد فصل ابن تيمية في هذه القضية إذ ذكر أن النبي ﷺ قبل توبة جماعة من المرتدين ، وأمر بقتل جماعة آخرين ضموا إلى الردة أموراً أخرى تتضمن الأذى والضرر للإسلام والمسلمين . مثل أمره بقتل قيس بن حباب يوم الفتح لما ضم إلى رده قتل المسلم وأخذ المال ، ولم يتب قبل القدرة عليه ، وأمر بقتل العرنيين لما ضموا إلى ردتهم تحوياً من ذلك ، وكذلك أمر بقتل ابن خطل لما ضم إلى رده السب وقتل المسلم - وأمر بقتل بن ابى السدح لما ضم إلى رده الطعن عليه والأفراء . وفرق ابن تيمية بين النوعين أن الردة المجردة تقبل فيها التوبة ، والردة التي فيها محاربة لله ورسوله والسعى في الأرض فساداً لا تقبل فيها التوبة قبل القدرة<sup>(١)</sup> .

فاذا أصر بعض الناس على صحة وقوة حديث « من بدل دينه فاقتلوه » فيصار إلى أنه للجواز وليس للوجوب ، وما يصرفه عن الوجوب هو ما سبق من الشواهد التي تثبت أن الرسول لم يقتل مرتداً مجرد أنه « بدل دينه » ولكنه جمع إلى ذلك العمالاً من المحاربة التي تستحق القتل ، وما جاء من آثار عن عمر في ذلك أيضاً واشترنا إليه . وعندئذ تحكمه ضوابط الجواز .

\*\*\*

وهكذا يتضح من استعراض الاحاديث السابقة أن الردة كانت تقترب بمحاربة الإسلام والانضمام إلى أعدائه . . وأن هذا الجزء الأخير هو الذي أوجب قتالهم كمحاربين أو قتلهم عند القبض عليهم ، وقد كان هذا الجزاء هو ما تطلبته ظروف الدعوة الناشئة .

وقد يذكرون في هذا الصدد حروب الردة التي قام بأمرها أبو بكر الصديق ويحتجون بها على قتال من ارتد . ولكن هذه الردة كانت في جوهرها ردة عسكرية

(١) الصارم المسلول لابن تيمية ص ٣٦٨ مطبعة السعادة .

أكثر من كونها ردة دينية . فقد كان من هؤلاء المرتدين من يؤدي الصلوات وأرسلوا الوفود إلى أبي بكر ليصالحهم على أساس أداء الصلاة والامتناع عن الزكاة فرفض أبو بكر رض لأن الزكاة هي قوام الدولة الإسلامية ، ولم يقبل حتى من تأول منهم أن لهم بعض الحق في عدم دفع الزكاة لأبي بكر على أساس أن الآية تقول ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ فقالوا لسننا ندفع زكّاتنا إلا إلى من كانت صلاته سكن لنا . وقال شاعرهم :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا  
فيا لعباد الله ما لأبي بكر

والحق أن كل شيء كان ينبىء أنها ثورة كما نقول - وقد بدأت بالأسود العنسى ومسيلمة في الأيام الأخيرة للرسول . فما إنقبض الرسول حتى ثار الأسود العنسى واستحوز على صنعاء ، وطرد عمال الرسول .. وأخذ مسيلمة يجمع الجموع وتمردت عبس وذبيان وبنو أسد بعد أن تنبأ طلحة ، وأخذوا يتأهبون للغارة على المدينة بعد أن علموا بسفر جيش أسامة ، ولكن أبا بكر أستعد لهذا فجعل على أنقاب المدينة حرساً يسهر طول الليل ليدفع الهجوم ، وحدثت الغارة أكثر من مرة حتى انتصر عليهم المسلمون .

فالقضية واضحة كالشمس ، فهذه القبائل تصورت أنها يمكن أن تتحرر من تبعية الدولة الإسلامية . بل وأن تهاجها وترثها ، فهي ثورة عسكرية تقنعت برداء ديني . ولم يكن هناك من طريقة للتصرف فيها غير القوة .

وكان أبو بكر رضى الله عنه موفقاً غاية التوفيق وسلك مسلك « رجل الدولة » القومى الأمين . ولا يمكن مطلقاً الاحتجاج بحروب الردة كما اطلق عليها فيما نحن بصدده ، لأن حرية الفكر المجردة من العداوة وحرب الإسلام لم يعرفها المجتمع الإسلامى الأول . ولهذا لم يرد بشأنها نص خاص ، وينطبق عليها عموم حرية الاعتقاد التى فتحها القرآن على مصراعها ، وبصورة مؤكدة ومقررة لايتطرق إليها إثارة شك . . .

## د - إضافة الفقهاء :

توسع الفقهاء في أمر الردة وجاءوا بإضافتين ليستا في كتاب أو سنة ٠٠ وإنما هما مجرد اجتهاد محض منهم .

الإضافة الأولى ، هي الصيغة المشهورة التي تمثل أصدق تمثيل الصناعة الفقهية ، صيغة « من جحد معلوما من الدين بالضرورة » .

وقال صاحب « جوهره التوحيد » ٠٠٠

ومن لمعلوم ضرورة جحد من ديننا يقتل كفرا ليس حد  
ومثل هذا من نفى ما أجمع أو استباح كالزنا فلتسمع ا

مع أن الأحاديث النبوية تقصر الإيمان على الشهادتين وتفتق بها وترفض تقصي ما وراء ذلك من علم أو جهل ٠٠ إقرار أو جحد ، لأن السنة لا تريد لهذا الباب أن يتسع ، وتريد أن تحصره في أضيق نطاق ، فإن الفقهاء جاءوا ففتحو الباب على مصراعيه وعلقوه على أمر اعتباري ، ويمكن لأى فقيه أن يعتبر أمراً ما « من المعلوم من الدين بالضرورة » وأن من يجحده فهو كافر ، حلال الدم ٠٠٠ إلخ . وقد اعتبرت المحكمة السودانية التي حكمت على محمود محمد طه بالردة ، والموت ، أن من أسباب رده انه جحد « الحجاب » وهو معلوم من الدين بالضرورة ٠٠٠

وجاء في أحد الكتب تحت عنوان « الكلمات تكون كفراً » ولو قال إن الصلاة لا توافقنى ، أو قال دارى مثل السماء والطارق ، أو قيل له هذا حكم الله فيقول لا اعرف حكم الله ، أو يقول أنا أعلم الغيب ، أو يقول الرجل لامرأته أحل الله أربعة نسوة فقول له أنا لا أرض بهذا ٠٠ ولو قال ليت الزنا والقتل والغصب كان مباحا يكفر إلخ ٠٠٠ (١) .

وقد يعرض الفقهاء تصورهم للردة بتعبير آخر خلاف « من جحد معلوما من الدين بالضرورة » هو « قول كفر أو اعتقاد كفر أو فعل كفر » وهو ما لا يقل تعميماً أو شمولاً من صيغة « من جحد معلوماً من الدين بالضرورة » . على أن الشيخ جاد الحق على جاد الحق اصدر فتوى نشرت خلال شهر رمضان في جريدة الوفد ( عدد ١٩٩٣/٢/٢٣ ) تصور العلاقة بين الاعتقاد والعمل جاء فيها :

(١) كتاب مفيد العلوم ومفيد العموم للشيخ جمال الدين أبى بكر الخوارزمي - ص ٥٢ .



« أجمع المسلمون على أن من انكر ما ثبتت فرضيته كالصلاة أو الصوم ، أو حرمة القتل والزنا بنص شرعي قطعي في ثبوته عن الله تعالى وفي دلالاته على الحكم وتناقله جميع المسلمين كان خارجاً عن ربة الإسلام لا تجرى عليه أحكامه ، ولا يعتبر من أهله . قال ابن تيمية في مختصر فتاواه : « من جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواتره كالصلاة أو جحد تحريم المحرمات الظاهرة كالفواحش والظلم والخمر ، والزنا والربا أو جحد حل بعض المباحات المتواترة كالخبز واللحم والنكاح فهو كافر » ، لما كان ذلك ، وكان الشاب الذي افطر في نهار رمضان عمداً من غير عذر شرعي . إذا كان جاحداً لفريضة الصوم ، منكرأ كان مرتداً عن الإسلام . أما إذا أفطر في شهر رمضان عمداً دون عذر شرعي معتقداً عدم جواز ذلك كان مسلماً عاصياً فاسقاً يستحق العقاب شرعاً ولا يخرج بذلك عن ربة الإسلام !! » .

ولا جدال أن هذا يمثل منزلقاً خطيراً في التشريع إذ هو يعطى الفقهاء سلطة كبيرة ، سلطة يصغر أمامها تحذير القرآن ، ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال . . وهذا حرام ﴾ ؛ لأن هذه السلطة لاتحكم على الأشياء ولكن على الأشخاص . . كما أن هذا التكييف « مفتوح » غير محدد ، يمكن أن يدخل فيه من يشاء ما يشاء ! وهو أمر يخالف قواعد التشريع التي تشترط التحديد وتميل للتقليل لا للتكثير . . وهي - أى هذه السلطة - تمثل خطراً ماحقاً على حرية الفكر ، بل يمكن القول إنه لاتكون هناك حرية فكر مع وجود مثل هذه السلطة .

\*\*\*

**الإضافة الثانية : الاستتابة . .** وهذه أيضاً مما لانجدها في كتاب أو سنة فعلية كثيرة ما يحث القرآن والرسول المؤمنين على التوبة ، فانه لا يمارس أبداً ( الاستتابة ) كالتي قررها الفقهاء . . ولعل الرسول لم يستتب أحداً الا ماروى عن أنه قال لمن طبق عليه حد السرقة: « قل تبت إلى الله » فلما قالها ، قال له الرسول « تاب الله عليك »<sup>(١)</sup> .

والاستتابة بالطريقة التي فصلها الفقهاء تفقد جوهرها ، فما دام هناك إرهاب وسيف وراءها فيغلب أن لا تكون نابعة عن رضا ، واقتناع وإيمان ، ولكن تعوداً من القتل وتخلصاً من العقوبة ، فهي في الحقيقة ارهاب فكري واذلال نفسي .

وهاتان الاضافتان ، فقهيتان قلبا وقالبا ، معنى ومبنى ، ولانجد لهما ذكراً في قرآن أو سنة ، بل لإنهما يجافيان تماما روح الإسلام ويرفضهما كل من لديه « حس »

( ١ ) وقد جاء لما ذكر عند عمر بن الخطاب ، ولكننا هنا نتحدث عن الله والرسول .

اسلامى أصيل تكوّن في النفس ثمرة لقراءة القرآن ومطالعة السيرة ، والشئ الوحيد الذى اقحمها في كتب الفقه هو « فنية الحرفة الفقهية » ورغبة الفقهاء أن يكون فقههم شاملا ، كاملا ، لايفلت صغيرة ولا كبيرة والوصول بما ارسوه من أصول ومبادئ إلى غايتها .

\*\*\*

فاذا لم يكن هناك حد ، ولا استتابة ، فلا يكون هناك تعزير ، لأن الأمر كله أمر فكر ، وإيمان واعتقاد . . .

\*\*\*

### الاستفزاز . . .

ولكن ، هل معنى هذا أن كل واحد يستطيع أن يقول ما يشاء . . . ويمكن لكل كاتب أن يسود من الصفحات ما يشاء ؟ ويقذف بها في وجوه الآخرين ؟

إنه لمن البدائه أنه لايجوز لاحد - بحجة الحرية - أن يسب ويلعن أو يهين ويقذف . . . فحرية السب والشم هي مما لاتوجد بين الحريات ، ولا أحد يدافع عنها ، أو يطالب بها . . . لان هذا يعنى الاسفاف والنزول بلغة الحوار إلى مستوى القذف والمهاترات . . . لا الحجة والبرهان . . . وبصرف النظر عن أن هذا لن يؤدي إلى حقيقة ، أو يكشف عن فكر ، فانه بالطبع يهبط بالمستوى الخلقى ، والتهذيب ، والحفاظ على الكرامات . . .

وهذا كله لا علاقة له بحرية الفكر ، وإنما يدخل في باب القذف والاهانة . . . والإسلام - بالذات - حريص كل الحرص على كرامات الأفراد . . . وقد سن عقوبة قاسية وراعدة للقذف . . .

والفرق بين الفكر ، والقذف . . . أن الفكر ينصب على الموضوع والمقولة ، وأن القذف ينصب على الشخص والقائل . . . وأن الصفات التي يطلقها الفكر تدور حول الخطأ والصواب في الموضوع ، طبقا لمعايير منطقية ، بينما يتناول القذف شخصية المقذوف وسلوكه ، وخاصة أمره وتصرفاته دون أن يكون لها علاقة بالموضوع ! وما بين المعالجة الموضوعية التي تحميها حرية الفكر ، وبين القذف الذي يدخل في

إطار المحرمات ، يمكن أن توجد حالة بعيدة عن الأولى ، قريبة من الثانية ، إن لم تكن بالصراحة التي توقعها تحت طائلة قانون القذف .

وهذه الدرجة التي تخرج عن دائرة الحرية ، دون أن تدخل في شرك القذف يمكن أن تدور ما بين الإسفاف والاستفزاز وسنطلق عليها هنا « الاستفزاز » .

وقد تكون الآثار السيئة للاستفزاز أفدح من آثار القذف ، لأنها وهي تنفادى طائفة القانون ، تتناول الموضوع لا بالصورة الموضوعية ، ولكن بصورة تتضمن قدرا من الإساءة ، ولما كانت تخلص من مسؤولية القذف فيمكن أن تمضى قدما ، ويزداد الأثر السئ لها . . . وتعد البديل الذي لا يعاقب عليه القانون للقذف .

وأشار أحد كتاب جريدة الأهرام إلى صور من الاستفزاز يلجأ إليها بعض الكتاب والآثار السيئة . . . فقال :

«أريد أن أقولها صريحة . . . للوطن ، وللإسلام . . . أنه إذا كان التطرف الديني برميلا للبارود فإن التطرف الفكري كثيرا ما يكون شواظا من نار تلقى على البرميل فينفجر !

إن التعريض الساخر برموز إسلامية تستحوذ على حب الناس ، ينطوى على استفزاز للمشاعر . . .

وإن السرد العمدي لأخطاء الدول الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي دون غيرها من المزايا . . . ينطوى على استفزاز للمشاعر ، وإن التهكم على شخصيات إسلامية لها مكانتها المرموقة في التاريخ الإسلامي وفي نفوس المسلمين ينطوى على استفزاز للمشاعر . . . وإن محاكمة الإسلام بأخطاء المسلمين لتجريح الإسلام نفسه ينطوى على استفزاز للمشاعر . . .

إن هذا الاستفزاز ، هو نفسه أحد دوافع الإرهاب ، وهو نفسه أحد أسباب التطرف الديني . . .

إن « التطرف المستفز » يلعب الآن في كثير من الصحف ، دور النافخ في النيران وكأنه يريد لها ألا تنطفئ ، ويريد أن يتسع أوارها فتأكل الأخضر واليابس !! . . . ولا عجب ، ربما ، كان ذلك لان النافخين في النار لهم نفس أهداف الإرهابيين وهي الوصول إلى السلطة عن طريق الفوضى والحراب .

ومن المثير للألم والحزن ، أن هذا « التطرف المستفز » لا يفجر التطرف الديني ولا الإرهاب فحسب ، بل هو دعوة لكل ( المعتدلين ) ولكل ( المخايدين ) لاتخاذ موقف !!

وأيا كان هذا الموقف الذى ( يستحقه ) المتطرفون المستفزون ، فإن نتيجه الحتمية ، هى اتساع مدى الصدام بإضافة أعداد أخرى على طرفي الجدل الساخن» ( أنتهى )<sup>(١)</sup> .

ونعتقد أن مثل هذا الاستفزاز موجود ، وأنه قد جاء وقت أعطى بعض الأفراد من السلطات والنفوذ ما لا يتفق مع حجمهم ومواهبهم وأنهم سخروا هذه السلطات لإشباع مشاعرهم الخاصة على حساب القيم والمثل والرموز الإسلامية .  
والأمثلة عديدة وسأجتزئ ببعضها .

١ - جاء فى مقال الأستاذ فهمى هويدى فى مقاله الأسبوعى بجريدة الأهرام يوم ١٣/٧/١٩٩٣ تحت العنوان الفرعى « أصبحنا الجدار المائل » :

بقيت ملاحظة أخيرة فى الموضوع وهى أن حالة الاجتراء والتناول فى كتابات العلمانيين مقصورة على الرموز الإسلامية دون غيرها وبين يدي نصان لائنين من الكتاب العلمانيين فى مصر ، أحدهما مسلم خاطب شيخ الأزهر والثانى قبطى خاطب البطريك ، سأورد فقرات من النصين مجرد إدراك الفرق وسأترك التعقيب والتفسير للقارئ .

« فى عام ١٩٨٨ كنت قد نشرت سلسلة من المقالات فى الرد على عدة كتب ظهرت آنذاك شنت حملة شديدة على الشريعة الإسلامية وتساءلت فى ختامها عن الجهة التى تقف وراء اصدار أمثال تلك الكتب أو التى يمثلها أولئك الكاتبون وقتذاك بعث إلى شيخ الأزهر خطابا أيدى فيما ذهبت إليه وردد تساؤلاتى قائلا : ترى من وراء هذا المخطط الذى تبنته بعض الصحف والمجلات فى مصر ، وهذه المطبوعات التى تظهر بين الحين والحين لتصد عن سبيل الله . ثم قال إنهم بهذا المخطط يناهضون طلب الإصلاح بالإسلام .

---

( ١ ) الأهرام . الدكتور محمد اسماعيل على « الشعب هو المنتصر » يوم ٣١/٧/١٩٩٣ ص ٨ .

حين نشرت رسالة الإمام الأكبر ابرى أحد الكتاب العلمانيين ونشر في جريدة « الأهالي » في عدد يوم ١٩٨٨/٣/٢٢ تعليقا تحت عنوان « لشيخ الأزهر أن يحمد الله » اعتمه فيه بارتكاب « جريمة » القذف بحق الآخرين ، واستهله بقوله : لشيخ الأزهر أن يحمد الله كثيرا على أن الشريعة ليست مطبقة في مصر ، لأنها لو طبقت لاستحق أن يجلد تعزيرا بتهمة القذف ، وأغلب الظن أن ذلك كان سيحدث على ملأ ، وأن جسده الرهيف كان سيعجز عن تحمل قسوة الجلاد . وبينما وصف جسد الإمام الأكبر بأنه ذاق حلاوة السمن البلدى وطراوة الزبد الهولندى فإنه ملأ مقاله بالهمز واللمز والتبكيث والتحقير مستخدما تشبيهات بذيئة للغاية ، وختم مقاله قائلا : أصمت نصمت ، وكف نكف لأنك إن عدت عدنا ، وإن قلت زدنا .

في مقابل ذلك نجد نصا جديرا بالاحترام والتقدير نشره الدكتور ميلاد حنا وهو من العلمانيين الأقباح ، تعقيا على خبر نشرته مجله «روز اليوسف» أشار إلى أن الدكتور حنا يقود الاتجاه العلماني الداعي لرفع يد البابا عن شئون الأقباط في مصر .

في عدد ١٩٩٣/٧/٥ ، نشرت المجلة التعقيب الذى قال فيه الدكتور ميلاد حنا ما نصه : أما أن أدعو لرفع يد البابا عن شئون الأقباط فلتقطع يد من يقول ذلك والذي سمح لنفسه بتفوه هذه الجملة ، ومن ذا الذى يستطيع أن يفكر في أن ترفع يد البابا عن شئون الأقباط وهى شغله الشاغل صباح مساء وعلى مر الأيام ، وله في قلب كل قبطى ، بل أقول في قلب كل مصرى ، مكانة رفيعة غير متكررة في تاريخ البطارقة الأقباط .

\*\*\*

- والمثال الثاني يعود إلى عام ١٩٨٣ ، ففى أحد أيام رمضان المبارك فوجيء قراء الأهرام بكاريكاتور صلاح جاهين وهو يمثل شخصا « عُتْلا » يحمل في يده اليمنى زجاجة شراب تتساقط النقط منها ، وفي فمه سيجارة مشتعلة ، ووراء الشمس ساطعة متوهجة . . وهذا العُتْل يقول : ( أبوه أنا اسمى رمضان . . فيه حاجة لمؤاخذة ! ) .  
« أنظر صفحة ٨٦ » .

والرسم تعدد وقع لمشاعر كل المسلمين الذين يصومون هذا الشهر، وإلا معنى له إلا الوقاحة والاجترأ والبعد عن آداب السلوك، وقد كان جديرا بمن رسمه وهو يدعى (العصرية) أن يعلم أن الدول الأوروبية تحرّم التدخين في كل الأماكن العامة والمواصلات<sup>(١)</sup> .

(١) عندما وقع نظرى على هذا الرسم ، غلى الدم في عروقي ، وأرسلت برقية إلى رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الشورى جاء فيها :

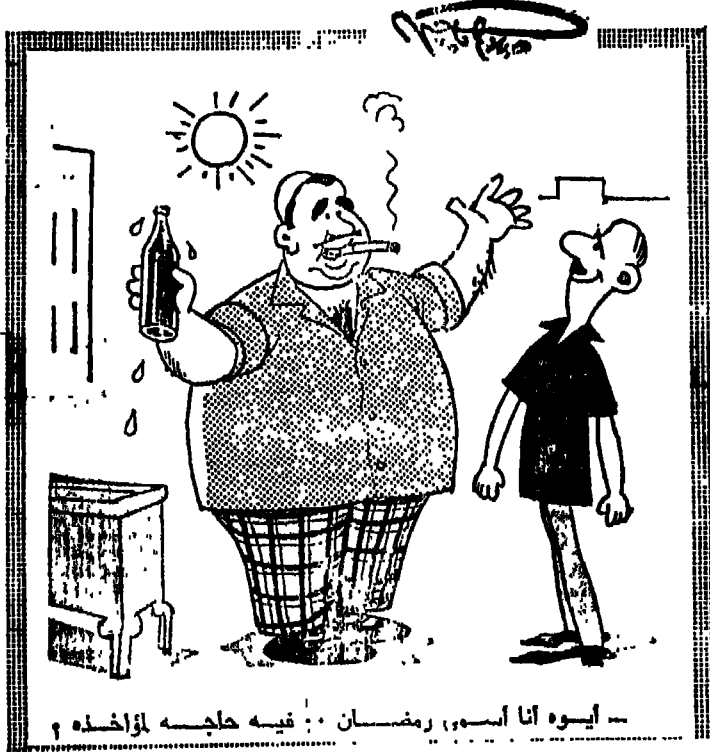
•••••

= « كاريكاتير الأهرام اليوم الخميس مثال صارخ لتحدى مشاعر الشعب وطعن أقدس مقدساته وسيحسب على الحكومة والصحافة القومية .. حرية المعارضة شيء ، والجليطة والاستهانة بمشاعر الناس شيء آخر !! »

كما كتبت إلى الأستاذ عبدالله عبد الباري والأستاذ إبراهيم نافع :  
«الكاريكاتير الذى نشره الأهرام اليوم (الخميس ١٩٨٣/٦/٢٣) مثل صارخ للفجاجة والجليطة والوقاحة . وإذا كان فى رسامكم عرق يبيض بالفسوق والشهوات يحاول أن يدهس فى رسومه - أو إذا كان قد أفلس ولم يعد لديه إلا سقط المتاع - كما تشهد بذلك رسومه الهابطة والساقطة فواجب الأهرام ورئيس تحرير الأهرام أن يجب الأهرام وقراءه هذا الاسفاف .

وقد سمعنا عن رسام يحزب العمال يرسم فى جريدة حزب المحافظين ولا تقيد حرمة - لكننا لم نسمع ابدأ عن رسام يتطوع بتحدى مشاعر القراء جميعا وطعن أقدس ما يعتزون به بدون أى داع . ويتجرد كامل من الذوق والدكاء ..

لقد مزقت الأهرام علنا فى الأتوبيس هذا الصباح عندما وقعت عيناي على هذا الكاريكاتير وأعتقد أن على الأهرام أن يعتذر بسرعة لقراءه ويتخذ إجراء مع المسعول .. قبل أن يسقطه القراء من حسابهم .  
تدعى أنك رحل مسلم مؤمن فأين حميتك يا رجل ؟ جمال البنا



٣ - نشرت مجلة الشعب ( الجمعة ٢٤/٩/١٩٩٣ - ٧ من ربيع الآخر ١٤١٤ )  
كلمة تحت عنوان « علماء الأزهر يدينون التطاول على الشيخ جاد الحق » جاء فيها  
أن الكاتب عبد العظيم رمضان نشر في مجلة أكتوبر ( العدد الصادر في يوم ١٩ سبتمبر  
١٩٩٣ ) مقالا بعنوان « لا يفضيلة الشيخ » رداً على ما أدلى به فضيلة الإمام الأكبر  
شيخ الأزهر في لقاءه مع رجال القضاء والنيابة العامة بالإسكندرية مؤخراً من أن فوائد  
البنوك من الربا المحرم . وقد تضمن المقال تطاولاً صريحاً على فضيلة الإمام ووصفه  
بما لا يليق بمركزه كأكبر شخصية دينية في العالم الإسلامي ، كما أشتمل المقال على  
عبارات نابية لاتصدر الا من جاهل أو حاقد على الإسلام وأئمة المسلمين مثل ( ادار  
فيه اسطوانته المشروخة التي يردد فيها أن فوائد البنوك حرام ، اختار اسوأ الاوقات  
ليدير فيها هذه الاسطوانة البالية ، إن هذا الرأي تعارضه آراء أخرى لفقهاء إسلاميين  
ربما كانوا أكثر من فضيلته فقها وعلماء . . ثم ألم يكن هذا الرأي نفسه هو الذي خرب  
بيوت المسلمين ، فقد كان هو الذي استند اليه النصابون في تأسيس شركات توظيف  
الأموال للضحك على ذقون المسلمين والاستيلاء على أموالهم . . . إلخ ) .

وقد كان الكاتب في غنى أن يشار اليه كجاهل - وهو فعلا جاهل بأبعاد قضية  
الربا - لو أنه أورد آراء العلماء الذين قد يكونون أكثر من فضيلته فقها وعلماء كما  
زعم . . وما الداعى لاستخدام هذه اللغة المبتذلة والأسلوب السوقى وهو يحمل  
«دكتوراة» ويتحدث في موضوع فنى ويخاطب شخصية لها احترامها وتقديرها بحكم  
صفتها ، لاداعى ، إلا التجريح ! .

\*\*\*

فاذا كان الذين يلجئون الى الاستفزاز أو التطاول أو ساقط القول وينتهكون  
المقدسات ، ويتجهمون على الرموز يمكن أن يخلصوا من ولاية القضاء ، ويمكن أيضا  
أن يحال بين من يرد عليهم والنشر ، لأن الصحف عادة تخضع لمجموعات معينة مجافية  
للاتجاه الإسلامى فهناك وسيلة أخرى يمكن الأخذ بها . . .

أذكر أنى قرأت عن جنرال نمساوى أرسلته النمسا ليخمد إحدى القومات الشعبية  
بالبحر ، وكانت النمسا وقتئذ ( قبل الحرب العالمية الأولى ) تحكمها . . واستخدم هذا  
الجنرال وسائل قاسية فى الزج بكل من اشتبه فيهم فى السجن ، وقيل إنه قبض على  
احدى السيدات وجلدها فى السجن . . وقدر لهذا الجنرال أن يزور لندن . . .

وبينما كان يسير في أحد ميادينها تعرفت عليه سيدة مجرية كانت قد علمت بأفعاله . .  
فرفعت يدها وصفعته على وجهه بكل قوتها ! وأقام الجنرال قضية عليها في محكمة «أولد  
بيلي» المشهورة . . وما أن سمعه القاضي مبررات السيدة حتى حكم لها بالبراءة فوراً .

وما أكثر ما كنت أسائل نفسي : ألا نجد رجلاً مصرياً له شجاعة هذه السيدة  
ليصفع بأقوى ما يستطيع ندلاً من اندال التعذيب يكون قد عذبه ؟

وكتبت الى مجلة الشعب إثر ما كانت تنشره من أوصاف لممارسات التعذيب تقشعر  
لها الجلود كلمة موجزة بهذا المعنى بعنوان «كيف لا يجد من يصفعه؟» ولكن المجلة لم  
تنشرها !

وأعتقد أن من عبقرية السنة ، ومن دلائل إعجاز النبوة الحديث الذى أوجب تغيير  
المنكر على من يراه بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلمه وهذا أضعف  
الإيمان وأرى أن من الحق المشروع لكل واحد تتعرض كرامته لاهانة أن يرد هذه الاهانة  
باليد إن استطاع لأنها أكثر الطرق مباشرة وتأثيراً فى مثل أصحاب العواطف الميتة  
والضماير المتحجرة !

إن شائنة سلمان رشدى ( آيات شيطانية ) لا يمكن أن تعد قطعة من الأدب أو  
الفن فى شيء . . فهى رواية رديئة هابطة حافلة بالشتائم والتعابير القذرة ، وبالتالى  
فإنها لا تستحق نقداً فنياً ، أو حماسة فكرية ، وإنما تدخل فى باب القذف والالفاظ  
التي تعف عن استخدامها حتى صحف الأثارة فى بريطانيا وما كان مثل هذا الاسفاف  
ليستحق فتوى الإمام الخومينى ، لأن أى رجل مسلم لو قابله وصفعه ثم قدم للقضاء  
لبرىء<sup>(١)</sup> . . وهذا هو كل ما كان يستحقه !

إن مثل هذا التصرف المباشر هو أكثر صور التصرفات حكمة من كل الجوانب  
لأنه يعيد الكرامة لمن امتنت كرامته ، وهذا حقه ، وهو أولى بأن يباشره ، وإذا كانت  
القوانين قد نظمت مباشرة العقوبات ووكلتها الى أجهزة الحكومة ، فإنما قامت بذلك  
على أساس تنظيمى ، وبفكرة أن الدولة تنوب عن المواطن ، فإذا أختلت المقاييس  
وتعقدت الأسس التنظيمية وأغلقت قنوات الاتصال والاتصاف المنهجية . . فمن  
الطبيعى أن يكون الأصيل أولى من الوكيل ولا عدوان والقضية بعد لا تتضمن عدواناً

---

(١) يحى القانون البريطانى الديانة المسيحية من القذف . ولكن هذه الحماية لا تمتد الى الإسلام !!



على طرف ثالث فهمي بين مظلوم وظالم ، مجنى عليه ، وجان ، ولا يجوز لولاية الدولة أن تنزع من الشعب حقوقه الأصلية أو ترتعن كرامته و ارادته وتضعها تحت رحمة بيروقراطيتها .

وعلى كل حال فإن تدخل الدولة سيحدث ، وسيعرض الأمر على القضاء ، فالخلاف هو في أولويات التسوية وتطبيقها بصورة لائحرم الفرد من حقه وفي الوقت نفسه لائحرد الدولة من التدخل لمباشرة تحقيق العدالة .

ومامن دولة تسمح بامتهان كرامة الأفراد ، إن كل النظم يجب أن تكون لحساب حماية حقوق أفراد الشعب ورعاية كرامتهم وتنمية شخصياتهم ، واقامة الحقوق وتغيير المنكرات .

وما ظل الموضوع في الحدود التي ذكرناها ، فليس هناك أى خطورة ولكن قد توجد المخاطر عندما يساء فهم المبدأ ، أو يطبق في غير الحالة التي ذكرناها على وجه التعيين . . فلا يمكن تطبيقا للأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر ، حرق محل فيديو أو مهاجمة راقصة أو تخريب حانة . . فهذه حالات مختلفة تماما عن الحالة التي ذكرناها ، وحبذنا فيها التدخل باليد ، وهذه الممارسات الأخيرة نوع من المراهقة الفكرية أو التشنيج المذهبي !

كما لايجوز أن يصل الأمر إلى القتل ، لان الإسلام قدس الحياة وجعل القتل مثيلا للشرك ، والخير دائما أن يوكل للدولة حتى يمكن التثبت من الضمانات اللازمة قبل توقيع عقوبة لايمكن الرجوع فيها ، حتى وإن كان القرآن قد أعطى للولى سلطات ، لان الممارسة السليمة لهذه السلطات تتطلب تدخل الدولة للتثبت من الضمانات !

\*\*\*

وبعد كتابة الفقرات السابقة طالعنا مجلة الأهالى فى صدر صفحتها الأولى من العدد الصادر يوم ١٥/٩/١٩٩٣ بخبر يقول :

« محافظ أسيرط يدعو لمواجهة الإرهاب بالفأر»

جاء فيه :

«دعا اللواء محمد سميح السعيد محافظ أسيرط عائلات ضحايا الإرهاب إلى الأخذ بفأرهم دون انتظار ملاحقة الشرطة للجنة، وأعرب المحافظ عن دهشته من تمسك العائلات بعادات الثأر فى الجرائم العادية وتجنبها عندما ترتكبها الجماعات الإرهابية ؟ !»

ودعا المحافظ - أمام مؤتمر للتعليم يوم الأربعاء الماضي : لا يجب أن تتحلل عائلات الضحايا بعدم معرفتهم للجنة ، لان الجميع يعرفونهم جيدا خاصة في القرى التي لا يخفى عنها شيء . (١) .

وهكذا ( قطعت حهيزة قول كل خطيب ) . . فأن يطالب المحافظ وهو رجل السلطة والمسئول عن الأمن الناس بأن يأخذوا بثارهم ، هو ما يوضح لنا أنه قد أصبح هناك حاجة إلى مثل هذا النوع من الممارسة . . ولو طالب بذلك أحد الكتاب لاعتبروه تعديا على حق السلطة ، ولكن السلطة الآن تنادى به ، ولآخر مدى . . القتل ! في حين أننا فيما عرضناه استثنينا - تماما - القتل ، وأنه لا يجوز !

وخلال إعداد الكتاب للطبع قرأنا عَرَضاً خلال تصفحنا كتاب «عقوبة الارتداد عن الدين بين الأدلة الشرعية وشبهات المنكرين» أربعة سطور جاءت في آخر الكتاب تضمن أحدها إشارة الى من وصف القرآن الكريم بأنه «كتاب متحلف» وتضمنت السطور الباقية «وكانت ثلاثة الأثافي أن وصف كاره آخر لما أنزل الله في هذا العام ١٩٩٣ كتاب الله العزيز بأنه كتاب «جبان» كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا» (ص ٩٧) .

وعجبي لا ينقضى من المؤلف الذى لم يعرفنا باسم هذا السفية ، كما لم يذكر لنا ماذا فعل هو وهو كاتب مسلم ، ولا السبب الذى يجعله يتستر عليه ويكتفى بان يقول «كوفء الذى وصف القرآن الكريم بأنه كتاب جبان من الدولة في عيد الاعلاميين ١٩٩٣/٥/٢٧ فمنحوه وسام تقدير بعد شهر واحد من نشره هذا الكفرة» . ونحن لا يعنينا كفره في شيء ، فكفره على نفسه ، وإنما يعنينا أنه أهاننا جميعاً ، وأن كلمته تلك إنما هي صفقة مدوية على وجوهنا ، وكان يجب أن يقدم للقضاء بتهمة القذف والمساس بأقدس مقدسات المسلمين ولا يماثل عجبي من جرأته سوى عجبي من استخذاء الكتاب المسلمين وانعدام نخوتهم فإن أى قضية «حسبة» ترفع ضد هذا الأفاك الأثيم كانت ستلقنه درساً في الأدب والذوق ؛ لأن وصف القرآن العظيم بأنه جبان - اذا صح وصف المؤلف - لا يمكن أن يدخل في حرية فكر ، ولا يمكن لأى قاض أن يتقبله أو يسمح به . نحن وإن كنا نقدر حرية الفكر ، إلا أننا أيضا نقدر الذوق والأدب والتهديب ولا نسمح «بجليطة» أو «فجاجة» أو قذف .

(١) وكرر هذه الدعوة مرة أخرى كما جاء في العدد التالى لملحة الأمانى (١٩٩٣/٩/٢٢) !!

## ملاحظات ختامية :

إن استعراض ماجاء في هذا الباب بأسره يثير هذه الملاحظات التي نختم بها الباب :  
أولاً : إن الفقهاء قد انحازو تماماً ، وبالكامل ، للخط الفقهي السلفي المقرر دون أن يحاولوا الاجتهاد ، حتى الشيخ محمد الغزالي الذي عبر في كتبه عن ضيقه بالتزمّت واتباع بعض الأحاديث دون تحقيق ، وتحدث - فيما يتعلق بالردة - عن السجن وليس القتل في شهادته فإنه في كتاباته اللاحقة التي أوردناها ، سار مع الخط المقرر .

ثانياً : إن الفقهاء لم يفرقوا بين حرية الفكر وبين أمرين آخرين تكررا في كتاباتهم أولهما : السخرية والاستهزاء بالدين والتطاول عليه واثنيهما العمل على حرب الإسلام وهدم دعائمه . واعتقدوا أن الردة تصطبح ضرورة بالأمرين .

وعذرهم أن هذين الأمرين صاحبا الردة في الأيام الأولى للإسلام ، وقد أشار القرآن إلى تظاهر بعض أهل الكتاب بالإسلام أول النهار والكفر به آخره لتوهين ثقة المسلمين بعقيدتهم كما أن محاولات وأساليب الاستفزاز والتطاول لانتقص بعض الكتابات المعاصرة . .

ولكن هذا لاينهض عذراً قويا ؛ لأنه أقرب إلى الشبهه .

ثالثاً : كان يمكن للفقهاء لو أنهم أجهدوا فكرهم قليلاً ولم يحصوه فيما كتب الأسلاف - أن يعالجوا القضية من منظور جديد لا تتركز المعارضة فيه حول ردة العقيدة التي أوضح القرآن أن حسابها إلى الله يوم القيامة ، ولكن على ما يمكن أن تؤدي إليه الردة - أو الأسلوب الذي تأخذه - من آثار على سلامة المجتمع لأن الله تعالى غنى - بداهة - عن العالمين ، وما يمكن أن يتخذ من إجراء تجاه الردة إنما يكون لمصلحة الناس والمجتمع - دون أن يحيف هذا على حرية الفكر المقدسة وكان يمكن عندئذ أن يقفوا جنباً إلى جنب فلاسفة دعاة الفكر . وفي الوقت نفسه - يطبقون توجيه القرآن المتكرر عن حرية الفكر والعقيدة والضمير .

رابعا : لم يكن ليصعب عليهم أن يبرزوا أن الإسلام كما هو عقيدة تتمحور حول الله تعالى ووحدانيته واليوم الآخر والبعث والحساب ورسالة سيدنا محمد ، فإنه أيضاً

مبادئ اجتماعية وسياسية واقتصادية وردت في القرآن صراحة عن تحريم للربا وإيجاب للزكاة وتنديد بالظلم والطغيان إلخ . . . وأن هذه المبادئ تتكون في مجموعها « النظام العام » الذي تحميه القوانين في أكثر الدول ديمقراطية : ومن هنا يجب تكييف موقف المرتد من هذا « النظام العام » . إنه لمن المفهوم أن تضيق الدول الديمقراطية بأى دعوة لنبذ الديمقراطية وإطراحها ، وإحلال الفاشية أو السوفيتية محلها ، والعكس بالعكس ، أى أن الدولة الاشتراكية أو الفاشية لا تسمح بدعوة لإطراح نظامها وإحلال الديمقراطية ، ومن المشكوك فيه أن يُسمح بقيام حزب يدعو لتأميم وسائل الإنتاج ( على الطريقة السوفيتية ) في الولايات المتحدة . وقد عارضت السلطات في فرنسا وبريطانيا ارتداء طالبات مسلمات الحجاب على أساس أنه يخالف العرف الأوروبى . . .

لو أنهم سلكوا هذا المسلك . فأدانوا السخريه والتطاول والإهانه والاستفزاز . ودعوا لدراسة آثار الردة على النظام العام وماتأخذ به الدول الديمقراطية من حماية للنظام العام ومقاومة من يعارضه لكسبوا الرأى العام ووضعوا خصومهم فى مأزق بدلاً من استلهم فهم فقهي ضيق واستخدام صيغ وأساليب منفرة - متخلفة عما يفهمه الناس .

كان يمكن لهم أن يحققوا هذا كله لو أنهم فكروا بعقولهم - لكنهم آثروا أن يفكروا بعقول الأسلاف . فكانوا كأهل الكهف الذين أرادوا أن يتعاملوا بعملة منقرضة لا تستخدم فى الأسواق وإنما توضع فى المتاحف .

## **الباب الثاني** **كلا لأدعياء التنوير**

---

**الفصل الأول : التنوير والآلهة الزائفة**

**الفصل الثاني : التجارب الثلاث للتنوير في مصر**  
**( محمد على - البرجوازية - عبد**  
**الناصر )**

**الفصل الثالث : أزمة ادعياء التنوير « الصراع بين**  
**الذات والموضوع »**

## الفصل الأول

### التنوير والآلهة الزائفة (\*)

لو أن القضية قضية تنوير - كما يدعون - لرحبنا بها ، ولقلنا إنها قضيتنا . . . فالإسلام في أصل التنوير ، وإنما جاء ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، وهي «آية» متكررة في القرآن . . . وقد أطلق الله سبحانه وتعالى على القرآن الكريم نفسه «النور» ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ (التغابن ٨) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ (النساء ١٧٤) . . . والنور كذلك اسم من أسماء الله تعالى ، والله ﴿ نُورِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (النور ٣٥) . . .

فالتنوير هدف أصيل من أهداف الإسلام - وقد حققه عندما كانت له السيادة ، وأي مقارنة بين العهد الإسلامي في أسبانيا والعراق ومصر ، وما كان يشعه من أنوار

---

(\*) انتقد أحد قراء الأهرام في رسالة إلى بريد القراء (٦/١١/٩٣ ص ٩) تعبير «التنوير» لأنه على وزن «تقوير» و «تكدير» واقترح القارئ الاستعاضة عنه بتعبير «الاستنارة» التي توحى بالمنارة . وكان يمكنه أن يقول إن كلمة تنوير توحى كما لو إن التنوير مفروض ، وأن الاستنارة مطلوبة ، ومع هذا سنحتفظ بتعبير «تنوير» لأنه أصبح يطلق على حركة أو اتجاه معين . . .

باهرة ، بما كان يسود المجتمعات الأوروبية نفسها من ظلمات وجهالات في - القرون المظلمة - تؤكد هذه الحقيقة .

المشكلة أن هناك فئة تخصصت في السطو على الألفاظ والاستحواز عليها ، وادعائها لنفسها خاصة من دون الناس ، فالاشتراكية التي آمنوا بها هي الاشتراكية «العلمية» والاشتراكيات الأخرى «طوبوية» أو خيالية ، ونظامها «ديمقراطية شعبية» ! وليس هناك ما هو أبعد عن الديمقراطية والشعبية منه ، ولا تحمر وجوههم خجلا وهي تدعى الحرية ! ولم تُبَلِّ الحرية بمن هو أعدى منهم لها ، وقد كانوا هم الدين أهدعوا - قبل النازي والفاشست - نظم ومعسكرات الاعتقال والتعذيب والحكم الفردي . . . الخ .

وهذه الفئة نرفع اليوم لافتة «التنوير» وهم لا يقولون لنا ما هو هذا التنوير ؟، ما هي مقوماته أو أصوله ؟ أو أين يباع أو يشتري ؟، وتتردد على ألسنتهم كلمات معينة مثل «العلمانية» و «المشروع الحضارى» و «الفصل بين الدين والدولة» . . ويشنون حملة ضارية على «الإسلام السياسى» . . وشعار «الإسلام هو الحل» هو الثوب الأحمر الذى يثير الثور ويطلقه من عقاله . . وقد ركبوا موجة تلك الظاهرة التى أطلق عليها «الإرهاب» واستغلوا ذعر وجهل السلطات ، فملأوا آفاق المجتمع المصرى بغنائمهم وثغائهم . ويفهم من كتابات هؤلاء أنهم يؤمنون بثلاثة آلهة ، ويشيرون بعبادتها . . ويرون فيها التنوير المنشود . . وهذه الآلهة هي : الحضارة الأوروبية ، والاشتراكية ، والقومية العربية .

ففى كل كتابات التنوير المزعوم نجد الدعوة لأحد هذه الآلهة ، أو لها جميعا - وليس هناك تناقض - فالاشتراكية هي إحدى ثمرات التطور الاقتصادى فى أوروبا والقومية العربية هي مثيلة القوميات التى سبقت ظهور الحضارة الأوروبية .

## ١ - الحضارة الأوروبية :

القضية الهامة فى الحضارة الأوروبية التى يجب أن تكون نصب أعيننا ، والتى سيتوقف عليها الحكم ، هي مدى ملاءمة هذه الحضارة للشعب المصرى بأفكاره وتقاليد وموروثاته وتطلعاته . . إن الحضارات لا يمكن أن تنقل من مكان الى آخر كما تنقل قطع الأحجار ، ولا يمكن أن تنسخ كما لو كانت «أصلا» يؤخذ منه صورة كربونية . . فالحضارة تتمحور حول الإنسان سواء كان فردا أو مجتمعا . وهذا الإنسان يعيش على أرض معينة ، ويرتبط بتاريخ معين ، ويعيش مع مجموعات لها ثقافة

ولغة ، وعادات واحدة . . . وعندما يراد اقتباس أوضاع حضارية ، فإن هذه الأوضاع لا بد أن تتجاوب مع العوامل الحية في المجتمع ، والا فقد يرفضها المجتمع كما يرفض الجسم الحى أى عناصر غريبة عنه تقحم عليه ، وقد يحاول أن يأخذ جانباً ، ويدع جانباً ويكون عليه أن يوفق في عملية انتقائية تليقية صعبة . . . وقد لا ينجح رغم ما بهد من جهد . . . كل هذه اعتبارات لأبد أن نعلمها جيداً وأن نضعها نصب أعيننا ، ولا بد أن نعلم أن الحب والهوى من ناحيتنا ، أو الجمال والرونق من ناحية الحضارة لا تكفي لاصطناع أوضاع حضارية ؛ فقد نعجب بثوب ما ، ولكننا نعلم أننا لا نستطيع أن نلبسه لعدم ملاءمته للمقاس أو عدم صلاحيته للمناخ . . . إلخ .

والأمر في الحضارة أصعب ، لأن الحضارة أشبه بشجرة جذورها غائرة في أعماق التربة تمسكها أن تحيد بها الرياح وتمدها بعناصر الغذاء . . . وهذه الجذور التي لانراها هي التي تحول دون أن تقتلع الشجرة ، أو تحول دون إعادة زرعها بنجاح لو اقتلعناها . . .

وقد قامت الحضارة الأوروبية على أسس نفسية وتاريخية تختلف عن الأسس التي قامت عليها حضارة هذه البلاد منذ أقدم العصور ؛ فالحضارة الأوروبية وثنية تعبد الإنسان وتجعله إله ؛ ولم يقم الأنبياء والرسل فيها بأى دور ملحوظ وقام الفلاسفة بدورهم . . . وعندما أتاح الله لها المسيحية مسختها إلى ديانة أقرب إلى الوثنية الهيلينية الرومانية القديمة ، منها إلى مسيحية نبي الناصرة ، ويكاد يكون الصراع العدواني طبيعة فيها . وكان هذا العدوان هو السبب في انطلاقها الاستعماري من الإسكندر المقدوني حتى الفترة الاستعمارية التي أقامت ثراءها وتراكمها بالسلب والنهب واستغلال ثروات آسيا وإفريقيا ، وعندما استراحت من عداوة الأتحاد السوفيتي أخيراً بدأت تبحث عن «عدو» جديد ، وليس في هذا مفارقة أو مبالغة ، لأن من عناصر هذه الحضارة القوة والصراع . فلا بد أن يكون هناك عدو ما تمارس فيه الحضارة فعاليتها ، وهم اليوم يتصورون أن الإسلام هو العدو الجديد للحضارة الأوروبية !

ورغم الإنجازات الباهرة للحضارة الأوروبية ، فإن الثمن الذي يدفع لهذه الحضارة باهظ ، والحقيقة أن ما تتضمنه الحضارة الأوروبية من سوءات كان يمكن أن يقضى عليها لولا أنها توصلت إلى درجة كبيرة من العلم والمعرفة مكنتها من معالجة هذه السوءات أولاً بأول ، فإذا نقلنا أوضاعها دون أن نقل معارفها فلا ريب في أن يؤدي هذا إلى سقوط وشيك . . . لأن الحضارة الأوروبية نفسها تهدم بيد ما تبنيه باليد الأخرى ، ويغلب في مثل هذا المسار أن يتغلب الهدم ويصبح عليها أن تدفع ثمن عربتها .



ولا يتسع المجال لمعالجة موضوع الحضارة الأوروبية معالجة مسهبة ويكفى فحسب أن نعلم أن الأصول التي قامت عليها الحضارة الأوروبية تختلف أو تتناقض مع الأصول التي قامت عليها حضارة مصر . وأن من الضروري توفر درجة كبيرة من التقدم العلمى لإصلاح سوءاتها . . وهذا وذلك يحولان دون اعتبارها المثل الأعلى أو محاولة الأخذ بها فضلا عن أننا عندما ننصب موازين التقييم الموضوعى لها فإنها لن تكون الأفضل .

والموقف الأمثل لنا إزاء الحضارة الأوروبية هو التزود بكل ما تقدمه من علم ومعرفة ، والاستفادة من تجاربها وخبراتها دون أن نفتن أمام إغراء كثير من الجوانب البراقة ، واللامعة فيها فتتقى ما تحفل به من صراعات وتوترات ولوثات كان يمكن أن تودى تماما بأى حضارة من الحضارات القديمة ، لولا أن الحضارة الأوروبية وجدت في العلم ما يعالج السوءات التي تكشف عنها ( الحرية ) أولاً بأول - على ما أشرنا آنفا - ولكن تظل الحضارة الأوروبية مهددة بأن تدفع ثمن عريبتها في النهاية .

وأخيرا ، فإن القيم المعنوية ، وفكرة الواجب والحقوق الأساسية للإنسان ، وهى ما تفخر به الحضارة الأوروبية ، تقوم على أساس نسى ، وأن النسبية فيها قد تصل الى النقيض . وموقف المجتمع الأوروبى من جرائم الصرب - وبالذات الاغتصاب - مثال يصور ذلك . فقد أقرت الأغلبية الكاسحة لقوى المجتمع الأوروبى ، وعلى رأسها الساسة ، والصحافة ، ورجال المال والأعمال وقادة الأحزاب . . . ألغ سياسة الانسلاخ أمام ندالات الصرب ، بل شجعتها عندما سكنت عليها وحرمت فى الوقت نفسه على المسلمين تسليح أنفسهم ، بدعوى أن هذا يفاقم القتال ! وهى قطعة نموذجية من نفاق هذا المجتمع ؛ وفى الوقت نفسه فإن حسنات الحضارة الأوروبية ، ونحن لاننكر أبدا أن فيها حسنات عديدة ، سمحت بأن يستقيل عدد من الوزراء احتجاجا على سياسات حكوماتهم المشينة . . كما هبت بعض الجمعيات ، وتطوع أفراد عديدون لمساعدة المسلمين ، وانتقد بعض القراء ، وبعض الكتاب فى الصحف الأوروبية مواقف حكوماتهم ، ولكن هذا الجانب الطيب فى الحضارة الأوروبية يمثل استثناء لا يكاد يسمع ولا يستطيع أن يوقف سير التيار المجنون .

هذه المعادلات كلها يجب أن نضعها فى الحسبان عندما نُقيّم الحضارة الأوروبية

ونحدد مواقفنا تجاهها ، فنقبل الحسن الطيب ، ونرفض السيء الخبيث ويكون المعيار هو المعيار الموضوعى البعيد عن التأثير بالعواطف أو المشاعر فلا نندفع في الرفض ، والعداء ولا «ندلق» في الاعجاب والأنهار .

## ٢ - الاشتراكية :

قلنا فى مناسبات عديدة سابقة إن الاشتراكية مثلت الضمير الأوروبى ردحا من الزمن ، عندما تنكرت الكنيسة والنظم الاقتصادية والسياسية للجماهير ، وناصرت الرأسمالية الطليقة ، وقلنا إن الحركة ضمت عددا كبيرا ، بعشرات الألوف من أنبل النفوس ، كتابا وشعراء ونقائيين الخ . . . وبعضهم من الأكليروس المستنير ، حتى جاء ماركس فسجن الاشتراكية فى اطار محكم وغرس فيها بذرة التعصب الأعمى ، ثم جاء لينين فصلبها بمسامير السلطة على صليب دكتاتورية البلوريتاريا المزعومة . ونحن مع هذا لاننكر أن ماركس كان مفكرا عبقريا ، وأن لينين رجل دولة وبانى امبراطورية .

وقلنا إن الاشتراكية ثمرة أوروبية خالصة ، وقد نشأت مع نشوء الدولة القومية التى أقامها التجار وحطموا اسوار المقاطعات والطوائف ليظهر «السوق» القومى ولتتبع الظروف لظهور الثورة الصناعية والرأسمالية . . . أبلغ وأن الاشتراكية فى اقامتها لتنظيرها اعتمدت على أسس أوروبية خالصة سواء من الفكر أو الواقع ، وأن هذا لا يمكن أن يصدق - بالضرورة - على غير أوروبا .

واعترفنا بأن الاشتراكية - حسنة أو سيئة - كشفت عن جانب من جوانب التطور ، وأبرزت قوة العامل المادى مما تستحق عليه الشكر ، وتنال به الريادة فى المجتمع الأوروبى بالنسبة لهذا العامل .

ولكن ليس معنى هذا أن الاشتراكية «علمية» كما يروق للماركسيين الأدعاء ، وأن ما يخالفها «طوبوية» فالحقيقة أن الاشتراكية الماركسية - ككل النظريات - صبت كل الثقل على عامل واحد هو العامل المادى وأغفلت بقية العوامل وأنها فى نقدها للرأسمالية وعيوبها جهلت عيوب ونقص الاقتصاد الأشتراكى ، وفى عداوتها للملكية الفردية وأثرها المدمر نست السلطة وأثرها الأكثر تدميرا والذى كان فى أصل كل أخطائها ، أى الدكتاتورية والتخطيط المركزى والبيروقراطية ، وهى الموبقات التى قضت عليها فى النهاية .

أضف الى هذا جهلها بالدين ودوره ، وما يمكن أن يقدمه في اثناء الحياة ، وأنه يمثل «الكلمة» بجانب «الرغيف» الذى تمثله ، وأن العناية بالعامل المادى لايعنى اغفال الجانب الروحى .

ولاجدال فى أن ماركس يتحمل جزءا كبيرا من مسئولية خطايا النظرية التى أبدعها . . ولكن المسئولية العظمى تقع على لينين الذى حولته السلطة من منظر ، وداعيه ، وقائد جماهيرى ومحارب لأجهزة القمع فى الدولة ، الى أكبر ديكتاتور فى العصور الحديثة . وأنه لكى يقيم أمبراطوريته ، مارس أساليب جنكيز خان وايفان الرهيب وبطرس الأكبر ، ووضع أساس أكبر جهاز مخابرات ارهاى فى الدولة الحديثة ، وتسبب فى مقتل الملايين لاصراره على فكره الخاص ، وتمسكه بتطبيق «المركزية الديمقراطية» رغم معارضة العناصر الناجية والأمينية فى الحركة العمالية ، وفرض الحزب على كل أجهزة الدولة ، وكل المنظمات الجماهيرية . . وقد كانت هذه فى أصل تحلل النظام الذى لم ييك عليه أحد لأن سوءاته - وأبرزها القضاء على الحريات لم تدع له صديقا . . .

وقد جربنا الاشتراكية فى منطقتنا ، ففى عدن التى كانوا يطلقون عليها - لا أدرى لماذا - قلعة الصمود والتحدى !! وجد مجموعة من الشيوعيين «أكثر ملكية من الملك !» جعلوا من «عدن» جحيما وأذاقوا أهلها لباس الذل والجوع ، وتحكموا فى لقمة العيش ، وبسطوا حكم الأرهاب ، ثم استدار بعضهم على بعض فمزقوا أنفسهم شرمزق !

وفى السودان حكموا لمدة يومين فقط خضبوا فيها الأرض بدماء الضباط والجنود !

أما فى العراق فقد أصبح «السحل» هو الممارسة السياسية والإضافة التى جاء بها الشيوعيون خلال حكمهم فى إحدى فترات الديكتاتور المجهنون عبد الكريم قاسم ، بينما تأمرت العناصر اليسارية مع حزب البعث فى سوريا والعراق . . ووصلت الى الحكم على أسنة الرماح ، وبسطوا حكم الأرهاب النصيرى أو التكريتى . . فى سوريا والعراق !

وبالنسبة لمصر ، فلم يكن عبثاً أن يشرف على الموجتين الشيوعيتين فى العشرينات والاربعينيات يهوديان هما روزنتال وكوريل ، ولم يستطيعا - رغم

مواهبهما وإمكاناتهما ومساندة الاتحاد السوفيتي . أن يكتسبا إلا عددا محدودا جدا معظمهم من الأجانب أو المتمصرين ، وحتى في الحركة النقابية فانها لم تكتسب جمهورا يعتد به ، أو تقيم قواعد ثابتة ، وان كانت وراء عدد قليل من الاضطرابات ، واتسمت الشيوعية في مصر - رغم ضآلتها - بالانقسامات الحزبية والنظرية ، وقد نجح المثقفون الماركسيون في نشر المفاهيم الاشتراكية عن طريق الصحافة الأذاعة والكتب ، ولكن الرأي العام المصرى لم يتقبلها على علامها ، ويحتمل أنه استفاد منها . . وقد جاءت فرصتها مع افلاس الناصرية وحاجتها الى غطاء ايدولوجى ، وتعاونت الماركسية المصرية مع الفاشية العسكرية بلا حياء أو نخجل ! وبرر الماركسيون كل موبقاتها ، وكان لابد لهم من ذلك وهم يتقلدون مراكز الصدارة في التوجيه الفكرى وفي الصحافة والاعلام .

ومع أن الناصرية قد أفلت ، فقد استطاع الكثيرون من الماركسيين المصريين الاحتفاظ بمناصبهم لعدد كبير من الأسباب ، قد لا يكون ابرزها الكفاءة أو الايمان . وقد تهاوت المنظومة الاشتراكية في العالم كله ، ودمرت تماثيل آلهتها المعبودة ، ولكن قصر نظر الرأسمالية وأنانيتها يمكن أن يصنع من السوءات ما يفسح المجال مرة أخرى لدعوة اشتراكية في روسيا ، كما أفسح المجال لنازية جديدة في ألمانيا !

وفكرة العدالة كهدف ، والعامل المادى كمقوم رئيسى هما من الأفكار التى يتضمنها الإسلام ومن ثم فإن الاشتراكية الماركسية لاتقدم جديدا الى الاسلام سوى شنشنتها المعروفة التى لاقيمة لها ، ومن الخير أن يحتفظ الماركسيون بها لانفسهم .

### ٣ - القومية العربية :

القومية العربية أكثر الآلهة الزائفة هزالا وزيفا ، ولا يمكن أن تقارن بالحضارة الأوروبية أو الحركة الاشتراكية ، وهى مع هذا - وربما لهذا - أعلاها صوتا ، وأكثرها ضجيجا حتى لقد ظهر من دعائها من يقول «القومية العربية بالنسبة لنا نحن القوميون العرب ، دين له جنته وناره ، ولكن في هذه الدنيا » وقد تكون القومية العربية هى ديانة المسيح الدجال ، ولاشك أن لها جنتها ونارها فى الدنيا - كما قال دعيبا : فخزائن عبد الناصر وحزب البعث تقدم اللجنة ، كما أن سجونها وتعذيبها هو الجحيم !

وقد ظهرت القومية العربية - كتكتل سياسى منظم فى المنطقة عندما بدأت حكومة الاتحاد والترقى فى تركيا فى العقد الأول للقرن العشرين فى اضطهاد العناصر ، غير التركية وبوجه خاص

العناصر العربية ، لأن الحركة كانت قومية ، وفلسفتها كانت «عنصرية» تنسب للأتراك فضائل ومزايا كالتى نسبها هتلر للألمان ، وموسوليني للطلليان . . . وكان ذلك يجعلها تحصر المناصب الكبرى فى أيدي الأتراك دون العناصر الأخرى المكونة للسلطنة ، وبالذات العنصر العربى الذى كان أقوى العناصر فى الفترة التى قام «الاتحاد والترقى» بانقلابه وسيطرته على الحكم . كما كانت هذه الفلسفة تعزف عن المقوم الإسلامى ، فالرسول لم يكن تركياً ، والقرآن لم ينزل بالتركية وليس فى أصول الجنس التركى ما يربط بينه وبين الجنس العربى . فضلاً عن أن المقوم الإسلامى يتناقض مع فكرة العنصرية ، فنشأ عزوف وكراهية للعنصر العربى الذى كان بعد الأتراك - مباشرة - أهم عنصر فى الدولة ، إذ أن العناصر الأخرى - كاليونانيين والبلغار والصرب كانت قد ظفرت باستقلالها ، ولم يبق إلا العنصر العربى يستأثر بكثير من المناصب فى الدولة . وكان هناك عامل مبدئى وأيديولوجى . كما كان هناك دافع مادى ونفعى لإضطهاد ومحاوله إستبعاد العناصر العربية من السياسة التركية .

وكان الضباط العرب فى الجيش العثمانى ، والنواب العربى فى مجلس «المجوثان» ينظرون إلى تركيا بإعتبارها دار الخلافة ، والدولة العثمانية التى حمت الإسلام ورفعت ألوته ، وأن هذا «الإسلام» يجمع ما بين العنصرين التركى والعربى ، ويحسم الحساسيه ، خاصة وإن الإسلام يجعل المؤمنين به أبعد الناس عن «الأثرة العنصرية» .

وعندما أستشعرت عدوان حكومة الإتحاد والترقى لم تبادلها عداوة بعداوة ، ولكنها حاولت أن تجمع بين سيادة تركيا . . . وحقوق العرب . وكانت فكرة أكبر هؤلاء الضباط رتبة ، وأكثرهم شعبية وأرسخهم قدماً فى الجيش التركى «عزيز المصرى» ، هو أن تأخذ الدولة شكلاً فيدرالياً تظفر فيه «الولايات العربية» باستقلالها الذاتى دون أن يؤثر هذا على تبعيتها وإرتباطها بالدولة «العلية» أو الخلافة العثمانية . وعلى هذا الأساس أقام عزيز المصرى جمعية «العربية الفتاة» ثم حزب «العهد» ، كما أسس المدينون حزب اللامركزية فى مصر ، وكان من أقطابه رشيد رضا ، وعبد الحميد الزهراوى ورفيق العظم ، ومعظم مثقفى سوريا والعراق .

ومع أن هذا كان يحل مشكلة تركيا حلاً مثالياً ، ويعينها فى فترة محتتها . إلا أن العقلية الضيقة لضباط الإتحاد والترقى الذين هيمنوا على السياسة التركية من سنة ١٩٠٦

رفضت هذا واعتبرته خيانة ، ووصل التوتر إلى قمته عندما علق جمال باشا قطب الاتحاد والترق ووالى سوريا أحرار العرب على المشانق في محاكمات «عاليه» وغيرها<sup>(١)</sup> .

فكان هذا إيذاناً بقطع الجسور . . . ودخول القضية إلى طريق مسدود .

وعندئذ ظهرت - ولأول مرة - القومية العربية . .

وتقصى ملابسات القومية الأولى «القومية التركية» التي ظهرت على مشارف المنطقة ، وتأثرت بها القومية العربية - لأنها كانت رد فعل لها - كما سيتضح ذلك مما سيلى - يبرز الخصائص التالية .

١ - إن القومية التركية المزعومة ظهرت على أسنة الرماح وبفضل إنقلاب عسكري قاده لفييف من الضباط .

٢ - أن شكوكاً كثيفة تكتنف بعض أسباب قيام الانقلاب وإنتهاء القائم عليه . فقد كان أنور ابناً لبولندى مسلم . كما كان طلعت من أسرة مجرية الأصل . أما جاويد فقد كان من أبرز يهود سلانليك ومن أقطاب الماسونية العالمية .

وضمت الحركة عناصر يهودية وماسونية عديدة ، وهناك أقاويل كثيرة حول دوافع الحركة .

٣ - إقترن عهد القومية الانقلابية - العسكرية بالشؤم والعقم فخسرت الدولة خلال الثلاثين شهراً الأخيرة من حكمهم أكثر مما خسرت خلال الثلاثين سنة التي سبقتها . .

ثم ورطت تركيا في الحرب العالمية الأولى ، ودفعت بها إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، أى في صف المهزومين ضد المنتصرين ، وكان عليها أن تدفع الثمن باهظاً في معاهدة سيفر المهينة . .

وهذه الخصائص هي مانجدها إلى حد كبير في حركات القومية العربية إما للفقير الأصولى في «القومية» كدعوة ، أو لأن القومية العربية كانت نقيضاً جديلاً للقومية التركية على ماأشرنا ، أو رد فعل لها يتساوى ويتأثر معها .

---

(١) كان هناك بالفعل عدد محدود من الذين حوكموا ، وأعدموا قام باتصالات مع فرنسا يمكن أن تمد «حيانة عظمى» وكانوا من المارونيين ، ولكن الأغلبية العظمى كانت من الوطنيين الأطهار الحريصين على تركيا حرصهم على العرب .

فنحن نرى ضباط حزب البعث ٠٠٠ وضباط عبد الناصر يحملون دعوة القومية العربية على أسنة الرماح إلى السلطة في سوريا والعراق ومصر ، ثم نرى الشكوك التي أحاطت بحقيقة الدوافع والبواعث التي أدت إلى إنقلاب الاتحاد والترقي في تركيا . وقد تحولت إلى حقائق تاريخية لا يمكن دفعها ، كما سنرى القومية العربية تقوم لدواعي إستعمارية بحتة ، مما سيرد فيما يلي .

وأخيراً نجد العقم الشؤم يرافقانها فتتعدد الانقلابات العسكرية التي تصل من الفاقة والعري درجة لا يمكن معها أن تجد إسما لها ، فتحمل تاريخ وقوعها كذا آذار ٠٠ وكذا تموز ١١ لمخ . ثم تُخسر هذه القومية العربية الجولان من سوريا ٠٠ وتزج القومية العربية العراقية بالعراق في حرب إيران ٠٠٠ ثم يخسر بطل القومية العربية الأكبر جمال عبد الناصر - حرب ٦٧ ، ويوقع بالمنطقة كلها أسوأ هزيمة في تاريخها الحديث .

وقد يتطلب الأمر تحقيقاً أصولياً موضوعياً لإظهار سبب هذا العقم والشؤم ، فالقومية بصفة عامة ، وليست القومية العربية خاصة ، إنما هي في الحقيقة بتعبير ماركس وأنجلز (الأناية بالجملة) . وكان الذي أظهرها - وأورثها خليقتها - هو التاجر عندما هدم الأسوار التي كانت تفصل المدن بعضها عن بعض في أواخر عهد الإقطاع ليوجد سوقاً عاماً على مستوى الدولة - سوقاً قومياً . وقد ورثت شيئاً من خصائص «التاجر» فالقومية لا يمكن أن تكون ذات «قيم» ومبادئ موضوعية ، وقد رفضتها المسيحية والإسلام ، كما رفضتها الاشتراكية وكما ترفضها كل الدعوات العالمية والإنسانية لأنها تقوم على الأثرة والأناية والمصلحة الخاصة ، وإنما توجد القيم والمبادئ في الأديان وعندما فرطت الدول العربية في إسلامها . بإعتباره الأصل الذي تتلاقى عليه - فإنها فقدت أصل القيم . ولم تعد أى صيحة معنوية أو أدبية تتطلب إثارةً يمكن أن تلقى تجاوباً من ساسة القومية العربية . وهذا أيضاً هو السر في أن الجامعة العربية المنكودة لم تستطع أن تصدر قراراً مصيرياً لأن هذا القرار يتطلب الإجماع - والإجماع يتطلب بالضرورة إعلاء المصلحة العامة على المصلحة الخاصة وهذا يتعارض مع منطق القومية ، وهو كذلك السبب في أن أى معالجة لقضية فلسطين إنما جاءت من وجهة نظر كل دولة عربية ودون النظر إلى فلسطين نفسها ومصحتها .

\*\*\*

وقف بنا السياق عند الوصول إلى الطريق المسدود ما بين العرب والترك ٠٠ مما هياً المجال لظهور تحرك عربي يحمل اسم القومية العربية ونستأنف السياق .

في هذا الوقت برز على الساحة عامل جديد هو القوى الأوروبية وبالذات فرنسا  
وإنجلترا .

فرنسا التي اتخذت من المارونيين ذريعة للتسلل في لبنان وموطأ قدم للتدخل في  
شئون الدولة العثمانية ، والتي كانت تضم عداوة للأسلام ولاسيما لسوريا ومصر  
الإسلاميتين ، فهي لم تنس أسر «القدس» لويس التاسع في المنصورة ، ولا هزيمة حطين  
المدوية - وأخيراً فشل الحملة الفرنسية بقيادة نابليون على مصر . .

أما بريطانيا فعداوتها التقليدية لتركيا ومصر والأسلام من أيام ريتشارد «قلب الأسد»  
والعداوة المريرة التي تملك «بلمرستون» وجعلته يحطم أمل محمد علي في إقامة دولة  
في المنطقة ، ويقضى على فتوحاته ويدمر الأسطول المصري - التركي في نفارين ، ثم  
إحساس بريطانيا بأهمية مصر بعد شق قناة السويس وإحتلالها غير المشروع لها .

وكان العامل المباشر في تحرك هاتين الدولتين . بالإضافة إلى هذه الدوافع التقليدية  
القديمة ، هو أن تركيا إنحازت إلى ألمانيا في الحرب العالمية ضدها فحل دمه ودم المنطقة  
التي تتبعها وقررتا الأستحواز على هذه المناطق (وكان المفروض أن تستحوذ روسيا  
على القسطنطينية) في إتفاق سرى آخر - ولكنهما كانا من الفطنة بحيث لا يعلنان ذلك .  
فإتفقا سراً على تقسيم المنطقة العربية في إتفاقية «سايكس - بيكو» الذي تؤول بموجبه  
سوريا ولبنان إلى فرنسا . . . والعراق إلى بريطانيا ، أما فلسطين فكانت بريطانيا قد  
قدمتها للصهيونية بمقتضى «وعد بلفور» .

ولم تكن المشكلة في تحقيق هذا المشروع هي المشكلة العسكرية لأن الغلبة العسكرية  
على الترك كانت مكفولة تقريباً ، ولكن كانت المشكلة في السكان - فهذه مناطق  
مأهولة بسكان لهم شوكة ولغة وحضارة - وليس من الطبيعي مطلقاً أن يستسلموا  
أمام القسمة الضيوي التي تسلم بلادهم لقمة سائغة لفرنسا وبريطانيا .

ومن هنا كان لابد من خداع شعوب المنطقة ، لابد من تقديم «غطاء» أيديولوجي  
يمكن تحته الوصول إلى الأرض العربية والسيطرة عليها . وهذا ما تكفلت به الأجهزة  
العنية في الدولتين - فقامت الأجهزة الفرنسية بالإتصال بالمارونيين وضمنت تأييدهم  
لفرنسا «الأم الحنون» بينما كتب المعتمد البريطاني في مصر «مكماهون» إلى الشريف  
حسين أمير مكة يوعز إليه بإعلان «ثورة عربية» على تركيا ، ويمنيه بأن يكون له حكم  
المنطقة العربية بأسرها (الشام - فلسطين - لبنان - العراق) إذا أعلتها وحررها بمساعدة  
جيوش الحلفاء من السيطرة التركية .



وهكذا قدمت بريطانيا الفكر الذى ليس فحسب يبرر الثورة ، بل يجعلها قضية «قومية عربية» كما قدمت المال والإغراءات الماضية ، وقدمت أخيراً الكولونيل لورنس ، ومجموعة الجواسيس .

ونجحت الخطة تماماً ووصلت جيوش النبى البريطانى المنطقة العربية دون مقاومة ، بفضل التأيد والمساندة التى قدمها «فيصل» بن الملك حسين والمجموعة العربية .

وعندما جاء وقت التسوية الحقيقية ، إستولى الجنرال غورو على سوريا ، وطرد فيصل شر طردة ، وأقام «لبنان الكبير» بأجزاء إقتطعها من سوريا - ووضع بذلك بذرة النزاع السورى - اللبناى الذى لم يهدأ حتى الآن . وقد لا يهدأ ما ظلت أيدولوجية القومية العربية هى الحاكمة .

بينما سيطر البريطانيون على العراق - وجعلوا من فيصل ملكاً ترضية له وتعمية لاستعمارهم - بينما كونت على عجل إمارة شرق الأردن لإرضاء الأمير عبدالله ، ثالث أبناء الملك حسين وثانى المتورطين منهم فى العملية<sup>(١)</sup> .

وهذه هى الثورة العربية الكبرى التى يجعلها حزب البعث رأس انطلاقته . . . ويفخر بها . . . وكان جديراً به أن يجعل منها . . . وينأى عنها ، وهذه هى قصة ظهور «القومية العربية» !!

\*\*\*

ونأتى الآن إلى مناقشة السلامة الموضوعية لفكرة القومية العربية ، ومدى نجاحها كأيدولوجية تقوم عليها أمة أو مجموعة دول . . .

إن عناصر القومية معروفة فهى الأرض والجنس والتاريخ والدين واللغة . . . الخ . فهل تعنى القومية العربية جنساً بعينه يحمل دماً مميزاً؟

إذا كان هذا يصدق منذ خمسة عشر قرناً عندما ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية ، فإنه لا يصدق فى كثير أو قليل بعده ، حتى بالنسبة لسكان شبه الجزيرة العربية نفسها . فما أن بدأت الفتوح الإسلامية حتى قامت أكبر حركة هجرة داخلية وخارجية عرفتها المنطقة فانهالت على الجزيرة العربية عشرات الألوف من السبى إثر على كل انتصار للجيش الإسلامى ، وكان عمر بن الخطاب يستعيد من سبى «جولاء» .

(١) وهذا لا ينفى وجود عدد كبير من الأفراد (ضباط وكتاب ودعاة) تحذعوا إما بالدعاية الإنجليزية -

الفرنسية ، وإما سراب «الدولة العربية» ، فكانوا مخلصين ، ولكن مخدوعين .

وأعنتق هؤلاء الأسلام وسكنوا الحجار وأصحوا من أهلها وظهر منهم العلماء والفقهاء . وعلى مدار التاريخ كانت أفواج المهاجرين تفتد إلى الحجار ، ولعل آخرهم كان ضحايا آخر ثورات القفقاس الإسلامية فى مواجهة الغزو الروسى بعد هزيمة الأمم شامل بحيث أصبح الحجار بوتقة لأجناس العالم المسلمة .

وفى الوقت نفسه فإن الجيوش العربية استقرت فى مصر وسوريا والعراق والشمال الأفريقى والقبائل التى هاجرت إليها مرة بعد أخرى . واختلطوا بالسكان الأصليين الذين أسلموا وتزاوجوا وتصاهروا ولم يعد من فرق بينهم .

فدعوى الدم العربى لأساس لها من الصحة ، ولم يوجد من بين الخلفاء العباسيين من هو من دم عربى خالص إلا «الأمين» الذى لم يطل به العهد ، وحتى لو صدقت ووجد الدم العربى النقى لكان يجب أن نرفضه ، فدعوى الدم هى قوام أسوأ القوميات عنصرية : الإسرائيلية ، الآرية ، التورانية ( التركيه ) جنوب أفريقيا .

هل القومية العربية تاريخ ؟ إن التاريخ من أكبر العوامل التى تُكوّن الأمم - وفكرة أن الأمة تتكون تاريخياً لا تخلق من وجهة ، فما هو التاريخ عند القومية العربية ؟

بالنسبة لشبه الجزيرة العربية ، لم يكن هناك تاريخ كأمة ، ولكن كان هناك تاريخ لقبائل تمزقها صراعات وحروب إما تلبية لنزعات ونزوات - مثل حرب داحس والغبراء والبسوس - وإما لدواعى تقليدية قبلية .

وأحياناً نكّر على أختينا

إذا ما لم نجد إلا أختانا !

ولم يظهر لهذه المنطقة - كأمة - تاريخ إلا عندما وُحد محمد هذه القبائل كلها وصهرها فى بوتقة الإسلام وأعطاهما الكتاب والميزان وعندئذ أصبح تاريخها جزءاً من تاريخ الإسلام ، واكتسبت مجد الإسلام .

وأما بالنسبة للدول التى «عربها» الفتح الإسلامى فقد كان لبعضها تاريخ مجيد سابق . وحضارات أصيلة - كالحضارة المصرية القديمة ، والحضارة الأشورية والبابلية . . . ولكن عندما دخلت الجيوش العربية كانت هذه المنطقة كلها فى أسر الأباطوريتين الكبيرتين الرومان . . . والفرس . . .

وكانت حضارات هذه الأمم حضاره طبقية ، فجاء الفتح العربى فحرر

هذه الدولة ، ومن هذا التحرير أخذت بدايتها التاريخية الحية ، أما ما وراء ذلك من تاريخ وحضارة فقد أصبح في منطقة «اللاشعور التاريخي» لها ، أما تاريخها الواعي الحر فإنه يبدأ من التحرير الإسلامي لها . وهذا التحرير بالإضافة إلى الإيمان الإسلامي ، جعل تاريخ المنطقة هو تاريخ الإسلام وابطالها هم محمد وخلفاؤه وقادته ، ومن ظهر بعدهم ممن حملوا اسم الإسلام .

وقد لا نجد دولة كمصر لها تاريخ عريق ، ضارب في أعماق التاريخ ، وله شواهد من الآثار التي لا تزال قائمة ، وتصارع القرون ، ويمكن أن تعد أول دولة «قومية» في التاريخ حافظت أعلى قوميتها وحدودها منذ أن وحد مينا الوجه القبلي والوجه البحري لتظهر مصر منذ سبعة آلاف سنة .

هذه الدولة لاتفخر اليوم بأجداد رمسيس وتحتسب . . . الخ ، قدر فخرها بعمر بن العاص أو الزبير بن العوام أو عبادة بن الصامت . . . وقد أسهم في تاريخها الحديث كل الجنسيات التي جاءت من أقصى الأرض ، وكان جواز مرورها الوحيد هو «الإسلام» من «جوهر الصقلي» باني القاهرة حتى «جمال الأفغانى» باعث الفكر الحديث . . . وصلاح الدين الأيوبي الكردي قائد حطين ، وبيبرس وقطرز اللذين جاءا من القفقاس ليقودا عين جالوت .

وماذا بالله يمكن أن تفخر به سوريا قبل الإسلام ، وقد كانت إما ملحقة بمصر ، أو ملحقة بروما . . . ثم جاء الإسلام وجعلها لأول مرة ولآخر مرة قاعدة «لإمبراطورية» وخلافة عظيمة - هي الخلافة الأموية التي تعد جزءاً من صميم التاريخ الإسلامي ، وبأى صلة كان معاوية بن أبي سفيان أو عبد الملك بن مروان يمتنان إلى سوريا والسوريين ؟ إن الإسلام وحده هو الذي جعل من سوريا «قوة» عالمية وعاصمة لإمبراطورية وعندما تنكرت له عادت مرة أخرى دولة صغيرة شكسة . . .

إذن لا يعد التاريخ مقوماً من مقومات القومية العربية لأنه ليس تاريخاً لها . . . ولكنه تاريخ الإسلام . . . ومواقفه هي المواقع الإسلامية وقادته هم القادة المسلمون الذين جاءوا من كل أجناس العالم الإسلامي .

هل القومية العربية تمثل تشريعاً . . . أو إقتصاداً . . . أو فناً . . . أو أدباً . . . ؟

إن هذا كله لا يمت إلى القومية العربية بشيء ، وإنما جاء به الإسلام فالشريعة هي

محور القانون . مدنياً وجنائياً . منذ أن ظهر الإسلام حتى جاء الأستعمار ، وكانت لبعض فروع الشريعة آثارها في المجتمع الإسلامى ، كتحريم الخمر والقمار والربا . حتى وإن أسئ تطبيقها ، كما كان لوجهة النظر الإسلامية في الفنون والآداب - الأثر الأكبر - فلم يعد الفن المصرى هو الفن الذى يصنع التماثيل أو ينقش على الأحجار الصلبة صور الآلهة . . ولم تواصل الموسيقى والغناء مسيرتها المتحررة المنطلقة التى كانت عليها - فقد ترك الإسلام بصمته عليها تماماً حتى وإن أسئ فهمه .

بقى مقوم واحد من مقومات «القومية» يدعيه أنصار القومية العربية هو «اللغة» . واللغة فعلاً أوثق روابط المجتمع ، وهى أكثر من أى مقوم آخر يكوّن الأمة ، هذا صحيح ، وقد أعلنه من قبل سيد العرب جميعاً - محمد بن عبدالله - عندما قال : «العربية للسان» .

ولكن فات دعاء القومية العربية أن اللغة العربية على وجه التحديد تختلف عن اللغات الأخرى ، لأرتباطها القوى بالإسلام عبر القرآن .

فالقرآن هو الولادة الثانية والبارزة للغة العربية ، وقد كانت قبله سجعاً ورجزاً وشعراً جاهلياً لا يحيط بأكثر من أجواء البداوة والحياة القبلية ، وكان القرآن هو الذى أحيها وشهرها وسن لها القواعد وصاغ لها الأساليب والأمثال التى لا تنزل قوام الكتابة العربية . بل إنه عندما عجزت العربية الجاهلية عن الوفاء بمتطلبات القرآن إستعار ألفاظاً من لغات أخرى وعربها .

وأهم من هذا كله . . . أن القرآن هو الذى حمى اللغة العربية من أن تمزقها اللهجات الإقليمية لو ترك الأمر لها على مدار القرون ، ولو حدث هذا لتكرر فى العربية ما حدث فى اللاتينية وهى اللغة الأوروبية الأم . التى مزقتها اللهجات بحيث ظهرت الأنجليزية والفرنسية والألمانية . . . الخ .

فالقرآن أوجد اللغة العربية القياسية ، وحماها من الزوال لأنها لغة عبادة وعقيدة ، ولأن القرآن على خلاف الكتب السماوية الأخرى يتعبد بلفظه . . فاكسبت ألفاظه قداسة ليست لغيره .

فنحن نكتب ونقرأ باللغة العربية القياسية التى جاء بها وحماها القرآن . وكان يمكن أن نقول على اللغة العربية «اللغة القرآنية» ، فلعلها حسبية عليه أكثر مما هى حسبية على العرب .

وعندما تجتمع الوفود من مختلف دول هذه المنطقة وتحدث بلغة القرآن ، فإنها تفهم بعضها بعضاً ، ولو تركت لهجاتها لما فهم السوري شيئاً من السوداني ، ولما فهم عربى نجد بربرى الأطلس . . . ولما فهم العراق شيئاً من اليمنى .

وقد كان من نتائج هذه الطبيعة الخاصة للغة العربية ، وأنها لغة القرآن ، أن علوم اللغة إنما نشأت لخدمة تفسير القرآن ، وأن الذين خدموا العربية كان معظمهم من غير العرب بدءاً من سيبويه صاحب «الكتاب» حتى «الزخشرى» صاحب أساس البلاغة ، وفيما بينهم ، وأن عالماً عظيماً يعد من أعظم نوابغ العالم مثل البيرونى يقول «لأن أهجى بالعربية أفضل من أن أمدح بالفارسية» ، ولم يقل البيرونى هذا غزلاً فى سواد عيون القومية العربية ، ولكن احتساباً للغة القرآن وقرى إلى الله ، وهذا شئ لا يمكن أن يحدث لغير اللغة العربية بفضل ارتباطها الوثيق بالقرآن والإسلام .

والدور الذى تقوم به اللغة العربية فى تحقيق القومية ينقسم إلى قسمين :-

**القسم الأول :** أن اللغة أداة التخاطب والتعارف والتفاهم والكتابة والقراءة وهذا شرط أولى لقيام أى أمة .

وقد وضحنا أنه بالنسبة للقومية العربية أى للدول العربية ككل ، فإن اللغة العربية كوسيلة تخاطب وتفاهم وكتابة وقراءة هى اللغة العربية القياسية التى حفظها القرآن ، وأن هذا هو السبب الوحيد لوجودها بهذه الصورة ، وأن العرب لا يزالون بعد ١٤٠٠ عام يتحدثون بعربية القرآن ويفهمونها أكثر مما يفهم الأنجليز لغة شكسبير الذى لم يمض عليه أربعة قرون .

**والقسم الثانى :** أن اللغة هى التى تؤسس فكر الشعب بحكم أن الثقافة التى يلم بها ، إنما يلم بها عن طريق ما يقرأه ، أو ما يتلقاه من دروس بالعربية ، «والمكتبة العربية» التى تبنى الفكر العربى هى «المكتبة الإسلامية» فالكتب المطبوعة باللغة العربية ، إما إسلامية الموضوع بشكل مباشر أى أنها التفسير أو الحديث أو الفقه أو السيرة أو التاريخ الإسلامى . . . وإما أنها إسلامية بصور متفاوتة .

ولو جمع كل ما كتبه الكتاب المحدثون فى كل الدول العربية طوال المائة عام الأخيرة ، لما كانت إلا جزءاً صغيراً بالنسبة للموسوعات الإسلامية التى وضعها العلماء والفقهاء الإسلاميون .

ومن هنا فإن الفكر الذى يمكن أن تقدمه اللغة العربية يكاد يكون فكراً إسلامياً .

وهذا هو السبب في أننا نرى دعوة القومية العربية تصدر عن الذين تثقفوا ثقافة غربية أوروبية، ولم يكونوا فكرهم عن اللغة العربية . ولكن عن الإنجليزية أو الفرنسية . . . . وقد بدأت دعوة القومية العربية فيما يقول أصحابها بكتاب أصدره بالفرنسية في باريس «نجيب عزورى» وذكر هذا العرنى المتفرنس - رائد القومية العربية المزعومة - أن مصر ليست عربية وعارض إستقلالها ودعاها للتعاون مع بريطانيا ، كما وضع آماله بالنسبة لسوريا العربية في فرنسا .

وفي الثلاثينات ظهر ساطع الحصرى وهو «أعجمى» لا يحسن العربية ، وميشيل عفلق الذى درس في فرنسا وأستورد فكرة «البعث» من فكرة القوميات الأوروبية . . . . وأخيراً . . . يظهر مخلوق يدعى «أدونيس» يدعو لإصلاح اللغة العربية ، ولعله آخر عجائب القومية العربية . وقد تقبل العرب «سيبويه» إماماً للعربية لأنه كان يمت إليها بسبب الإسلام ، أما هذا الادونيس فهم يقولون إنه نصيرى والعياذ بالله !

وقلما يشير دعاة القومية العربية إلى «الدين» باعتباره مقوماً من مقومات القومية ، لأن ذلك يخالف هواهم ، وإن كانت الحقيقة الموضوعية التى لا يجوز لمؤرخ أمين أن يغفلها هى أن الدين كان في هذه المنطقة محور المجتمع من سياسة أو إقتصاد أو تشريع أو فنون . وإن هذا الحكم كان من العراقة والأصالة ، بحيث ظهر مع ظهور تاريخ شعوب المنطقة ، بدءاً من «إلزيس» في مصر . . . . «وبعل» في العراق ، و «عشروت» في سوريا . حتى المسيحية ثم الإسلام ، فهى حقيقة موضوعية ارتبطت بتاريخ المنطقة ، حتى قبل الإسلام ، ثم لما جاء الإسلام عمقها وأحكمها بحيث يعد الإسلام المقوم الأول لأى قومية تجمع سكان هذه المنطقة .

\*\*\*

من هذا العرض لمقومات القومية يتضح أن هذه المقومات إنما تعود إلى الإسلام ، فإذا تجردت القومية العربية منها ، فإنها تصبح مثل الصدفة الفارغة التى جردت من لؤلؤتها ، وأصبحت بلاقيمة .

والحق أى أفهم أن يقول شخص ما إنه مصرى ، أو يمنى أو عراقى . . . فهى صفات تنسبه إلى بلاد لها تاريخها الخاص وجغرافيتها المميزة وهى موقع رأسه وموطن أهله . وأفهم ، وأقدر ، أن يتحدث أحد عن «الوطنية» تلك العاطفة العميقة النبيلة التى ألهمت الأحرار والأبرار التضحيات والبطولات في سبيل الوطن المقدس . .

وأفهم بالطبع أن يقول شخص ما إنه مسلم فهذا ينسب نفسه إلى قيم ومبادئ  
ومثل ونظام كامل للحياة وللوجود . . .

ولكنى لا أفهم أبداً أن يقول شخص ما إنه عربى . . . لأن هذا لايعنى شيئاً ،  
اللهم إلا اللغة ، واللغة ليست جنسية أو هوية - ونحن لانقول على كل من يتحدث  
الإنجليزية إنه إنجليزي ، لأن الأمريكيين يتحدثون الإنجليزية ، ولأن الهنود يتحدثون  
الإنجليزية ، ولا نقول عن هؤلاء وأولئك إنهم إنجليز ، ولأن اللغة العربية هى بنت  
القرآن ، ولولا القرآن لما أصبح هناك شيء اسمه اللغة العربية على ماقدمناه ؛ فهى حسية  
الإسلام ، وسليطة القرآن ، وتجاهل هذه الخصوصية والإقتصار على «العربية» بالإضافة  
إلى مافيه من إغفال للحقيقة يمكن أن يكون مزلقاً أو شبهة .

والحق أيضاً أنى لا أفهم - إذا جردت الأمة العربية من إسلامها - لماذا تكون ذات  
رسالة خالدة كما يدعى حزب البعث ؟ ولماذا لاتكون الأمة البريطانية هى صاحبة هذه  
الرسالة ؟! وقد كان لها إمبراطورية لاتغيب عنها الشمس ، وظهر فيها عباقرة الفنون  
والآداب وقباطنة الصناعة . ولماذا لاتكون الأمة الألمانية ، ومنها ظهر أعظم الفلاسفة  
والموسيقين والساسة ؟! وماهى هذه الرسالة الخالدة التى تقدمها الأمة العربية ؟ اللهم  
إلا إذا كانت الإسلام .

ليس أدل على صدق ما تضمنه القسمان الأولان ، أعنى الملابس المريبة التى  
ولدت فيها القومية العربية وانعدام المقومات التى يجب أن تتوفر لكل دعوة  
ناجحة - من أن القومية العربية أتاحت لها - أكثر من أى دعوة أخرى على الساحة -  
الفرص لكى تثبت نجاحها - وتحقق أهدافها ، ولكنها عجزت عن ذلك ، وأصبحت  
دعوة تمزق وإنقسام وإضرار للعداوة بين الدول العربية التى ظهرت لتوحيدها .

وتجلى ذلك بصورة فاقعة فى العداوة المريبة التى تملكك جناحى حزب القومية  
العربية - حزب البعث فى سوريا والعراق ، فهو حزب واحد بدعوة واحدة وقيادة  
واحدة ، تملكه العداوة عندما يصل إلى السلطة ، ويصل بهذه العداوة إلى شقاق  
عجزت عن علاجه محاولات كل «الملوك والرؤساء» المتكررة ، وأوجد سوراً يفصل  
بين الدولتين الجارتين اللتين تبتتا «القومية العربية» .

وما كان يمكن أن يحدث هذا لو كان للقومية العربية «مضمون» يمكن الاحتكام

إليه أو عقيدة تؤمن بها الجماهير بحيث لا يستبد بها رئيساً الدولتين ، ولكن القومية العربية صدفة فارغة . . . وقد ظهر هذا أولاً عندما صدح حزب البعث بدعوته ونادى الجماهير العربية ، فلم يستجب له إلا ثلثة من المثقفين ، وكان يمكن أن يظل كذلك أو أن يتحلل ويذوى لولا أن تداركته السلطة العسكرية التي حكمت باسمه ، وجعلته مطية أيديولوجية للوصول إلى الحكم ، فأسنه الرماح وليس إيمان الجماهير ، أو أصالة الفكر ، هي التي رفعت الحزب إلى الحكم ، والحكم هو الذى قضى بالتجزئة ، وإضرام شقاق العداوة بين جناحيه . . .

وفى سنة ١٩٤٥ تكونت جامعة الدول العربية وسط ملابسات مشبوهة ( كما نما قضى على كل تنظيم عربى قومى أن تتسلب إليه عناصر متفاوتة من السفاح ) ، وكان يرجى مع هذا أن تقوم ببعض دورها - إن لم يكن كله - فى جمع شتات العرب وتوحيد الهدف إن لم يكن الصف ، ولكن الجامعة العربية - مثل حزب البعث عجزت أولاً عن القيام بدورها ، ثم أصبحت بعد ذلك أداة لإضرام الفرقة والتجزئة . فعجزت عن أن تحل المشكلات والخلافات بين الدول العربية ، وعجزت عن أن توجد سوقاً عربية مشتركة ، أو أن ترفع نسبة التجارة بين الدول العربية بعضها البعض . ( وهى لاتمثل سوى ما بين ٥% ، ١٠% من تجارة هذه الدول ) وعجزت عن أن تحول الإستثمارات العربية إلى السودان أو مصر لتسهم فى مشروعات التنمية بدلاً مما تقوم به من مساندة رأس المال الأمريكى والأوربى ، وأنكى من هذا كله فإنها عجزت عن رفع قيود السفر ، أو تخفيفها بين أفراد الدول العربية بعضها البعض ، وأصبح سفر العربى إلى أمريكا أو إنجلترا أو سويسرا أسهل من سفر هذا العربى نفسه إلى بلد عربى آخر .

ووضعت الرقابات على الصحافة العربية والكتاب العربى ، ورفعت الرسوم الجمركية وتذاكر الطائرات ، حتى أنهت الصلات ما بين العالم العربى بعضه بعضاً ، وأصبح لا يعرف أخباره إلا من خلال الأذاعات الأجنبية ، التى لم تستطع النظم الحاكمة أن تصنع لها شيئاً .

وعندما أختلفت السياسات . . أصبحت الجامعة العربية هى الهيئة التى تقرر التفرقة . . وتعطيها مصداقية .

ولاجدال فى أن هذا الفشل المتكرر من حزب البعث الحاكم ، ومن الجامعة العربية ،



دليل لا يدفع على أن الفكرة التي قامت عليها الجامعة والحزب - القومية العربية باطل . . . ولا يمكن أن تثمر حقاً أو تؤدي إلى توفيق .

قد يقول البعض : «ولماذا إذن نقول الدول العربية ، والوطن العربي ، أفلا يدل هذا على أن القومية العربية فرضت نفسها ؟» .

والرد أنه جزء من صفقة شراء الذي هو أدنى بالذي هو خير ، التي أصبحت سياستنا في كل شيء ، في الاقتصاد ، والسياسة ، والإجتماع . . . فلا غرابة ، أو هي من باب اطلاق الجزء على الكل . . .

ومرة أخرى قد يقال : «وهل المؤتمر الإسلامي أكثر نجاحاً من الجامعة العربية ؟» فنقول : إننا لا نتحدث عن إسلام النظم الحاكمة . . . ولكن عن الإسلام الحق . . . وشتان . . .

\*\*\*

وثمة واقعة أخيرة تناولتها الصحف ، ولها دلالتها العميقة فيما نحن بصدد ، فعندما مات «الرئيس المؤسس لحزب البعث ميشيل عفلق» ، أعلنت الأنباء أنه قد أسلم قبل وفاته ، وصلى على جثثته في أحد مساجد بغداد ، ودفن طبقاً للتقاليد الإسلامية وشاهدنا في الصحف صورة النعش يحمله صدام حسين ورفاقه الى المسجد . . .

ولا يجوز لنا كمسلمين أن نشكك في هذا ، أو أن نرفضه أو حتى أن نقول «الآن . . .» وعلينا أن نتقبله بقبول حسن ونسأل الله تعالى لصاحبه الرحمة والمغفرة . . .

ولكن يظل السؤال . . . مالذي يدفع ميشيل عفلق إلى ذلك ؟ هل إستبان أن القومية العربية دون إسلام صدفة فارغة وأن جهوده كلها ذهبت أدراج الرياح نتيجة لأن هذه النقطة دقت عليه ؟ أو أنه أدرك أن زعيم القومية العربية لن يدخل التاريخ شخصاً غير مسلم هذه أسئلة يكون على الذين يطالعون كتبه أن يضعوها في حسابهم وهم يقرأونها .

ولكن قد يقول أحد : «على رسلك ، إن العملية لاتعدو أن تكون تكنيكاً سياسياً وأن ميشيل عفلق مات على ماشب عليه» .

وهنا تكون دلالة هذا التكنيك أكبر وأعظم . . . ونحن لا يعيننا بالدرجة الأولى صدق الواقعة ، فقد لايلمها إلا الله . ولكن ما يهنا هو دلالة الواقعة ، وفي حالةعدم صحتها تصبح الدلالة أكبر إذ لابد من دافع قوى كان وراء هذا التكنيك خاصة وأن الذين قاموا به لم يكونوا يوماً من أنصار الاسلام .  
فالتيجة في الحالتين واحدة : لابد من الاسلام .

## الفصل الثاني

### التجارب الثلاث للتطوير في مصر

( محمد على - البورجوازية - عبد الناصر )

يكثر ادعاء التنوير من الحديث عن «المشروع الحضارى» . . أو «المشروع القومى» . . ويعرضون هذا المشروع بديلا عن الحل الإسلامى . . وهم لا يقدمون - عادة - برنامج هذا المشروع أو مفرداته أو مرتكزاته ( وهو ما يعيبونه على الاسلاميين ) ولكنهم عادة ما يضربون المثل بالمشروع الحضارى لمحمد على وعبد الناصر . وليس هناك ما هو أكثر دلالة على ركافة وضحالة تفكير هؤلاء من اتخاذ هذين مثلا ، لأن المشروع الحضارى فى عهد محمد على ، إنما جاء من الشعب فى أكمل صورة تضمنها تاريخ أمة من الأمم فى العصر الحديث . . فتآمر عليه محمد على حتى كاد أن يجهز عليه عندما استطاع شيخ أزهرى من مجموعة الشعب أصلا وليس من جماعة محمد على أن يمضى فى تطبيق ماتيسر له من مشروع الشعب ، مؤيدا فى هذا بزيملاء له من البصريين . . فمن الخطأ أو المفارقة أن يقال عن المشروع الحضارى الذى ظهر أيام محمد على أنه مشروع محمد على . .

وهذا ما ينطبق بصورة أكثر حدة على مشروع عبد الناصر ، لأن تجربة عبد الناصر لم تكن تجربة تنوير ولكن محاولة تهجير ، كما سيرى القارىء ، وكما سيقتنع فى نهاية قراءته للنبذة الخاصة به . . .

والتجربة الحقيقية للتنوير هى ما قامت به الطبقة الوسطى المصرية ( البورجوازية المصرية ) فى الفترة ما بين الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ ( الذى وضع خاتمة مرحلة المشروع الأول ١٨٠٥ - ١٨٨٢ ) مرورا بثورة ١٩ ودستور ١٩٢٣ الذى كان تنويجا للتجربة حتى ١٩٥٢ عندما دهمت المشروع اجراءات الانقلاب العسكرى وقضاؤه على الحريات وهى روح تجربة التنوير البورجوازية .

ولم تدرس هذه التجربة الدراسة الواجبة رغم أنها الوحيدة التى تركت بصمات على المجتمع المصرى لاتزال باقية حتى اليوم .

وسنشير فى نبذة خاصة الى كل «مشروع» من هذه المشاريع الثلاثة :

### المشروع الشعبى فى عهد محمد على :

كان محمد على عبقرىا ، كبير الهمة ، قوى الارادة ، ومن بناء الامبراطوريات ، وأراد أن يؤسس امبراطورية تحمل اسمه وتخلد ذكره ، وتصور أن وسيلة تحقيق ذلك هى أن يأخذ بأسباب الصناعة الحديثة التى هى سر قوة العصر ، التى مكنت الدول الأوروبية من أن تسود العالم .

وقد كان يمكن لمحمد على - بذكائه - أن يدرك أن إقامة دولة يتطلب ماهو أكثر من الصناعة ، مثلا عقيدة أو نظرية تقدم الحماس وتكسب الايمان للدولة . . . وشعب وجمهور يؤمن بهذه النظرية وبهذه الدولة ويشارك فى بنائها . . . ونظام « مؤسسى » يكفل التنظيم المنهجى لشئون الدولة .

ولكن محمد على - حتى لو أدرك هذا - فإن عوامل عديدة جعلته يطرح هذه المقترضيات ، لعل أبرزها أنه - كشأن كل الديكتاتورين - يتصور أن اسمه وشخصه وعبقريته يمكن أن تغنى عن الإيمان والنظرية . . . وأن عمله وعمل أعوانه يمكن أن يغنيا عن المشاركة الشعبية ، فضلا عن أن أوضاعه الخاصة تحكمت فيه ، فقد كان ضابطا - أى عسكريا - وليس مدنيا ، بل إنه لم يكن مصريا ولم يكن ينطق العربية إلا بصعوبة .

وكان لهذه الوقائع انعكاساتها على المشروع الذى أرادته ، فطبيعته العسكرية جعلته يطبق الأسلوب العسكرى على المدارس والمصانع التى أقامها ، فجعلها كالكثكنات ، ومنح القائمين عليها رتبا عسكرية . . كما أنه كعسكرى كان يفترض الطاعة ، وطبيعى أن يضيق بأى نظام ديمقراطى أو شوروى .

ولما كان أجنبيا عن هذه البلاد ، فلم تقم بينه وبين شعبها أواصر من القرى ناهيك عن الوحدة ، ولم يحس أنه فرد من هذا الشعب ، كما أن الشعب أيضا لم يحس أنه فرد منه . . ودفعه هذا لاصطناع العناصر الأجنبية الأوروبية . . وقرب إليه أبناء المماليك الذين استأصلهم فى مذبح القلعة ، بل حاول تجنيد السودانين بعد حملة السودان . . ولما لم تكف هذه الجهود كلها المتطلبات ، اضطر أخيرا للاستعانة بالمصريين فى الجيش وفى البعثات والأعمال الأخرى . . وبفضل الجندى الفلاح ، نال ابراهيم باشا معظم انتصاراته .

كان أمام محمد على منفذ واحد يمكنه أن يخلص من كل هذه الضرورات الخائفة والأبواب المغلقة ، ذلك المنفذ هو الإسلام . . فقد كان الإسلام هو العامل الوحيد الذى يمكن أن يقضى - فى ذهن الشعب - على صنفته العنصرية الألبانية ، ويدخله - وهو الأجنبى - قلوب المصريين .

ولم يكن محمد يُكنُّ عداوةً خاصة للإسلام ، بل إنَّه لا نعدم نوعا من القداسة كان يشعر به نحو الإسلام ، ولكنه لم يكن مستعدا مطلقا لجعل الإسلام محور الحكم والحياة ، لأن هذا سيقيد إرادته ، ويحد من سلطته ، وسيفسح المجال لشيوخ القاهرة ولشعب مصر فى المشاركة فى العمل السياسى .

بالإضافة إلى أن الديكتاتوريين جميعا يرفضون الشورى الإسلامية ، فقد كان هناك بالنسبة لمحمد على - على وجه التحديد - عامل إضافى يجعله يرفض الإسلام كمحور للعمل السياسى ذلك العامل أنه إنما وُلَّى مصر من يد الشيخ الشرفاوى والسيد عمر مكرم - وهما اللذان البساه خلعه الولاية ، وهما اللذان فرضاه على الدولة ، وتحديدا ارادة السلطان التركى لأنه عاهدتهما على الحكم بالشرع والعدل والاقلاع عن المظالم ، وألا يفعل أمرا الا بمشورة العلماء وأنه متى خالف هذه الشروط عزلوه .

وكان محمد على يضطر فى نفسه - من اليوم الأول - أن ينكث وأن يستأثر وأن

يحطم سلطة الشيوخ وعمر مكرم ، ولهذا وجد نفسه وهو يعادى المعسكر الشعبى الإسلامى . . .

وليس فى تاريخ الديمقراطيات المعاصرة ما يماثل الاتفاق الذى أبرمه شيوخ القاهرة مع محمد على سنة ١٨٠٥ لأنه يفرض أن يكون الحكم شورياً ، وينص على حرية إقالة الحاكم اذا نكث بالشروط . . وعلى هذا الأساس أيد المصريون محمد على وقاموا الوالى التركى .

وقد يتطلب الأمر أن نقول كلمة عن رجال الدولة العظام الذين يدعون المشروعات الحضارية ، وبين رجال الدولة الطغام الذين يريدون تخليد أسمائهم . فالأولون يربط بينهم وبين بلادهم حب عميق وإحساس بواجب مقدس نحوها يلى عليهم خدمتها ، أو يكونون من المؤمنين بعقيدة سامية يعملون على تطبيقها ، وفى كل الحالات لا يكون للفخر أو الكسب الذاتى محل عندهم ، فهم يعملون لشعبهم وينسون أنفسهم ، وهؤلاء هم الذين يعيشون أبداً الدهر فى نفوس ووجدان شعوبهم ، ويخلدهم التاريخ . . أمثال الخلفاء الراشدين وفى أوروبا بسمارك وكافور وملوك إنجلترا الذين نهضوا بصناعاتها . . أما رجال الدولة الطغام ، فهم المفتونون بأنفسهم ، المصابون بجنون العظمة ، والذين يدور طموحهم حول أنفسهم . وبلادهم - بالنسبة لهم - هى مجال إبراز هذه العظمة ، ومثلهم أباطرة الرومان وناپليون وهتلر وموسولينى وستالين ومصطفى كمال والطغمة العسكرية التى ابتلى بها المسلمون ( جمال عبد الناصر / حافظ الأسد / صدام حسين / . . . الخ وهؤلاء الذين تلعنهم شعوبهم بعد موتهم وتلصق بهم الخزى والعار .

وكان يمكن لمحمد على أن يضع يده فى يد شيوخ الأزهر وعمر مكرم فيحكم بالشرع وينهض بالعلم والعمل والعدل والصناعة والزراعة . . . الخ ويجعل من الأزهر منارة الأشعاع الثقافى ، ولكنه لم يكن يحب مصر ، وإنما يحب نفسه ، لم يكن من رجال الدولة العظام ، ولكن من رجال الدولة الطغام . . وكان كل ما يريده هو إقامة دولة «علوية» ، فحطم المشروع القومى وغدر بعمر مكرم ، وفرق شيوخ الأزهر بالمكر والخديعة ! وعندما تأمرت عليه الدول الأوروبية وحرمته من المناطق الشمالية للإمبراطورية التى أقامها ، فانها أبقت له مصر كاملة حتى منابع النيل ، وكان يمكن أن يتعلم الدرس فيقلع عن فكرة «الامبراطورية» ويعكف على بناء البلاد . . ولكن متى تعلم الطغام والطغاة . . لقد كان هم الأول - والأخير - أن يكون امبراطوراً ،

فلما فقد الإمبراطورية نفوذ يديه من المدارس والمصانع وكل ما أقامه لتحقيق  
الإمبراطورية !!

وكان الذى أبقى على جزء من المشروع الحضارى المصرى هو الشيخ رفاعة  
الطهطاوى وعلى مبارك اللذان ركزا جهدهما فى نشر العلم والثقافة والمعرفة ، وقاما  
بتأسيس المدارس والمكتبات وترجمة الكتب الفرنسية الى العربية ، واصطدما بالطبع مع  
بيروقراطية النظم وسياسات الأمراء من أسرة محمد على الذين حكموا مصر بعد ذلك .

ففكرة أديعاء التنوير عن مشروع حضارى تقدم به محمد على ، وتآمرت عليه الدول  
الأوروبية هى فكرة غير سليمة . . والفكرة السليمة أن شعب مصر ممثلا فى قاداته  
الطبيين وقتئذ شيوخ الأزهر والسيد عمر مكرم - تقدم بمشروع حضارى لحكم  
شورى ديمقراطى تأمر عليه محمد على ، ولم يحتفظ منه الا بما يخص اقامة صناعة للخدمة  
الجيش . . فلما تآمرت الدول الأوروبية على محمد على لم يجد الشعب الذى يقف معه !

ومما يضاعف من مسئولية محمد على أن حركة الشيوخ هذه لم تكن «بادرة» فريدة  
أو عشوائية ، ولكنها كانت ثمرة عمل وكفاح جعل الشيوخ قيادة طبيعية ومكنهم من  
القيام بها فى أواخر عهد المماليك ( إبراهيم بك ومراد بك ) ثم الحملة الفرنسية . .  
ففى خلال هذه المدة أدت الأحداث الى تكوين هذه القيادة الشعبية التى كان لديها -  
بحكم ثقافتها الاسلامية من ناحية واحتكاكها المباشر بالشعب من ناحية أخرى -  
ما مكنها من تكوين مشروع حضارى يقوم على العدل الذى يأتى به الشرع ونجد فى  
سجلات هذه الفترة موثيق عديدة الزم بها الشيوخ المماليك الحكم بالعدل والشرع  
تمثل ما ألزموا به محمد على ، فضلا عن دورهم فى قيادة الثورة على نابليون وكليبر . .  
فميثاق سنة ١٨٠٥ كان خاتمة لمسيرة كان يمكن أن تكلل بالنجاح لولا أن اغتالها محمد  
على بالمر والفرقة !

ان ما يذكر محمد على ليس هو المشروع الحضارى ، ولكن أنه أدخل مصر العصر  
الحديث وضم - ولو رغم ارادته - الفلاح للجيش فحمل السلاح ورفع رايات مصر  
فوق ثلاث قارات ، وانه عندما مات سلم للأجيال مصر بمحدودها الطبيعية من منبع  
النيل الى مصبه فى حين أن عبد الناصر (الذى يقرونه بمحمد على) جاء بالاسرائيليين  
الى عقر البلاد ، وكان يمكن أن يدخلوا القاهرة . . فكيف تجوز المقارنة !!؟ .

والخطأ انى وقع فيه دعاة الليبرالية فى تقييم «المشروع الحضارى» فى «هد

محمد على هو نفس الخطأ الذى وقعوا فيه عند تقييمهم لمشروع عبد الناصر وفى جميع الحالات لم يظنوا الى موقف الشعب ومدى مشاركته الحقيقية وعمق وسلامة الأصول النظرية للمشروع ، وهى المعايير الحقيقية للحكم على سلامة أى مشروع حضارى . . . .

وإذا كان ثمة مشروع حضارى فى اعقاب المشروع الحضارى الذى تقدم به شيوخ القاهرة سنة ١٨٠٥ وتآمر عليه محمد على حتى وقوع الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ ، فهو مشروع الدستور الذى وصل إلى قمته على يدى جمال الدين الأفغانى وعمله الدائب لمدة ثمان سنوات متصلة مع المثقفين والطلبة فى مصر بحيث ظهرت حياة جديدة فى المجتمع المصرى ، وتعددت الصحف وتكونت بعض الجمعيات سرية أو علنية للمطالبة بالدستور ، وتاريخ هذه الصفحة التى عرضها باسهاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى الجزء الثانى من كتابه «عهد اسماعيل» فى الجزء الذى تعرض فيه للاحتلال البريطانى . . . . وأشرنا اليه بتركيز فى كتابنا «اثر الاسلام فى ارساء سيادة الشعب للحكم الدستورى» هذه الحركة التى وصلت الى قمته فى مظاهرة ٩ سبتمبر ١٨٨١ ثم أجهضها تدخل الدول والاحتلال البريطانى . . . .

### التجربة البورجوازية ١٩١٩ - ١٩٥٢ :

خلال المدة من ١٨٠٠ - ١٩١٩ نشأت البورجوازية المصرية ووصلت الى درجة من القوة فرضت نفسها على المجتمع المصرى .

وقد ضمت البورجوازية المصرية أعيان الريف والعمد والتجار وكبار موظفى الدولة والمهنيين . . . . ومن يراجع اسماء أعضاء مجلس شورى القوانين فى عهد اسماعيل يرى أسماء العائلات التى لاتزال حتى الآن تمثل «العصبيات» فى الريف ، أو كبار التجار والمهنيين فى المدن .

والبورجوازية واحدة فى العالم كله ، وهى تمثل طبقة تقوم على آحاد أذكىاء نشطين يعملون بكل قوة لرفع مستواهم الاقتصادى ، وهم يتوصلون الى ذلك بالفعل بفضل الذكاء ، والمال ، والسياسة .

ولهم جميعا - فى كل أنحاء العالم - «نفسية» واحدة ، فهم يؤمنون بالفرد ويرونه النواة الطبيعية للمجتمع ، وهم يرون أن الدافع للعمل هو الوازع الفردى سواء كان ربها فى مجال الاقتصاد ، أو منصبها فى مجال السياسة ، كما يرون أن المناخ الضرورى والذى

لاغنى عنه هو «الحرية» حرية الفكر ، وحرية العمل ، وحرية السياسة . . وفي ظل هذه الحرية يمكنهم أن يشقوا طريقهم فيقيموا المصانع ويؤلفوا الشركات ، ويؤسسون الأحزاب . . وهي شركات سياسية . . فهذا يبسبون على الجميع . . فبالمال يكسبون السياسة وبالسياسة يدعمون المال .

فأسس البورجوازية ثلاثة : الفرد ، والوازع المادى ، والحرية . وخلال مائة وخمسين سنة تقريبا ( ١٨٠٠ - ١٩٥٠ ) من ظهور محمد على حتى ظهور عبد الناصر تكونت البورجوازية المصرية ومكثت لنفسها في المجتمع المصرى .

وكانت ثورة ١٩١٩ هي الفرصة الذهبية للبورجوازية ، فركبتها وحولت مسارها . . وقد كانت أصلا انتفاضة شعبية بحق استهدفت القضاء على الاحتلال البريطاني ، وكان جمهورها هم الفلاحون والعمال والطلبة . . فجاءت البورجوازية وهيمت على الثورة وغيرت طبيعتها ومسارها فحجبت قيادتها من الباشوات والبكوات الطبيعية الشعبية الجماهيرية لها . . وحولت مسيرتها من «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» إلى المفاوضات مع بريطانيا !! وأهم من هذا كله أنها انتهزت هذه الفرصة لتقنين شرعة البورجوازية في دستور ١٩٢٣ ووجدت في سعد زغلول الزعيم الذى يحقق هذا الانتقال الجذرى !

وقد كان سعد زغلول فلاحاً بالنشأة وتلميذاً لمحمد عبده ، ورأى جمال الدين الأصفهانى ، ولكنه لم يكن مؤصلاً تأصيلاً إسلامياً . . وعاش في المدينة . . واحترف الحمامة . . وأصبح التمثيل الحى للبورجوازية الطموحة الصاعدة ، وعزز هذا الاتجاه زواجه بابتة مصطفى فهمى بائنا - أكبر سياسى مصرى ممالىء للانجليز وكان حزب الوفد هو تجسيد البورجوازية الليبرالية المصرية .

حقا إن حزب الوفد رزق جماهيرية شعبية ، ولكن هذا يعود الى شخصية سعد زغلول أكثر مما يعود الى نظرية الحزب ، والى بعض الملابس التى أحاطت بتكوينه والى كراهية الشعب للملك والانجليز . . فهناك مجموعة كبيرة أيدت الوفد لاحبا فيه - على وجه التمسديد - ولكن كراهية فى الملك والانجليز .

وفى الوقت نفسه ، فإن هذه الجماهيرية ليست جماهيرية الشعب الكادح من عمال فى المدن وفلاحين فى القرى . . ولكنها كانت جماهيرية العمد والملاك صغارا أو كبارا أو المهنيين التجار . . وجعلته هذه الصفة يعطى الجماهير ( بالقطارة ) ثم من



عليهم . . . ولعل أبرز مثال لذلك هو قانون «الاعتراف» بالنقابات العمالية . . . فقد أراد العمال قانونا يعترف بالنقابات أى يعطيها الشخصية الاعتبارية القانونية . . . فجاء القانون ٨٥ لسنة ١٩٤٢ وقدم هذا - ولكن بشمن فادح - هو شل الحرية النقابية وفرض وصاية إدارية على النشاط والتنظيم النقابي وحرمان العمال الزراعيين وعمال الحكومة من حق تكوين النقابات . . . فأين الشعبية في هذا ؟

ومع صدور دستور ٢٣ الذى كان تعبيراً صادقاً عن تصورات البورجوازية ، بدأت المرحلة البورجوازية في مصر بصورة مقننة .

وكانت مصر البورجوازية في الثلاثينات تحذو حذو البورجوازية الأوروبية التي كانت قد وصلت إلى القمة ، فكان في مصر مجلس للنواب وآخر للشيوخ وعدة أحزاب وعدة صحف يومية ومقات الصحف الأسبوعية أو الشهرية . . . وتعاونت البورجوازية المصرية مع الرأسمالية الأوروبية وتسامحت في قبول ما كان يعد خروجاً على التقاليد المرعية ، فظهرت الحفلات حتى في القرى ، وأبيع البغاء في المدن ، ولم يعد منظر «الخواجات» في شركات المرافق ( النور/ المياه/ الترام/ التليفونات . . . ) ، وصورة الفاتورة المكتوبة بالفرنسية شيئاً إذا . . . وكان المربع ما بين شارع فؤاد وشارع قصر النيل حتى امتداد شاطئ النيل مربعاً أوروبياً : الخجلات أوروبية ، عاملاتها أوروبيات ، المارة من رجال أو نساء أوروبيون وأوروبيات يلبسن القبعات وأحدث الأزياء . . . بل كان هناك مدن بأسرها يغلب الطابع الأوروبى فيها الطابع المصرى مثل الإسكندرية وبورسعيد والاسماعيلية والسويس . . . كما كانت هناك أحياء سكنية مغلقة للأجانب في القاهرة كجزيرة الزمالك وجاردن سيتي ، وكانت الفرق الاستعراضية تأتي من النمسا أو المجر أو فرنسا لتقدم عروضها في الإسكندرية أو بورسعيد ، كما لو كانت تقدمها في (القولى بورجيه) في باريس أو علب الليل في فيينا . . . وزحف على الأغاني والتمثيل والموسيقى التحلل والابتذال والتجاوب مع الشهوات .

وأدى الأنهار بأوروبا والاتجاه البورجوازي بقيادة هذه المرحلة [باشوات السياسة ، وقباطنة الصناعة وملاك الأراضى] أن يتصوروا أن مانجح في أوروبا ينجح في مصر ، وكانوا أبناء ثقافة الأحتلال البريطانى وثمرة تربيته التي قطعت الوشائج بتقاليد البلاد وحضارتها كما كانوا من ناحية المراكز والمناصب والثروات مهيعين لتقبل البورجوازية والدفاع عنها ، وكانوا على استعداد للتعامل مع الاسلام بطريقتها الخاصة ، والبورجوازية تعرف منزلة

الاسلام ، وفي الوقت نفسه فليست على استعداد للنزول على مقتضياته «وحسبك تحريم الربا وهو حجر الأساس في النشاط الاقتصادي البورجوازي» .

وكان الحل هو ازجاء آيات الثناء للاسلام ، والاعتراف بفضله على العالمين ، وتكريم علمائه وشيوخه ، وتعيينهم في مناصب دينية مثل الأوقاف والمساجد . . . ألغ ذات مستوى أدبي ومادى مرض ، إن لم يكن مغرباً ، دون أعمال شريعته .

وظنت البورجوازية بهذا أنها أمنت جانب الاسلام ومعارضته للنظام ، وانها تستطيع أن تضعه في «ركن» قصى من أركان المجتمع !

ولكن هذه التسوية كانت بمثابة هدنة ، وليست سلاما ، لأن الشعب لم يتقبلها تماما ، حتى وان تقبلتها بعض القيادات المشيخية ، وأخذ تأييد الشعب للبورجوازية ينحسر . . . وما أن ظهرت قيادات نابعة ، وعقربية ، في ميدان الدعوة الاسلامية مثل حسن البنا وأحمد حسين ، حتى انحازت اليها الجماهير فظهرت «الأخوان المسلمون» و «مصر الفتاة» وبدأ الخلاف يظهر بين الكتلتين : الكتلة الشعبية الإيمانية ، والكتلة البورجوازية الحزبية .

وفي الأربعينيات وصل الخلاف إلى درجة حرجة ولم يكن الانشقاق بين الكتلتين إلا أحد مظاهر هذا الصراع ، وكان اغتيال الأمام حسن البنا في فبراير ١٩٤٩ إيذانا بالعد التنازلى لنهاية النظام ، التي جاءت مع انقلاب ٥٢ .

ويمكن القول إن تجربة البورجوازية المصرية كانت هي أقرب التجارب الى التنوير فعلا ، وأنها تركت بصماتها على المجتمع المصرى - حتى الآن - وانجبت لمصر كبار كتابها ومفكرها وجعلتها عاصمة الثقافة والمعرفة وملاذا لكل الأحرار من كل الدول العربية ، كما وضع الحكم البرلماني - على عيوبه - مبادئ الديمقراطية والمعارضة السياسية . . . ألغ .

وكان النقص الأكبر في تجربة البورجوازية المصرية هو اغترابها عن الاسلام ، وهذا الاغتراب لايعود بالدرجة الأولى الى معارضة الإسلام للأصول الثلاثة التي تقوم عليها البورجوازية (الفرد - الحرية - الربح) رغم أن للإسلام تحفظات على مدى استخدامها ؛ ولكن لأن هذه البورجوازية كانت متأثرة بالتمط الأوروبي في التفكير والحياة والاتجاهات التي استحوزت على إسماعيل باشا وجعلته يعمل لتطوير المجتمع المصرى إلى مجتمع أوروبى دون ملاحظة للاختلافات العميقة ، وأنها لم تستطع أن تحقق

التسوية السلمية مع الإسلام الذى كان وحده يمكن أن يحول دون ظهور انقلاب ٥٢ ؛  
فالبورجوازية ذكية ، ولكن الذى يقودها كان رأس المال ورأس المال جبان فخسر المعركة !!

### الناصرية تعهير لانتوير :

حتى لا يهولن أحدا هذا العنوان ، نقول إن الفروض التى أقمنا عليها هذا الحكم هى :

١ - أن الحقيقة تظل هى الحقيقة ، رغم كل القوى التى تريد طمسها أو تزييفها ،  
فمهما ألقى اساتذة الجامعات من محاضرات ، ومهما وضع كتاب أو مفكرون المجلدات  
فى مدح ( ثورة ٢٣ يوليو أم الثورات ! ) فإن هذا لن يغير من الحقيقة شيئا ، ولن  
يجعل مما حدث فى ليل ٢٣ يوليو ، ثورة ، فضلا عن أن تكون أم الثورات !  
ولا يستطيع شعب مصر بأسره ، لو احتشد جميعاً وأقسم أن الشمس تشرق من  
المغرب ، أن يغير حقيقة أن الشمس تشرق من المشرق وليس من المغرب !

الحقائق هى الحقائق ، لا تغيرها آراء الرجال ولا تصرفات الجماهير لأن مجال التفرير  
والخداع والترهيب والترغيب ، والتعذيب والتكليف مفتوح ، ويسع الأساتذة  
والجماهير معا ، وقد عاشت الجماهير مضللة أكثر مما عاشت مهدية ، وعبدت آلهة  
زائفة أكثر مما عبدت الله الحق ، وكانت الجامعات فى أوروبا طوال القرون الوسطى ،  
وحتى مشارف العصر الحديث معاقل للكهنوت ورفضت - لحقبة طويلة - فكرة أن  
الأرض كروية !!

إن حماقة البشرية لاحد لها ، وقد وسع التاريخ من المفارقات والمساخر ما يثير الشك  
فى حكمتها قادة وجماهير . . فقد رأى الإمبراطور الرومانى ماركس أورليوس أن  
واجبه المقدس هو محاربة المسيحية دون هوادة ، رغم أنه كان يعد من الفلاسفة الرواقيين  
وله كتاب عن «التأملات» . . وأمضى الخليفة المأمون وقته فى جدل مذهبى سخيف  
أباح لنفسه فى سبيله جلد الائمة . . وجعلت جماهير روما متعتها فى مشاهدة  
«الجمالدين» وهم يقتلون بعضهم بعضا ، أو متابعة الوحوش وهى تلتهم المسيحيين  
العزل . . وتقبل الشيوخ التضحوية بخمسة أو ستة ملايين فلاح تركوا ليموتوا جوعا  
بعد أن انتزعت منهم جيوبهم بدعوى أنهم «كولاك» ودارت الأيام لتشهد  
الجماهير الزعماء الذين حكموا هذه الفترة وهم يعترفون. على أنفسهم فى محاكمات

١٩٣٠ - ١٩٣٣ الشهورة أنهم نخوة ، وهم رفاق لينين وأبطال الدولية . . واعتبروا تروتسكى الرجل الثانى فى الثورة البلشفية خائنا وعميلا دوليا .

ورفع الشعب الإيطالى موسولينى إلى أعلى الدرجات . . ثم علقه منكوسا من قدميه هو وعشيقتة ، وكان يمكن لهتلر - الذى عبده الشعب الالمانى حينما من الدهر - أن يلقى المصير نفسه لو لم يسارع بالانتحار ، هو وعشيقتة أيضا .

أى مصداقية يمكن أن تعطى للجماهير المضللة وقد رأينا فى العراق مايفوق الخيال . . رأينا ديكتاتورا سفاحا يسوق أمتة إلى حرب ضارية مع جارتة إيران ، ويستنزف لثماني سنوات طوال مواردها وموارد العرب الذين وقفوا بجانبه ، ثم لايكاد ينجو بجلده حتى يهاجم جارتة الصغيرة الكويت بزعم أنها المحافظة التاسعة عشرة للعراق ! وتسبب بذلك فى تأليب العالم عليه . . ويتنازل عن كل مطالبه المزعومة من إيران التى من أجلها تورط فى حرب الثمانى سنوات ، ليجابه أفسى هزيمة ومهانة يتعرض لها حاكم ، ثم لا تنقصه البجاجة والصفاقة ليذعى أنه انتصر فى «أم المعارك» وأم المعارك كالفادسية من قبل من نسج جنونه . . ورغم الأذلال الذى يتجرع غصصه وخضوعه المهين للتفتيش ، وما يتعرض له هو وشعبه من عقوبات . . فإنه بعد كل هذا يذعى الانتصار ، ولايزال متشبثا فى منصبه يجد من يصفق له ويحتفل بعيد ميلاده بدلا من أن يقطع إربا . . .

وأى مصداقية للجماهير وزميل هذا السفاح - لايزال يحكم فى سوريا - وهو الذى هدم حماة على أهلها لأنهم إخوان مسلمون !

وأى مصداقية للجماهير وقد كان فى تونس معتوه تقام له التماثيل وتعقد له الاحفصالات حتى أخذوه الى بيت المجانين !

فأى مصداقية يمكن أن تعطى لمائة ألف ، أو حتى مليون مصرى ، وبضعة من الكتاب والمؤلفين والصحفيين خضعوا للتزييف والاكاذيب وغسيل المخ سنوات طوال ، فضلا عن المؤثرات «الدراماتيكية» الأخرى التى صاحبت تمثيلية اعتزال ( أو تنحى ) عبد الناصر ، ثم وفاته أو الضرورات التى جعلت البعض يتصور ان عليه أن يصلح ما أفسده . . .

لاتحذونا عن مظاهرات ٩ و ١٠ يونيو والجماهير التى كانت تجهب بالبكاء فهذه

النجمة الدعائية المعجوجة لم تعد صالحة حتى بالنسبة للجماهير . . فضلا عن المفكرين ، وقد آن لكم أن تفلحوا عنها .

إن هذه المظاهرات نفسها هي أكبر دليل على ادانة العهد . . وأن تزيفه وتضليله وصل الى درجة قلب المعايير بحيث يصفق للمهزوم ويكافئ العقيم ويشعر الشعب أنه عاجز كالطفل ، مالم يقف بجانبه عيد الناصر العظيم ! فأى مهانة للشعب مثل هذه ؟ . . أن شيئا أقل من هذا جعل المتنبى يقول :

فما كان ذلك مدحا له  
ولكنه كان ذم الورى !

ان ماحدث ليلة ٩ و ١٠ يونيو ، وغداة موت عبد الناصر لا يعد مدحا له ولكنه كان كبوته من شعب مصر فى لحظة من لحظات الضعف ، أو انزلاقة بتأثير التزييف ولايسىء هذا شعب مصر ، لأن له من التاريخ المجيد الطويل مالا يؤثر فيه مثل هذه المفرة !

\*\*\*

٢ - ان مايميز التعهير عن الكذب أو الزيف أن التعهير يزيد على الكذب والزيف بالتعمد وباصطناع كل الوسائل (عادة بالاغراء) للايقاع بالضحية . فالعاهرة تتزين وتتجمل ، وتعمد الى صنوف من الزى وتلجأ الى نمط من الحركات والسكنات وتعد الوعود وتقدم معسول القول ، لتستطيع ايقاع ضحيتها وهذا هو الفرق بينها وبين الكاذبة أو المزيفة .

وقد كان الشيوعيون هم أول من شن سياسة التعهير عندما أدعوا لانفسهم شعارات الديمقراطية والحرية . وأكدوا الف مرة ، وبكل صور التزييف والأدعاء أن الديمقراطية الحقيقية هي دستور ١٩٣٦ الذى وضعه ستالين أو أن الحرية الحقيقية هي مايمتنع به المواطن فى الدول الشيوعية حيث تحكم «البلوريتاريا» !

وبالنسبة لتعهير الناصرية **فإنه** بدأ عندما أراد عبد الناصر ان يكتسب شعبيه رغم سوءاته ومؤامراته فلهذا الشيوعيون على الطريق وبدأ هذا عمليا عند وضع الميثاق ، فهذا الميثاق وثيقة اجتماعية سياسية مكتوبة بأسلوب فنى رفيع ومؤثر ، وهو يتحدث عن الشعب المعلم ، والقائد . . ألغ ويتحدث عن النقابات باعتبارها شريكة للإدارة . . وعن الهيئات الشعبية ودورها فى أن تراقب وتقود الهيئات التنفيذية

سعود - فين الصحفيين عثمان يصورو قاعدة الصور ايج بتاعتي!



صورة من تعوير الفن لخدمة الدعاية السياسية وهناك العشرات من امثال هذه الصورة . وعندما زار الملك فيصل نيويورك واستقبله الصهيونيون بها شر استقبال عرضت روزا اليوسف وصباح الخير صديداً من الصور الكاريكاتورية تصوره في أوضاع شائنة ..

ودارت الأيام ، وذهب عبد الناصر الى الخرطوم في اثار هزيمة ٦٧ فاستقبله فيصل استقبال المسلم ، الذي يستو فوق الصغار والأهواء ...

والمركزية ، وهو يتحدث عن الحرية كعاشق لها ، وعن الانتخابات التي يجب أن تعبر عن ارادة الشعب من القاعدة الى القمة . . فالميثاق من ناحية الشكل والموضوع يظهر «ملكة جمال» وما يجعل هذه الملكة عاهرة هو أن كل هذا التجميل ، والتزين ، والأسلوب والمضمون ، انما يراد به ايقاع الضحايا وخداع الأبرياء .

إن التطبيق الفعلي للميثاق هو ما يصم هذه الوثيقة بالمهر ، لأنه معروف ، ومالأنجد أنفسنا في حاجة للتدليل عليه ، فلم يُدَلَّ الشعب يوما وثُقَّهر إرادته كما حدث أيام عبد الناصر ، ولم تكن النقابات والهيئات الشعبية ذبيلا ، دون حول أو طول أو إرادة كما كانت أيام عبد الناصر ، ولم تزيّف الانتخابات بصورة صارخة كما زيفت لكى تصل إلى ٩٩٫٩٪ !! .

وعندما يذيع المذيع - غداة حرب ١٩٦٧ - أننا اسقطنا ٥٠ طائرة فانه يكون كاذبا . . أما أن يصيح بهذا الخبر بحماسة طاغية ونبرات عالية ، لمجرد أن الأوامر قد صدرت اليه بعمل «فرقة» فهذا نوع من العهر الاخبارى !

وقل مثل ذلك عن الشعارات التي لايراد بها أبدا حقيقة (من الخليج الثائر الى المحيط الهادر) ! «ارفع رأسك ياأخى فقد مضى عهد الاستعباد» . . الشعب المعلم . . الشعب القائد !! .

٣ - لن نناقش الانجازات التي لا يمل الناصريون من تكرارها ، مثل اشراك العمال بخمسين في المائة في المجالس ، وتأميم قناة السويس ، ومجانية التعليم ، والقضاء على الاقطاع ، والسد العالى . . وسنسلم - جدلا فحسب - ومن باب توفير الصداق انها انجازات . . فلا أحد ينكر أن المناخ الويل ، مناخ المركزية ، والسلطة ، والمحسوبية ، وأهل الثقة ، واعطاء القانون أجازة ، والبيروقراطية . . كلها تأمرت على تطبيق الانجازات المزعومة . . بحيث طبقت تطبيقا سيئا ذهب بقيمتها . . وكل واحد يعلم أن نسبة الـ ٥٠٪ جاءت الى المجلس بمجموعة للتصفيق والتهتاف وقرار كل ماتعرضه الحكومة . . ومن ذا تحدث من هؤلاء العمال والفلاحين خلال المدة كلها (من ١٩٦٣ - ١٩٩٣) أما مجانية التعليم فقد تمت على حساب الكيف فهبطت بمستوى التعليم هبوطا شنيعا جعل الحاجة الى الدروس الخصوصية أمرا لا مفر منه ، ومصاريف الدروس الخصوصية أكبر من المصاريف الدراسية القديمة . . وقد كان فى نظم التعليم القديمة قواعد تسمح للناهبين من الفقراء بدخول الدراسة الجامعية مجانا، بل وأخذ مرتبات ،

وبفضل هذه النظم دخل عبد الناصر وأنور السادات - وهما من افقر شرائح المجتمع المصرى - الكلية الحربية وهى أرفع الكليات ! .

أما تأميم قناة السويس ، وهو مطلب طالبت به مصر الفتاة ، والأخوان المسلمون ، والشيوعيون ، فقد أعلن وطبق بأسوأ طريقة استنجدت عدوان ١٩٥٦ الذى هدأت به إسرائيل الزحف ، ونالت «إيلات» وفتحت قناة السويس ، ولولا تدخل أمريكا وإنذار المارشال بولجانين لنفذت إسرائيل فى ٥٦ ما نفذته بعد أحد عشر عاما (١٩٦٧) . . على أن نجاة عبد الناصر فى ١٩٥٦ كانت من أسباب سقوطه فى ١٩٦٧ ، لأنه ظن فى ١٩٦٧ أنه سينجو كما نجا فى ١٩٥٦ فخاب ظنه . . .

أما القضاء على الاقطاع فقد طالب به النائب ابراهيم شكرى فى مجلس النواب والشيخ محمد خطاب فى مجلس الشيوخ . . وطبقته الناصرية بأسلوب «ياعزبى . . كلنا لصوص» !

أما تمصير الاقتصاد فلم يكن من الكياسة فى شىء نقله من أجناب مهرة . . الى ضباط جهلة لا يعرفون شيئا عن ادارة المؤسسات الصناعية ، فحدث التسيب والتهايب والفوضى !

أن أفضل ماطبق خلال الحقبة الناصرية هو السد للعالى . . وقد جاءت الفكرة أساسا من أحد الأجناب المقيمين فى مصر . . وكان بطله الحقيقى هو العامل المصرى . ومع هذا ، فلم يحل النغد العالى من مآخذ !

٣ - حتى لو فرضنا - جدلا أيضا ولتوفير الصداق - أن هذه الأعمال : المشروع الحضارى الناصرى ، كانت انجازا وأنها طبقت تطبيقا سليما فما قيمتها أمام الموبقات التى جاءت بها الناصرية .

ماقيمة أن تجعل لى شقة وأرضا وأن تدخلنى مدرسة . . . ألع ، مقابل أن تصفنى ليل نهار ، وتحرمنى من حرية العمل وحرية الفكر .  
هناك شىء اسمه الكرامة ، والكرامة هى أوله شىء ، وهى أهم من الغذاء والكساء .

وقد أهدرت كرامة الشعب وقهرت إرادته ، كما لم تهدر أو تقهر فى أسوأ العصور .  
ولانزال نعيش فى آيات القهر الناصرى . . .

\*\*\*



إن مويقات العهد الناصرى التى تعصف بكل «انجازاته» المزعومة :

أولا - الحكم الديكتاتورى الذى لم يكن معروفا فى تاريخ مصر الحديث . .  
نعم إن محمد على كان ديكتاتورا ولكنه شغل ببناء الدولة عن التكتيل بمخصومه وكان  
العنصر الموضوعى فيه أكبر من العنصر الذاتى . . وأعقبه حكام لم يستطع أى واحد  
منهم أن ينفرد بالحكم ، ثم جاءت المرحلة الليبرالية فأشاعت الحرية السياسية والمسئولية  
الوزارية ، والمعارضة وحرية الصحافة وتكوين الأحزاب والنقابات . . أُلخ حتى جاء  
عبد الناصر ففضى على دستور ١٩٢٣ وأحل محله عدة دساتير كلها مثل دستور ١٩٥٦  
الذى كان يمنحه سلطة مطلقة ، وحتى هذا ، فانه انما وضع من باب الديكور  
فحسب . . فكما قال السادات إن الدستور لم يوضع لجمال عبد الناصر أو  
السادات . . ولكن لزيد وعبيد ممن سيأتى بعدهما !

والحكم الديكتاتورى معناه حل الأحزاب والرقابة على الصحافة ، أو حتى  
تأميمها - كما يقولون - والقضاء على المعارضة ، وضرب أى رأس يرتفع ، وقطع أى  
لسان يتكلم ، وسيطرة الحاكم الواحد حتى يموت . . .

ثانيا - الارهاب والاعتقال والتعذيب :

لم يكن ممكنا أن يحكم عبد الناصر حكمه المطلق الا بعد أن يقذف الرعب فى  
نفوس الشعب ويجعل الخوف يلجم اللسنة ويشل الأرجل ، ويجعل الناس يلوذون  
ببيوتهم . . وقد حدث فى الشهر التالى للانقلاب بعقد محكمة كمحكمة دنشواى  
للعمال فى كفر الدوار ، وشنق اثنين من القيادات العمالية ، ثم فتحت أبواب المعتقلات  
وأدخل نوع جديد من الأرهاب الخسيس الذى لا يقنع باعتقال المعتقل ، ولكن  
بتعذيبه .

وقد شمل التعذيب الجميع بلا استثناء . . رجالا ونساء وأطفالا . . قرويين  
ومدنيين . عمالا وفلاحين . . ضباطا ومهنيين . . شيوعيين واخوان مسلمين . .  
وكان من تقاليد الاعتقال الناصرى أن يمر كل معتقل كائنا ما كان بـ «حفلة» استقبال  
ينال عليه فيها الصفع والركل والضرب بالسياط من باب المعتقل حتى باب الزنزانة . .  
ولم يوقر أحد أو يحترم أحد لسنه أو مقامه ، وعلى رأسهم رئيس الجمهورية نفسه  
( محمد نجيب ) البطل الحقيقى للحركة ، اذ ضرب وقذف به الى مكان مهجور تملؤه  
الفئران !

أما الشيوعيون فقد مات شهدي عطية بسبب الضرب ، وأصيب محمود العسكري - النقای اليسارى البارز بدوالى عفنة فى القدمين نتيجة ضربة المتوالى ٠٠ وطورد لويس عوض بالخليل ، وضرب بالسياط وأخذوا يقطعون ظهر اسماعيل صبرى عبدالله بالسياط لاجباره على أن يقول : ( أنا امرأة ) واصيب ثلاثة من قادة حدثو بالجنون بعد سجنهم سجنا انفراديا مدداً طويلة أواخر عام ٥٣ وقد شفى أحدهم (كمال عبد الحلیم) بعد أن عولج بالصدمات الكهربائية ، ولم يشف الاثنان (مصطفى كمال صدقى وعبد الرحيم صدقى) حتى ماتا ، وانهلوا بالصفع والركل على عبد القادر عودة .

أما القاضى الجليل حسن المصيبى فأوقفوه موقف المايسترو الذى يضبط ايقاع فريق يغنى «ياجمال يامثال الوطنية» ٠٠ أما الشيخ الأودن الذى جاوز السبعين وكان محل ثقة بعض الضباط وادلوا اليه بتاريخ القيام بحركتهم ٠٠ وظل الرجل ساهرا يصلى ويدعو لهم ٠٠ فقد ملأوا زنزاته بالكلاب التى تنبح فى وجهه وتبول عليه لأنه لا يحتمل التعذيب !

ولم تنجح الفنانات والممثلات والراقصات ٠٠ فقد زج بهن فى ماخور صلاح نصر وتعرضن لصور شائنة من انحرافاتة !

ولم ينج الصحفيون من الاعتقال والتعذيب ٠٠ فاعتقل احسان عبد القدوس الذى مهد للانقلاب بانارته قضية الذخيرة الفاسدة ، واعتقل ٠٠٠ وعذب مصطفى أمين الذى صنع الطاغية بيده وقلمه ٠٠٠ واقتلع فكرى أباطة من رئاسة تحرير المصور ٠٠ وكان هناك شخص واحد يستطيع أن يتكلم بصراحة لأنه صوت سيده !

وحتى لا تنهم بالمبالغة ، فاننا نعرض هنا سطورا قليلة من المجلدات السوداء للتعذيب والارهاب فى عهد عبد الناصر ٠٠٠

(١) قالت محكمة جنوب القاهرة فى قضية تعذيب أهالى كمشيش فى حكمها- كما نشرته الأهرام : ان وقائع التعذيب والعذاب للذين تعرض لهما المجنى عليهم لم يحدث مثله فى شريعة الغاب وتمت فى اسوأ فترة مرت بها البلاد حيث ذبحت خلالها الحريات ووطعت أجساد الناس فيها بالنعال ، وهتكت الأعراض بقصد اجبار الضحايا على طاعة أوامر رجال السلطة !

(٢) قال فؤاد سراج الدين : المنظر الذى رأيته فى السجن الحربى عندما اعتقلت عام ١٩٦٥ لن انساه أبدا ٠٠ لقد رأيت على امتداد جدران السجن أثناء

خروجى من الزنزانة أو العودة إليها ، رأيت رجالا يجلسون على «قرافيصهم» ووجوههم للحائط وخلف كل ثلاثة أو أربعة يقف عسكري بالكرباج لضرب أى واحد يتحرك . . . هذا المنظر كان يبدأ من الثامنة صباحا حتى السادسة مساء ، وكانوا كلهم من الأخوان المسلمين ثم نرى فى السجن مسئولين اعتقلوا ذاهبين أو عائدين من غرفة التحقيق أو غرف التعذيب لايسير واحد منهم على قدميه ، فهو إما يزحف على الأرض أو محمولا أو ظهره مكسور أو ذراعه أو رجلة مكسورة . . ولا أحد منهم سليم . . وعندما يخيم الظلام ترتفع اصوات الاستفاثات فى جميع أرجاء السجن من هول عمليات التعذيب . . وكانت عمليات فظيعة تستمر حتى الفجر . . انا لم أتحدث عما فعلوه معى ، لقد ضربت بالكرباج ولا أجد من أسرق أو معارفى يعلم ذلك حتى الآن . . كيف أنساها عندما اقرأ حخيثيات حكم محكمة أمن الدولة فى قضية كمشيش . . كيف أنساها عندما يأتون بكلاب بوليسية مدربة يدفعونها الى هتك أعراض الرجال !!

هذه كلها اساءات فى حق الانسان المصرى ، وحق مصر كلها لا يمكن أن تنسى . . نعم ، أنسى ضربى بالكرباج من عسكري كان يقف بفناء السجن الحرنى وظيفته ضرب كل واحد يمر أمامه وبدون سبب . . نعم انسى سبى وسب أبى وأمى وعائلى . . والله نسيت كل هذا ولكن الإساءة لبلدى ولمواطنى الى هذا الحد فأنا احتاج الى قوة من عند الله حتى أستطيع أن أنساها !!

(٣) وعن تعذيب الكاتب الكبير مصطفى أمين :

فقد أجلسوه على مقعد دائرى فى وسط الزنزانة بعد أن خلعوا عنه جميع ملبسه حتى أصبح عاريا تماما ، وسلطت عليه الأنوار الكاشفة القوية ، ومنع عنه الطعام والشراب حتى اضطر الى شرب ماء الاستنجاء وشرب بوله ، ثم شدوا شعر جسده ، وهو مقيد اليدين والقدمين للحائط ثم سلط عليه التيار الكهربائى بينما كان ينهال عليه السباب بأقذع الألفاظ .

(٤) - الشيخ يوسف القرضاوى من قصيدة طويلة :

نار القريض بخاطرى فدعونى  
أفضى لكم بفجائعى وشجونى  
قل للعواذل ان رميم مصرنا  
بتخلف التصنيع والتعدين

مصر الحديثة قد علت وتقدمت  
في صنعة التعذيب والتقريين  
وتفنتت كى لا يمل معذب  
في العرض والاخراج والتلوين  
أسمعت بالانسان ينفخ بطنه<sup>(١)</sup>  
حتى يرى في هيئة البالون  
أسمعت بالانسان يضغط رأسه  
بالطوق حتى ينتهى بمجنون  
ان كنت لم تسمع فسل عما جرى  
مثل ، ولا ينبك مثل خبير

فليصف الناصريون هذه الصور من التقدم والتفنن الى الانجازات الناصرية . . . واذا  
نسوها ، فلن ننساها !

فالدّين لا يبلى . . . والديان لا يموت . . .

(٥) قال أحد المعتقلين في مذكرة تقدم بها الى السجن الحرى :

شاهدت عددا من المعتقلين في السجن الحرى يفقدون أبصارهم واطرافهم  
من التعذيب . . . ورأيت النساء يجلدن بالسياط وكذلك الأطفال ، دون  
السابعة ، ورأيت الآباء يضربون أبناءهم ، والأبناء يجلدون آباءهم أمام سمع  
ونظر السادة المحققين ، وبأمرهم ، بحثا عن أشياء لا يعرفونها ! ورأيت أكثر من  
ذلك يا حضرات المستشارين ما أتعفف عن ذكره !<sup>(٢)</sup> .

---

(١) مما يدل على أن هذا النوع من التعذيب «النفخ» مما لم ينسه المجتمع المصرى بين انجازات الماصرية ،  
ولم تنفرد به كتابات الأخوان المسلمين أن الرسام الكاريكاتيرى البارع الأستاذ مصطفى حسين عندما  
أراد أن يسخر من سياسة وزارة الاقتصاد نشر فى الأخبار (١١/١/١٩٨٧) رسما يصور «إدارة  
المخابرات على المصدرين - قسم الاعترافات» تضمن كلباً شرساً مربوطاً فى سلسلة وكراييج معلقة ومنفاخا  
على كرسى !

(٢) هذه الوقائع - وهى قطرة من بحر جرائم التعذيب - نقلناها من كتابنا «الاسلام هو الحل» الفصل  
الثانى عشر ، ص ٢٢١ - ٢٧٤ .

## (٦) شهادة الأستاذ الدكتور حسين مؤنس :

كان الدكتور حسين مؤنس يكتب في مجلة أكتوبر سلسلة من المقالات تحت عنوان «باشوات وسوبر باشوات» وقد ضمها فيما بعد في كتاب بالاسم نفسه وضمته وثائق تاريخ الحقبة الناصرية . . والشهادة التي سنعرضها فيما يلي هي المقالة الحادية عشرة التي نشرت في مجلة أكتوبر (العدد ٣٤٨ - ٢٦ يونيو ١٩٨٣) وقدم لها بالآتي :

صديق كريم يسألني : قل لي يا أخى : أنت مع عبد الناصر أم عليه ؟ أنت مع السادات أم عليه ؟ واجيبه : أنا أوفر عليك العناء وأقول : إنني أياها العزيز مع شيلين لا ثالث لهما : أنا مع الحق أولا ، ومع وطني مصر ثانيا . فأنا مع كل من مع الحق ، ومع كل من مع مصر ، وهنا لا يكون الأمر أمر أسماء أعلام ، بل مبادئ ، لأن مصر شيء ، وعبد الناصر شيء آخر ، والسادات شيء ثالث ، فإذا كان عبد الناصر مع مصر فهو يصبح مصريا وأكون معه ، وتكون كلنا مع الحق ، وكذلك الأمر بالنسبة للسادات . ونحن بعد تجارب العنين ومرارتها لأبد أن تكون قد فهمنا أنه ليس لنا إلا هذا الوطن ، فإذا نحن خدمناه بصدق وإخلاص تجا ونجونا ، وأفلح وأفلحنا . ولا يتصورون إنسان أنه يفلح وحده إذا خسرت مصر ، لأننا وبلدنا شيء واحد ، وكلنا ينبغي أن نخدم وطننا ، وينبغي أن نفهم أننا عندما نكون خدما لمصر فإن مصر تعز بنا ، ونحن نعز معها ، فمن مصر نأخذ عزتنا وأقدارنا ، وإذا تصور إنسان أن مصر ينبغي أن تخدمه ، أو أنه سيدها ، أو أنه صاحبها ، وله الحق في أن يستخدمها كما يريد ، فهو يذل نفسه دون أن يدري . ومصر هي الأرض والناس ، وهي أرض مصر وناس مصر ، وعبد الناصر أذل أهل مصر ، وامتهن حقوقهم وكراماتهم ، ورفع قدر نفسه وهو يحسب أنه بذلك يرفع من قدر مصر ، وعبد الناصر ضيع جزءا عزيزا من أرض مصر ، وأذل هذا الجزء من أرض مصر لأذل خلق الله بنص القرآن الكريم ، ومحصلة ذلك كله كانت في مؤتمر الخرطوم بعد هزيمة ١٩٦٧ عندما جلس عبد الناصر مسكينا مقلما حطيفا يعتذر - بغير كلام - لمن أراد أن يقضى عليهم بمغامرته في اليمن ، لأنه أصبح الآن في حاجة إلى أموالهم وعطفهم وصفحهم ، والناس أعطوه وصفحوا عنه ، لأنه كان بالفعل قد مات ومابقى من عمره - بما في ذلك بيان ٣٠ سبتمبر - كان إجراءات تشييع الجنازة . . .

وأنا أقرأ أخبار العصر الناصري ، وأقف عند بالذونج في أبريل ١٩٥٥ ، وأشعر بالفخر إذ أرى بطلنا المصرى جمال عبد الناصر يتألق كواحد من قادة الدنيا في مؤتمر عدم الانحياز ، وأعجب به وبحسن تصرفه وشخصيته التي جذبت الدنيا إذ ذاك ، وأقرأ عن زيارة السفير الروسى شيبيلوف لعبد الناصر في يوليو ١٩٥٥ وعرضه تقديم أسلحة للجيش المصرى ، ثم عقد صفقة الأسلحة التشيكية مع مصر في سبتمبر ١٩٥٥ فأعرف لعبد الناصر فضله ، وأعجب ببساطته ، فقد كان لتلك الصفقة أثر معنوى عميق في نفوس المصريين والعرب وأهل

العالم الثالث ، وأنا هنا أشعر بالزهو ، لأن مصريا حرر الإرادة المصرية أولا ، ثم خطأ فأصبح واحدا من أكابر زعماء الدنيا ، ثم خطأ خطوة أخرى فأصبح أكبر زعيم سياسى فى الدنيا خارج أوروبا والولايات المتحدة وروسيا ، ولكننى عندما أطوى الصفحة وأنظر إلى أحوال المصريين فى تلك الوقت فإتنى أرى أن الثمن الذى دفعوه لكى يرتفع اسم واحد منهم يجعل الصلقة خاسرة مهما كانت قيمتها المظهرية . غير معقول أن يذل كل المصريين لكى يعز واحد منهم فحسب ، وما كان يجرى فى مصر إذ ذاك كان أسوأ من أن يصدق .

والمصرى الذى عرف ألوانا من الظلم والحرمان فى العصور الماضية - أيام المماليك والأتراك مثلا - وعرف خيبة الأمل والحيرة والشك بل اليأس فى أيام الإنجليز والملك والباشوات ، بدأ يعرف لونا أسود من الظلم فى أيام عبد الناصر : قلم الخوف والإرهاب والسجون الطويل والتشريد والفصل من الوظيفة والحسرة لوجوع الأولاد ، وإقبال الناس الأبواب فى وجه المغضوب عليه ، وئلة الحاجة إلى القرش بل إلى الرغيف .

وإذا كان المملوك يسرق لأنه حقير ، والتركى يجلد لأنه غيبى ، والباشا لا يكتشر لأنه كان مشغولا بجمع مال يجعله ضمن الأثرياء ، فإن عبد الناصر كان يذل الناس ويعذبهم ويمتهن كراماتهم لأنه كان يحس أن مصر لا تتسع لإنسان آخر عزيز النفس مرفوع الرأس إلى جانبه . كأنما كان يرى أن تحرير الإرادة المصرية .. معناه ألا يبقى على وجهها إلا رجل واحد له إرادة حرة هو عبد الناصر نفسه ، وأى مصرى آخر يفكر فى أن له كرامة وعزة إلى جانب العزيز الأوحى إنسان منحرف ، ينبغى أن يُقوم ، ومتمرد لأبد أن يحطم ، وخطر لابد من القضاء عليه ،

وأذكر هنا حكاية قصها على مملوك السلطان الذى جاءنا سفيرا فى مدريد ، قال (١) :

- كل غسيلهم القدر قمت بفسيله ، ثم «بنفونى» بعد ذلك إلى آخر الدنيا كما ترى ! هل تتصور يا فلان أن أحمد أبا الفتح كان صديقا لنا وحليفا للثورة قبل أن تقوم وبعد أن تمت ، وكنا نجتمع عنده لنتدارس ونتشاور ونتسامر ، وتحبينا عنده ليلة ، وأسبغ الرجل علينا من فضله ، وسهرنا وتسامرنا ، وفى مساء اليوم التالى ينادينى عبد الناصر ويقول :

- تذهب الآن إلى بيت أحمد أبى الفتح وتقبض عليه وتحبسه ..  
وأدهش للأمر وأتكره ، وأنظر إلى عبد الناصر وأقول :

أمرك يا سيادة الرئيس ، ولكن هذا الرجل صديقنا ومنا وعلينا ، وأمس فقط كنا عنده على أحسن حال من الود والصفاء ، فإذا كان قد بلغك عنه شيء فدعنى استوثق منه فأنا عليم ببواطن الأمور ، ولكن لعل شينا قد خفى على . وينظر لى عبد الناصر والشر فى عينيه ويقول فى ازدراء :

- أنت عليم ببواطن الأمور ؟ أنت نائم على أذائك ، والمؤامرة تحاك من حولى .. امض لما أمرك به ، وأرجوك ألا تناقشنى فيما أمرك به بعد الآن ، وماامت تتصدى للدفاع عن

(١) وهو الضابط أحمد أنور الذى كان قائد السجن الحربى فى السنوات الأولى للانتقال .

أعدائى فسأريك عاقبة تصديك .. عليك أن تأمر قائد السجن بأن يشدد عليه ويعذبه ، ومن الليلة لا ينام إلا على البرش ، وليكن فى علمك أننى لن أتردد فى أن أموس على ابنى نفسه بقلمى لو أراد أن يزحزحنى عن الأرض التى أقف عليها !

وكان لابد أن أصدع بما أمر ، فأخذت رجالى وياورى وذهبتنا لتتفيذ هذه المهمة ، وحتى لا أجد فى نفسى حرجا من القبض على صديق أكلنا معه إلى الأمس خبزا وملحا ظللت فى سيارتى ، وأمرت ياورى والساكر بأن يصعدوا إلى البيت ويأخذوا الرجل . وقام الياور والساكر بالمهمة ، وأتوا بالرجل ، فوضعا فى «البوكس» دون أن أراه ، وبعد أن أسلمناه للسجن وأبلغنا قائده تعليمات الرئيس قال لى الياور ونحن فى طريق العودة :

- والفيلا .. ماذا ستصنع بها ؟

- أى فيلا ؟

- فيلا الرجل الذى أسكنناه الآن . إنها شيء فاخر لا يليق إلا بك ..

- فتهرته وقلت له إننى لا أمد يدي على مال صديق ، وكفى ما أصابه على بنا ..  
فيقول الياور :

- إذن بعد إذنك .. آخذها أنا .

- تأخذها أنت .. أما أعطيناك الشقة التى اخترتها أنت بنفسك فى جاردن سيتى ؟

- هذه أعطيتها لأختى ، وآخذ أنا الفيلا ، ففيها حديقة ترد الروح ، والأولاد فى حاجة إلى حديقة .

وبعد أيام أكون مع عبد الناصر فيقول لى :

- منذ متى أنت وفلان حبايب !؟

فحكيت له الحكاية فقال بعد تفكير .

- عندما أقول لك إن فلانا عدو لى وخطر علينا ، فمعنى ذلك أننى متأكد مما أقول ، وهؤلاء الناس كلهم يستحقون الحرق ، وليحمدوا الله على أننا نكتفى بوضعهم فى السجن .

- ولكن ياسيدى الرئيس ما الذى يثقلك عن هذا الرجل ؟

- وهل تظن ياسى فلان أننى ليس عندى غيرك ؟ وهل تغيب عنى حركة تصدر عنك ، أو من غيرك فى هذا البلد !؟ . افتح عينيك يا فلان واعلم أن ألف خيط ترتبط بكل أصبع من أصابعى هذه ، وأنا أقول لك هذا الكلام لأنك صديق وأنا أحبك .. أما غيرك فاننى أشد الخيط على رقبتك حتى أخنقه .

ويستق قليلا ثم يعود فيقول : إن صدرى يتلجر يا فلان ، وأريد أن اتحدث إلى رجل يفهمنى . إنهم يأخذون العمال ويعملون منهم وزراء ، وفلان ياورى الذى حدثتك عنه أصبح الآن من أقرب الناس إلى أذن الرئيس ، ولولا أنه يعلم أننى عظمة زرقاء لأكلنى ، وعندما طال بى العهد فى العمل البغيض الذى ارتبط باسمى أعفانى منه ، وعينتى وزيرا فى الحكومة الاتحادية مع اليمن ، وكانت وزارة تكسف ، وشكوت للمشير ، والمشير أشار بإيعادى ، وهذا

الكلام أقول له لتعلم أنني مشكلة لعبد الناصر ، فأنا أكبر منه وأقدم ، وأنت له بخمات ما كان أحد يستطيع القيام بها غيري ، ومن كانوا يجدونه يستطيع أن يقوم بصفح نقيب العمال على وجهه وكسر أنفه وسط الناس في المطار (إلا أنا؟) ، لقد كان لابد أن تفعل ذلك ، وكان لابد من تحطيم رأس هذا الرجل الذي طفئ وقتل نفسه بنى آثم له كلمة وقيمة ، فما وجدوا والله لها غيري ، ثم ماذا كانت مكافأتى ؟ وزير فى وزارة لا يحس بها أحد ، وفلان وهو عيل بالنسبة لى بمسك بأعظم مشروع زراعى فى البلد ، يضعون تحت يده الملايين ، وهو لا يفرق بين كوز الذرقعود البرسيم ، فما هو ذا اليوم ملك زمانه ، وعنده ملايين لا يعلم بأمرها (إلا الله ، وتحت يده موظفون بمرتبات وزراء وألف سيارة مربوطة على بابيه كأنه ملك (١) !

وقد قال بعض اتباع الناصرية أن التعذيب قد وجد من قبل واستعاد بعضهم ذكرى «العسكري الأسود» وليس هناك ما هو أكثر زيفا من هذه الدعوى . فلم تعرف مصر «الليبرالية» التعذيب الناصرى أبداً ، وكان المتهم بالغيب فى الذات الملكية يمضى بضعه شهر فى «سجن الأجانب» تخصص له غرفة صغيره بها سرير ودولاب كما لو كان فى فندق ، ويتولى السجن تنظيفها ، ويرتب له طعام خاص وتأتية الصحف ، ولم نسمع بتعذيب فى جرائم سياسية الا فى عهد «السعديين» الأشقياء عندما احتدمت العداوة بينهم وبين الإخوان فى أعقاب حل الإخوان المسلمين فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ وكان

---

(١) رد الأستاذ جمال حماد على الدكتور حسين مؤنس فى العدد نفسه تحت عنوان «بل ثورة يوليو خالدة ٥٠٠» رداً ركيكا يقول فيه ان الدكتور مؤنس يلقي الكلام على عواهنه ، ولا يثبتها بدليل - وكان هذه الدعاوى التى يعلمها القاضى والدانى فى حاجة الى دليل . ثم يلوذ بالحجة الفارغة التى يبرر بها الأخطاء حجة «ان لكل ثورة أخطاء وان لثورة يوليو أخطاؤها والمؤرخ المنصف هو الذى يسجل الإيجابيات والسلبيات ، وأن الأنماط التى أبرزها لنا الدكتور مؤنس ليست سوى نماذج لقلعة من المنحرفين استعلوا ثقة الثورة بهم كما هو الحال فى جميع المهود وفى كل الثورات ، وأود أن أؤكد فى هذا المقام أن معظم هؤلاء المنحرفين لم يكونوا من ضباط الثورة» وهذا ادعاء عار عن الصحة حملة وتفصيلاً فلا يمكن ترير الأخطاء بأخطاء والموبقات التى ذكرها الدكتور مؤنس تمحو محو تاماً الإيجابيات المرعومة . والنماذج السيئة التى ذكرت ليست لقلعة أو أن معظم هؤلاء لم يكونوا من ضباط الثورة . فإنهم كانوا أبرر رمورها . وماذا عسى أن يقاس انحراف أحمد أنور بانحراف صلاح نصر الذى جاء بعده . وليس ادل على نفشى الفساد أن الحكومة لا تجرؤ حتى الآن على اعلان محاضر محاكمة المنحرف صلاح نصر بعد لأنها ستلوث قيادات ٢٣ يوليو . ولكن ماذا عسى حماد أن يقول وهو من ضباط ٢٣ يوليو ؟



التعذيب يأخذ شكل الضرب . وأشاعوا حكاية «العسكري الأسود» للأرهاب ، وحتى لو كان له حقيقة فهي حالة فردية . ومع هذا فقد فضحت الصحف السعوديين حتى أقبلوا اقالة مهينة ، وهزت اعتقالهم العهد ، وكانت من أكبر العوامل التي أدت إلى قيام انقلاب ٢٣ يوليو ونجاحه .

واخيراً نأتى إلى القارة المروعة ، والآفة التي ثبّرت ما علو تسييراً ، وعصفت بدولة المخابرات ومراكز القوى وبرأس هذه المراكز ، عبد الناصر نفسه . ولكن ما أفدح الثمن ! إن هزيمة ٦٧ هي إحدى الهزائم «الفاصلة» هي مثل هزيمة اكنيوم التي قضت على مصر باحتلال الرومان لها ستمائة عام ومثل مرج دابق التي قضت بتبعية مصر للعثمانيين ثلاثة قرون . وقد مضى على هذه الهزيمة ربع قرن ، ولازلنا في عقابيلها . ومن الصعب جداً التغلب على اثارها قبل مائة عام ! لأنها اعطت اسرائيل أكثر مما كانت تحلم به . سيناء كلها ، والقدس ، والضفة الغربية وغزة والجولان . . . وهزمت وأذلت جيش مصر وسوريا وغنمت سلاحهما ، وأهم من هذا الكبرياء والزهو الذى جعل اسرائيل تؤمن أنها قادرة على أن تحقق «إسرائيل الكبرى» .

يقابل هذا الزهو والأزدهاء . . . المهانة والضعفة التي حاقت بكل مصرى . . . وكل عربى والفجيعة المروعة لأمال الذين صدقوا دعاوى الناصرية . . .

وقد كشفت الهزيمة النظام وعرته ، وأظهرت كيف تسيير الأمور ، فإذا كان عبد الناصر عالماً بأن الضربة ستقع يوم ٥ يونيو ، وأمر أن لاينبدأ فقد ارتكب خطيئة العمر ، وإذا كان المشير العقيم لم يفعل شيئاً فهو لا يكون مشيراً ولا غفيراً . وكل منهما يعلم بحالة المطارات والطائرات التي تجثم كالبط الأمر الذى روع مغنية<sup>(١)</sup> ، لا ضابط أركان حرب . . . ولكنها الطريقة التي كانت تحكّم بها مصر ما بين العمدة وشيخ الغفر ، وماتم بعد ذلك أكثر دلالة فبعد هذه الهزيمة المروعة عرض العمدة على شيخ الغفر أن يكون نائب رئيس الجمهورية ! ورفض شيخ الغفر . فهل يمكن ان تدار «عزبة» بهذه الطريقة .

\*\*\*

كانت هزيمة ٦٧ هي نقطة النهاية لرؤى جيل كامل ، رفعت الشعارات الى سماءات

(١) دعيت الفنانة شريفة ماهر للغناء فى حفل بالمسكرات قبيل الهزيمة مباشرة - وروعها منظر الطائرات

الجاثمة كالبط دون أى حماية . . .

الوهم حتى جاءت الهزيمة فأنزله إلى حضيض الواقع الذى ما كان يخطر بالخيال ، وتجمد الفكر المصرى ، وقد يصور ذلك أن الوطنى القديم الأستاذ أحمد حسين شل ، وأصبح مقعداً بعد أن كان يتوقد حركة ونشاطاً .

للناصرين أن يقولوا ان عبد الناصر حطيم الإقطاع ، وأرسى قاعدة الصناعة وحقق العدالة الاجتماعية وبلور أحلام جيل فى المشروع الحضارى لمصر ، وللقومية العربية . . . ولناقديه أن يقولوا إن المناخ الويل حال دون التحقيق السليم لهذه الإنجازات ، فضلاً عن أن الواقع العملى كان نقيض الشعار المعلن على خط مستقيم «ارفع رأسك يا أخى» «الانتخابات من القاعدة للقمة بالإرادة الحرة» إلخ . .

أما الشيء الحقيقى الذى لاجدال فيه فهو أنه :

(١) أفسد الحياة السياسية فسادا لم تبرء منه حتى الآن عندما أوجد الديكتاتورية فى أسوأ صورها .

(٢) أهان كرامة الشعب وقهر ارادته وأدخل التعذيب الخسيس لمعارضيه جميعا من كل الفئات ومن كل الأعمار ومن كل جنس ، فبث روح الخوف والقهر فى المجتمع .

(٣) مكن - وهو العسكرى أركان حرب - لاسرائيل أن تهزم جيش مصر وتوقع به المهانة ، وتغنم أمواله وعتاده وتمزق تربة الوطن باحتلال سيناء ، فضلاً عن استيلائها على القدس وغزة والضفة الغربية وهضبة الجولان !

هذه الثلاثة مما لايمكن لائى وطنى أن يغتفرها أو يتسامح فيها .

إذ كيف يمكن أن نبني الإنسان المصرى الذى يحس العزة والكرامة ، اذا كانت الحركة المستولة ، والرجل المستول عن العار والهزيمة والقهر والطغيان يظهران كثورة عظمى ، وكبطل قومى ؟ . . . هذا لا يستقيم !

\*\*\*

أثر الطبيعة السرية لتنظيم الضباط الأحرار على حركة ٢٣ يوليو :

ينان الأخطاء الفاحشة التى اكتنفت الحقة الناصرية والانحرافات التى انزلت إليها

من أيامها الأولى حتى انتهت عام ١٩٦٧ إنما تعود إلى الطبيعة السرية لتنظيم الضباط الأحرار التي حالت دون أن تأخذ طابع ثورة ، أو حتى انقلاب عسكري كما كنا نتصور قبل أن تتضح لنا دقائق الأمور . . ولكن طابع مؤامرة دبرت في الظلام ! أن أربعين أو خمسين ضابطا اشتركوا في مؤامرة وسيروا وحداتهم العسكرية في ظلام الليل دون أن تعلم هذه الوحدات شيئا . . ورزقوا عوامل استثنائية مكنت هذه المؤامرة من أن تحقق انتصارا لم يكن المتآمرون أنفسهم يحملون به . . وأبرز هذه العوامل : الأسم المشرف والمقبول للواء محمد نجيب الذي تسترت المؤامرة ورائه ، وأن عدوهم - الملك فاروق والأحزاب - كانوا فاسدين حتى النخاع ، وأن النظام كان متهاويا وأميل للسقوط ، ومساندة الأخوان المسلمين وبعض الأجنحة الشعبية ، فضلا عن عدد من المصادفات أشار إليها مؤرخو الحركة وكتبنا عنها بالتفصيل في كتابنا «الأسلام هو الحل»<sup>(١)</sup> !

ولما كانت المطالب التي أعلن عنها المتآمرون وهي عزل الملك فاروق مقبولة تماما من الشعب ، فقد رزقت المؤامرة تأييده .

وكان يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ هو قمة المؤامرة التي كان يجب أن تنتهي عندها - لولا أنها مؤامرة . . ولو كانت حركة لانتهت بطبيعتها ولكن أثر التنظيم السري للضباط الأحرار تحكّم فيها ، وكان وراء كل انحرافاتها .

ذلك أن التكوين السري لتنظيم ما يستتبع جوا من الغموض والتكتم وعدم الاعلان أو التصريح وتركيز السلطة . . . أُلغ مما يفسح مجالا للانحراف ، وقد ظهرت هذه الانحرافات في كل التنظيمات السرية سواء كان ذلك في التاريخ الاسلامي القديم كمحركات الشيعة ، وما انسأقت اليه من انحرافات حتى «النظام الخاص» للاخوان المسلمين الذي انشق على طاعة الأمام الشهيد ، رغم أنه كان خلاصة الخلاصة ، وكان الأمام الشهيد رمز الدعوة ورئيسها المطاع ، وكان تنظيم الضباط الأحرار من هذا النوع وفاقم في آثار سريته أنه تنظيم عسكري يتطلب أقصى درجة من التكتم . .

---

(١) كنا قد بدأنا نكتب ونطبع في الأيام التي تلت ٢٣ يوليو مباشرة كتابا عن هذه الحركة بعنوان «ترشيد النهضة - دراسة توجيهية للانقلاب العسكري ونظرة عبر المستقبل المصري» - قلنا فيه إن الحركة انقلاب عسكري وليس ثورة ، وقد صودر الكتاب قبل أن يم بمجرد أن قرأت (الرقابة) ملزمته الأولى . . وانتبهنا فرصة اصدارنا كتاب «الإسلام هو الحل» فأدرجنا فيه الفصل الأول من هذا الكتاب المؤود . . (ص ٦٧ - ٧٤) .

وأن التنظيم ضم أمشاجا من الأخوان ومن اليساريين ومن الوطنيين ، فضلا عن ربطتهم علاقات خاصة أو أسرية ، فلم يكن له فكر موحد ، مما يركز التوجيه في قائد هذا التنظيم ، وكانت المهوبة الحقيقية في عبد الناصر أنه «متآمر» بالفطرة والطبيعة ، مما هيأه لقيادة مثل هذا التنظيم ووفر له الدهاء ، والتكتم ، والمناورة . . . ألخ وهذا هو السبب في تفوقه على ضباط كانوا أقدم منه وأرسخ في تنظيمات الضباط ، وأنه استطاع أن يخدع الأخوان والشيوعيين والأحزاب قبل ٢٣ يوليو وبعدها !!

ولا ينفي هذا كله أن تنظيم الضباط الأحرار ضم عددا من الضباط الوطنيين الذين كانت تموج بهم المعسكرات ، وأن غرض المؤامرة في حد ذاته كان نبيلاً . فان هذا كله شيء ، والطبيعة التآمرية التي تفرض نفسها على كل تنظيم سرى بحكم سرية شيء آخر . . . وقد قلنا إن أثرها ظهر في تنظيمات الشيعة السرية قديماً ، كما ظهر في تنظيمات الأخوان المسلمين حديثاً .

على أن المهوبة التآمرية لعبد الناصر كانت ( محلية ) ، فقد كان كالفلاح الذي يبني السباحة في الترع ، ولكنه سيفرق جتما إذا حاول السباحة في المحيط . . . ولهذا فإنه عندما حاول أن يجرب تآمره وخداعه مع إسرائيل وأمريكا والاتحاد السوفيتي ، فإن هؤلاء جميعاً خدعوه وراح ضحية مغامرته الدولية التي ظن أنه سينجح ويصوب ويجول فيها كما نجح ليلة ٢٣ يوليو ، وكما نجح في خداع الأخوان والضباط والأحزاب !

وكل تاريخ عبد الناصر هو سلسلة من الخداع والتآمر ، . . . وبهذه الطريقة استطاع أن يتخلص من كل الضباط الذين شاركوا في المؤامرة . . . ولم يبق إلا السادات الذي أثبت أن الدهاء (المنوفى) غلب الدهاء (الصعيدى) . . . واستطاع أن يخدع هذا الخداع الكبير وعرف كيف يتعامل معه !!

ولو كان عبد الناصر ضابطاً كبيراً محبوباً عند الضباط . . . ولو كان طبعه هو الصراحة والإخلاص والوطنية . . . ولو كان هدفه القضاء على الفساد . . . لكان من الممكن أن يفعل مثل ما فعل عرابي عندما ساق الجيش ليروم الحدوي على إصدار الدستور وتكوين مجلس النواب !

ان دراسة هذه السابقة المشرفة التي استثمر فيها عرابي صفته كضابط في تسيير الجيش لتحقيق مطالب الشعب ، ومقارنتها بما حدث في ظلام ليل ٢٣ يوليو ، يوضح لنا كثيراً من الحقائق ، ويقدم لنا مقارنة عظيمة الدلالات والفائدة . . .

لقد كان عرابى ضابطاً من صميم تربة مصر ، كان فلاحاً ودخل الأزهر لفترة قبل أن يدخل الجيش كعسكري ٠٠ ومن تحت السلاح - كما يقولون - نال رتبته العسكرية ، فكان تمثيلاً للشعب بحكم المنبت والثقافة ، وأنه نال رتبته العسكرية تحت السلاح !

واكتسب عرابى شهرة لبعض الملابس ، فاتجه إليه رجال الإصلاح وانضم معه الوطنيون من الضباط ، فاستخدم هذا كله ليجمع الجيش ، ورجال الإصلاح ، وليسير به الى ميدان عابدين في ذلك اليوم المشهود (٩ سبتمبر ١٨٨١) ، وتحت سمع وعلى مرأى كل رجال ونساء القاهرة ، وحضور مندوبى الصحف والوكالات الأجنبية والشخصيات الوطنية من أعيان وأحرار ، تقدم عرابى على جواده ، وفي يده سيفه ، لينقل الى الخديوى ارادة الشعب !

حقاً إنه ترحل ، وأعمد سيفه ، ولكنه لم يعمد مطالبه ، ولم ينصرف الجيش الا بعد اعلان قبول المطالب التى كان أولها اقالة الوزارة المستخزية واعلان الدستور وتكوين مجلس النواب !

هذا مثال فريد - ناجح وصريح - فى استخدام الجيش لتحقيق مطالب الشعب ، عندما يعجز الشعب عن أن يحقق ذلك بوسائله الخاصة .

إن مظاهرة ٩ سبتمبر ١٨٨١ حققت لمصر الدستور ، وأجرت الانتخابات واجتمع مجلس النواب ، وكان يمكن لهذا كله أن يكون بداية لعهد باهر لولا تدخل الإنجليز ! ولك أن تقارن بين هذا الأسلوب ، قيادة وعملاً ، وبين ما حدث فى ظلام ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

كان عرابى - كما قلنا - تمثيلاً صادقاً للفلاح المصرى ، ولم تتغير هذه الصفة ، حتى مات . . أما عبد الناصر ، فانه وان كان يمت الى أصول شعبية صعيدية فقيرة ، الا أنه عاش فى المدينة ، ودخل مدارسها بحيث أصبح فى أدنى درجة من سلم البورجوازية التى تضرم التطلعات وبدفع هذه التطلعات وتيسير عوامل أخرى دخل الكلية الحربية حيث يعلمون الطلبة أن يكونوا ضباطاً يأمرؤن فيطاعون ، أو يؤمرؤن فيطيعون ! وهذا هو الدرس الأول والأكبر لكل الضباط فى كل الجيوش (الطاعة) ! وبمس الدرس لمن يحكم شعباً .

وكل من يعرف جمال عبد الناصر فى أيامه الأولى يعلم أنه كان شخصية انطوائية ،

تكاد تكون منفرة ، فهو لا يتسم ولا يضحك ولا يتجاوب مع محدثه ولا يتحدث ويؤثر أن يستمع . . وكان في هذا يختلف تماما عن محمد نجيب البشوش الصريح ، وعن أحمد عرابي الفلاح الفصيح . .

وتنظيم المظاهرة - مظاهرة ٩ سبتمبر - علني اشترك فيه الأعيان والأحرار ، وشاهده كل من يستطيع أن يطل على ميدان عابدين الفسيح ! والمطالب واضحة ، وهي أسمى المطالب للشعب : اصدار الدستور ، تشكيل مجلس النواب . . وشتان ما بين حركة تطالب بالدستور ، وحركة أخرى أول أعمالها إلغاء الدستور !

كان عرابي صادقا مع نفسه ، مخلصا في حركته ، يعلم أنه يستطيع أن يأتي للشعب بالدستور ومجلس النواب ، ولكنه لا يستطيع ولا يستهدف أن يحكم الشعب . . لأن الشعوب لا تحكم بضباط !

ولكن ما حدث في ظلام ليل ٢٣ يوليو ، كان مؤامرة . . وملايسات المؤامرة وطبيعتها فحسب تسمح بالانحراف ، بل انها تستتبع الانحراف ! ولهذا كانت الحركة مقضيا عليها . . لقد كانت شقية من بطن أمها ، وبشخصية أبيها ، وجر شقاؤها التعاسة على مصر !

## الفصل الثالث

### أزمة أدعاء التنوير

### الصراع بين الذات والموضوع

---

كثيراً ما يتساءل المرؤ كيف نفسر وجود عدد من الشخصيات الممتازة ، المثقفة ، بين زمرة أدعاء التنوير ، وكيف نفسر اتجاهات لهم ما كان الانسان يتوقعها منهم ؟ !

والرد أن هؤلاء هم ضحية «اشكالية» - كما يقولون - كبيرة من أكبر قضايا المسألة الاجتماعية ، هي الصراع بين الذات والموضوع . . . وقبل أن تظهر وتتحكم فيهم ، ظهرت وتحكمت في محمد علي ، وكانت سبب تأمره على المشروع القومي الذي اتفق عليه مع شيوخ القاهرة ، وكانت سببا في أن تحيف البورجوازية/ الليبرالية المصرية على الإسلام فيما بين ١٩٢٣ ، ١٩٥٢ وهي أيضا سبب انحرافات عدد كبير من ادعاء التنوير ، ولولاها لكان من المحتمل أن يصبحوا دعاة تنوير ، بحق !

« والاشكالية ، تضم طرفين هما : الموضوع و الذات . . . »

والموضوع هنا تمثله مصر ، بينما الذات تمثلها شخصيات أدياء التنوير . .  
وما جاءت به المستجدات والملابسات من تطورات ارتبطوا بها ، وأصبحوا جزءا منها  
لا يستطيعون منها فككا !

الموضوع : مصر

كما قلنا ، الموضوع هو ، مصر . . .

فنحن لا نتحدث عن دعوات مطلقة ، أو دعاوى أكاديمية . . ولكننا نتحدث عن  
هذا كله بالنسبة لمصر . . ونريد لها أن تطبق على مصر . . ومن هنا تنشأ علاقة  
ما بين هذه الدعوات والأفكار . . وبين طبيعة مصر ، وبقدر ما يكون الفكر والرأى  
مطابقا لطبيعة مصر ، ومتجاوبا معها بقدر ما تكون فرص النجاح والتوفيق . .  
والعكس بالعكس . . .

ولا يدفع هنا أن الأمم متشابهة . . وأن التطور يجعلها تمر بمراحل واحدة ، وأن  
التقدم العالمى محم الاختلافات فهذا كله ، وإن كان له نصيب من الصحة ، الا أنه  
لا يقوى على طمس الطبيعة والهوية . . وهو وإن أوجد « متشابهات » تضم  
« المتخالفات » من المجتمعات ، فانه لا يقضى على الشخصية المميزة لكل أمه بحيث يبقى  
المصرى مصرى ، والهندي هندياً ، والإنجليزى إنجليزياً . . إنح وكل وحدا ينهل أو  
يقبس من الآراء والأفكار الحرة بقدر ما تسمح به ظروفه وتقدر عليه قوى استيعابه .

ولعل الشيوعية دليل على ذلك . . .

فلا جدال أن الشيوعية رزقت منظرين ومفكرين ودعاة ، ورجال دولة وسياسة ،  
وهيمنت على عدد من دول العالم ، منها الاتحاد السوفيتى - سدس العالم - ووجدت  
في كلبية الرأسمالية وجرائمها ما يدينها وما يوفر عليها نصف الطريق !

مع هذا لم ينجح الفكر الشيوعى فى مصر . . .

كان فكرا غريبا ، مغرقا فى « أوروبيته » ، اصطلاحاته وتعبيراته ومفرداته والامثلة  
والشواهد التى يستشهد بها ، كلها غريبة تماما عن مصر ، قدر ماهى قرية من اليونان  
أو الرومان أو انجلترا وفرنسا .

وأهم من هذا أنها تتكرر للدين !



فشلت الشيوعية رغم كل شيء ، ولم تنجح في مصر رغم ما أنفق عليها وما بذل فيها ، لانها غريبة على مصر ، معادية للاديان !

في مواجهة هذا ، أقبل الشعب على الاخوان المسلمين زرافات ووحدانا ، في القرى والمدن ، وتصدت الحكومة طوال اربعة عقود متصلة للجماعة التي لا تملك حولا ولا طولا ! وأستخدمت كل هيلمانها ، ولكنها عجزت عن قهر الجماعة ، وكل مرة كانت تخرج من محتتها أشد قوة . . .

ولماذا حدث هذا ؟ !

حدث هذا لان الدين يشغل مكان الصدارة في مقومات مصر ويمثل المحور في العلاقات والنظم ، هو « روح مصر » الذي تنبثق منه نظم الحكم والقضاء والفنون والآداب . . هو « المفاعل » الذي فجر عبقرية مصر وجلاها في مثل الاهرامات والمعابد والتمائيل والمساجد ، هو الذي أبقى عليها وحفظها ، ومكنها من أن تواصل البقاء في مواجهة عاديات الغزو ونوازل الفقر والجوع والظلم التي كان يمكن أن تقضى على الشعب ، وروحه قضاء مبرما ، إن أثر الدين في مصر لم يقدر تماماً . فمصر هي الدولة الأولى - ولعلها الأخيرة - في العالم التي عاشت للدين ، وضحت بالحياة الدنيا في سبيل الآخرة . . عاشت في الأكواخ بينما كانت تبنى الأهرامات الشامخة والمسلات السامقة لتحقيق لروحها الخلود الذي هو رمز الديانة المصرية . . وغطت مظلة الدين النجوم والشموس والأنهار والنبات والحيوان وأضفت عليها قبساً من القداسة . . ومفتاح ذلك كله الزراعة المنتظمة . . إن المأثرة التي تذكرها الديانة المصرية للإله هي أنه علم المصريين الزراعة . من أجل هذا اعتبر أوزوريس « رأس الآلهة » على حين أنا نرى - في حالة اليونان - أن المأثرة التي تذكر لبرومثيوس . أنه سرق سر النار من الآلهة وقدمه للبشر . . كانت حضارة مصر زراعية . . خضراء . . مستقرة بينما كانت الحضارة الأوربية نارية . . حمراء متوهجه . .

ومنذ أن عرف المصري القديم كيف يتعامل مع النيل . وبفضل الفيضان المنتظم والغرين الخصب وقد تكونت مصر تكويناً إيمانياً راسخاً ، في بيئة زراعية مستقرة طوال ثلاثة آلاف عام متصلة . . انصهرت خلالها الشخصية المصرية في الدين ، وانصهر الدين في الشخصية المصرية بحيث صاراً شيئاً واحداً . . ومن هذه السبيكة

تكون شعب متميز ، وتم هذا قبل أن تبدأ أولى الغزوات ؛ ولهذا عندما بدأ الهجوم على مصر لم يقض الغزاة على شعب مصر ، فهو إما منتصر - بحكم العقيدة على الغزاة يؤثر فيهم ويستقطبهم ، وإما متفوق داخل صدفة الدين حتى تمر الغاشية أو يستعيد قواه خلال عقود ، أو حتى قرون تنهى بأن يذوب المنتصر فيه ويصبح - بصورة بطيئة وغير محسوسة - جزءاً منه .

وقد تعرضت آثار مصر خلال تاريخها الطويل لكل صور النهب والسلب وسوء الاستخدام والتدمير ، منذ أن أصدر الإمبراطور الروماني ثيودسيوس أوامره بتحطيم المعابد « الوثنية » . . ( ٣٧٩ - ٣٩٤ ) حتى العرب . . عندما ارسل يزيد بن عبد الملك ( سنة ١٠١ هجرية - ٧٢٠ ميلادية ) إلى واليه على مصر عقبة بن مسلم بكسر « الأصنام والتماثيل » فكسرت كلها على ما قيل وبعث آثارها !! ، وعندما حاول المأمون أن يفتح الهرم ، والولاة الذين تعاقبوا على مصر وبنوا قصورهم ومساجدهم بأحجار وأعمدة منهوبة ، والجهالة وسوء الاستخدام الذي جعل لفات البردى الثمينة تستخدم وقوداً . ومع العصر الحديث ائثال على مصر كل أنواع اللصوص والقراصنة الذين قاموا بعمليات سلب ونهب واستغلال للولاة . . حتى نقلوا إلى الخارج ثلاثة ملايين قطعة نفيسة من الآثار . . تزدان بها متاحف العالم ، ومع هذا المهدم والسلب والنهب ومن خمسة الآف عام لا يزال مافي متاحف مصر أكثر مما في متاحف العالم . ولا تزال نستكشف بين الحين والحين آثاراً أخرى حتى يتصور الإنسان أن تاريخ مصر ليس فوق أرضها ولكنه مطمور في الرمال وتحت طيات التراب . .

بأى قوة استطاع هؤلاء المصريون في فجر التاريخ أن يقيموا هذا الوجود القوي الصامد للدين : أن يصعدوا بأحجار الأهرام الثقيلة إلى قمته وأن ينحتوا من الجبال معابد وتماثيل ، وأن يفحصوا بالمقابر في أعماق الأرض . وأن يزينوها ويرسموها حيث لا ضوء ولاشمس وأن ينقشوا بالأزميل على الصخور الصلدة ليخلدوا تاريخهم وليبلغوا رسالتهم إلى الأجيال . .

ما من قوة كان يمكن أن تحقق هذا إلا عندما ينصهر الإيمان في الشخصية بحيث تعبر هذه الشخصية عن نفسها بلسان الدين . .  
ويحق قال شوق . .

فاذا قيل ما مفاخر مصر

قيل فيها لإنزيسها الغراء

وفي العصر القبطي - على أنه كان مختزلاً ، ومحاربا ، ولم يقدر له الحكم ،

فإن مصر قدمت إضافاتها المبدعة إلى المسيحية وقدم رجال كنيستها مذهبهم الخاص .  
وفي الإسلام - مع أن التطورات التاريخية جاءت من البصرة والكوفة ، ودمشق  
وبغداد أولاً ، فإن الإسلام ما أن تأثّل في مصر حتى كانت هي التي انقضت على  
الصليبيين واستعادت القدس وأسرت الملك الفرنسي لويس التاسع ، وقضت على رعب  
الممالك ، وقتلت - التار - الذين لم تقف في وجههم جيوش من قبل .

وسار هذا الدأب حتى حرب رمضان ١٩٧٣ التي قامت تحت شعار « الله أكبر » .  
وعندما يقول شوقي إن ايزيس هي مفاخر مصر ، فانه يعنى أن مصر هي التي  
وضعت بذرة الضمير الانساني واكتشفت سر الخلق والعالم الآخر بثوابه وعقابه ليكون  
هيكل العدالة كاملاً . . . وهذه كلها أجماد حضارية رفيعة لا يمكن لاحد أن يمارى فيها ،  
ويعد جحدها حرمانا لمصر من إضافتها الخاصة في الحضارة .

فالدين في مصر يمثل قدس أقداسها ، وعمق حضارتها وتاريخها ورمز ضميرها  
ووجدانها ومن هنا فلا يمكن المبالغة في تقدير منزلته ، وأى فكر أو نظام يعارض الدين  
فسيرفضه المجتمع المصرى ، وأى فكر يناصره فسويده ، وقد رحب الأقباط بعمرو  
بن العاص وهو الغريب عنهم ، بالجنس واللغة والدين ، لانه أطلق الحرية الدينية التي  
حرموا منها ، كما رحب شيوخ الأزهر بمحمد على وهو العسكرى الالبانى ، لانه تعهد  
بالحكم بالشرع .

وأى رجل دولة في مصر لا بد أن يلحظ هذا المعنى ، وقد قيل إن نابليون تزيبا  
بزي المشايخ ليتقرب إلى الشعب . . . وأشاع أنه أسلم ، ولا يخالجنى شك في أن نابليون  
لو قرر البقاء في مصر لما تردد في اعتناق دين الإسلام ، ليس بالضرورة لانه مخلص  
في ذلك ، ولكن لأن هذا هو ما يجعله يتمتع بثقة شعب مصر !

وعندما جاء المحتل البريطانى ، فانه - بذكائه - حرص أن لايمس المقدسات  
الإسلامية ، بل انه تقرب منها ، وحاول أن يستغلها لمصلحته ، باعتبارها اقرب الأبواب  
إلى قلب الشعب .

\*\*\*

وقضية الدين تسلمنا - ضرورة - إلى الإسلام . . . لأن مصر آمنت بالإسلام ،  
وأصبح هو دينها ولا يغير من هذه الحقيقة وجود أقلية غير مسلمة ، ففى كل العالم

توجد الأقليات التي قد يزيد عدد مجموعها عن عدد الأقلية القبطية ، ولا يغير ذلك من الحسابات العامة شيئا !

وإذا كان الدين هو في مصر محور الحياة والدولة والمجتمع . . فإن هذا ينطبق بالتبعية على دين مصر الحديثة وهو الإسلام .

وهذا ما يكشف عن جانب خاص للإسلام ، لا لأنه الإسلام ، ولكن لأنه الدين الذي ارتضته مصر ، فلو لم يكن الإسلام دين حياة ، لفرضت عليه مصر هذه الطبيعة ، ولكن الإسلام كانت له هذه الطبيعة بالفعل ، فلم يخذل مصر وكان طبق طلبتها . وقد لاتصدق كلمة الرسول على بلد وشعب ، كما تصدق على مصر . « أنا حظكم من الانبياء ، وأنتم حظى من الامم » .

والحقيقة أن إيمان مصر بالإسلام كان أمرا مقضيا ، كان يمثل النهاية الطبيعية لمسيرة الإنسان المصرى نحو الدين ، ووجدت التصورات الساذجة البدائية للإنسان المصرى عن الله واليوم الآخر صورتها النقية المجردة في الإسلام . . وهناك تشابه عجيب بين فكرة الدين المصرى القديم عن اليوم الآخر وهو أبرز مقوم في الأديان ، وبين فكرة الإسلام . . ففى الديانة المصرية نجد الميزان ونجد « ريشة الطائر » التى ترمز للعدالة . . وهو ما يمثل « الميزان » فى الإسلام وتعبير « مثقال ذرة » أو « حبة من خردل » كما أن ثمة تشابه بين بعض تصورات الجحيم فى الديانة المصرية القديمة والإسلام .

وتتكرر الاحاديث فى الديانة المصرية القديمة عن الشمس كرمز للالوهية ، كما تتكرر الاشارات فى القرآن عن الشمس كآية من آيات الله . . وقد يجوز القول ان شيئا ما فى أعماق - أو لا شعور - الاقباط قد تحرك وذكرهم برموز الديانة المصرية القديمة التى كان يؤمن بها أسلافهم قبل اعتناقهم القبطية ، وقرب إليهم الإسلام .

وحافظ الإسلام على التكوين الدينى لضمير مصر عندما قدم صياغة « الحلال والحرام » . . - بصرف النظر عن مدى السلامة فى تكييف الحلال والحرام - لان هذا يرتبط بدرجة الوعي والفهم والتقدم الفكرى والاجتماعى<sup>(١)</sup> .

---

(١) هناك الآف الشواهد التى تؤكد عمق معنى الحلال والحرام فى النفس المصرية اليوم ، وأنه الفيصل فى الحكم على التصرفات والاعمال ، قد تعبر عنه - مثلا الأغنية الشعبية التى تقول [ « تحرم » على يدي إن نست ايديك « تحرم » على عيني لو طلت عليك ] ولكنها تقلب الآية [ لما تكون « حلالى » ] فتقول « لما تكون حلالى أحطك فى عيني واتكحل عليك !! » . وقد أرسلت إحدى قارئات الاهرام رسالة تقول « أنا مواطنة مصرية اميش فى سلطنة عمان مرافقه لزوجى ولّى صاحب صغير على معظم صفحات المرأة بالمصنف =

وهكذا نجد أن « الموضوع » وهو مصر المؤمنة يسلمنا إلى مصر المسلمة باعتبار أن الإسلام هو دين مصر ، وإيمانها . .

هذا هو « الموضوع » الذى كان يجب أن يكون نصب أعين كل الذين يعالجون شيئا يمت إلى مصر بصلة . . والباحث الأمين لابد أن يلتزم به ، ولا بد أن ينزل على ما ينزله الموضوع ، لا على ما يجب هو ويختار .

ومن الخطأ الاستشهاد بدول أخرى ، أو القول إن الدين لم يعد يؤدى اليوم دوره القديم ، أو القياس على الدول الغربية ، أو اقتباس النموذج الحضارى الأوروبى فى العصر الحديث ، لأن الحضارات ليست فروضا رياضية ، ولا هى قوالب جامدة ، يمكن نقلها ، أو لبسها كما تلبس الثياب ، ولا يمكن تطبيقها دون نظر إلى الظروف الخاصة بكل أمة . . إن الأديان لم تقم فى أوروبا بالدور الضخم الذى قامت به فى الشرق ، لأن الله تعالى لم يرسل رسلا « من أولى العزم » إلى أوروبا ، وقد قام الفلاسفة والمفكرون بالدور الذى يقوم به الأنبياء ، وأبدعوا لأوروبا أطارا حضاريا ، وأبدعوا فكرة الواجب والقانون . . . إلى آخر القيم الحضارية الخاصة بالمجتمع الأوروبى وعندما نقلت أوروبا المسيحية ، فإنها جعلتها مسيحية أوروبية . . وقد تكون القبطية المصرية أقرب إلى الإسلام منها إلى المسيحية الأوروبية ، لأن القبطية عايشت ، وتأثرت بدين

---

= المصرية هو . . صفحة المرأة لمن ؟ هل هى لسيدات صاحبات إجماعات ، وندوات ، وتقايلات ، وموديلات ، وآراء عن المرأة المصرية هى بعبدة عنها ؟

يأيتها الفاضل ، انى سيدة ومعلمة وأيضاً لى ثقافى المحدودة فى مجال الأدب والفن وخصوصا التشكيل منه ، والشعر إلى جانب العلم ، وهو دراسى الأساسية والدين وهو الأساس وفرق كل ثقافة ، وفى سكنى فى مصر ، وحولى جيران وخصوصا السيدات ، أمهات ، ومنين عاملات ، أفكارهن بسيطة ، والحمد لله ليس هناك أى عقل فى حياهن ، ولا أعلم إلى من توجه صفحة المرأة الخطاب ، إجماعات نادى روتارى ، لا أعلم ماذا يعنى هذا النادى ، وندوات عن المرأة والطفل ، لمن تصل ؟ أعقد أنها ، لا تصل سوى لكاتبها ، أو صاحبات الندوة .

انى أحب أن أجد على صفحة المرأة ، ما يعنى حقا ، دراسة مصرية ، لبعض المقالات ، مثلا ، تقول للطاهم بين الزوجين ، يقول الدكتور فلان ( أجبى بالطبع ) كذا وكذا ، مالى وهو ، أريد رأى الدين ، لأنه ماثله نفسى ، ونفس كل امرأة وكل رجل .

انى لست بمن تسموهم الجماعات الدينية ولا تنظيمات ، ولكنى تويت على الحلال والحرام ، فلا أريد اصمحين كبرت وتزوجت ، عن رأى مسعود ، أريد رأيا محليا ، واستجد هذا رأى نابعا من الحلال والحرام ، واتحدى أى انسان فى هذا الخ .  
أميرة شوق عبده .

الأهرام - بريد الأهرام تحت عنوان - «كولوا والصين» ص ٩ يوم ١١/١٢/١٩٩٣ . .

إلهى هو الإسلام ، ولكن المسيحية الأوروبية ارتبطت بالوثنية الأوروبية وعاشت رموزها من اليونان والرومان والإسلام يحنو على المسيحية أكثر مما تحنو الحضارة الأوروبية عليها ، وإذا كان الإسلام يمثل العدل ، الذى قد يكون بعيدا شيئا ما عن « الحب » الذى يمثل المسيحية ، فإن أوروبا تمثل القوة ، البعيدة عن العدل والحب معا !

ومع أن أوروبا الحديثة وحضارتها لم تعد تستلهم قيمتها ومثلها من الكنيسة أو تقيم أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية على مقررات الكنيسة ، فإنها لاتزال تحتفظ بالميثولوجيا اليونانية ، التى تمثل الديانة الحقيقية لأوروبا ورمز حضارتها ، وتجد مفردات هذه الميثولوجيا فى علم النفس ، وعلم الفلك والرياضة . . . إلخ . . .

كما يعود المسرح الحديث إلى التراجيديات اليونانية ولاتزال تمثل مسرحيات اسخيلوس . ويوريديس وأرستوفان ، أما سير أبطال اليونان والرومان فإنها هى التى تزود رجال الدولة والتاريخ بالأمثلة والشواهد ، فأوروبا لم تنكر لماضيها ولكنها احتفظت به ، ودجته فى حياتها ؛ فما من أمة لا يكون لها ماض ؛ وما من أمة يمكن أن تنكر لماضيها لأن مثل هذه الأمة تكون كشجرة ليس لها فى الأرض جذور متغلغلة تمسكها . . .

ومن الخطأ أيضاً الاتقياء على الإسلام أو الادعاء بأن الإسلام لاعلاقة له بالحكم والاقتصاد ، لأن آيات القرآن الكريم صادرة وصریحة ، فهى تفرض الزكاة وتجعلها قرينة للصلاة ، وهى توجب الشورى وهى تندد أشنع تنديد بالظلم والظلمان وهى تؤذن بحرب من الله ورسوله لمن يمارسون الربا . . فأين يذهب الذين يدعون أن الإسلام « علاقة بين الإنسان وربه » من هذه الآيات ، وهل يعد نظاما يقوم على ديكتاتورية البلوريتاريا ، أو طغمة الجيش أو يقوم اقتصاده على الربا . . أو لاتؤخذ الزكاة ممن تجب عليهم لتدفع لمن تحقق لهم . . هل يعد هذا النظام اسلاميا ، أو حتى متجاوبا مع الإسلام ؟ !

فحيثما اتجه الباحث الامين نحو مصر . . أو نحو الإسلام . . فانه يجد الدين أساسا للقيم ، ومحورا للعلاقات ، ومصدرا للضمير .

وسنجد - فيما سيلي - أن هذا لا يمثل الحقيقة الموضوعية التى صاحبت مصر والإسلام على مدى العصور ، فحسب ، بل إنه هو أيضاً أمثل الحقائق . . والله الحمد والمنة .

## الذات :

نتقل الآن إلى الطرف الثاني للإشكالية وهو « الذات » التي يمثلها أدياء التنوير ،  
والعوامل والملايسات التي تحكمت فيهم بحيث صرفتهم - وهم مصريون أولا - عن  
الاتجاه الذي يتفق مع الطبيعة الايمانية الإسلامية لمصر ، وحولتهم من دعاة ، إلى أدياء !  
والحقيقة أن هذه العوامل عديدة ، وقوية ، ونحن الذين ننتقدهم ، نعترف بأن الخيار  
لديهم كان محدودا - وقد كانوا يحكم هذه الملايسات - مسيرين ، كان التيار جارفا ،  
وجرفهم في طريقه !

ومن العوامل التي انخرقت بكثير من أدياء التنوير :

### (أ) الثقافة :

يعد التكوين الثقافي لفرد ما من أبرز العوامل التي تحدد الاتجاهات الفكرية - سياسية  
أو اجتماعية - لهذا الفرد ، وقد تعرضت الثقافة في مصر لمؤثرات وتيارات وقوى  
عديدة ، جعلتها تأخذ صياغات وصورا قد لا تكون المثل .

بصفة عامة ، نجد أعرق المعاهد العلمية - الأزهر - وثقافته الإسلامية السلفية ، وقد  
كانت دراساته تلك هي التي أوجدت لنا « فقهاء التقليد » واتجاهاتهم التي انتقدناها  
في القسم الأول من الكتاب .

وفي مقابل هذا نجد المؤسسة الثقافية المدنية التي تضم المدارس الابتدائية حتى  
الجامعات ، وما بينها ، وقد بدأت هذه المؤسسة مع محمد علي ، ولكنها تبلورت بصفة  
رئيسية في فترة الاحتلال البريطاني ، ووضع القس الإنجليزي دانلوب - الذي كان  
مستشار وزارة المعارف - سياستها ، ومع أنها تغيرت إلى حد كبير ، فلا تزال بعض  
القسمات القديمة باقية ، مثل المركزية البيروقراطية ، وعزل التلميذ عن بيئته  
( الحارة - القرية ) والفصل بين العلم والعمل ، وعدم الاحتفال باللغة العربية  
والدين ، وهي قسمات كان لها آثار مدمرة لمقومات الشخصية .

بالإضافة ، فقد أخذت هذه الدراسات أحد اتجاهين : فهي إما إنجليزية أو فرنسية ،  
فالهندسة ، والعلوم والطب عادة ما تكون بالإنجليزية ، والآداب والفنون والحمامة عادة  
ما تكون بالفرنسية .

ونحن من دعاة إحكام اللغات الأجنبية والاطلاع على الثقافات الأوروبية ، ولكن هناك فرقا بين أن نحكمها لحساب ثقافتنا الخاصة ، وبين أن نحكمها على حساب ثقافتنا الخاصة . والمفروض أن نلم بكل الثقافات والمعارف ، لأنها جزء من الحكمة التي هي هدفنا والتي تدخل في مكونات الإسلام ، والذي حدث هو أن العناية بالثقافة الأجنبية مع استبعاد الدين واللغة ، وعزل الطالب عن بيئته ، جعل تأثير الثقافة الإنجليزية أو الفرنسية طاغيا .

وقد يصور هذا الدكتور زكي نجيب محمود .

« لم تكن قد اتبحت لكاتب هذه الصفحات في معظم أعوامه فرصة طويلة الأمد تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربي على مهل ، فهو واحد من الوف المثقفين العرب الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبي - قديم أو جديد - حتى سبقت إلى خواطرهم فلتون بان ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فخر سواه ؛ لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه ، ولبتت هذه الحال على مكاتب هذه الصفحات أعواماً بعد أعوام : الفكر الأوروبي دراسته وهو طالب ، والفكر الأوروبي تدريسه وهو أستاذ ، والفكر الأوروبي مسلاته كلما أراد التسلية .

استيقظ صاحبنا كاتب هذه الصفحات - بعد أن فات أوانه أو أوشك - فإذا هو يحس الحيرة توارقه فطلق في بضعة الأعوام الأخيرة التي قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية ، يزدرد فيه تراث آياه ازيراد العجلان كأنه سائح مر بمدينة باريس وليس في يديه إلا يومان ولا بد له من خلالها أن يريح ضميره بزيارة اللوفر . فراح يدعو من غرفة إلى غرفة ، يلقي بالنظرات العجلى هنا وهناك ، ليكتمل له شيء من الزاد قبل الرحيل<sup>(١)</sup> .

إن هذه الكلمات تُجمل المأساه كاملة ، وتبرز جريرة الثقافة الأوروبية على شخصية المثقف المصري ، ويزيد من أهمية هذه الفقرة أنها تشمل « ألوف المثقفين العرب » . فهي ليست حالة خاصة كما قد يبرهن على عمق صدقها أن الكاتب وهو يندب حظله لتخلفه في التعرف على الأدب القومي والتراث العربي والإسلامي ، ويندد بغلبة الفكر الأوروبي لم يجد لتمثيل ذلك إلا مثلاً يمت إلى أوروبا نفسها بصلة .

وأكثر دلالة ومأساوية من هذا ما ذكره الدكتور لويس عوض عن نفسه أنه : « ظل ما بين العشرين إلى الثانية والثلاثين لا يقرأ حرفاً واحداً بالعربية إلا عناوين الصحف السيارة وبعض المقالات الشاردة التي ألزمتها الضرورة السياسية بقراءتها . . . فلا عجب إذا قال : إنه لولا الميلاد « لكان ولداً شرعياً لليونان والرومان والقرون الوسطى والحضارة الحديثة » .

(١) تجديد الفكر العربي الطبعة الخامسة ص ٥٥ .



ولنتصور مدى المأساة عندما يصبح صاحب هذا التأسيس العربي الهزيل مستشارا  
لاكبر جريدة يومية عربية ( الاهرام ! ) ، ويعد من الذين يؤصلون للفكر المصرى !  
وهذا الاستغراق فى الفكر الاوروبى كان فى أصل أخطاء لويس عوض وأشهرها  
بالطبع بتلك الخطيئة البلقاء عندما جعل من أحد العملاء والخونة والذين حاربوا جنبا  
إلى جنب الجيش الفرنسى فى الفترة الأخيرة للحملة الفرنسية وهو « الجنرال يعقوب »  
صاحب أول مشروع قومى لمصر !

ولكن الأمر لا يقف عند تحطيم المقومات الوطنية والمصرية . . .

لقد قرأنا ما لم نكن نتصور وقوعه . . .

ففى قسم اللغة الانجليزية بكلية آداب الجامعة المصرية كان يدرس فى الثلاثينات  
كتابان أحدهما « جان دارك » لبرنارد شو ، والثانى « محاورات من الخيال » لكاتب  
انجليزى يدعى سافيج لاندور . . .

فى مسرحية «جان دارك» جاء فى سياق الكلام على لسان «كوشون» وهو أحد  
الأساقفة أن جان دارك كانت تبعث بكتبتها إلى ملك الإنجليز لكى يخضع لأمر الله  
الذى أوحى إليها فيعود إلى جزيرته وإلا بآء بغضب من الله . . ثم يقول مانصه : «ألفاعلموا  
أن إرسال هذه الكتب عادة جرى عليها قديما محمد عدو المسيح» . . ثم مضى يصف  
أمر هذه الفرنسية المتنبئة فقال : « ويمثل هذا قام عربى جمّال فطارد المسيح وكنيسة  
المسيح حتى طردهما جميعا من أورشليم ثم مضى يضرب فى الارض فيبعث فيها الفزع  
والخراب حتى إذا بلغ مغربها قام جبل الأبواب (وهما جبال البرانس) دونه ، وقامت  
رحمة الله وحيل بين فرنسا وبينه فنجت من الله ، فمأذا صنع الجمّال العربى فى  
بداية أمره ، أكثر مما صنعت هذه الفتاة ، جاءه الوحي من جبريل وجاءها من القديسة  
كاترين والقديسة مرجريت والمبارك ميخائيل وأذن فى الناس بأنه رسول الله . . وكتب  
الكتب إلى الملوك باسم الله» . . ثم يقول بعد قليل : «إنا والحمد لله الآن بخير ، فليس  
فى الدنيا إلا محمد ومخدوعه ، وإلا الفتاة جان ومخدوعها . . ولكن كيف يكون الحال  
إذا خالت كل فتاة أنها جان دارك وخال كل رجل أنه محمد ؟ » !!

وجاء فى الكتاب الثانى « محاورات من الخيال » فصل كامل بعنوان « محمد  
وسرجيوس » يستغرق من ص ١٧٨ حتى ٢٠١ وهى مكاملة توهمها المؤلف بين

الرسول ﷺ وهذا الراهب سرجيوس ، وهى فرية قديمة روج لها المبشرون ونشروها ، وأعادها من قبل كفار مكة وأشار إليها القرآن الكريم ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ !! (الحل ١٠٣) .

وهذه الإشارة على محاولتها النيل من الرسول الكريم لانقاس بما جاء فى الكتاب بعنوان «الكونت جلايشيم ، والكونتيسة ، وولداهما» وحوار ولهم ابن الكونت جلايشيم مع أخته أنايلا . . . قال ولهم : «لست طفلا حتى أتوهم أن يفر فارس مسيحي من وجه متمرد تركي (أى مسلم) فى المعركة ولكن النصارى قد يؤخذون أحيانا بحيلهم وبكلبه محمد» . . . فتقول أخته أنايلا : «وأنا وإن لم يكن بينى وبينك سوى سنة واحدة فليس يبلغ بى الحمق أن أصدق بوجود كلب يقال له محمد ، وإذا صح أنه موجود فعندنا كلاب خير منه وأكثر أمانة وأشد قوة» . . . فيقول أخوها مخاطبا إياها : «لا أكاد أملك نفسى من الضحك إذا ما ذكرت ما يطوف فى رؤوس الفتيات من خيالات محمد . . . فنحن نعلم أن محمد ما هو الا كلب له ثلاثة ذبول كذبول الخيل . . . » !!

إلى هذا الدرك . . .

فما الذى يجعل أساتذة قسم اللغة الانجليزية يقررون «جاء دارك» ما دامت تتضمن إشارة تمس مشاعر الطلبة المسلمين ؟ ومسرحيات شو عديدة ؟ وما الداعى لتقرير كتاب من تأليف أحد النكرات يتضمن هذا الاسفاف أو القذف ؟ وهل بعد هذا نستبعد أن يكون اساتذة هذا القسم من الجواسيس المحترفين ذوى العلاقة الوثيقة بدوائر المخابرات أو هيئات التبشير ، كما أكد ذلك مؤلف «أباطيل وأسمار»<sup>(١)</sup> .

فأى وعى وطنى أو موضوعى يكون قد ترمى على هذه السموم ؟ وكم تكون نسبة المصرية أو الوطنية فيه ؟ إنه لا يعد مصريا الا بحكم الميلاد . . . أما الثقافة ، والفكر ، والاتجاهات ، والميول ، والولاء . . . فهى أوروبية خالصة ، وهو ما أعترف به على نفسه لويس عوض وزكى نجيب محمود وغيرهما . . .

\*\*\*

(١) أنظر ماجاء عن هذين الكتابين ، وهوية أساتذة قسم اللغة الانجليزية بكلية آداب جامعة القاهرة فى كتاب «أباطيل وأسمار» للاستاذ محمد شاکر ، ص ٤٧٤ - ٤٧٦ .

وتصل مأساة الخلط الثقافي وتزييف المعايير قمتها في حالة الدكتور حسن حنفي .  
فنحن نرى أستاذاً ، كاتباً ، مؤلفاً ، جماً النشاط ، غزير الإنتاج ، عظيم الطموح ،  
واسع المعرفة ، لا يتقصه الذكاء في استخلاص النتائج ، ولا المهارة في عرضها ، وقد  
ظل يلقى محاضراته على طلبة الجامعة أربعين عاماً واقعد كرسى الفلسفة الإسلامية . .  
وهو بحكم هذا أجدر من يمكن أن يتعمق في فهم الإسلام حتى يصل إلى لبه  
وجوهره ، ومن ثم يستطيع أن يقوم بحركة تجديد علمية ، وفكرية ينفذ بها غبار الزمان  
وغشاوات التقليد ، كان يمكن أن يضع في أصول الفقه «رسالة» جديدة تماثل «رسالة»  
الشافعي وقد تفوقها بحكم غزارة الثقافة وما توصل إليه العصر الحديث من إمكانيات  
لم تتوفر للشافعي . . .

ولكنه بدلاً من أن يحدد غايته ليصل إليها أسلم نفسه للأمواج ، وأخذ يسبح وسط  
تيارات المحيط معتقداً أنه يمكن أن يخضعها ، ويوحد بينها ، فتجاذبته ، وأخذت تدور  
به حتى فقد توازنه ، ولم يعد يعرف أين هو . . .

وخلال فترة عدم التوازن جاء بتخليط ومغالطات لا يأت بها نصف مثقف ، دع  
عنك استاذ الفلسفة العتيد .

خسارة . . . وأى خسارة . . .

إن الدكتور حسن حنفي ينقد العلمانية ، والاشتراكية وفي الوقت نفسه يؤيدهما !!  
ويتحدث أحياناً بلغة الفلاسفة والمفكرين ، بينما ينساق أحياناً أخرى وراء القطيع وهو  
صاحب مشروع ثقافي ضخم<sup>(١)</sup> وهو يعارض المستشرقين ويستصور

(١) أشار الى هذا المشروع الثقافي أستاذ لبناني فقال : « . . . فالفكر المصري هو صاحب مشروع ثقافي  
ضخم وشامل عنوانه العام «التراث والتجديد» وينطوي هذا المشروع على ثلاثة أقسام لكل قسم منها مقدمة  
أو بيان نظري فضلاً عن الأجزاء والفصول أو الأبواب : القسم الأول هو الموقف من التراث القديم ويتألف  
من بيان نظري وسبعة أجزاء صدر منها حتى الآن البيان والجزء الأول في كتاب ضخم يتألف بدوره من  
خمسة أجزاء تقع في الاف صفحات عنوانه «من العقيدة الى الثورة» ، أما القسم الثاني فيتألف من بيان  
نظري وثلاثة أجزاء وهو يتعلق بالموقف من التراث الغربي ، وقد صدر الآن بيانه النظري أما القسم الثالث  
فموضوعه الموقف من الواقع أو «نظرية التفسير» وهو يتعلق بتمثل الواقع المباشر واستيعاب الحاضر بالاستناد  
إلى النص والوحي وتنفيذه مؤجل إلى حين تحقيق الأجزاء السبعة من القسم الأول والأجزاء الثلاثة من القسم  
الثاني» الأستاذ على حرب في مجلة «منبر الحوار» العدد ٢٩ صيف ٩٣ صفحات ٨٥ - ١١٣ «حسن حنفي  
مستغرباً» .

أنه : «أخذ كل فلاسفة الغرب وأضمهم في طاوور عرض وأكون أنا قائدهم ، أوجههم وأحركهم وأستعرضهم في حركات وتشكيلات وتحيات كيفما أشاء ، وطبقاً لاستراتيجيتي وخططي وأهدافي ، بل آخذ طواير الأعداء بعد حصارهم ، وأضعهم جميعاً في الأسر وأضع كل مجموعة منهم في زنزانة وأغلق عليهم أبواب السجن ، وبالتالي نضيق من نفوسنا رهبة الأعداء ٥٠٠ ، فهذه القطعة تنم عن تأثر الكاتب «بالناصرية» والعسكرية والأعتقالات والزنزانات كطريقة لإزالة الرهبة . . هذا منطق عساكر ، وليس منطق فلاسفة ، ولماذا يفعل هذا كله ، والفكر الأوروبي - وإن كان عنصرياً بالفعل - لا يؤمن إلا بأوروبا ، إلا أنه مع هذا فيه الحسن الطيب ، كما فيه السيء الخبيث والدكتور حسن حنفي شأنه شأن كل مفكرينا المحدثين عالة على الفكر الأوروبي ، أو ضيف على المائدة الأوروبية ؛ فلا داعي للعقوق ومن «البارانويا» أن يتصور أنه يجرحهم من آذانهم في حين أنه مخزوم إليهم من أنفه .

وكما لاحظ الأستاذ على حرب في مقاله المسهب في مجلة «منبر الحوار» عن «حسن حنفي مستعرباً» فإنه يعلن في مقدمة : «من العقيدة الى الثورة» أنه لا يكتب كتابه باسم الله - كما فعل القدامى - بل يكتبه باسم الأرض والشعب والأمة والنهضة !! وفيها يصرح بأن التقدم هو جوهر الوعي الإنساني وحركة التطور ، وأن الإنسان قادر بعقله المستقل وإرادته الحرة أن يواصل حركة التاريخ وأن يستمر باجتهاده الخاص حتى يرث النبوة والأنبياء ، وكما لاحظ الكاتب «ولا يخفى أن مثل هذا الكلام يصدر عن مفكر يمتلك وعياً بالتاريخ وينتمى الى حضارة طردية ، «إنه كلام يقف وراء خطاب الأنوار الأوروبي وبه يخرج حسن حنفي على نظام الفكر الذي يتركز الاهتمام فيه على قراءة الوحي وتأويل النص ، فيستعد المفاهيم المركزية العاملة في الخطاب الإسلامي كاللله والوحي والنبوة والنص والشريعة والعقيدة لصالح مفاهيم حديثه كالوحي والتطور والتقدم والتاريخ والثورة والجماهير» (ص ١٠٥) .

ولاجدال أن كاتباً يقول إنه لا يكتب كتابه باسم الله . . إنما يدل على غرور لا يليق بمفكر ، دع عنك ، عن أستاذ للفلسفة الإسلامية ( أي إسلام ١١؟ ) فإذا لم يكتب باسم الله ، فإنه سيكتب باسم عبد الناصر أو ماركس ، أو كانط أو هيجل . . إنخ وقد يتردى كما حدث بالفعل فينساق وراء القطيع ويكرر كالبغياء . . وكان له عن هذا مندوحة . . . ولو فكر لوجد أن الرسول العظيم سبقه وأعلن أن العلم ميراث الأنبياء ، وأن العلماء ورثته . . وأن الفكر الإسلامي لا يدور كما يذهب غالبية الناس ، وكما

ذهب الكاتب الذى نقد حسن حنفى واستشهدنا به حول «الوحى وتأويل النص» إن الفكر الإسلامى يقوم على العقل . وقد استدل على وجود الله بالعقل كما توضح ذلك الآيات العديدة للقرآن ، أما الوحى فدوره أن يحسم شأفه ما يأتى به القصور الإنسانى بالنسبة لذات الله تعالى . وما يغلب على الطبعة البشرية من ضعف عند تقييم الخير والشر .

النهاية ! لقد اشترى الدكتور حسن حنفى الذى هو أدنى الذى هو خير ، ويبدو أنه قبل أن يكون من الذين إذا ذكر الله وحده اشمازت قلوبهم وإذا ذكر من هو دونه إذا هم يستبشرون ! ولهذا فلا عجب إذا وجدناه بسف . . فيعرض لنا فى ديماجوجية فجة مآثر الناصرية الشعبية !! ويذهب إلى أن «اليسار الإسلامى هو الناصرية الشعبية» وأن الاشتراكية هى المضمون الوحيد لشعار قرآنية قرآنية . . ثم لا يكتفى بهذا فيقول أن اليسار الدينى هو المصعب النهائى لحركات الإصلاح الدينى ولجماعة الأخوان المسلمين ، وللتيارات الماركسية وثورة ٢٣ يوليو وكان من الطبيعى ( ١ ) أن يصب فى النهاية فى «التجمع الوطنى التقدمى الوحى» .

وهو خلط يماثل خلطة بالنسبة لعقيدة الله تعالى والوحى مما جعل «التجمع الوطنى التقدمى الوحى» يرفضه ، كما أبعد نفسه بالطبع عن أى فصيل إسلامى عندما عالج موضوع الله والوحى كمجرد تراث لأن الشرط الرئيس لأى فكر إسلامى هو الإيمان بالله والرسول ، وأخيراً فإنه لم يصب جانب الحقيقة إذا كان يتوخاها . .

ومع أن الدكتور حسن حنفى قد قطع الجسور بكتابات ومواقفه ، فإننا لم نفقد الأمل فى أن يتوب ، ويتوب ، فالله تعالى أكبر منا جميعاً ، والتوبة أعظم من الذنوب جميعاً ، والحق أحق أن يتبع ، ولا يعيب أحد أن يخطئ فكل بنى آدم خطاء (كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه) وما يعيب الإنسان هو الاصرار على الخطأ ، وأن تأخذ العزة بالإثم . ونحن «نستخسر» الدكتور حسن حنفى ونأسى له ونأمل أن يقوم بالمهمة العظيمة والجديرة به ، مهمة التجديد الإسلامى الذى يتبع عن الإيمان بجوهر الإسلام وتؤدى إليه الثقافة الواسعة ، والفكر العميق . فما هى الماركسية بالنسبة للأديان ؟ إنها رغيث عيش حاف أمام مائدة حافلة مترعة ؛ فيها القيم الموضوعية ؛ فيها المثل العليا ؛ وفيها الرسل والأنبياء ؛ وفيها العالم الآخر . وهل الناصرية العجفاء الملقفة إلا كسرة خبز عفنة ؟ فكيف يهدر مفكر يتعامل مع القيم ويشارك القمم فكره وينزل الى مستوى التزييف الديماجوجى !!؟

وإذا كان يظن أنه يصل إلى الحقيقة بتجاهل الله تعالى - ناهيك بتحديه - فليحذر أن يوقف نفسه موقف الشيطان ، أو أن يضطر كأوديب - لأن يفتأ عينيه بيديه . .

\*\*\*

بصرف النظر عن هذه المؤثرات على الثقافة التي كان لها انعكاساتها على الشخصية ، فهناك جانب آخر هام ، هو أن هناك أنماطا عديدة من الثقافة « الشائعة » أو التي تقف وراءها جهات معينة ، وهناك التأثير بظواهر القول دون التغلغل في الاعماق . . إن الثقافة العامة السطحية قد تكون أشد خطرا من الامية . . وهذه الثقافات المعلبة ، المسطحة ، التي تصدرها الينا اجهزة الاعلام في الدول الرأسمالية والاشتراكية على سواء ، يغلب أن تضلل الاغلبية التي تقرأ دون أن تكلف خاطرها لو تستطيع التعمق فيما يعرض عليها . إنها تعرض الالهة الزائفة بكل الرواء والبهاء ، والاغراء والاعواء بحيث لا يستطيع الفرد العادى أمامها الا الاستسلام . . وكل الوسائل : الكتاب ، الصحيفة ، الراديو ، التلفزيون - تقدم غذاءها الثقافى عن طريق « مفرد » يكون الإنسان فيه « متلقى » أو « متفرج » لا يستطيع القيام بدور مشارك ، ولا يدعه السياق الحثيث لها ، وأنها تظهر يوما بعد يوم أو ساعة بعد ساعة ، ليفكر أو ينقد . ونتيجة لهذا وجدت الحضارة الاوربية عبدة يؤمنون بكل شىء فيها ، ولايحاولون - ولايستطيعون - ولا يجدون وقتا للمحيص ، والذين نقدوا الرأسمالية والديمقراطية الحزبية وجاعوا بالدليل الاشتراكى . . وقعوا أنفسهم ضحايا الوثن الذى أقاموه ، فلم يروا الثغرات الكبرى فيه . . وأنظر إلى الملايين الذين مجدوا جرائم الرأسمالية ، واستغلها العمال ، ونهبوا ثروات أفريقيا وآسيا . . وإلى الملايين الذين مجدوا لينين وستالين رغم أن جرائمهما قد تفوق جرائم أتيليا وجنكيزخان وهولاكو . . وإذا ارادوا الفرار من ستالين قصروا ولاءهم على لينين ، وهو الذى وضع بذرة الظلم بكل ويلاته ، أو لاذوا بتروتسكى ، وتروتسكى لايفضل ستالين ، فهو الذى أباد بالمدافع بحارة كرونستاد الابطال أول من أيد ثورة أكتوبر ، وهو الذى أهدع نظام الرهائن ، وهو الذى اراد « عسكرة » النقابات وهو مؤلف « دفاع عن الازهاب » .

أنظر إلى مدى التزييف الذى وقع فيه الملايين من الناس حين عبدوا هذه الالهة الزائفة التي عرضت عليهم في مجلدات الفها الذين وضعتهم الاقدار في معابدها ، وأصبحوا سدنتها .

لقد رأينا شيئا كهذا عندما ظهر دجاجلة الناصرية ، والقومية العربية . . . أُلخ وضللو أجيالاً في مصر وفي الدول العربية .

## (ب) الانتماء السياسى :

عندما قام انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كانت شرائح الفئات العمرية للمجتمع المصرى شيئا كهذا :

١ أطفال ( من ١ - ١٠ ) مراهقون وشبان ( من ١٠ - ٢٠ ) رجال ونساء ( من ٢٠ - ٥٠ ) شيوخ ( من ٥٠ فصاعدا ) .

الفتتان الأوليتان : ولدا وشبًا فى غيابات جب الناصرية ، ولقنتنا كل زيوف وأكاذيب العهد ، ولما لم يكن لهما معرفة بما قبل الناصرية ، فانهما ابتلعا الطعم بسهولة ، وكان على الكثير منهم أن يجرى لنفسه « غسيل مخ » قبل أن يتحرر من أساطير الناصرية وأهتها الزائفة ، ولكن هذا لم يكن ميسراً خاصة وأن الجرح رُم على فساد ، وأن أخطاء العهد غُلِّت أو هُوِّت أو تُكْتَم عليها ( كما هو الحال فى قضية انحرافات صلاح نصر ، وهزيمة ١٩٦٧ ) بدلا من أن تُعرى وتحاكم . ولهذا نجد أن معظم هؤلاء لا يزال مُضَلَّلًا ومُتَمَسِّكًا بنسب متفاوتة بالناصرية . فمن شب على شىء شاب عليه كما يقولون !

وهم اليوم فى خمسينات العمر ، وورثة العهد ، وجمهرة عضوية الحزب الوطنى الديمقراطى الذى ورث بدوره «الاتحاد الاشتراكى» !

المجموعة الثالثة الهامة ( من ٢٠ - ٥٠ ) وجدت نفسها فى معسكر من معسكرات ثلاث . . .

المعسكر الأول : المعارضة لمخالفة الانقلاب ، أو مناقضته لإيمانهم ، أو مصالحهم . . ويدخل فى الأولين الإخوان المسلمون والشيوعيون ، كما يدخل فى الآخرين الاقطاعيون والرأسماليون والحزبيون .

وعمل الانقلاب على تصفية هؤلاء . . فأعد المعتقلات الرهيبة . . واستقدم الخبراء الالمان فى التعذيب والتزييف . . وفى هذه المعتقلات مورست أقسى وأقذر طرق ووسائل التعذيب . . ولكن الطبيعة البشرية ، والقوة الإيمانية كانت - فى كثير من الحالات - أقوى من كل فنون التعذيب ولهذا لم تؤد المعتقلات إلى شل دعوة الإخوان ، - بل لقد شب فى داخل المعتقلات جيل « الرافضة الجديدة » الذى سيقوم بتكفير العهد ، ولا يزال الاخوان ، وهذه الفئات الإسلامية الشاردة ، تمثل قاعدة المعارضة الشعبية للحكم وللعهد .

وشارك الشيوعيون الأخوان فترة في الاضطهاد والتعذيب ، ولكن عبد الناصر عندما وضع قناع الاشتراكية على السترة العسكرية ، أجرى مساومة مع معظم الشيوعيين ، غفروا له بها كل ما أنزله بهم من هوان ، في مقابل مساعدته بخيراتهم الفنية والتنظيمية ، وأغلب الظن أن أحدا من الفريقين لم يكن مخلصا ، لأنهما معا جُبلًا من طينة التآمر ، ولكن الصفقة كانت مجزية ، وقد مكنت الشيوعيين من أن يصلوا الى أعلى مراكز التوجيه والاعلام . . . . أُلخ واكتسب منهم العهد تلك الغلالة الاشتراكية والشعارات . . . أُلخ .

على أن التآمر لم يكن هو الذى دفع بكثير من الشيوعيين لوضع يدهم في يد عبد الناصر ، لأننا لو أنعمنا النظر لوجدنا أن اللينينية هي مدرسة الشمولية في العالم ، وأن على يدى لينين ، وفي مدرسته ، تخرج هتلر وموسولنى وإذا كانا قد غيرا الاتجاه ، فانهما استخدما الأسلوب اللينينى . . ولهذا فان الشيوعيين المصريين لم يتحولوا كثيرا ، ولم يخونوا طبيعة اللينينية .

ومن هذه اللحظة ، وقد هيمن اليساريون على أجهزة الاعلام ، والصحافة وتشبثوا بها ، وأيدتهم النظم الحاكمة على اختلافها ، لأن لديهم المهارات اللازمة ، ولأنهم لم يجدوا حرجا من ناحية المبادئ - (إذا وجدت) في تأييد العهد ، باستثناء الفترة الساداتية التي طرد فيها السادات الخبراء الروس ، وتمخلص من النفود السوفيتى . . الأمر الذى لم يغفره الشيوعيون المصريون أبدا ، ولم يشفع عندهم انتصار رمضان ، ورأوا أن الحقبة الساداتية كلها - بما فيها انتصار رمضان - ردة عن الناصرية !

أما أصحاب الأعمال ورجال الاقتصاد ، فقد جردهم النظام من ثروتهم وبذلك أفقدهم قوتهم ، على أنه ظهر ان الكثيرين منهم تحالفوا مع ضباط النظام وما أن بدأ الانفتاح حتى عادوا مرة أخرى للظهور !

أما أحزاب ما قبل ١٩٥٢ فلم يكن عسيرا على عبد الناصر حلها ، لأنها كانت هشة ، باستثناء حزب الوفد الأبن البكر لثورة ١٩١٩ ، والذى استطاع أن يعود (بحكم القضاء) في الفترة الساداتية .

وسمح السادات بظهور ثلاثة أحزاب أريد بأحدها (حزب العمل) أن يكون معارضا مستأنسا ، ولكن رئيس هذا الحزب - وهو محارب متمرس من أيام مصر الفتاة ، والنائب الاشتراكى الذى طالب بتحديد الملكية الزراعية أيام فاروق - لم يستسلم . . ومع التطور أصبح هذا الحزب هو أقوى أحزاب المعارضة .



**المعسكر الثاني : السلبية** وقد ضم هذا المعسكر جمهرة الليبراليين من رجال المهنة من الأطباء والمهندسين إلخ . . . والتجار والموظفين . . . ومع أن معظم هؤلاء لم يسيغوا النظام متأثرين بنزعتهم الليبرالية ، فإنهم لم يستطيعوا شيئاً ، ولم يكن أمامهم إلا السلبية .

ولما كانت السلبية - بالنسبة لنظام جديد - هي نوع من المقاطعة ، فقد تنبه النظام وعمد إلى سوقهم سوقاً إلى عضوية الاتحاد الاشتراكي المفتوحة ، فانساقوا دون حماس ، ودون معارضة ، ودفَعوا «الخمسة قروش» التي كانت بمثابة اشتراك العضوية .

وبهذه الطريقة أصبح الاتحاد الاشتراكي يضم ستة ملايين ، وعمد بعضهم إلى نقد العهد في المقاهي والنوادي ، ولكن ظهر أن للعهد جواسيسه المكلفين بنقل النكات والإشاعات ، فأوقفوا هذا ، وتحولوا إلى هوايات أخرى .

وأثرت سيكولوجية السلبية على المجتمع المصري وأصابعه بما يشبه الشلل ثم قننت هذا الموقف القوانين المقيدة للحرية التي حالت دون أن يمارس الناس ما يؤمنون به وجعلت السلبية أمراً لا بديل له<sup>(١)</sup> . . .

### **المعسكر الثالث : التأييد . وهذا المعسكر يضم فئتين ؛**

**الأولى فئة : المخدوعين ، وهم مجموعة كبيرة تأثرت بالشعارات والوعود والخطابات الحماسية والمشروع القومي والمشروع الحضاري والقضاء على الاستعمار . . . إلخ ولهذا أيدت العهد !**

ويجب أن نلاحظ هنا أن أجهزة الإعلام وصلت من الهيمنة درجة لم يُسمع فيها كلمة واحدة عن التعذيب المدوي الذي ضجعت منه السموات والأرض . في الوقت الذي رفعت فيه الآمال والأحلام وإمكان تكوين «الإمبراطورية العربية» من الخليج إلى المحيط إلى آخر هذا «العهر» الذي انطلق عليهم ، فأمنوا بالعهد وأيدوه حتى جاءت قارعة ١٩٦٧ فأيقظتهم يقظة مروعة وهوت بهم من السموات إلى الدرك الأسفل ، وكشفت لهم عن العصاة التي كانت تحكم مصر ، والأنذال الذين كانوا يسيطرون على المعتقلات والخباياير والعمدة وشيخ الغفر !

على أن حقيقة ١٩٦٧ والعصاة والخباياير لم تعرف تماماً طوال الحقبة الناصرية ،

---

(١) لقد حاولت بعض النقابات المهنية كالأطباء والصحفيين المقاومة فتحلها النظام وشتت قادتها .

وإنما عرف عنها ماسمح السادات بتسريه عندما ولى الأمر ، وهذا هو السبب في أن معات الألوف من هؤلاء المخدوعين تمسكوا بعبد الناصر - رغم الهزيمة - وأن معات الألوف ساروا في جنازته يجهشون بالبكاء !

وبالإضافة الى التستر على موبقات الناصرية ، بحيث جهلها هؤلاء المخدوعون ، وانعدام وجود أى رأى آخر أو معارضة . . فان النظام قام بعملية تكيف للطبيعة البشرية ، بالشعارات المدوية ، والدعايات المتكررة التى تؤثر شيئا فشيئا ، ليس فحسب على الذين توجه اليهم ، بل حتى على الذين يضعونها أنفسهم ، بحيث يأتى وقت يصدقون ما ادعوه و «فبركوه» ، فلا جناح على هؤلاء المخدوعين إن صدقوا هذه الدعايات .

\*\*\*

**والفئة الثانية من المؤيدين :** هى الحاشية والبطانة التى جعلتهم الظروف يلتحقون بالنظام ، يضعون ايديهم فى يده ، ويشغلون المناصب الكبرى فى الحقبة الناصرية ، سواء لأن عبد الناصر قد اختارهم ، أولانهم اختاروا عبد الناصر . . ويدخل فيهم الوزراء ورؤساء تحرير الصحف ، وقيادات الأتحاد الأشتراكى وزعماء الحركة النقابية الذين أفرزهم التنظيم السياسى ويدخل فيهم الـ ٥٠٪ الذين اخليت لهم الدوائر الانتخابية بحيث أصبحوا نواباً من حيث لم يحتسبوا ، ودون أن يعرفوا ماهى النيابة ! وكانت ثمناً للولاء والأخلاص والتصفيق والتهتاف ، وهم ضباط وجنود وأوغاد السجن الحرى ودولة الخبايا . وهم قيادات الاذاعة والتليفزيون الذين جعلوا منها صوت سيدهم . . وكما هو واضح فهى مجموعة كبيرة تورطت مع العهد فى كل قاذوراته وسخرت مناصبها لتدعيمه وتأييده ، فهى لاتستطيع - حتى لو أرادت - التخلص منه ، أو التنكر له ، ولما كانوا قد ظلوا فى مراكز القوة والنفوذ سنوات طوال ومعظمهم عمل مع عبد الناصر والسادات وبعضهم واصل المسيرة حتى مبارك ؛ فقد أصبحوا يعتقدون أن هذه المناصب حق ثابت لهم ، وأن أى نقد للنظام أو تغيير يقتلعهم من عروشهم ، وقد يعرضهم للمساءلة الجنائية ! وقد يجردهم من أموالهم التى اكتسبوها بحكم وظائفهم ، وقد يزوج بهم إلى السجن . . فكيف إذن لا يستقتل هؤلاء فى الدفاع عن الناصرية التى غرستهم ووضعتم على الكراسى العالية ، ولما كانت مخازى الناصرية لم تعلن حتى الآن . وصوت التزييف لايزال أعلى من صوت الحقيقة ،

فإنهم استمروا اللعبة وكونوا حزباً ناصرياً ، وأصدروا صحفاً ووجدوا مساندة من أمثال القذافي وذبول عدن وبقايا الماركسية . . وفلول الجيل المخدوع ، فضلاً عن أن تحبط السياسة ، وتفاقم الفساد قدم لهم مناخاً مواتياً .

وعندما يتلاقى العامل الثقافي والانتفاء السياسي وشغل المناصب في فرد واحد ، كما هو الحال في معظم أدعاء التنوير ، فإن الأثر يكون مضاعفاً ويصل من القوة درجة يغلب فيها شخصيات ناضجة ومثقفة وممرسة ، لأن قدرة الطبيعة البشرية على المقاومة محدودة ، ولأن الزيوف تأخذ - مع الزمن ومع الهوى إنخ طابع الحقائق ، وهذا وحده هو الذى يفسر لنا كيف أن كاتباً مرسماً مثل الأستاذ محمد عودة يتحدث عن «الديمقراطية» أيام عبد الناصر ، ويصور التعذيب كتجاوزات محدودة ، أو أن كاتباً مثل محمود السعدنى نال نصيبه من الضرب والركل والشتائم والصفعات ، ينسى كل هذا ويفتخره لأن «ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب» ولا يستطيع هو ، أو عوده أن يوضحا لنا تحت أى اسم من مفردات العمل السياسى الشعبى الديمقراطى الذى يكون فيه الشعب هو السيد . . المعلم إنخ !! يمكن أن توضع موبقات التعذيب وظلمات الإرهاب وقبضة الديكتاتورية ، وكيف يمكن لأستاذة محنكة فى القانون الدستورى أن تضرب بقرارات القضاء عرض الحائط لأن المجلس «سيد قراره» وترى أن الدستور الذى أصبح أشبه بثوب مرقع . . مهلهل . . ليس فى حاجة إلى تعديل . . .

إننا لا يمكن أن نفهم مثل هذه المواقف إلا فى ضوء الآثار الماحقة للثقافة ، والمران ذهنى ، والتكيف النفسى ، والانتفاء السياسى . . . والدفاع عن النفس والحرص على المصالح المكتسبة فمنع هذه العوامل كلها لا يمكن أن يوجد مكان للمنطق أو الحقيقة الموضوعية .

ولكن أين يذهبون من حكم التاريخ . . وإلى متى يمكنهم أن يطاولوا التطور . . فإذا سمح لهم المدى القصير ، وبقايا الماضى باستمرار الأكاذيب فإن حكم التاريخ فى النهاية حاسم . . ولن يفلتكم كما لم يفلت لينين وستالين ، وهتلر وموسولبنى وأتباعهم وكانوا أعز نفراً وأكثر قوة من الناصرية الهزيلة . . .

### (ج) حاجز الدين :

أدى حاجز الدين - أى اعتناق غير الاسلام - بمجموعة من الكتاب والمفكرين لأن تُعَلَّب الذات على الموضوع بصفة مكثفة ، وهى مجموعة محدودة العدد ، ولكنها كبيرة التأثير بحكم ماوصلت إليه من ثقافة أو ما فى يدها من سلطات . . كما أن هذا العامل يكتسب حساسية خاصة لارتباطه بدين احدى فئات المجتمع المصرى .

ومعالجة هذه النقطة تثير تداعيات عديدة لانريد لها أن تبعدنا عن السياق . . ولكن يبدو أن من العسير الخلاص منها ، وأن من الضرورى مجابها ، ونحن لانتناول القضية القبطية ، ولكننا فحسب نعالج واقعة ذات تأثير فى موضوعنا ، تلك هى أن فهم كثير من الأقباط لمقتضيات الإيمان جعلهم يقفون من الإسلام موقفا يضعهم فى أزمة تجنب عليهم أولا ، وعلى المجتمع ثانيا . . وكانوا فى غنى عنها لوفهموا الموضوع بالطريقة التى سنعرضها .

والحقيقة أن الرغبة فى تعريف مواطنينا الأقباط بطريقة القضاء على الأزمة هى التى شجعتنا على أن نضى فى معالجة القضية بقدر ما يتطلب الموضوع وليس ابتسارها ، أو الفرار منها .

وكما هو معروف ، فإن عددا من سكان مصر يؤمن بالمسيحية ، وقد وجدوا قبل الفتح الإسلامى ، ورحبوا به ، ورحب بهم ، وكفل لهم حرية العقيدة والعمل ، وفى هذا المناخ عاش الأقباط ووصل عدد من قياداتهم إلى أعلى المناصب طوال العصور الوسيطة التى كانت الأقليات - بما فيها المسلمة أو اليهودية - تحرم من مجرد الوجود . . وفى العصور الحديثة تقلد اثنان من الأقباط رئاسة الوزارة ، واعتبر الأقباط أنفسهم جزءاً لا يتجزأ من شعب مصر ، ورفضوا - عند وضع دستور ١٩٢٣ - أن يعاملوا معاملة الأقليات ، وقد فهموا ، وتقبلوا ، أنهم يعيشون فى دولة دينها الإسلام ، ليس فحسب لأن هذا هو الأمر الواقع الذى لا يمكن المجادلة فيه ، ولكن أيضا لأنه يمنحهم من الحقوق ، ويفتح لهم من الأبواب مالا تفتحه لهم «الديمقراطية» التى تكون فيها القرارات والقوانين تحت رحمة الأغلبية .

ورأوا أنه مادام المجتمع الإسلامى فى مصر يكفل لهم الحرية الدينية ، ويفتح أمامهم أبواب المناصب وحق المساواة فى الفرص . . . ، فإن الطريق الحكيم هو أن ينتهزوا هذه الفرصة ويسلكوا هذه المسالك كمصريين لا كأقباط ، لأن أى إثارة للمعنى

الدينى فى هذه المجالات الاقتصادية ، والحكومية ، والسياسية ، لن يكون فى مصلحتهم ، وقد يجرهم من وضع «الجزء الذى لا يتجزأ» الى وضع (الأقلية) التى تختلف عن الأغلبية ، والتى تحدد حقوقها بقدر حجمها ، وتبينوا أنهم لو غبنوا ، فعليه مضاعفة الجهد مادامت الأبواب مفتوحة ، وهذا هو ما فعلوه فعلاً ونجحوا فى الاستحواز على عديد من المواقع ، وكان يهيمهم أن ينوا من المدارس القبطية أو المصانع ، أكثر مما ينون من الكنائس ، لأن المهيم فى النهاية هو التعليم والمهارات . . . .

إخ . . . كانوا أذكى بكثير من الذين جاءوا بعدهم وأصيبوا بعدوى «الشنودية»<sup>(١)</sup> وأخذوا يتحدثون عن «سلبية الأقباط» فى حين أن سلبية الأقباط - كأقباط - كانت وسيلة أو مدخلاً للاستحواز على المناصب ، لأن ابراز المقوم القبطى سيرز بالضرورة الصفة الخاصة التى يمكن أن تؤثر على ما يستحوزون عليه ، فهى لن تعطيهيم ولكن يمكن أن تأخذ منهم !

وكان الاحتلال البريطانى قد حاول أن يطبق مبدأه ( فرق تسد ) فجرب تأليب الأقباط وانصاع له بعضهم ، وعقدوا المؤتمر القبطى الشهير فى أسبوط عام . ١٩١٠ .

وظهرت جمعيات تبشيرية للمذاهب المسيحية الأوروبية ، ونشط المبشرون فى الثلاثينيات واتخذوا من بيت عراقى باشا فى باب اللوق بالقاهرة مقراً لاجتماعاتهم ، وفتحوا عددًا من المدارس تتبع الكنائس المسيحية المختلفة .

ولكن هذه الجهود كلها لم توجد فرقة ، لأن الكنيسة القبطية كانت حكيمة ، فلم تستسلم للاغراء أو تنطلى عليها الألاعب ، واتسم البطاركة الذين تنموا كرسى القديس مرقس بالفطنة والطيبة والإخلاص ومعرفة دقائق الأمور ، واعتبر كل واحد منهم نفسه رئيساً لمجموعة من المصريين يعيشون فى وطن أغلبته الكاسحة من المسلمين ، ويدينون بالولاء لرئيس كل المصريين ، ولا يجدون حساسية فى أن هذا الرئيس مسلم ، وكان هذا الموقف يتفق مع الروح المسيحية التى أرساها آباء الكنيسة بولس وبطرس وغيرهما .

(١) سة إلى الأنا شنودة الذى وضع للكنيسة القبطية خطأ يختلف عن حط الآباء السابقين عليه ،

كما سبلى .

ويمكن القول إن البطارقة كانوا أكثر حكمة من العناصر القبطية «العلمانية» وأكثر ارتباطا بالحكومة ، وأن الاحتكاكات التي حدثت لم تحدث ما بين الكنيسة والحكومة ، أو الكنيسة وهيئات إسلامية . . . ولكن بين الكنيسة و «المجلس الملى» الذى يضم العناصر المدنية القبطية ، وقد يصور ذلك موقف البطريرك كيرلس الخامس فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر عندما توترت العلاقات ما بينه وبين المجلس الملى الذى كان يرأسه بطرس غالى ، وسافر البطريرك فى صيف ١٨٩١ إلى الإسكندرية حيث كان الخديوى توفيق يصطاف وعرض عليه الأمر وتوسط للصلح .

ولكن الأمور تآزمت بعد ذلك وطلب المجلس الملى من الحكومة تحية البطريرك من رئاسة المجلس واختير أسقف صنبو ( أسيوط ) رئيسا للمجلس ، ووكيلا عن البطرركخانة ، ولكن البطريرك عقد مجلسا كنسيا وأصدر قرارا بحرمان الأسقف وقطعه من الكنيسة !

واجتمع المجلس يوم أول سبتمبر ١٨٩٢ وأصدر قرارا بإبعاد البطريرك إلى دير البرموس وأرسل القرار إلى مجلس الوزراء الذى لم ير مناصا من الموافقة عليه حتى لايزيد الخلاف حدة . . . وهكذا رحل البطريرك إلى الدير !

وبعد فترة أعاد المجلس الملى النظر ، وندم على ترحيله للبطريرك فأرسل وفدا قابل الخديوى طالبا إعادة البطريرك فوافق على ذلك .

يقول مؤلفا «الإيضاحات الجلية فى تاريخ حوادث المسألة القبطية» : «ولما ذهب الوفد إلى البطريرك فى دير البرموس قال لهم البطريرك : إني قد استعدت من مركزى بأمر من جناب خديونا السامى العظيم ، وأمرت من لدنه أن لا أتكلم ولا كلمة واحدة ، ولا أبدى أى عمل ، فلا يلقى بى مخالفة مولانا . . . فقالوا له : إنا مبعوثون من قبل الجناب العالى . . . فقال لهم أين المكاتب التى بأيديكم بالتصريح لكم بذلك ؟ فإذا كان فى أيديكم مكاتب من الحكومة فلا أتأخر عن الإجابة وإطاعة لأمر أقدينا المعظم . . . .»

فى مقابل هذا ، كان «أقدينا» يجعل البطريرك تبجيلا شديدا ويؤمن أنه رجل مبارك . . . .

كما يمكن ضرب المثل أيضا بموقف البطارقة المصريين إزاء الكنيسة الحبشية التى

دانت لهم بالولاء . . . وكانت تطلب منهم ترشيح «مطرانا» ليكون رأسا للكنيسة الحبشية ، فلم يحاول أحد آباء الكنيسة المصرية استغلال هذا الموقف سياسيا ، كما كان المطران المصرى الذى رشحه البطريرك بعد تمحيص - يعتبر نفسه حبشيا بمجرد توليه سلطانه . . . ومع أن ثقة ملوك الحبشة كانت مطلقة فى الكنيسة ، فلم تحاول الكنيسة المصرية استغلال هذه الثقة لنفسها فى يوم من الأيام ، أو الحصول على نظام أو مناصب أو التدخل فى شئون الحبشيين . . . وكما لم يحاولوا أيضا المطارنة المصريون الذين رأسوا الكنيسة الحبشية . . .

هذه السياسة الحكيمة التى وضعها آباء الكنيسة المصرية ، والتى تجمع ما بين الحفاظ على العقيدة والمواطنة وعدم إثارة المعنى الطائفى للأقلية القبطية فى مصر ، قضت على بذرة «الحساسية» ما بين الأقباط والمسلمين ، وتجلت فى المبدأ الذى وضعه السياسى القبطى النابه «مكرم عبيد» الذى يقول : «أنا قبطى ديننا ، ومسلم وطننا» . . .

ولكن هذه السياسة تغيرت تغيرا جذريا فى الربع قرن الأخير نتيجة لعدد من العوامل كان منها زحف معسكر «المجلس الملى» ومنشئاته على معسكر الكنيسة الكهنوتى الذى قصر نشاط الكنيسة على الجانب الروحى . . . وكان معسكر المجلس الملى قد خضع لكل المؤثرات الدنيوية التى لا بد وأن تؤثر على التنظيمات الفتوية وتجعلها تعمل لما يحقق لها المصلحة على كل المستويات ، أى بالنسبة لكل المجالات . . . وبالنسبة لطبيعة هذه المصالح وهل هى سريعة المدى . . . إنلخ . . . وكان هذا الاتجاه يضلل أصحابه ، أو يعرضهم للوقوع فى أخطاء أو الدخول فى صراعات ، شأن كل تنظيم من هذا النوع . . .

على حين كانت الكنيسة تتمسك بمبدأ قامت عليه «الديانة» المسيحية ، وكان وراءها خبرة وتراث ألف عام . . . وكانت الديانة ، والفقرة ، والخبرة التاريخية والوجدان . . . كلها تجعل آباء الكنيسة يجمعون عن المطاعم والدخول فى غمرات الدنيا والتعرض لاغراءاتها وصراعاتها . . . أتلخ . . .

ولكن اتجاه التطورات كان يدفع بالمعسكر الدنيوى الملى إلى الأمام ويعلى صوته على صوت الكنيسة . . . وقد رأينا أنه فى فترة مبكرة استطاع أن يضغط على الحكومة لتتحمى البطريرك كيرلس . . . وقد زادت التطورات الأخيرة من قوة الاتجاه الدنيوى . . . وكان من أبرز دلالات ذلك انتخاب الأنبا شنودة الذى عرف بالحيوية والفعالية وإرادة النهضة بالطائفة . . .

## آفة الطموح :

وكما نقول دائما فإن الطموح - وإن كان من المكونات الرئيسية لكل زعيم وقائد - فإنه مالم يقترن بالحكمة ، والحذر ، والشورى ، وملاحظة العديد من الاعتبارات ، والأبعاد ، ومقاومة الإغراء بحيث يقف القائد عند نقطة معينة لا يتعداها . . فإن الطموح يمكن أن يؤدي إلى عكس ما استهدفه . . ففي الطموح طبيعة المقامرة ، والمغامرة ، والمقامر الحكيم وحده - إذا وجد - هو الذى يستطيع مقاومة الإغراء الذى يمكن أن يؤدي بكل ما ربحه !

ويتعرض القائد الطموح لعملية نفسية/ اجتماعية دقيقة يتداخل فيها الطموح الذاتى. بالهدف العام ويتمازجان حتى يصبحان شيئا واحدا ، وقد يمثل ذلك قولة لويس الرابع عشر ( أنا الدولة ) أو كلمة سعد زغلول « لا تخرج سعدا ، فخرج الأمة ! » كما قد يصوره انحراف لينين عن الخط الموضوعى والأصيل لكل أدبيات الاشتراكية وتداعياتها من حرية ، ومساواة وجمهورية ، وعدالة . . إلى سياسة المركزية الديمقراطية فى السياسة والأخذ بالتيلورية فى سياسة العمل ، وقمع المعارضة العمالية . . إلخ . وإذا كانت هذه الاتجاهات التى نبتت من الإيمان الشخصى للينين قد قهرت روح الاشتراكية وطبيعتها ، فهذا ما يعطينا مثالا حيا عن قوة الطموح وكيف يجعل القائد يرى نفسه ممثل الدعوة ، وكيف يدفعه للسير قدما حتى يوقفه على حافة الهاوية ، وفى معظم الحالات يوقعه فيها . . .

وقد لانجد كتابا عنى بمثل هذه النقطة وفصل فيها ونوه بها ونبه عليها مثل القرآن الكريم . . فالقرآن يسلم بضرورة وجود القائد والإمام ، ولكنه يجعله «رسولا» . . ومعنى هذا أن يستبعد كل المعانى الذاتية ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون ﴾ (آل عمران ١٢٨) ، وهو يؤكد أن دور الرسول هو البلاغ ، ويسوقه فى صيغة الحصر ﴿إن أنت إلا نذير﴾ ، ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ وأنه ليس جبارا ، ولا حفيظا ، ولا حتى وكيلاً عن الناس ، وهو يوجهه لكى لاتستبد به الرغبة فى الهداية إلى الدرجة التى قد يغلب فيها المعنى الخاص المعنى العام رغم أن دور الرسول هو بالطبع أن يهدى الناس ونقدر ما ينجح فى هداية أكبر عدد بقدر ما يعد مؤديا لرسالته ، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة لاحتمال تداخل المعنى الخاص بالمعنى العام ، ولأن هناك أناسا لا يمكن هدايتهم لأسباب عديدة ، وليس من



دور الرسول أن يهديهم قسراً ، ﴿وما عليك أن لايزكي﴾ . . ﴿ولعلك باخع نفسك على أثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ . . ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ . . ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ . . ﴿وإن كان كبير عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبغى نقفاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكوننن من الجاهلين﴾ . . ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ . . ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل ، وما لهم من ناصرين﴾ .

وهو يوجب طاعته على المؤمنين ، بل يصل إلى آخر مدى فيقرن طاعته بطاعة الله . . ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ . . وهذا طبيعي مادام الرسول يبلغ رسالات الله . . ولكن أى انحراف عن ذلك يعرض الدعوة لخطر كبير ، ولذلك يخاطب القرآن - بلهجة حازمة لاتدع أثارة من شك - الرسول : ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفتري علينا غيره ، وإذا لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً إذا لأذقناك ضعف الحياة ، وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيراً﴾

والحاح القرآن الكريم على هذه النقطة ومعالجته لها من كافة نواحيها وما يتسم حديثه عنها من حسم وقوة ، يوضح خطورتها . . وإذا كانت بمثل هذه الخطورة ، حتى على الأنبياء والمرسلين ، الذين تحوطهم هداية الله ورحمته ، ويتنزل عليهم الوحي من السماء ، فما بالك بخطورتها على القادة العاديين ؟ . . إن سجلات التاريخ حافلة بمصارع الطامعين والويلات التى أخفقوها بشعوبهم .

\*\*\*

ومن الدلالات التى تنم عن أن الطموح قد جاوز منطقة السلامة وشارف منطقة الخطر ، أن يحاول القادة التوسع ومد سلطانهم إلى مناطق جديدة ، وأن يعنون بالسياسة الخارجية مثل ، أو أكثر مما يعنون بالسياسة الداخلية إذ مجال العمل الحقيقى هو «الداخل» وأى «خارج» يمثل طموحاً . وقد يمكن المقارنة ما بين بسمارك وكافور اللذين حققا الوحدة الألمانية والإيطالية بوسائل وسياسات حكيمة ومتأنية ووفقاً عند ذلك ، وما بين هتلر وموسولنى اللذين استهدفا التوسع فباء بالفشل وجرا الهزيمة على بلديهما . وقد بلغ البطريك شنودة هذه الدرجة عندما استدرج لأن يكون رئيساً لمجلس

الكنائس العالمية ذى العلاقات المشبوهة باختبارات المركزية الامريكية ( س . آى .  
إيه ) وأخذ يرسى ركائز له فى استراليا والولايات المتحدة ، وهذا كله - فيما نرى -  
طموح دنيوى وسياسى ، ليس فحسب بعيدا عن روح الأب المسيحى ، بل يمكن ان  
يسىء الى صفته كمرشد روحى للأقباط المصريين ، ويربط ما بين مواقفهم ومواقف  
الجاليات التى تتعرض لمؤثرات أخرى غير مصرية !

### معضلة الشنودية :

إن معضلة السياسة التى وضعها الأنبا شنودة للكنيسة المصرية ، هى معضلة الرجل  
الذى يريد أن يأكل الكعكة ويحتفظ بها فى الوقت نفسه !

فالشنودية من ناحية تضيق بابرار المعنى الاسلامى فى أى شىء . . حتى فى  
الأسماء . . ولم يفتها - فى حساسيتها المرهفة - أن السادات فى مرحلة ( العلم  
والايمان ! ) أصبح يبرز اسمه «محمد أنور السادات» وليس «أنور السادات» ، وهى تندد  
بأى دعوة «لأسلمة» ما ، وتضيق بأى حديث عن الاسلام ، وتناصر دعوة الدولة  
العلمانية ، التى ينفصل فيها الدين عن الدولة ، وتكون مصر لكل المصريين ، بصرف  
النظر عن الدين . . وترى فى إبراز المعنى الاسلامى «شقا» لوحدة الأمة .

وفى الوقت نفسه ، فإنها تدعو لتعميق المعنى القبطى ولبعث آثار الحضارة القبطية ،  
وتدعو للاحتفال فى المناسبات القبطية وتطالب بمزيد من المناصب والوظائف . . . الخ  
للأقباط .

ومن الواضح أن هذين الحائنين للشنودية متناقضان . . .

فاذا كانت الشنودية تدعو للدولة العلمانية وتضيق بابرار المعنى الاسلامى فلا يجوز  
ها أن تمارس «الشنشنة» القبطية بكل مكوناتها .

واذا كانت ترفع راية «القبطية» وتطالب بحقوق للأقباط كأقباط ، فلا يجوز لها أن  
تدعى الدولة العلمانية ولا الدعوة الى «كل المصريين» ، ولا يصح لها أن تضيق بالدعوة  
الاسلامية . . . . .

وتظهر المأساة التى وضعت الشنودية نفسها فيها بقدر ما ترتفع الى المستويات  
العليا ، فقد لا يظهر أثرها بين موظف قبطى صغير ، وموظف مسلم صغير ، أو تاجر

قبطى ، وتاجر مسلم . . . ولكن عندما يريد أحد الأقباط النابيين والموهوبين أن يصل إلى أعلى مستويات المجتمع أو القيادة العامة ، كأن يكون رئيسا لحزب أو نقابة عامة ضخمة ، أو يكون وزيرا . . . إنلخ فلأبد وأن يجد الإسلام أمامه ، سيجده فى إيمان القيادات الأخرى ، . . . وسيجده فى التاريخ ، والقيم ، والمثل العليا ، والشخصيات التاريخية التى يكون عليه أن يستشهد بها وتستأثر بحب واحترام المصريين . . . سيجده فى رمضان ، وعيد الأضحى ، ومولد النبى . . . سيجده فى القيم التى غرسها الإسلام فى المجتمع المصرى : كتحريم الخمر ، والالتزام بقدر من العفة . . .

إن الشنودية تضع الزعيم القبطى فى مأزق . . . فاذا أراد إبراز المقومات القبطية - كما تملى عليه - فسيكون لهذا أثره بالطبع وبالضرورة - على وحدة المشاعر ، وتجاوب الوجدان مع جمهوره المسلم ، واذا سلك أقل «الأيمان» فلم يبرز الخصيصة القبطية ، وفى الوقت نفسه تجاهل المشاعر الإسلامية ، فانه لن يصل الى أعماق جمهوره ، وسيخسر الأوتار الحساسة والنبض الحى فيها !

هل معنى هذا أن تخسر مصر مواهب بعض القادة من ابنائها نتيجة لأنهم من الأقباط ؟ كلا . . . إن هناك طريقا . . . ولكن الشنودية تغلقه . . . وما من مصرى مسلم يضيق بقبطى لأنه قبطى ، لأن هذا يخالف الروح المصرية والإسلامية على سواء . . . وقبل أن نعرض الحل على أسس مبدئية وبصورة تتعاقب فيها القبطية كدين والإسلام كوطن ، كان السياسى القبطى النابه مكرم عبيد قد اهتدى اليه بحاسته . . .

وسنعرض فى نهاية النبذة لهذا الطريق . . .

\*\*\*

لم يقتصر نقد سياسة الانبا شنودة على الدوائر الوطنية التى رأت أن سياسته تضرر نار التعصب الفئوى وتناقض وحدة الأمة ، فهناك معارضة قوية لهذه السياسة نشأت بين عدد من الأقباط النابيين الذين أدركوا المغبة السيفة لسياسة الانبا شنودة ، وما تتمخض عنه من هدم الألفة والثقة التى أقامها البطارقة السابقون بحكمتهم والخطوط التى سارت عليها الكنيسة القبطية ومثلت تقاليدها وخلاصة تجربتها فى معايشة المجتمع المصرى ، وظهر عدد كبير من الكتاب الأقباط مثل الأستاذ جمال سعد عبد الملاك مؤلف كتاب «من يمثل الأقباط» وهى نقطة من أهم النقاط وفى صميم الموضوع والفكرة الرئيسية للمؤلف أنه إذا كان البابا هو الذى يمثل الأقباط - كما هو الظن السائد -

فإن هذا تركيز للمعنى الفئوى وفصم لوحدة الأمة ؛ فالأقباط كمواطنين مصريين تمثلهم انتماؤهم المختلفة داخل الأحزاب أو النقابات ، شأنهم فى هذا شأن إخوانهم المسلمين ، أما البابا فإن سلطته يجب أن تكون مقصورة على النواحي الروحية الخالصة دون أى ناحية دنيوية ، ومن الواضح أن هذا يناقض سياسة الأنبا شنودة .

كما ظهر تيار قوى يعارض الطريقة التى يدير بها الأنبا شنودة شئون الطائفة ، وطريقة تعامله مع الكهنة ، أو تصرفه فى الأموال ، وهى نواح كنا نود لو نُعفى من الإشارة إليها لولا دلالتها فيما نحن بصدده . وأن موقفه من الفكر الإسلامى هو جزء من الموقف العام له نحو كل من يعارضه أو يختلف معه مسلما كان أو مسيحيا !

ونشرت مجلة روزا اليوسف [العدد ٣٤١٣ فى ١٩٣/١١/٨] ص ٨ تحت عنوان «منشورات المعارضة فى الكنيسة المصرية» تقريراً صحفياً أشار الى صدور ١٣٦ منشوراً تنتقد أوضاع الكنيسة و ٦٧ كاهناً ثم معاقبتهم منذ تولى الباباً وأشار إلى أن «المعارضة لا تمثل الجماهير ، ولكنها تحظى برضا المثقفين» وأبرز التقرير أن بعض أشد المعارضين كان فى يوم ما من أشد أنصار البابا مثل الأستاذ جمال أسعد عبد الملاك ، ومثل بعض ممن وقف مع البابا أيام أزمته مع السادات عام ١٩٨١ . وأن حجم المعارضة وإن لم يكن كبيراً ، فإنه يتصاعد شدة . ومعظم المعارضة تأتى من كندا وأستراليا وأمريكا .

ويستطرد التقرير .

كما شكل بعض رجال القانون من الأقباط لجنة تحت اسم جبهة الإصلاح الكنسى القبطى، مهمتها الدفاع عما ما أسموه المبادئ الكنسية الأصلية وحددوا تحفظاتهم على إدارة الكنيسة فى ست نقاط :

- ١ - عدم وجود لوائح منظمة للمحاكمات الكنسية لرجال الدين والمندبين .
- ٢ - عدم وجود لوائح مالية وجهات رقابية من الدولة وأجهزتها على إيرادات ومصروفات البطريركية باعتبارها جهة عامة ويصدر قرار جمهورى بتعيين رئيسها .
- ٣ - عدم وجود حلول جذرية لتصاريح الزواج المعطلة فى المجلس الإكليريكي ومايثار حولها .
- ٤ - النهوض بالأنيرة والرهبنة ومنع الرهبان من الخروج من أديرتهم وسحب من يخدم منهم فى كنائس الكرازة والمهجر من الخدمة وإحلال كهنة علمانيين بدلا منهم بعدما تتأثر حولهم من اتهامات .

٥ - مناقشة ما رفع إلى الجهات الرقابية بالدولة من تقارير عن ميزانية هيئة الأوقاف القبطية والتي قال المشرف عليها إنه لا يعرف عنها شيئاً .

٦ - العمل على إلغاء الخط الهمايوني الذى يحظر إقامة الكنائس إلا بموافقة رئيس الجمهورية .

ومعظم هذه المطالب ينادى بها المعارضون الآخرون ، وقد ظهر بعضها فى المنشورات التى صدرت ووزعت على الأقباط ، وهى أبسط أوجه الخلاف مع البابا وإن أضيف عليه ما أسموه بكتاتورية البابا حيث يرون أنه انفرد بحكم الكنيسة واستطاع فرض آرائه على الجميع ، وحسب ما قاله جمال أسعد أن البابا تخطى عن مبادئ الديمقراطية التى كان ينادى بها قبل توليه المنصب البابوى وذلك بعد أن أحكم سيطرته على المجلسين اللذين يقودان الكنيسة وأولهما المجلس الملى الذى يقود الكنيسة إدارياً ومالياً ويضم فى عضويته ٢٤ شخصاً من المندوبين ورجال الدين ويتم اختيارهم بالانتخاب الحر المباشر من قبل الأقباط المقيدين فى جداول الانتخابات العامة . أما الثانى فهو المجمع المقدس الذى يضم جميع المطارنة والأساقفة على مستوى الجمهورية وهو يختص بمحاكمة البابا ومحاكمة من يهرطق فى الدين .

ويوضح جمال أسعد كيفية سيطرة البابا على المجلسين بقوله : إن البابا أصر على عمل قائمة بأسماء المرشحين الذين يرغب فى نجاحهم فى انتخابات المجلس الملى والتي تجرى كل خمس سنوات . ومن الطبيعى أن يختار الأقباط قائمة البابا فى ظل تقديسهم له وبالتالي أصبح أعضاء المجلس الأربعة والعشرون تابعين له لا يستطيعون معارضته خاصة بعد أن جعلهم شمامسة وهى رتبة كهنوتية وبذلك أصبحوا خاضعين له بحكم الوضع الكهنوتى الجديد .

أما بالنسبة للمجمع المقدس الذى يعتبر أعلى سلطة روحية فى الكنيسة فقد سيطر عليه من خلال زيادة عدد أعضائه وتعيين عدد من الأساقفة الموالين له وذلك من أجل القضاء على سلطة الحرس القديم من الأساقفة الذين عينوا ورسوموا فى عهود سابقة عليه .

وقد استطاع البابا زيادة عدد الأعضاء عن طريق إنشاء أبرشيات جديدة برأسها أساقفة جدد حيث كانت كل محافظة بها أبرشية واحدة فقام البابا بتقسيمها إلى عدة أبرشيات حتى وصل عددها فى محافظات أسبوط والمنيا وسوهاج إلى سبعة فى كل محافظة على سبيل المثال ، ومن الطبيعى أن يخضع الأساقفة الجدد لسلطة البابا وخاصة أنه يختارهم من الموالين له .

وهو الأمر الذى يؤكد البعض أنه لهذا السبب ففكر المجمع المقدس أية صلاحية فى مناقشته فى أى مشاكل روحية أو عقائدية تمس الكنيسة والأقباط ، فالذى يعارض البابا داخل المجمع يحاصر من الأغلبية ويتجنبوه مثلما حدث مع الأتبا غريغوريوس أسقف البحث العلمى كما يروى جمال أسعد الذى كانت له آراء فى جوانب عقائدية تمس التطور مثل قضايا الطلاق والزواج ، حيث ينادى بإباحة الزواج من أخت الزوجة المتوفاة وهو الأمر الذى يرفضه البابا شنودة ، ولذلك أصبح الأتبا غريغوريوس معزولاً من الجميع حتى أن أحداً من الأساقفة لا يجرؤ أن يدعو للصلاة فى أبرشيته رغم أنه أسقف البحث العلمى حت لايفضب البابا شنودة .

وسجل أحد كهنة الكنيسة ، وهو القمص اندراوس عزيز سليمان المآخذ التي يأخذها لفيف من الكهنة على سياسة الأنبا شنودة ، وبعضها يتعلق بإضرار التعصب وتعميق المعادى القموية وإيجاد حساسية مابين الأقباط والمسلمين ، وهو يقول :

«إننى كمسيحى أجزم بأننا نتمتع بكل حقوقنا ، فلا تمييز أو تفرقة ، فمنا من يحتل مراكز كبيرة فى الجيش أو البوليس أو دواوين الحكومة المختلفة ، ومنا من يمتلك العمارات والأعمال التجارية ، والآلاف والملايين فى البنوك وهناك أيضا الفقراء الذين يكسبون خبزهم بالكاد والكاد مثلنا مثل الأخوة المسلمين . وهناك الكنائس التى ساهمت الدولة فى بنائها مثل الكاتدرائية بالعباسية أو قامت ببنائها كلها على نفقتها مثل كنيسة العاشر من رمضان . . . . .»

«فإذا كان هناك شخص متعصب ، مسلم أو مسيحى ، فهو رجل مريض وعلى الدولة أن تتخذ ضده ما يمكن من وسائل العلاج ، قد يكون علاجاً نفسياً أو إعلامياً أو تهنئياً ، فهذا عمل الدولة ، أما من ناحية الكنيسة أو المؤمنين فعليهم أن يقدموا له المحبة والصداقة وأن يتداخل المسلم مع المسيحى ويتلاحما ، لتكوين نسيج واحد هو هذا المجتمع العظيم ، مصر . . . . .»

«والاضطهاد ليس معناه حرمان من درجة أو وظيفة أو ترقية ، فهذه أشياء مادية وقتية بعيدة عن سلطة الكنيسة الروحية . . . ولكن الاضطهاد معناه السحل والقتل والحرمان من ممارسة الشعائر الدينية ، وهذا لم ولن يحدث نهائياً ، ولكنها كلمة تستغل فى غير مكانها تخدم أغراض من يبحثون عن الزعامة الشعبية للأقباط .»

«والمسيحية مملكة ليست من هذا العالم ، رئيس أو ملك هذه المملكة هو السيد المسيح له المجد ، وسر قوة هذه المملكة أنها ليست من هذا العالم ، تؤثر فيه بمبادئها وسماحتها وحبها السامى ولا تتأثر به ، تعيش فى العالم ولا يعيش العالم فيها . . . . .»

«فهى تستطيع أن تعيش فى ظل كل القوانين والتشريعات سواء كان هذا التشريع مصدره الشريعة الإسلامية أو القانون الرومانى أو الفرنسى ، فكل هذا لا يخل له فى القلب الداخلى النفسى أو عرش المسيح أو مملكة المسيح الروحية . . . . .»

«وقد عاشت الكنيسة مع الشريعة فى كل عصور الإسلام سنوان متحابان كل فى طريقة ، هذه تحكم الوطن كقانون مدنى وتلك تحكم الروح كقانون سماوى خاضع لتشريعات الدولة ، فإذا كان القانون المدنى يحاكم السارق والزانى والمجرم فليسر فى طريقه ولْيأخذ كل مخطيء جزاءه بالشريعة وتلستمر العلاقة الروحية كقانون سماوى بين العبد وربيه . . . (١)»

(١) الحقائق الخفية فى الكنيسة القبطية تأليف القمص أندراوس عزيز - سنة ١٩٨٥ - ص ٨ - ٩ .

ورأى المؤلف أن الكنيسة تحولت كجماعة للمؤمنين وملك خلاص للضالين ،  
مستلهمة تعاليمها من وحى الروح القدس الى حزب سياسى اقتصادى منهجى يسعى  
لاكتساب الرأى لعام الداخلى والخارجى بكل الوسائل . . . . .

ويقول المؤلف :

نلك عشنا سويا مسلمين ومسيحيين على ثرى هذا الوطن ، آلاف السنين معا فى السراء  
والضراء ، على الحلو والمر ، بدا واحدة ، والخلافات إذا وجدت بين الأخوة تصلى أيضا  
بين الأخوة ، دون أن يسمع القريب ، .

ولكن حدث شيء غريب لم يحدث مثله فى تاريخ الكنيسة ، وليس له شبيه . . فى حادثة  
الخانكة، عام ١٩٧٣ أن يأمر رئيس الكنيسة الكهنة ويقول لهم : ( أنتم كم ؟ مائة وستون ،  
عايزكم ترجموا ستة عشر كاهنا ، والباقي يفترشون الأرض افتراشا ويستشهدون ا) حتى  
أجابه أحد الكهنة : ( ولماذا لاتأتى معنا ياسيننا علشان تستشهد أولنا ؟ ) (١) .

وهذه واقعة توضح - إن صحت - كيف أن رئيس الكنيسة بدلا من أن يطفىء نار الفتنة ،  
فاته بضررها وينفخ فيها . . ولماذا هذا !!؟

ولماذا هذا ؟!

• . . . هو أن يموت عدد من الكهنة والشعب فى احتكاك مفتعل ومثير وعن طريق زبائنه  
القلائل المتعصبين فى الخارج بأخذونها ذريعة للدعاية ضد الوطن واثارة الرأى العام العالم  
بدعوى أن المسلمين يقتلون المسيحيين ، .

ان الاستشهاد فى العصور الأولى للمسيحية معنى جميل ، أن يموت المسيح لاجل مبدأ  
أنه مسيحى فى عالم وثنى لايعترف بالمسيحية ويحظرها . . وقد انتشرت المسيحية وانتهى  
عهد الاستشهاد منذ زمن بعد يموت البطريرك بطرس خاتم الشهداء قبل ظهور الإسلام .

وأما أن تأخذ فكرة الاستشهاد وسيلة الهدف منها الدعاية ضد الدولة والتنشيع بدين الدولة  
الرسمى الذى نعيش فى رحابه وسماحته فى حب ووفاء آلاف السنين ، لأجل أن أخلق من  
نفسى «زعيم شعبى» ذا صيت واسع فى دنيا السياسة وشاشات التيليزيون . . أبنى نفسى  
بهلاك الآخرين ، فهذه أنانية وذاتية مفرطة . . . . .

(١) المرجع السابق ص ٢٧ .

«أحلام الأنبا شنودة بتكوين جبهة قبطية للرأى العام العالمى خارج مصر الهدف منها أن يكون زعيما شعبيا ، هى سراب خادع أضرب به ويالمسيحيين فى مصر ١٠٠٠» (١) .

وضرب المؤلف المثل لاستغلال شعيرة من شعائر العبادة لخدمة غرض سياسى : «الصوم فكرة روحية جميلة . . . ولكن يمكن أن تتحول هذه الفكرة الروحية الجميلة الى موضوعات سياسية للاتارة ، فأطلب صوما انقطاعيا لأن هناك اضطهاد ؛ فاستغل فكرة الصوم لهدف سياسى هو أن بالدولة اضطهاد ، فأغرس بطريق غير مباشر فكرة ضد المسيح وهى «اضطهاد الدولة للمسيحيين» يالها من فكرة شيطانية مغلفة بورق سولفان مفضضة ١٠٠٠» (٢) .

وقد انتقد الكاتب بشدة أن تكون الوظائف فى يد البطريرك أو فى يد الأسقف دون أى ضمان للكهننة ، فكل الذين يعملون فى الكنيسة هم تحت رحمة إرادة البطريرك أو الأسقف دون أى حماية ، كما أن الأموال التى ترد للكنيسة لا رقابة عليها !

ونسب الكتيب إلى البابا مالم ينسب إلى الملوك من بناء القصور واقتناء الكلاب البوليسية التى تأكل قطعاً غالية من الشيكولاته المستوردة وكذلك السيارات المرسيديس الفخمة ، هذه العدوى التى بليت بها الكنيسة هذا العصر .

ويغلب أن يكون لهذه الإشارة أصل ، إن لم تكن هى الحقيقة ، وعلى كل حال ، فأسوأ مايقال فيها : «ومن دعا الناس الى ذمه ذموه بالحق وبالباطل»!

على أن التفاصيل الدقيقة التى أوردها الكتيب عن معاملة البطريرك لأعداد كبيرة من رجالات الكنيسة بعضها فى مثل مستوى الأنبا غريغورس أسقف الدراسات والبحث العلمى ، والأنبا مينا مطران جرجا ونجع حمادى ، الأرخب الشهير المرحوم يونان خلة المدور ، الأب متى المسكين ، إلى بقية القسس مثل القس بطرس شحاتة

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٠



كاهن كنيسة مارجرجس ، والقس أيوب فام ، والقس يوسف مرقص وأربعة عشر قسا كان المؤلف أحدهم . . كل هؤلاء أبعادوا عن مناصبهم أو حرموا حقوقهم الوظيفية التي يتمتع بحمايتها أقل موظف في الدولة ، وبعضهم مات من شدة الأسى والحسرة !

نقول إن هذه وقائع حقيقية ، وقد صدرت عن كاهن يلم بخفايا الأمور ، وليس أدل على صدقها مما نشره أقباط شبرا في مجلة الشعب سائلين إعادة القس إبراهيم عبده في رسالة تصور المأزق المؤلم الذي وضعته سياسة الكنيسة وبطشها وما في يديها من سلطة مطلقة ، وكيف أنها أحوجت الأقباط الى التماس العدالة فيما يشبه الشحادة الوضيعة ، وبعد أزجاء آيات الثناء على من أوقع بهم الخزاء الظالم ! .

تقول رسالة أقباط شبرا :

حضرة صاحب القداسة والغبطة رئيس الأبحار الأعظم/ البابا شنودة الثالث .

بكل خضوع نرفع لسنتمك الرسولية أسمى آيات الطاعة والولاء سائلين الله أن يديم لنا رعايتكم حتى تنعم الكنيسة بما تحقق لها من امتداد وازدهار ، إذ علا شأنها وتجدد شبابها وأصبحت تعيش في صحوة روحية مباركة قل أن تكون لها سابقة في التاريخ المعاصر وذلك بفضل يقظتكم وتعاليمكم وما خص الله به قداسكم من ثقافة وعلم غزير ، ونحن نؤمن بأن الله في سابق تدبيره قد وفرك لهذا العهد بالذات ربانا حكيما جديرا بالقيادة الروحية لشعب يضمركم حبا يتسامى فوق كل تعبير .

مقدمو هذا التوسل لغبطتكم أبناؤك «أبناء مصر» وقد فرغت قلوبنا وحل بها الأسى حينما علمنا بالقرار التأديبي الذي صدر بإدانة الأب الورع القس إبراهيم عبده الذي بموجبه تم استبعاده وعزله في دير الأنبا باخميوس بالصعيد . لو كانت عقولنا - بحكم معاشتها لهذا الأب زما طويلا يمكن أن يتطرق إليها أي نذر من الشك الذي يؤدي إلى تبرير المؤاخدة أو الملامة في شيء من تصرفاته - لاستقبل الشعب هذا الإجراء كأمر عادي لا يوجب التعليق لأن العرف الجاري يقضى أن يكون «الجزاء من صنف العمل» ولكن باعث الحزن الذي ألم بنا لفراقه مخذولا وحرماننا من أبوته الحانية ، هو القناعة اليقينية بأن أبانا يتميز بالوداعة والتواضع ورعاية الصدر والقدوة الحسنة في كل تصرفاته وفي كل الأحوال نرى فيه رسالة المسيح الصادقة التي نتمنى أن يحتذى به الكثيرون .

نحن إذ نذكر ما يلاقيه هذا الأب من المطاردة والتعقب بين الحين والآخر نعزوها إلى طبيعة العالم منذ البدء ، وما يلاقيه الناجحون في حياتهم ، ولعل التجربة الماثلة أمامنا تذكرنا بالكثير الوارد في كتابنا المقدس ومنها قصة يوسف الصديق وما جره عليه حسد إخوته من ضيقات ومتاعب (تك ٣٧ : ١١) . ولكن عناية الله كانت معه وسخرت كل التجارب للخير .

واعلم ياسيدنا أن قلوبنا أمام الله تعترف لقداستكم أن أهبانا القس/ إبراهيم عبده ليس محبوبا من شعب كنيسته فحسب ، بل هو موضع إعزاز وتكبير من كل الذين سعدوا بمعرفته على امتداد الكرازة وإن كانت ألسنة الناس هي أقلام الحق فإن الجموع الموقعة على هذا الرجاء ، وهي جزء من كل ، تناشدكم بدالة البتوة لتحقيق رجاءهم ، فلا يطول حرمانهم من أبيهم وتعيده إليهم .

أدام الرب حياتكم سنين عديدة وأزمنة سلامية مديدة .

ممدوح بشرى ويصا  
(وعدد من التوقيعات)<sup>(١)</sup>

ولا جدال في أن تصرف الكنيسة تجاه كاهن يتمتع بهذه الثقة ينافي ماسطرته آيات الثناء في القسم الأول من البيان ، ويدل على أن هناك أحكاما فردية تطبق بصورة بعيدة كل البعد عن الديمقراطية أو ما تتطلبه أوليات العدالة من ضمانات .

لقد تضمن كتاب «الحقائق الخفية في الكنيسة القبطية» قصة تعيد إلى الذهن قصص ادلال السجن الحربي وصلاح نصر ٠٠٠ إلخ ، فقد أوقف مرتب القس يوسف مرقص واستدرج لدير الأنبا بشوى فلما حضر مع زوجته تاركا بياته الأربع الكبار في منزل متواضع جدا جدا ما يزال يقطنه في دير الملاك ، أعاد البطريك زوجته للقاهرة مع أحد الرهبان لينفرد بهذا الكاهن ويفغر به نكاية في الأنبا غريغورس ، فطلب منه أن يخلق ذقنه ويخلع الزى الكهنوتي ، فرفض في إباء مهما كان الثمن ، فصدرت التعليمات للأنبا أغاثون «عشماوى» بتنفيذ هذا الحكم الذى أحضر له جلبابا أبيض وطاقيه بيضاء-ألبيسه إياهما وأخذ ينصحه بالوعيد تارة وبالتهديد تارة أخرى . فلما لم ينصاع هجم عليه أثنان أشداء من الرهبان وكتفوه كما للذبح وأخذوا يقصون لحيته بالإكراه وحبسوه لمدة ٢٣ يوما في قصر الأنبا بولا بالعزباوية وقد عرفت السلطات بالجريمة وتدخلت وحرر محضر أمام النيابة بناء على بلاغ وصل إلى هذه السلطات في قسم شرطة الأزبكية ! ولكن هذا الكاهن المسكين المتواضع تنازل عن المحضر إجلالا لراثسته الدينية وأبعد عنهم التهمة ، ولاء وحبا وتساعحا بعد أن توسلوا إليه أن ينقذهم من جريمة ثابتة ووعوده بسخاء ثم بعد تنازله كالوا له الاتهامات وتناسوا الوعود . . .

ويبدو أن أنصار الأنبا شنودة أحسوا بهذه المعارضة ، فنشروا صفحة كاملة في جريدة

(١) جريدة الشعب عدد ١١/٢٦/١٩٩٣ .

الأهرام تحت عنوان «البابا شنودة : ٢٢ عاما بطريركا»<sup>(\*)</sup> تحدثوا عن إنجازاته كرجل علم وفكر وأنه (أول من أرسى مبادئ ديمقراطية العمل الكنسي وامتدت رعايته إلى المهاجرين في أمريكا وأستراليا ودول أوروبا . . . وأنه أصدر أول لائحة للمجمع المقدس ، وأول من أسس أديرة المهجر . . . إلخ) .

ويظهر أن الذين وضعوا مادة هذه الصفحة اهتموا بابرار ما يعد تفنيديا للاتهامات التي تندد فيها المعارضة القبطية بطريقة مباشرة البابا لسلطاته ، الأمر الذي دفع الأستاذ جمال أسعد عبد الملاك لأن ينشر في جريدة الشعب تعليقا لاذعا وطويلا تحت عنوان «مكانة قداسة البابا أعلى من الاعلانات مدفوعة الأجر»<sup>(\*\*)</sup> قضى قضاء مبرما على كل ماجاء في الصفحة الكاملة وكشف عما كان البابا في غنى عنه - وجاء فيه :

خرجت علينا جريدة الأهرام يوم الثلاثاء ١٦/١١/١٩٩٣ بصفحة كاملة مدفوعة الأجر تتكلف عشرات الآلاف من الجنيهات بعنوان «البابا شنودة : ٢٢ عاما بطريركا رجل علم وفكر : شاعر وعضو نقابة الصحفيين وأستاذ بالكلية اللاهوتية» .

ورغم إدراكى أن هذا الاعلان المدفوع الأجر الهدف منه هو الرد على مقالات المعارضة التي تعلن الرأي الآخر في الكنيسة ، والتي تنتقد بعض تصرفات قداسة البابا ، والتي من حقنا أن نتنقدها ، أقول رغم إدراكى هذا ، -فقد هالنى هذا الشكل الاعلانى الذى لا يليق ولا يجب ولا يصح أن يتبعه قداسته وهو فى موقعه الروحى هذا ، حتى ظننت أن قداسته قد قرر أن يخوض معركة انتخابية من النوع الثقيل بتاع أخواننا الافتتاحيين والتي بيرشوا فيه تمام ، ولكن لعلمى أن زفة انتخابات رئاسة الجمهورية آخر الزفات ولا يوجد أية انتخابات الآن ، قلت لا سامح الله هو فيه مناس لقداسة البابا على كرسى البابوية ، حيث إن صفحة الاعلان الأهرامية هذه قد حوت نشاط وإنجازات وأعمال ومواهب قداسته موضحة فى بعض المواقع من الاعلان الفرق بين عهد قداسته والعهد السابق عليه ، وكأن القصد هو المقارنة بينه وبين الآخرين (عموما هذه سمة لكل ملوك مصر منذ الفراعنة) مع العلم بأن ما جاء بالاعلان عن الاتجازات فهو مكرر للمرة الألف . فقد سبق الإعلان عنه فى مجلة الكرازة التي يرأس تحريرها البابا ، والتي لا عمل لها سوى الاعلان عن مقابلاته وسفرياتة وإنجازاته . كما لأعلم هل قداسة البابا نشر هذا الإعلان متصوراً أن الأقباط سيقولون أن الأهرام هو الذى نشر . وبهذا الوهم يكون البابا فى نظر الأقباط مثل رئيس الدولة وأكثر .

(\*) الأهرام ١٦/١١/١٩٩٣ ص ١٧ .

(\*\*) الشعب ٢٣/١١/١٩٩٣ .

ناسيا أن أى قارئ سيعلم أن هذا إعلان مدفوع الأجر مثل أى إعلان عن أية سلعة استهلاكية ، فهل يليق هذا الوضع مع موقع البابا وهو الأب الروحي لكل الأقباط فى العالم ؟! ، حيث إن هذا الموقع يجب أن يكون عند ثقة الجميع أقباطا وغير أقباط لما للكنيسة من احترام على مدى التاريخ ، فهل موقع البابا وهو بهذا القدر وهو كذلك يحتاج إلى نوع من الدعاية ؟! إنه رجل علم وفكر وشاعر ٠٠ إلخ ، وما قيمة هذه المواقع ؟ ، وهل يمكن لهذه المواقع المادية الدنيوية أن تعطى موقع البابا الروحي الأبوى أية مميزات ؟ وهل هو صراع بين المذاهب المادية الدنيوية وبين الموقع الروحي ؟ وهل يعلم قداسة البابا أن قدسى الكنيسة على مدى التاريخ كانوا قدسین نتيجة لمستواهم الروحي ولتقشفهم وزهدهم وليس بالإنهية والإعلانات والفخفة ، وكذلك لماذا هذا الإسراف والإفراط الذى لا يقبله الله ، فإذا كان مبلغ الإعلان - وهو عشرات الآلاف من أموال الكنيسة - فكيف يسمح قداسة البابا بإهدار أموال الكنيسة وهى أموال الشعب بهذا المستوى الذى لا يليق ؟ وكيف يقبل أن يعثر أموال الكنيسة فى الدعاية لشخصه التى لا تبرير ولا مبرر لها ، والتى يجب أن ينأى بنفسه عن مثل هذه التصرفات ٠٠ وإذا كان المبلغ مدفوعاً من كبار المستثمرين الأقباط الذين سيقلون إنهم يحبون البابا ويقدمونه . نقول : هل قال لكم الله ذلك ؟ وهل هذه الأموال تعتبر مقدمة لله وللكنيسة ؟ وهل ستألون عن هذا التنذير أية بركة ؟ وهل لو كان هذا المبلغ من نصيب الفقراء ألا يكون أنفع وأجدى ؟ مثل ما قال الرب أن من أعطى لفقيرا فقد أعطى الله ، فهل المجاملة والنفاق وصلنا إلى حد مجاملة البشر على حساب الله (سبحان الله) ؟ وهل قبول البابا لهذا الإعلان الذى لا يليق أو يتسق مع روحانية موقع البابا الذى نتمناه ، ألا يعتبر هذا تنذيراً فى غير موضعه وإنفاقاً لا مبرر له ، وهل فاقد الشيء يعطيه ؟ فكيف نقول ونعظ ونكتب عن الاهتمام بالروحيات وبالحياة الآخرة ، وألا نجرى وراء شهوة الجسد ؟ كيف نقول ذلك وتصرفاتنا لا تكل على ذلك ، بل تكل على الاهتمام بالماديات على حساب الروحيات ٠٠ فهل سكن القصور وركوب السيارات الشبج والفخفة والمنظرة ٠٠ هل هذه هى روحيات الكنيسة فى مشارف القرن الحادى والعشرين ؟ وهل الاهتمام بالملابس المزركشة والمنندشة ، والتى لم يلبسها أى بابا فى تاريخ الكنيسة ، هل هذه هى الروحيات ؟! وهل بناء قصر فى منطقة أبو ثلاث فى الاسكندرية تكلف ٢ مليون جنيه كاستراحة مع القصور الأخرى فى الداخل والخارج هل هذه هى الروحيات ؟ وهل هذه المعيشة المترفة فى الوقت الذى توجد فيه كنائس وكهنة لا يجدون إلا القليل لسد احتياجاتهم ؟ هل هذه هى العدالة المسيحية ٠٠ وكيف نقول مع هذا إن المسيحية عطا وبذل واتضاع ؟ وهل هذه هى حياة الرهبنة التى تركتم العالم من أجلها وأقيمت عليكم صلاة الموتى فأين اتضاع المسيحى وأين تكشف الراهب ؟؟

أما ما جاء فى الإعلان مدفوع عن انجازات البابا من ناحية تأسيس المعاهد اللاهوتية والاميرة والكنايس بالمهجر ، فنحن لا نلكر على قداسته هذا بل نؤيده عليه ونشكره . ويستطرد حتى يصل إلى علاقة البابا بالطوائف المسيحية وهنا نقول للبابا : ماهى حقيقة العلاقة بينك وبين الطوائف المسيحية ؟ وهل مهاجمتك للطوائف مثل ماحدث فى اجتماع كهنة القاهرة فى ١٩٩٣/٩/٣٠ دليل على حسن العلاقة ؟ وهل قطعك للحوار بين الكنيسة القبطية والكنيسة الإنجيلية بسبب كتاب الدكتور رفیق حبيب . ابن رئيس الطائفة الإنجيلية فهل هذه

هي العلاقة الحسنة ؟ وهل يتم تقييم العلاقة بين الطوائف المسيحية بناء على مواقف خاصة أو وجهة نظر خاصة ؟ وهل رأى دكتور رفيع يجعلك تلطع الحوار ؟ وهل هذا هو نوع من التهديد لمن يريد أن يعبر عن آرائه وأفكاره ؟

أليس هذا هو نوعا من محاكم التفتيش ونوعا من التهديد الذى لا يلىق ؟ ولا أعلم بعد ذلك أية علاقة حسنة تلك التى تتحدث عنها ؟

أما ما جاء بالإعلان بخصوص ما يسمى بالديمقراطية فى الممارسة الكنسية والتشوق بشعار «على الشعب أن يختار راعية» ، أقول هل يحدث يا قداسة البابا أنك تجتمع مع الشعب فى الإبراشية الخالية وتسمع آراءهم حيث يقومون بتسمية اسم الشخص الذى يريدون رسامته أسقفاً هل يحدث هذا ؟ على العموم أنك برسامة أسقف القوصية ، التى كنت مشاركاً فيها منذ البداية أنك وأقول إن الشعب قد جاء بناء على أوامرك مرتين مرة سمع فيها منك النقد والتكريع بأنهم شعب لا يستحق أن يرسم له أسقف ، حيث لم يقوموا ببناء قصر فخيم للأسقف ، لكى يستقبل فيه بعد الرسامة ، فهل الذى يشغل قداسكم هو المنظر والترف ، وأن يكون الأسقف زعيماً بدلاً من أن يكون أباً . . . وكل ما يعنيتك هو أن يكون الأسقف ذا وضع رسمى اجتماعى لا دينى روحى . أما المرة الثانية التى قابلت فيها شعب القوصية فكانت المقابلة التى سبقت رسامة الأسقف بأسبوع وفيها تكلمت وأعلنت أنك ستقوم برسامة الأسقف ، ولكن لم يختار الشعب اسماً ولا أنت لم تذكر أيضاً اسماً . ولكن لم نعرف الشخص المزمع أن يكون أسقفاً إلا يوم الرسامة . فكيف تقول إن الشعب يختار راعيه كيف ؟ وكيف تسمح لنفسك أن تقول فى التقليد ، وهو المرسوم الذى يعلن رسامة الأسقف والذى يتصدر صالون قصر الأسقف فى الإبراشية ، تقول فى التقليد : إن الشعب بطوائفه جاء إليك واختار فلاناً لكى يكون أسقفاً . وهذا لم ولن يحدث ، وبعد كل ذلك تقول إن الشعب يختار راعيه كيف هذا ولماذا يألوهي ؟

أما فيما يخص المحاكمات الكنسية فأتركها للأباء الكهنة الذين يكتبون فى هذا الموضوع . أما الموضوع الأخير الذى جاء فى الإعلان وهو دور العلمانيين وأنهم يريدون أن يسيطروا على الكليروس ، فنقول إن الخدمة فى الكنيسة بالمفهوم المسيحى هى بذل وعطاء ونصيحة لا كسب وتسلط وسيطرة . فالعلمانى الذى يخدم يريد أن يكمل دور الكليروس لا أن يسيطر عليه وهذا يقال للعلمانيين ، كما يقال للكليروس أيضاً لكى لا يكون هناك طرف مسيطر على الطرف الآخر ، أما غير ذلك فسيكون سلوكاً بعيداً عن المسيحية ، وهذه بعض الملاحظات والآراء نقولها لصالح الكنيسة التى نرجو لها التقدم والازدهار كمؤسسة دينية مصرية وطنية ، وهنا يحضرني قول الكاتب المسرحى الفرنسى موليير عندما يقول فى إحدى مسرحياته : «سأصير قسيساً وأطلق لحيتى وأتحدث عن الفضيلة . سأمنح نفسى حرية واسعة وأهدد خصومى بالحرمان ! وسأعلن أنني صوت السماء . . . فمن أطاعنى فقد أطاع الرب . ومن خالفنى فلا مكان له على الأرض ، إنها السلطة المطلقة التى أحلم بها وويل للمعارضين» . انتهى مقال الأستاذ جمال أسعد عبد الملاك .

إن هذه الوقائع تدل دلالة قاطعة على أن البابا استطاع أن يحكم هيمنته على الكنيسة واجهزتها ويديرها بيد من حديد ويفرض جواً من الارهاب على الجميع ، وهي تثير التساؤل عن السلطات التي تتمتع بها الرئاسات الكنسية ومدى توافقها مع حقوق الإنسان وضمانات الديمقراطية : لقد كان الذي نُفِرَ أوروبا من المسيحية هو استبداد سلطات الكنيسة واستئثارها بالأمر واستهدافها الحكم والنفوذ ، وهذا ما تمارسه السلطات الكنسية هنا . إن التستر وراء الدين لا يبرر أبداً إلحاق ظلم بأحد ، وإنما جاءت الأديان جميعاً لتحقيق العدالة وتوفير الكرامة .

وكل هذه الكتابات الموثقة من كتاب أقباط تؤكد أن الكنيسة قد وقعت في خطأ جسيم عرضها لنقد لاذع لم يسبق أن وجه مثله لأحد من الذين حملوا دعوة واسم القديس مرقس الشهيد المتقشف ، ولأبد أن هناك سبباً سيكولوجياً عميقاً يحمل البطريك على أن تظهر صورة مثل «شارلمان» تماما مع فارق واحد هو أن شارلمان يمسك بسيف عريض ، بينما البابا يمسك بعصا طويلة ، باستثناء هذا فإن صورة شارلمان وصورة شنودة تنطلقان بالجبروت والسلطة والقوة ، وهذا اذا صح بالنسبة لشارلمان فإنه لا يجوز لرمز المسيح ومخلص النفوس .

\*\*\*

### ظهور الجماعات الإسلامية والتيار المتشدد :

كان ظهور الجماعات الإسلامية والتيارات المتشددة التي اقترنت بها من العوامل التي أرهفت حس الكنيسة واستندت عليها في تبرير مواقفها وصياغة سياستها . . . وأن كان هناك من يرى العكس : ان سياسة الانبا شنودة التي سبقت ظهور هذه الجماعات بوقت قصير وعاصرتها ، كانت من العوامل التي ألهبت مشاعر لقيف من الإسلاميين المتطرفين ، واضطرتهم إلى اتخاذ موقف متشددة ، على نقيض الموقف التقليدي للهيئات الإسلامية تجاه الأقباط الذي كان يتسم بقدر كبير من المجاملة .

ولكننا على كل حال لن نشغل أنفسنا بتحقيق هذه النقطة ، وقد بسطنا رأينا عن الجماعات الإسلامية في عدد من كتبنا<sup>(١)</sup> ، وباختصار فإننا نرى أنها الثمرة المرة لسياسة الطاغوت الناصري وما حفلت به ديكتاتوريته وارهابه وتعذيبه ، فكان لا بد من رد فعل لهذه السؤات بمجرد موته ، وانقضاء عهده ، واتسم رد الفعل بكل مافي

---

(١) أنظر كتابنا «رسالة الى الدعوات الإسلامية» وكتابنا «الفريضة الغائبة : جهاد السيف أم جهاد العقل» وهو ردنا على ماجاء في كتاب «الفريضة الغائبة» . . . دار ثابت - القاهرة .

الفعل من سؤات ، فضلا عن أن السادات ، وقد ورث تركة مثقلة ومراكز قوى وتكتلات ناصرية وشيوعية ، أراد أن يضرب هذه القوى المناوئة له ، فلم يجد إلا هذه الجماعات ، فأطلقها لتثار لنفسها من الناصرية المقيتة !

ومن الواضح بالطبع أن السادات - رغم أنه كان بطبيعته كفلاح مصرى ، وخلال فترة تشرده وتعرفه على الإخوان تعرفا وثيقا - أقرب إلى الإسلام من عبد الناصر . . ولكن من الخطأ الفاحش الظن أن الإسلام كان محور فكره السياسى ، فقد كان ضابطا ، وكان مصطفى كمال أتاتورك مثله الأعلى حينما ما ، وكان يحكم السلطة والمزاج يتعد عن أثر الفطرة والقرية وذكريات الإخوان ، وقد تورط مع عبد الناصر طويلا . . وكان العامل الأساسى فى تشجيعه للجماعات الإسلامية هو القضاء على خصومه الذين كانوا خصومهم أيضاً . . . . سياسسته قامت على أساس تكتيكي ( عدو عدوى صديقى ) . . وعندما أجهزت الجماعات الإسلامية على فلول الناصريين والشيوعيين ، وكشفت سؤات الناصرية ، انتهت مهمتها بالنسبة للسادات ، وأصبحت بالتالى خطرا عليه ، وجاوزت فى اسلاميتها وعداوتها للناصرية الحدود الساداتية !

على أن هذا التطور الذى انتهت إليه الأمور لم يظهر إلا فى السنوات الأخيرة من حكمه ، أما السنوات الأولى فهى سنوات الوفاق . . ويبدو مع هذا أن السادات أراد شيئا فشيئا أن يجرد الجماعات الإسلامية من أوراقها الراجعة ومن دعوى ( تطبيق الشريعة ) . . فأوعز بأن يتقدم الأزهر بمشروع قانون للحدود ، وآخر عن الردة !

ولم يكن الإنسان بحاجة الى ذكاء خارق ليعلم أنها «مناورة» ، وأنه لم يدر بمخاطر الحكومة أبداً أن تعتزم إصدار مثل هذين القانونين اللذين كانا يستتبعان ثورة تشريعية واجتماعية ، يمكن أن تعصف بالنظام نفسه !

ولو كان على رأس الكنيسة القبطية أب مثل كيرلس الخامس لما حرك ساكنا ، ولترك المناورة حتى تكشف نفسها دون أن يورط الكنيسة فى شىء ، والقوانين فى كل الدول الديمقراطية تعرض على المجالس التشريعية المنتخبة ، وتعرض للنقاش على صفحات الجرائد وعلى كل حال فما دامت هذه القوانين - على طبيعتها الإسلامية لاتمس حرية العقيدة ، فلا يجوز لهيئة أن تحتج عليها ، فما دام مجلس الشعب المصرى أجاز عقوبة السرقة ، يفترض أن تطبق ، كما يطبق أى قانون ، ولا يجوز التعلل بأن هذه العقوبة لها أصل اسلامى وبالتالي فلا يجوز أن تطبق على الأقباط ، لأنها لاتمس حرية العقيدة

في شيء ، وإنما يجوز للأقباط الاحتجاج لو أصدر المجلس قانونا يحول بينهم أو يضيق عليهم ممارسة شعائهم الخاصة ، أو يميز بينهم في الوظائف على أساس الدين ، . . . إلخ ، وهذه تلك مستبعدة من قانون الحدود . . .

ولكن الأنبا شنودة أراد أن يتخذ منها مناسبة لاستعراض قوة ، فسمح بعقد أخطر مؤتمر ديني مسيحي في تاريخ البلاد منذ ستة وسبعين عاما (أى منذ عقد المؤتمر القبطي سنة ١٩١١) وأصدر بيانا طالب فيه بإلغاء مشروع قانون الردة واستبعاد التفكير في تطبيق الشريعة الإسلامية على غير المسلمين ، وإلغاء القوانين العثمانية التي تقيد بناء الكنائس ، واستبعاد الطائفية من الوظائف العامة على مختلف المستويات ، وحرية النشر !

ولاحظ الكاتب القبطي الدكتور غالى شكرى أن البيان الذى أصدره هذا المؤتمر كان واضح التطرف والطائفية معا في استخدام تعبيرات مثل «الشعب القبطي» و «السلالة العريقة في القدم»<sup>(١)</sup> . . .

وحرك الأنبا شنودة أجهزته الخارجية المتمثلة في الجاليات القبطية في استراليا وكندا والولايات المتحدة ، التي أمطرت الحكومة المصرية ، كما استعدت كل حكومات العالم بمئات العرائض والمقالات التي تتحدث عن انتهاك المسلمين لحقوق الأقلية القبطية في مصر !

وهكذا أصبحت هناك «مسألة قبطية» في الاعلام الخارجى . . . حتى أن مجلة متخصصة صدرت بالفرنسية في باريس تدعى «العالم القبطي» ، وكتب في عددها الأول (الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان ، والرئيس السنغالي ليوبولد سنجور)<sup>(٢)</sup> . . . بالاضافة الى الرئيس أنور السادات نفسه !

وكان واضحا كل الوضوح أن البابا ، وقد لعب لعبة السياسة والدنيا ، كاد أن ينزلق الى حالة لايملك هو نفسه التحكم في القوى التي أثارها أولا . . . كما حدث تقريبا للسادات والجماعات الإسلامية .

وكانت هذه السياسة شديدة البعد عن السياسة المقررة للكنيسة المصرية ، وعارضها بشدة عدد كبير من الكهنة والآباء وعلى رأسهم الأب «متى المسكين»

(١) الثورة المضادة في مصر د . غالى شكرى ص ٢١٤ (كتاب الأهالي) .

(٢) المرجع السابق ص ٣١٥ .



الذى عرض في لقاء مع الأستاذ مكرم محمد ، الفكرة المسيحية النقية عن دور الكنيسة ، وأن الكنيسة لاتتدخل مطلقا ، حتى في الأعمال الخيرية ، وأن عملها الوحيد هو تخليص الروح بالبشارة . كما كان عدد من ممثلي الكنائس قد أعربوا عن موافقتهم على تطبيق الشريعة عندما أجرت مجلة الدعوة حوارا معهم ( فبراير ١٩٧٧ )<sup>(١)</sup> .

### اللبس التاريخي :

من الأسباب التي أسهمت في سلوك الأقباط مسلكا خاصا ، أنهم وقعوا في «لبس تاريخي» كان له تأثير على تصورهم الموقف واصدارهم الأحكام .

ذلك اللبس هو أن الأقباط هم «السلالة العريقة والنقية للجنس المصرى ، وأن المسلمين يعودون الى أصول عربية وافدة جاءت مع جيش عمرو بن العاص ، أو خلال الهجرات العربية العديدة الى مصر . . وأن مصر كانت قبطية حكومة وشعبا ولغة ، حتى جاء الفتح الإسلامى فأفقدنا هذا وألحقها بالإسلام»!

وهذا الظن يخالف الوقائع التاريخية ، فإن جيش عمرو بن العاص والهجرات الوافدة ماكان يمكن أن تكون أغلبية الشعب المصرى . . والذى حدث هو أن أعدادا غفيرة من الأقباط على امتداد ألف عام اعتنقت الإسلام لأسباب معروفة نشأت عن السياق التاريخى خلال هذه الحقبة الطويلة ما بين رغبة في الوصول الى المناصب الكبرى والبارزة في المجتمع ، أو الخلاص من صور من المظالم التي كان بعض الولاة الجهلة يوقعونها على الأقباط ، مما لا يخلو منه أى تاريخ ، ومنها بساطة العقيدة الإسلامية ، والمثل الجذابة للشخصيات الإسلامية الكبرى من الرسول ﷺ والخلفاء وواعرف عنهم من عدل ، ومنها روح المساواة الإسلامية التي كانت تسوى بين كل من يدخل الإسلام مهما كان جنسه أو لونه أو وضعه الطبقي ، أو حتى ماضيه ، وما بين بقية المسلمين دون حساسية ، وأن فكرة الإسلام عن المسيح ، وأنه رسول وليس الها كانت موجودة في مصر قبل الإسلام ، وأن الأريوسية ، التي ظللت الأفق المسيحي قرونا عدة نشأت في الإسكندرية ، كما أن فكرة عدم صلب المسيح ورفعها الى السماء وجدت في مصر . . ونقرأ في كتاب «المنارة التاريخية» في الحديث عن عهد الامبراطور الرومانى كومودوس سنة ١٨١ - ١٩٤ «ومن هذا الحين بدأ الانقسام والخلاف بين المسيحيين وذلك لأن

(١) يمكن الرجوع الى نص الأسئلة والإجابات في كتابنا . الدعوات الإسلامية المعاصرة مالها وواعلها

أمزجة القبط أهل الصعيد نسل عباد ثيبة الورعين ، كانت غير أمزجة الأغرقيق المرحى نسل عباد قيريس وبروزرين أو برسوفين ، فأولئك تعبدوا وتقشفوا ونسكو وقالوا حاشا للمسيح أن يصلب بل شبه ذلك للناظرين وأن الله رفعه سالما حيا ، وأولاء رأوا بالدين الجديد ما يشهد قريحتهم على الفلسفة فقالوا بخلاف ما قاله القبط . . وقد عد الاختلاف بينهم كفرا من الطرفين ( ص ١٠٣ ) (١) .

كما نقرأ في الحديث عن عهد الأباطور يوستن الأول ( ٥١٨ - ٥٢٧ ) أن أسقف كنيسة سوريا سويروس هرب الى الاسكندرية لأنه أخذ بمذهب مصر اليعقوبى «وإنما بوصوله لها وجد أنه لا يمكنه أن يصادق على مذهب المصريين برمته أيضا ، وأن مذهبه لم كان بأن يسوع لم يصلب بل شبه للناظرين كما جاء بعد بالقرآن ، ومذهبه لم يكن كذلك» (ص ١٨٩) وأخيرا فنحن نقرأ عند الحديث عن هرقل (ص ٦١٠) من أن «أسقف الاسكندرية يوحنا بن حاكم قبرص ظفر برضا المصريين أبدى من الإحسان والرأفة بالفقراء ما أكسبه لقب المحسن وخلال الخمس سنين الأولى من أسقفيته بنى عدة مستشفيات للمرضى وتوليد النساء ونزلا للباتسين ، وكان مذهبه بالمسيح أنه لم يصلب بل شبه لهم» .

فهذه النصوص كلها توضح أن ما جاء به الإسلام لم يكن غريبا عن الفكر القبطى الى درجة دفعت بمؤلف «المنارة التاريخية» لأن يقول «الإسلام ديننا هو دين التوراة والإنجيل ، ومذهبا وشريعة هو أحد المذاهب المسيحية الجدلية» (ص ٢١٣) . . مما سهل على الأقباط اعتناق الإسلام ، بالإضافة الى العوامل الأخرى التى التى أشرنا إليها وكما هو معروف ، فإن الفاتح الإسلامى لمصر كان عمرو بن العاص ، وهو رجل دولة وسياسة قدر ماهو رجل دين وشريعة ، ولهذا قرب إليه البابا بنيامين ، ووضع مبدأ تقريب الأقباط وهو المبدأ الذى أدى بعد ذلك الى الإستعانة بهم فى أجهزة الدولة ، خاصة ما يتعلق بالمال وتحصيل الضرائب ، مما كان لهم خبرة خاصة فيه ليست للعرب ، واستمر هذا التقليد من عمرو بن العاص حتى الخديوى اسماعيل ، والسادات ، ومبارك . .

وقد كانت سياسة الحكام المسلمين هى دعم الأقباط والاستعانة بهم ما أمكن ذلك . . وقد كان المهندس الذى أقام مسجد بن طولون الشهير هو ابن كاتب الفرغانى

(١) المنارة التاريخية فى مصر الوثنية والمسيحية ، تأليف اسكندر صيفى ، المطبعة العصرية ، ص ١٠٣ .

المهندس القبطى الذى كافأه ابن طولون بعشرة آلاف دينار ، وأجرى عليه الرزق طيلة حياته .

وكان للأقباط خلال عهد الفاطميين صلة وثيقة بالحكام ، وولى العزيز بالله (ابن المعز لدين الله ) بن مينا الملقب بأبى اليمن حكم فلسطين ، وكان هذا القبطى أمينا على أموال الدولة التى تعرضت للضياع وكافأه بأموال كثيرة أعطاها للبابا ابرام بن زرعة لينفقها على الكنائس والأديرة . . وكان الشيخ المكين أبو البركات الكاتب المعروف بابن كتامة هو كاتب الدولة فى عهد خلافة الفائز بنصر الله الفاطمى ، وجدد وأقام عددا كبيرا من الكنائس . . وكان أبو القديس برسوم العريان كاتباً لشجرة الدر ، وترك له أموالا طائلة فزهد فيها وانصرف الى العبادة . . وظهر أبناء العمال الثلاثة الذين سجلوا بالعربية القوانين والعقائد القبطية ، وكانت معرفتهم بالشرعية الإسلامية لا تقل عن معرفتهم بالشرعية القبطية .

وتعرض عامة الأقباط لما تعرض له عامة الشعب لعسف المماليك . . ولكن كبراء الأقباط تعاونوا مع المماليك فى عمليات جباية الضرائب وظفروا منهم برعاية كبيرة خاصة فى الأيام الأخيرة لهم التى عاصرت الحملة الفرنسية وظهر المعلم ابراهيم الجوهري والمعلم جرجس الجوهري والمعلم رزق والمعلم غالى وهو أول من منح رتبة البكوية من الأقباط . . ونقرأ فى الجبرتي عن ثراء ومنزلة هؤلاء وأنهم كانوا من الشخصيات الكبرى البارزة فى الدولة حتى نصل الى اسماعيل باشا الذى وهب الأقباط ١٥٠٠ فدان لتخصص ريعها على المدارس القبطية ( ص ٢١٦ عصر اسماعيل ، جزء ١ ) وحتى نصل الى عبد الناصر والسادات ومشاركتهما فى بناء الكاتدرائية الكبرى فى العباسية .

بل إننا نجد أن أحد الأقباط الذين أسلموا وصل الى درجة المشيخة للأزهر وأنه كان واحدا من خمسة أو ستة من الشيوخ الكبار الذين تصدروا مسرح الأحداث وتولوا اصدار القرار فى تلك السنوات الحاسمة ما بين خروج الفرنسيين وتولية محمد على .

وهذا السجل الطويل من التسامح بقدر ما شجع أعدادا كبيرة منهم للتحويل الى الإسلام ، بقدر ما حفظ للأقباط كياناتهم . .

وهكذا يتضح من هذا العرض أن أغلبية المسلمين المصريين تعود الى الأقباط الذين أسلموا على امتداد ألف عام ، وأن ماجاءت به الهجرات العربية تعد قلة بالنسبة لهم ، وليس أدل على أن المسلمين والأقباط جنس واحد ، هو أنك لا تجد فرقا بيولوجيا أو

اثينيا بين مسلم وقبطى ، فهم جميعا لهم ملامح واحدة ، وقد أدرك هذه الحقيقة بدهاءة الفنان شوقى ، ووضعها موضعها السليم :

ألستم بنى القوم الذين تجبروا  
على الضربات السبع فى الأبد الخالى  
رددتم الى فرعون جدا وربما  
رجعتم لعم فى القبائل أو خال

وهذه الحقيقة هى ما تتفق مع دعوى الأقباط أنفسهم عن الشعب المصرى الواحد الذى لا يختلف فيه المسلم عن القبطى ، ويتفق مع الظاهرة الجغرافية/ التاريخية المعروفة عن مصر جيدا ، ألا وهى أن مصر بوتقة تصهر الأجناس ، وأن الأجناس السودانية والحبشية والشركسية والأرمنية . . . أُلخ كلها انصهرت فى بوتقة مصر ، ولم يعد هناك فرق بعد عدة أجيال بين أبنائهم والمصريين الأصلا .

ويعرض بعض الأقباط تاريخ مصر كما لو كانت قبل الفتح الإسلامى قبطية لغة وحكما ، حتى جاء الفتح فأفقدوها هذا كله وغير مسارها وأنزها منزلة التبعية للإسلام .

ويتطلب تمحيص هذه الدعوى المترسبة فى أذهان كثير من الأقباط ، أو التى نخدها فى بعض كتابات الأوروبيين ، الرجوع الى التاريخ وحقائقه الصلبة .

فعندما ظهرت المسيحية كان الشعب المصرى يعتنق الديانة المصرية القديمة بعد أن تأثرت ببعض المؤثرات اليونانية خلال حكم البطالمة ، حتى وقعت فى يد الرومان أثر هزيمة اكنيوم سنة ٣١ قبل الميلاد ، وكان الرومان وثنيين ، وكانوا يتقبلون الديانات الوثنية .

ودخلت المسيحية مصر عام ٥١ بعد الميلاد على يدى القديس مرقس الإنجيلى تلميذ بطرس الرسول .

وتعرضت المسيحية الوافدة لثلاثة عوامل عوقت مسيرتها ولبدت سماءها :

- الأول - مقاومة اليهود والاغريق والمصريين القدماء .
- الثانى - الارهاب الرومانى .
- الثالث - الصراعات المذهبية .

وفيما يلي فقرة موجزة عن كل عامل من هذه العوامل :

### العامل الأول :

عندما دخلت المسيحية كانت الغلبة والسيطرة الفكرية لليهود والأغريق بينما كان الشعب متمسكا بديانة آباءه وأجداده ، وقاوم الجميع الديانة الجديدة وظلت لهم الغلبة حتى أصدر الأمبراطور تيودوسيوس أوامره بتدمير الهياكل والمعابد المصرية سنة ٣٧٩ ، وعندئذ هرب كهنة هذه المعابد إلى الصعيد وأقاموا به ، وفي عهد الإمبراطور ثرقيان سنة ٤٥٠ ، نسمع أن المسيحية تلاشت من الصعيد ، وعادت الوثنية الى ماكانت عليه ، وأن بعض الذين تنصروا رجعوا يصلون لايزيس وسيرايس<sup>(١)</sup> .

ولم تكن مقاومة الأغريق بأقل من مقاومة كهنة المصريين القدماء ، ونحن نعلم أن ثقافة اليونان انتقلت الى الإسكندرية والى أثينا ، وبعثت في الإسكندرية بعد أن ماتت في اليونان ، وأن أعظم العلماء والفلاسفة عاشوا في الإسكندرية منذ أن أحيها البطلمة ( الذين كانوا يونانيين ) وأسسوا فيها مكتبتها الكبيرة العظيمة ( سبعمائة ألف كتاب ) . . . ولهذا لم يكن من السهل أن تستسلم الفلسفة اليونانية العريقة والمؤهلة للثقافة المسيحية الجديدة الوافدة ، وظلت الثقافة اليونانية هي سيدة الموقف ردحا طويلا . . . ونقرأ في المنارة التاريخية أنه خلال حكم الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني ( ٤٠٨ - ٤٥٠ ) زار الإسكندرية بعض شبان الأرمن لدرس اللغة اليونانية وتصحيح ترجمة الكتاب المقدس ، فلم يجدوا أستاذا مسيحيا ، واضطروا لدخول المدرسة الأفلاطونية التي كان رئيسها سيراقوس (ص ١٧٣) . بل نقرأ أن معبد إيزيس في جزيرة فيلة ظل حتى عهد مرقيان ٤٥٠ - ٤٥٧ ملجأ للوثنيين وان المسيحية لم تدخلها الا في عهد الأمبراطور ريوستن الثاني ٥٦٦ - ٥٧٨ . كما نعلم في مرحلة لاحقة تلك الحادثة المشهورة عن «هيثايا» ابنة ثيون التي كانت تدرس العلوم والفلسفة اليونانية وهاجمها أتباع البطريك كيريل واستلواها من عجلتها ، وجروها وراءهم ، ثم جردوها من ثيابها ورجعوها ومزقوها اربا اربا ، وكان ذلك في الصوم الكبير سنة ٥١٤ مما يوضح أن نفوذ الأغريق الوثنيين كان قائما ومؤثرا حتى أوائل القرن السادس أى قبل دخول العرب بقرن واحد . . .

(١) المنارة التاريخية في مصر الوثنية والمسيحية ص ١٨١ .

والعامل الثاني ، الذى أثر على تاريخ الأقباط منذ ظهور المسيحية حتى دخول العرب هو الإرهاب الرومانى ، فمصر كانت قد وقعت فريسة للاحتلال الرومانى عقب هزيمة اكتيوم سنة ٣١ قبل الميلاد ، وعندما ظهرت المسيحية تعرضت لنوبات من الاضطهاد من أباطرة الرومان الذين كانوا وثنيين ، وكان أبرز نوبات هذه الاضطهادات اضطهاد نيرون سنة ٦٤ واضطهاد تراجان سنة ١٠٦ ، ولم يصب قبط مصر من هذه الاضطهادات إلا نذر يسير لجدة المسيحية ، ولكن اضطهاد دقيوس ( وقد يكتب ديسيوس ) من سنة ٢٤٩ - ٢٥١ - نال الأقباط وأدى إلى نفى أسقفها ديونسيوس وأريمانوس وهرب عدد كبير من المسيحيين إلى الصحراء وكان منهم شاب اسمه بولا وهو الذى صار الناسك الأول فى الصحراء .

وأخذت نوبة الاضطهاد خلال عهد دقلديانوس سنة ٣٠٣ ذروة الاضطهاد ، وأمر بهدم الكنائس واحراق الكتب وقتل المسيحيين اذا لم يرجعوا عن دينهم ، وتبالغ بعض المصادر القبطية فتصل بعدد شهداء الأقباط الى ثمانمائة ألف أو مائة وأربعين ألفا ، منهم معظم الذين تحتفل بهم الكنيسة القبطية مثل القديس يوحنا الشهير بالعجائبي والقديس تادرس والقديس يوليوس والقديسة ديميانة .

وقد جعل الأقباط تقويمهم يبدأ بسنة ٢٨٤ التى ارتقى فيها دقلديانوس عرش الملك واعتبروها السنة الأولى للشهداء .

وفى سنة ٣٢٣ اعتنق الأباطور الرومانى قسطنطين المسيحية وانتهى اضطهاد المسيحيين من قبل الوثنيين ، ولكنه بدأ فى صورة جديدة ، ذلك أن مذهب قسطنطينية كان يختلف عن مذهب الاسكندرية ، وكان هذا يؤدى الى صور عديدة من الاضطهاد .

وهذه الصور من الاضطهاد أدخل فى باب العامل الثالث أى الصراع المذهبى الذى شغل صحابه العهد القبطى للبلاد والذى ظهر بشكل حاد ما بين أريوس واثناسيوس . وكلاهما من الإسكندرية . ووصلت حدة النزاع أن أثر أتباع اثناسيوس فى إحدى جولات الصراع حرق كنيسة الإسكندرية على أن تقع فى يد الآريوسيين .

والحقيقة أنه ما إن اعتنق قسطنطين المسيحية وأصبحت ديانة المملكة ، حتى انتهت الوحدة التى كان الاضطهاد يعمقها ، وبدأت الاهواء والمطامع التى تصطحب بالسلطة من عهد قسطنطين حتى الفتح الإسلامى ، فكان الفتح الإسلامى وحده هو الذى

أراح الكنيسة القبطية ، ومكنها من أن تعمل دون مقاومة أو اضطهاد المذاهب الأخرى ولما تكرر - في الفترة المعاصرة - وصول بعثات بروتستنتية من أمريكا استنجدت الكنيسة بالحكومة التي نصرتها على هذه الطوائف .

ولا يتسع المجال للحديث عن هذه الصراعات ولا عن السبب اللاهوتي فيها الذي أدى الى عقد المجمعات المسكونية الأربعة التي صال وجال فيها أساقفة الإسكندرية وكاثولاً هم أباطاها وهي مجمع نيقيه سنة ٣٢٥هـ، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ومجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ ومجمع أفسس الثاني سنة ٤٥١ ، ومجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ . وكانت هذه المجمع تقرر مبدأ ثم تعود فتتفيه وتنقضه في مجمع آخر ، أو تضع تقليداً يكمله مجمع آخر . كلها تدور حول نقط لاهوتية تتعلق بالثالوث والاقانيم وطبيعة المسيح . . . . . أطلع .

على أن هذه الخلاقات النظرية كانت تنتهي بمذابح ما بين الفرق المختلفة والمتناحرة ، وفتن لا يصرفها الا تدخل السلطة !

ويكفي فحسب أن نأخذ احدى صور الاضطهاد التي حدثت خلال حكم الامبراطور يوستينيان ( ٥٢٧ - ٥٦٦ ) أى قبل الفتح الإسلامى ببضعة عقود من السنين ، نقلا عن «المنارة التاريخية» :

لما آل الحكم الى يوستينيان دعى الأسقفين من الإسكندرية للعاصمة ، ثم أبعدهما وأقام بولس أسقفا واحدا عوضهما ليعمل بقانون مجمع خلقيدونيا ، وبعد سنتين أبطله بالأسقف زويلوس بالرغم عن ارادة المصريين ، فأحتلوه ست سنوات ثم طردوه وطردوا كافة أساقفة المذهب الإغريقى . . . . .

وإذ بلغ الامبراطور ما أجراه اليعقوبيون ، بعث ابولينا ريوس أسقفا وحاكما على الإسكندرية فدخلها على رأس الجنود بزيه العسكرى ، ولما وصل للكنيسة خلع ثوبه العسكرى ولبس بخلته الأسقفية ، وبأشرف تلاوة الصلاة ولكنه لم يفتح فاه حتى أتاه الرجم من كل مكان واضطر الى الفرار من الكنيسة ، فمكث ثلاثة أيام ، ثم أرسل مناديا بالأسواق يدعو الناس الى الكنيسة لاستماع قراءة كتاب الامبراطور الأحد المقبل . . . فاجتمعوا ، وإذ افتتح خطابه يتهددهم بالقتل ، والنساء بالنسبى ، رجموه كالأول ، لكن بإشارة منه دخلت الجنود الكنيسة شارعة سيوفها فوقعت على القوم تضربهم حتى جرى الدم للركب وانصرف منهم من سلم . . . وبعد ذلك لم يجترئ أحد على مقاومة الأسقف الأغرريقى الملكى . . . وهذا كان أصل الرجم الملكيين، (ص ١٩٠ - ١٩١) .

وكان المشهد الأخير هو تولية الأسقف تيروس الماروني الذي كان على مذهبه بالقول بالطبيعتين والمشيفة الواحدة خلافا لمذهب الملكيين القائلين بالطبيعتين والمشيتتين والمذهب يعقوبى القائل بالطبيعة والمشيفة الواحدة . . فازداد هؤلاء نفورا من الإغريقى وكرها له . وهكذا لما دخل عمرو بن العاص مصر وجدهم من أنصاره ضد الروم ٤٠٠٠ (ص ٢٠٥) المنارة التاريخية .

\*\*\*

من هذا العرض يتضح أن :

(١) أن الأغلبية الإسلامية فى مصر تعود ، أصلا ، الى اعتناق معظم الأقباط للإسلام على امتداد ألف عام ، وأنه ليس هناك تفرقة عرقية بين المسلمين والأقباط ، فهم جميعا يعودون الى أصل واحد ، فضلا عن أن القلة التى جاءت بها الهجرات تكفلت بها البوتقة المصرية فصهرتها تماما .

(٢) أن الفترة القبطية فى تاريخ مصر تعرضت لمقاومة شديدة من المصريين الذين احتفظوا بديانتهم القديمة ، ومن الوثنيين الأغريق ومن اليهود الذين كانوا سادة فى الاسكندرية وأن هذا الوجود الوثنى زاحم المسيحيين واستمر حتى العقد الأول من القرن السادس الذى حدث فيه حادث هيباثيا ذو الدلالة (٥١٤) بحيث أن المسيحية لم تكن دين مصر الوحيد الا أقل من مائة عام .

(٣) أن الديانة القبطية تعرضت لاضطهاد منذ أن آمن القبط بها . وفى القرون الثلاثة الأولى كان الاضطهاد الروماني الوثنى من أباطرة روما وفى القرون الثلاثة التالية كان الاضطهاد من أباطرة القسطنطينية (بيزنطة) لاختلاف المذاهب .

(٤) خلال هذه الفترة كلها لم يل الأقباط الحكم الذى كان فى يد الرومان ، ولم يكن لهم جيش ، ولم تكن لهم سيادة ، ولم تكن لهم لغة<sup>(١)</sup> ، وكانت قوتهم فى الحقيقة تعود الى إيمانهم ، هذا الإيمان الذى نجد مفاتيحه فى الشخصية المصرية ، وما أشرنا إليه من أنها شخصية «إيمانية» يمثل الدين جزءاً عضويًا فى تركيبها .

(١) كانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية خلال عصر البطالسة والعهد البيزنطى وقد كتب بها جميع آباء وعلماء الكنيسة فى الإسكندرية ، وكانت اللغة القبطية مقصورة على حاجة الكنيسة لتعليم الشعب أصول الدين خاصة فى الأرياف . . وقد قامت اللغة القبطية على حروف يونانية عدتها ٢٥ حرفا أصيغت إليها سبعة حروف من المصرية القديمة فى آخر مراحلها وهو الخط الديموتيكى ، وأضيفت إليها ألماظ يونانية وعبرية ولاتينية ، وكان لها عدة لهجات منها اللهجة المنفية نسبة الى سف وهى لهجة القاهرة وغرب الدلتا ، واللهجة الصعيدية ، واللهجة الفيومية ، واللهجة الأخميمية ، واللهجة البشمورية نسبة الى شمرور التى كانت جهات عامرة فى الدقهلية . . وبعد الفتح الإسلامى علا شأن اللغة القبطية حيا ، ولكنها تدهورت وحلت محلها العربية واعتمدها لغة رسمية فى الطقوس . البطريرك غبريال باتريك (١١٣١ - ١١٤٥) .



(٥) إن الكنيسة المصرية تدين بحريتها واستقلاليتها ووجودها ، إلى الحكم الإسلامي الذي كلف عنها عدوان المذاهب الأخرى ، ومكنتها من أن تنمو في جو من السماحة والسلام .

\*\*\*

## الاختراق الصهيوني للفكر المسيحي :

هذا عامل قد يكون محدود الأثر ولكنه لا يخلو من دلالة ، ويمكن لو ترك ، أن يتضخم وهو الاختراق الصهيوني للمسيحية في الولايات المتحدة ، الذي ركز على نقطة معينة في الكتاب المقدس . وبلور فيها فكرتها ، وكان الفضل في لفت الأنظار إليها لكاتب قبلي نابه هو الدكتور رفيق حبيب عندما أصدر كتابه الهام «المسيحية والحرب» .

وما يهنا من الكتاب هو أمرين : الأول عرض للفكرة الرئيسية للأصولية المسيحية بتأثير الاختراق الصهيوني في الولايات المتحدة . . والثاني مدى نجاح هذه الأصولية في اختراق الكنيسة المصرية واصطناع أتباع لها بين الأقباط . .

إن خير ما يوضح النقطة الأولى هو كتاب هل لندسي «الكوكب الأرضي العظيم الراحل» الذي بيع منه ١٨ مليون نسخة واعتبر الأول في المبيعات للكتب غير الروائية ، ويأتي في المرتبة الثانية بعد الكتاب المقدس :

يقول الدكتور رفيق حبيب :

«والكتاب ليس في العقيدة فقط ، بل هو عن السياسة والتاريخ أيضا ، ففيه يشرح الكتاب تاريخ العالم ، من وجهة نظر عقائدية ، فيفسر كيف يتفق التاريخ الماضي مع نبوءات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، وبالتالي يمتد بالتاريخ إلى المستقبل ، ليشرح ما سيحدث في المستقبل ، طبقا لنبوءات الكتاب المقدس ، حسب فهمه لها ، والرؤية في مجملها تدور حول تحديد قوى الشر وقوى الخير في العالم ، وكيف سيبدأ العد التنزلي لنهاية العالم من خلال تجمع اليهود من الشتات في دولتهم في فلسطين ، ثم تتجمع قوى الخير لتتحارب قوى الشر ، في معركة هرمجدون ، وهي في موقع في فلسطين ، وفي هذه المعركة تنتصر قوى الخير على قوى الشر ، ويأتي المسيح ليحكم العالم أجمع ، حكما أرضيا فعليا لمدة ألف سنة كاملة ، هي الألف سنة السعيدة . ولندسي يرى أن العد التنزلي للنهاية قد بدأ وأن هذا الجيل سوف يشهد قيام الملك الألفي .»

Lindsey, Hal. The late great planet earth. Michigan Zondervan 1997.

(١)

وعبر صفحات الكتاب ، يتعرض الكاتب إلى الدول المختلفة ، فروسيا ضمن قوى الشر ، كذلك العرب والمسلمون ، وبابل سوف تسقط تمهيدا للحرب الأخيرة . وليبيا ، ضمن قوى الشر . والحكومات العربية الموالية لروسيا ، مثل حكومة جمال عبد الناصر ، هي جزء من قوى الشر المتحالفة على قوى الخير المسيحية . لذلك فإن انتصار إسرائيل في حرب ١٩٦٧ ، هو جزء من الخطة الإلهية ، لانتصار قوى الخير ، وأقيام دولة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، ليتجمع فيها كل شعب الله المختار . حتى عندما تقوم الحرب الأخيرة ، ويموت جزء كبير من اليهود في الحرب ، يأتي المسيح ويعطى لشعبه المختار المتبقى ، فرصة أخيرة ، حتى يلبوه كمخلص للعالم . فاليهود كشعب مختار ضد الطريق ، ولكن الله لا يتخلى عن شعبه المختار ، لذلك تنزل له مكانة خاصة ، وتنزل له فرصة أخرى . فكل قوى الشر تتعظم في حرب هرمجدون ، ويذهب الأشرار إلى جهنم ، وكل من رفض المسيح كمخلص للعالم . ولكن شعبه المختار ، الذي رفضه ، يعطى فرصة أخرى ، حتى يقبله ، (ص ٤٢ - ٤٣) .

وقد استطاعت حركات الأصولية الصهيونية/ المسيحية أن تنشر هذه الفكرة في الرأي العام الأمريكي ، وتدسها في هيئات عديدة . وتأثر بها الرئيس الأمريكي رونالد ريجان ، وكانت وراء السياسة الأمريكية المؤيدة لاسرائيل بلا تحفظ وعلى طول الخط . .

أما عن النقطة الثانية ، وهي دخول هذا الفكر الصهيوني المسيحي مصر . . فقد حملته هيئات أمريكية الأصل مثل هيئة البحارة Navigators التي تأسست عام ١٩٣٣ كمنظمة إرسالية إنجيلية تهدف إلى تنمية قيادات روحية يقومون بقيادة الآخرين ليتبعوا طريق المسيح ومدت نشاطها إلى ستين دولة من دول العالم وهي تركز نشاطها في معسكرات الطلبة ووحدات الجيش والمجتمعات الصغيرة من خلال الكنيسة . ومفتاح فهم هيئة البحارة هو مفهوم التلمذة ويعنى أن القائد (البحار) يقوم باختيار أعضاء (تلاميذ) ويقوم بتدريب وتعليم كل واحد منهم على حده حتى يصبح تلميذاً . والتلمذة تقوم على الطاعة لله أولاً ، ثم للقائد . ولكن القائد هو حلقة الوصل بين التلميذ والله . وهذا النموذج له قوة غير عادية في زرع الفكر المستهدف داخل عقل ( التلميذ ) الذى يستمر تابعا للقائد الذى يظل بدوره المرشد الروحي له في العديد من أمور الحياة . .

وهذا الأسلوب يخلق أتباعاً يطيعون قائدهم ، ويتوزعون في كل مكان . فلهيئة تشجع تلاميذها على الاستمرار داخل كنائسهم ، ومن ثم يستمر «التلميذ» في كنيسته ،

ولكنه يتبع القائد في فكره ، فيصبح سفيراً جديداً لهذا الفكر ، وهو سفير مطيع ، ومن هنا تظهر أهمية نشر الأتباع داخل الكنائس المختلفة خاصة عندما يقوم البحارة بتلمذة قيادات الكنيسة ، ثم تركهم على الطاعة ، يعملون داخل كنائسهم ، بهذا يكسب البحارة قيادات توجه كنائسها ، لا حسب عقائد الكنيسة ، بل حسب عقائد البحارة .

لذلك فإن البحارة في مصر ، عملوا من خلال الكنيسة الإنجيلية ، بدعوى أن هدفهم مساعدة الكنيسة على التعليم ، والنهضة الروحية أما الواقع فهو أن البحارة استطاعوا خلق أتباع لهم في كل ركن من أركان الكنيسة ، وعبر ١٥ عاماً . وفي البداية كان العمل يتم من خلال برنامج التلمذة ، ومع تزايد الاعتراض عليه ، أصبح العمل يتم من خلال برنامج الأزواج والزوجات ، وفي البرنامج الأخير ، يقدم للمتدربين ، معلومات عن الحياة الزوجية ، وتربية الأطفال ، وغيرها ، وكلها تقوم على نفس المبادئ الأساسية «للتلمذة» . أى أن الفرق الأساسية ، وهو واضح من نشاط البحارة عالمياً ، أنهم يضعون برامج دينية فقط (التلمذة) وبرامج دينية اجتماعية للمتزوجين ، والمهالين للمعاش والأطباء ، وهكذا .

ولعل أثر التلمذة الحقيقية ، كما تسمى ، يظهر فيما يقال عن أن نبيل جبور ، قد تلمذ القمص زكريا بطرس ، راعي كنيسة مارمرقس في مصر الجديدة ، ومارجرجس بمنشية التحرير ، والذي تم إبعاده عن مصر ، متهماً بالتبشير في عام ١٩٨٩ ، وبغض النظر عن مدى صدق هذه القصة ، فهي تعنى أن كسب «تلميذ» داخل كنيسة بروتستانتية أو أرثوذكسية ، هو الطريق إلى محاولة تغيير فكر هذه الكنيسة ، وإذا كان «التلميذ» قائداً ، وزعيماً روحياً ، فإن الآثار التي يمكن أن يتركها على كنيسة بل كنائس ، لا يمكن أن تقاس .

من ناحية أخرى ، فإن فكرة التضاعف لها أهميتها ، فهي تعنى أن على القائد أن يتلمذ أكثر من شخص ، ثم على كل تلميذ أن يتلمذ آخرين ، وفي أحد النماذج ، يمكن أن نفرض أن القائد يتلمذ ٨ أفراد ، وكل منهم يتلمذ ٨ أفراد ، وهكذا ، ولنا أن نحصى العدد المتتالي المتزايد ، وهو ١ ، ٨ ، ٦٤ ، ٦١٢ ، ٤٠٩٦ ، وهكذا . وبالطبع فإن النجاح لا يحدث دائماً بهذه الصورة ، ولكن الفكرة في حد ذاتها ، ملفنة للنظر .

ومن الهيئات المسيحية/ الصهيونية التي دخلت الى مصر منظمة «شباب له رسالة»

التي تعمل في مصر منذ عشرين عاماً ، أى منذ أواخر ستينات القرن العشرين ، ونشاط هذه المؤسسة ، يلفت النظر ، لما لها من تأثير كبير وممتد ، عبر الشباب المسيحي ، كذلك فإن نشاطها في قبرص ، يمثل مركزاً مهماً ، لنشر فكرها في الشرق الأوسط .

وتعمل هذه الهيئة ، بدون أى غطاء لها في مصر ، ويرتبط عملها ، بمثلها ومندوبها في مصر ، منير مساك ، ولا توافق معظم الكنائس المحلية على هذا العمل . فهذه شباب له رسالة ، عكس الهيئات الأخرى ، لم تستطع العمل من خلال الكنائس المصرية ، ولم تستطع الحصول على قبول كنسي عام ، بإعتبارها هيئة مساعدة للكنيسة ، مثلما فعلت هيئات أخرى . وبرغم هذا الوضع الضعيف رسمياً ، إلا أن الهيئة ، أثبتت قدرتها على التأثير في مصر الكنيسة ، وفي مصر الفكر المسيحي السائد في مصر .

فبرغم رفض الكنيسة في مصر ، لعمل هذه الهيئة ، إلا أن الكنيسة لم تستطع إيقاف عملها ، أو حتى الحد من تأثيرها ، وعبر قنوات الهيئة من القيادات المسيحية المؤمنة بكفرها ، يتاح لها اختراق الكنيسة ، وبث فكرها .

ومن خلال التأثير على كنيسة ، ينتقل الأثر إلى الكنائس الأخرى ، وهو عادة يبدأ بالكنائس البروتستانتية ، وينتقل إلى الكنائس الأخرى ، تبعاً لاستراتيجية الاختراق .

وإذا كانت هيئة شباب له رسالة تؤمن بالملك الألفى ، وإذا كانت لا تؤمن بالتدبيرية ، أى انتظار تحقق هذا الملك دون تدخل من المؤمنين ، وإذا كانت تؤمن بأن على المؤمن التمهيد لقيام الملك الألفى ، أى أنها تؤمن بأن عليهم أن يساعدوا إسرائيل ، ويسهلوا عودة يهود الشتات ومنهم اليهود السوفييت ، ويساعدوا في بناء هيكل سليمان ، كذلك في هدم المسجد الأقصى ، إذا كان كل ذلك صحيحاً ، فماذا تفعل هذه الهيئة في مصر !!؟

هل تنادى بهذه الأفكار ؟ هل تحاول إقناع المسيحيين في مصر بها ؟ هل تبحث عن تأييد المسيحيين لإسرائيل ؟ هل تعمل على تبشير المسلمين ؟ وعشرات أخرى من الأسئلة ، تبحث عن إجابة مقنعة ، ولكن الواقع قد يعطى مؤشرات مختلفة .

فهذه الهيئة ، مثل غيرها ، تعمل بين المسيحيين ، أكثر من المسلمين ، وتحاول تغيير الفكر المسيحي المصري ، نحو الأصولية الأمريكية . كذلك فإنها مثل غيرها ، تنشر الفكر الأصولي ، في معظم جوانبه ، أكثر من ذلك الجانب الصهيوني . وتحاول كسب

الشباب والقيادات ، للفكرة الأصولية ، أكثر مما تحاول جذب تأييدهم لإسرائيل . وباختصار نستطيع أن نقول إن هذه الهيئات ، تعمل في حدود المقبول ، ليس لأنه مقبول ، بل لأنه الممكن . أى أن نشاطها ينحصر أحياناً كثيرة في حدود ما يقبل من المجتمع ، لأن هذا ما يتاح لها ، أى لأنه الممكن . وتبقى الأهداف الأخرى ، على هامش العمل ، لأنها مستحيلة ، وكلما أتيح لها فرصة ستجد طريقها . وعلى أضعف الإيمان ، فقد استطاعت هذه الهيئة ، وغيرها ، رغم تطرف فكرها ، وعدم ملاءمته للبيئة المصرية ، أن تجد لها أتباعاً ومؤيدين وتحقق مدى واسعاً من التأثير ، خاصة على الشباب ، وكل ذلك في أرض الكنانة مصر .

ويستطر المؤلف فيقول :

«يلاحظ ، مما سبق ، أن الهيئات الأصولية ، تتبع مبدأ الممكن ، حيث تقوم بالعمل المتاح والممكن ، حسب ظروف المجتمع الذى تعمل به . وهذا المبدأ يتيح لها اختراق الكنيسة ، خاصة عندما تخفى فكرها المرفوض ، وتعلن الجانب المقبول . بهذا المعنى ، استطاعت هيئة البحارة ، العمل من خلال الكنيسة الإنجيلية في مصر ، دون أن تظهر فكرها عن التلمذة، والطاعة ، أو أى عمل من شأنه أن يهدد بناء الكنيسة ، ومن خلال عملها ، بدأت الجوانب السلبية في الظهور تدريجياً ، وتوقف عمل الهيئة في النهاية ، بعد أن ترك آثاره التى يصعب مواجهتها .

كذلك بالنسبة لهيئة المعسكر الصليبي للمسيح ، فهذه الهيئة تعمل من خلال الكنيسة الإنجيلية في مصر ، ولكن الهيئة قد أخفت فكرها الخاص بالملك الألفى ، وكذلك تأييدها لإسرائيل ، وهى أمور كافية بمنع التعاون بينها وبين الكنيسة الإنجيلية ، ومختلف الكنائس المصرية . حيث إن الكنيسة الإنجيلية (المشيخية) ترفض عقيدة الملك الألفى ، وما بها من مفاهيم شعب الله المختار وغيرها ، ولكن الهيئة استطاعت إخفاء هذا الجانب ، والعمل من خلال أفكارها الأخرى ، التى يمكن أن تقبل في مصر .

وأكثر من هذا ، فإن هيئة شباب له رسالة ، والتى تعمل بدون أى إطار كنمى ، قد أخفت - إلى حد كبير - فكرها الذى يؤمن بالمسيحية الصهيونية السياسية (لاهوت السلطة) . فهذا الفكر يعنى أنها تساعد على إقامة الملك الألفى وتساعد إسرائيل ، أى أنها تحول العقيدة إلى برنامج عمل سياسى ، على عكس هيئة المعسكر الصليبي ، التى تؤمن بالتدبيرية ، أى أن الملك الألفى سوف يحدث بتدبير الله فقط . ولكن ، وعبر السنوات الطويلة لصل هيئة شباب له رسالة في مصر ، ظل هذا الجانب من فكرها خالياً على أغلبية من سمع عنها ، أو تعامل معها .

إن هذه السياسة من جانب الهيئات الأصولية ، تسمح لها باختراق الكنائس المصرية ، بعد أن تقدم لهم الجانب المقبول من فكرها ، ثم تحاول التسرب تدريجياً لتكسب الأرضية والأتباع ، وربما تأتي بعد ذلك لحظة مناسبة ، يبدأ فيها إعلان الجزء الخفى من مضمون فكرها .

إن هذا الأمر يتكرر مع الكنيسة الإنجيلية ، والكنيسة الأرثوذكسية ، فى مصر ، فالهيئات الأصولية التى تتعامل مع هذه الكنائس ، تخفى ما يضرها ، كذلك فإن هذه الهيئات تقدم فكرها للجماهير ، بالأسلوب الأفضل للنجاح ، وتخفى الفكر الذى قد يجرمها من الأتباع ، أما فى الكنيسة الكاثوليكية ، فإن الفكر يأتى من داخلها ، حيث أن سياسة الفاتيكان تميل إلى احتواء كل فكر يظهر بين الكاثوليك ، حتى وإن اعترضت عليه منعاً للاتشاقى .

وهناك هيئة صناعى الخيام، التى يعمل معتقدوها فى المناطق الشعبية ويحترفون مختلف الحرف حتى يصلوا إلى مجموعات من الشعب .

ومن متابعة الصحف فى مصر يمكن أن نجد تسجيلاً لإحدى هذه المجموعات فى صحيفة الأهرام بتاريخ ١٤/٤/١٩٩١ ، وفى الصفحة الأولى ، نشر الخبر التالى تحت عنوان «القبض على تنظيم يدعو لإثارة الفتنة» ، ألفت أجهزة الأمن أمس القبض على تنظيم يدعو للتبشير بالمسيحية وإثارة الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط فى مصر ، ويضم التنظيم مواطنين سويسريين وآخر ألماني الجنسية استأجروا شقة بشارع الرشيد بالعجوزة عثر بها على بعض المنشورات والكتيبات التى تدعو إلى إثارة القلاقل الطائفية ، كما يتردد عليهم بالشقة بعض المصريين وجار البحث عنهم ،

والخبر ، على صفحته ، يشير إلى إحدى الهيئات التبشيرية ، التى ليس لها وجود رسمى ، بل التى تستخدم أسلوب صناعى الخيام ، ولكن يبدو أن الأمر أصابه بعض الغموض ، ربما نتج عن أى أفكار أصولية غريبة تعتقدتها هذه الجماعة ، أو أى أسباب أخرى ، وهذا الغموض ظهر فى اليوم التالى (١٥/٤/١٩٩١) فى صحيفة الأهرام أيضاً ، حيث كتب تحت عنوان «إخلاء سبيل الأجانب المتهمين بالتبشير بدين غامض» وفى الصفحة الأولى من الجريدة ، أمرت نيابة العجوزة بإخلاء سبيل الأجانب الثلاثة

المتهمين بالتبشير بين غامض وسط المواطنين في الأحياء الشعبية ، وترحيلهم إلى خارج البلاد بعد أن رأيت النيابة أنهم لم يمارسوا التبشير ، وكانت النيابة قد استمعت أمس إلى أقوال أفراد التنظيم حيث قرر أولهم أنهم لم يقصدوا الإساءة إلى الإسلام ، .

ومن هذا يتضح ، أن هذه المجموعة هي من المجموعات التي تتكلم باللغة العربية ، وهو ما يمكنها من العمل في الأحياء الشعبية ، كما يتضح أيضاً ، أنهم كانوا يتكلمون عن الإسلام وعقيدته ، كمدخل للحديث عن المسيحية ، وهو ما يحدث غالباً عن طريق محاولة تشكيك الفرد في عقيدته حتى يسهل إقناعه بالعقيدة المسيحية .

وتتضح الصورة أكثر ، من اعترافات هذه الجماعة ، في نفس الجريدة (الأهرام ١٥/٤/١٩٩١) وفي الصفحة ١٥ ، حيث قرر المتهم الأول استيفان وولتر سويسرى الجنسية، بأنه حضر إلى مصر منذ عامين لدراسة اللغة العربية مع مواطنه رولاند جريسر والألماني مايكل جوزيف ، واعترف بأنه كان ينزل إلى التجمعات الشعبية ويتحدث مع الناس باللغة العربية التي يجيدها إيماناً منه كمسيحي بتعريف الناس بعقيدته بدعوى تخليص البشرية من مشاكلها ، وزعم أنه يحب الشعب المصري ويرغب في تخليصه من كل مشاكله وقال أنه لم يكن يريد أن يسبىء إلى الإسلام ، وأن ما فعله لم يقصد منه التعدي على السلطات المصرية، والصورة واضحة فهم مجموعة من صانعي الغيام ، يعرفون العربية ، ويبشرون بالمسيحية في الأحياء الشعبية ، من خلال توجيه النقد للعقيدة الإسلامية ، بالحوار والكتب ، وتكليم المسيحية كعقيدة بديلة ، سوف تساعد من يؤمن بها على حل مشاكله ، .

وعالج المؤلف نقطة هامة هي أثر الإيمان بالعقيدة الأنفية على سلوك المواطن القبطي المصري وضرب مثلاً رواه القس أكرم لمعى :

«الحقيقة أن هذه العقيدة أثرت في وجدان من يؤمنون بها بصورة أوقعهم في مأزق فكرية وأخلاقية عدة ، ففي إحدى جلساتي مع طيار مسيحي (من الواضح أنه يقصد طياراً مسيحياً مصرياً) يؤمن بهذه العقيدة، صرح لي بأنه ممزق داخلياً ، لأنه إذا صدر له أمر بضرب إسرائيل فسوف ينفذ الأمر ويحارب لأجل بلاده فهو وطني يحب بلده ، في نفس الوقت الذي يعتقد أن إسرائيل لا بد وأن تنتصر في نهاية الأمر ، فكيف يكون أميناً في أحاسيسه ومشاعره نحو بلده العزيز ، وفي نفس الوقت الذي يكون فيه أميناً نحو عقيدته ، وأي ممزق يعيشه ؟ هل يتمنى انتصار إسرائيل التي قتلت أخاه وصديقه وكانت سبباً مباشراً في أزمة الاقتصاد والاجتماعية وسبباً في النهيار الكثير من القيم الإنسانية والأخلاقية داخل مجتمعه وتدهور

المرافق العامة والخدمات بصورة لم يسبق لها مثيل أو يكره إسرائيل كإلتسان وطني محب  
لبلده ، ويكون بهذه المواقف ضد خطة الله نحو العالم حسب تصوره ، والحقيقة أتى أشققت  
جداً على هذا الطيار وفكرت أن هذه المشكلة هي مشكلة من يعتقدون هذا الفكر في الغرب ،  
ومنهم من يدفع أموالاً وضرائب لأجل دولة إسرائيل ، في الوقت الذي فيه تستخدم إسرائيل  
هذه الأموال لشراء أسلحة تقتل بها أطفال الحجارة في فلسطين وتشرذم رجالاً ونساء عزل  
من السلاح ، ص ١٩٤ .

ويعتقد المؤلف أن :

معظم الألفيين في مصر كما في العالم ، يؤمنون أن إسرائيل اليوم هي إسرائيل  
المقصودة ، وأن نهاية العالم على الأبواب ، والبعض ينتظرها في غضون سنوات ،  
والكثيرون يعتقدون أنها في خلال حياته ، وهذا الموقف ، يجعل المؤمن بالملك الألفي يرى  
أن إسرائيل الحالية تتلقى لإرادة الله ، ويصبح موقفه منها شائكاً ، وفي ذلك نجد بعض ردود  
الفعل المتنوعة ، ومنها :

١ - الامتناع عن الحرب ، إن أمكن .

٢ - الخضوع للاشتراك في الحرب ، باعتبار أن القانون لا يبيح الإمتناع عنها ، مع  
رفضها داخلياً .

٣ - الامتناع أو الإشتراك في الحرب ، مع رفض فكرة مقاومة إسرائيل ، لأنها مقاومة  
لإرادة الله ، ويبقى الرفض على مستوى العقيدة فقط .

٤ - الإشتراك في الحرب لأنها واجب وطني ، ولأن المؤمن بالملك الألفي غير مطالب  
بمساعدة إسرائيل ، فإن الله الذي يريد لها هو الذي يحسبها .

وكل هذه المواقف المتنوعة ، تقدم حلولاً ، وتبقى المشكلة ، في أعماقها ، فهل يشعر  
الألفيون بالسعادة لقيام إسرائيل ؟ لأسباب دينية ؟ أو يشعرون بالحزن ، لأسباب وطنية ؟ وإذا  
استطاع العرب طرد إسرائيل ، ودفعها للشثات مرة أخرى ، فما موقف الألفيين ، بين السعادة  
والحزن ، وبين الإشتراك في هذه الحرب ، أو رفضها ؟

تبقى القضية مطقة ، وعلى المؤمنين بالملك الألفي مواجهتها بصراحة ، وتقديم حل لها ،  
بدلاً من تركها أزمة تعيش بداخلهم ، وتجعلهم أحياناً فريسة لمشاعر متناقضة .

فالعالم في النهاية ، أن الألفيين في مصر ، كما في كل العالم ، شعروا بالسعادة عندما  
قامت دولة إسرائيل ، وأنهم آمنوا أن المسيح قائم ليحكم العالم في هذا الجيل ، وأنه



قادم في عام ١٩٨٨ ، أو ١٩٨٩ ، ولأنه لم يأت في هذا التاريخ ، فهو قادم في ١٩٩٢ ،  
وإن لم يأت فإن سنة ٢٠٠٠ هي في النهاية ، وهي النهاية ، وهي بداية الألف عام السعيدة ،  
ص ١٩٦ .

من هذا العرض يتضح أن هذا العامل ، وإن كان أثره محدوداً ، وأنه لم يظفر  
بتأييد الكنيسة ، بل إنها حاولت صدّه ، إلا أنه يعد من العوامل التي تبعد صاحبه  
عن فكر مصر ، بل وسياسة مصر ، وتفرض عليه فكرة معارضة معادية استطاع  
الصهيونيون بذلك أن يجعلوها من محاور الكتاب المقدس ، وليست هي إلا إحدى  
النبوءات العديدة ذات الطابع الرمزي .

### العملاء المهيجون :

لا يمكن إنهاء العوامل التي أثرت على مواقف الأقباط دون الإشارة إلى عامل  
إضافي - بمعنى أنه قد لا يكون أصيلاً ، ولكنه فرض نفسه على القضية ، وأثر في مسلك  
الأقباط بالفعل . ذلك العامل هو أن بعض الشائين للإسلام ركبوا الموجة القبطية ،  
لا حباً في الأقباط ، ولكن كراهية للإسلاميين ، خاصة إذا كانت أوثانهم التي عكفوا  
عليها عابدين كالماركسية والناصرية والقومية العربية قد هوت وسقطت . كما قد  
يكون هناك أفراد مدفوعين من هيئات للصيد في الماء العكر ، وإضرار عداوة بين  
المسلمين والأقباط ، لان هذا يخدم سياستهم في إثارة الاضطراب والقلق وشغل البلاد  
بالمشكلات والنعرات القومية ، وتلوين اسم النظام ، وتشويه اسم مصر في الخارج .  
كما يمكن أيضاً أن يسلك هذا المسلك كل أعداء النظام ، وأخيراً فقد يسلكه أو يتقبله  
عناصر في الأمن ترى أن في قيام مثل هذه القلاقل ما يثبت مركزها ويدعم وجودها  
وييسر نفوذها !

### إن ساحة الصراع والمصالح والأهواء تتسع لكل هذا . . .

وسنشير كمثال إلى قلم قمىء يستخدم مجلة أسبوعية حمراء في استشارة الفتنة  
والتحريض بصورة تذكر الانسان بدور « العميل المهيج » الذي يستخدمه أعداء النظام  
لإثارة الفتنة وتدمير السلام أو يستأجره أصحاب الأعمال لإفساد الاضرابات العمالية  
بالانحراف بها نحو التدمير . . . أتلخ !

في العدد الصادر يوم ٢٢/٤/١٩٩٢ من المجلة الحمراء كتب صاحب القلم القمىء  
تحت عنوان « دعوة للفتنة في كتاب مدرسى » موجهاً حديثه لرئيس الوزراء :

، فقط سأورد فقرات غير عاقلة وغير معقولة من كتاب عنوانه «محاضرات وبحوث في أصول التربية - الفرقة الثالثة - إعداد قسم أصول التربية» ، لنقرأ هذه الفقرات ولنر أثرها على نفسية طالب مسيحي ، ولنر أثرها على مواطنين شركاء في منكية هذا الوطن : ترابه ، وتراثه ، وتاريخه ، ومستقبله . لنذكر أن أصحاب هذا الكتاب ٠٠ من قسم أصول التربية ٠٠ يستحقون هم أنفسهم درسا في التربية ٠٠ فأية تربية هذه التي تمزق الطلبة إلى مسلم ومسيحي ؟ والتي تمزق المسيحي في موضوع الممتحن ، وماذا سيحل بنا إذا تخرج في قسم التربية مدرسون يمتلكون ( تربية ) تشبه تربية أساتذتهم فيعيشون في الوطن تمزيقا وتطرفا !

بادكتور عاطف صدقي الرأ معي ، وانظر ماذا أوصلنا إليه ضعف حكومتك ...

، المسيحية تقوم على اليهودية ، واليهودية ليست دينا ، ( ص ١٥ ) ١

، إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق ، ١ ( ص ٨٦ )

، المسيحية طعمت بالوثنية ، ١ ( ص ١٨ )

، المسيحية تأثرت في الفكرة الإلهية بالثالوث المقدس عند قدماء المصريين وبالثالوث الهندي ، ١ ( ص ١٩ )

، بولس الرسول تظاهر بالنصرانية لتحريف المسيحية ، ١ ( ص ١٩ )

، المسيحية تم فيها عبث بشري جعلها توليفة يهودية وثنية ، ١ ( ص ٧٨ )

وهكذا تمت عشرات الفقرات لتتطاول على ديانات سماوية ، وكأن المسلم لا يكون مسلما حقا إلا إذا أهان وامتهن الديانات الأخرى ، بينما صحیح الإسلام يقوم على الاعتراف بالديانات السماوية وعلى احترامها ...

ياحكومتنا غير العزيزة ،

الأمر جد لاهزل فيه ، فإما أن تمتلكي الحد الأدنى من القدرة على حماية أبسط حقوق المواطن في احترام ديانتته ومعتقده وهو ما يكفله له الدستور ٠٠ وإما أن ترحلني غير مأسوف عليك ، ويكفي أن التاريخ سوف ينكر لك أن حمى التطرف قد وصلت في عهدك المدرسي والجامعي ٠٠ ورسدنا وعلنا في الطعن في الديانات الأخرى .

وإذا كنتم لا تعرفون أن ذلك يفتح أبواب جهنم فأنتم في سداجة تصل إلى ما هو أفدح من السداجة .

وإذا كنتم تتخيلون أن الأقباط سيظلون في هذا الضغط المظلم ساكنين راضين ٠٠ من  
لا يعجبه يحتمل ، ومن لا يحتمل يهاجر ، فأنتم جد واهمون ، ولم تتعلموا دروس التاريخ  
ولا دروس الحاضر في أكثر من بقعة من العالم!!<sup>(١)</sup> ( إنتهى ) .

نقول إن ماجاء في كتاب الثرية هذا ، جاء أضعافه في كتاب « المنارة التاريخية »  
الذى وضعه كاتب مسيحي عندما تعرض لآثار الديانة المصرية القديمة على الأقباط  
كما جاءت اشارات مماثلة في كتابات لويس عوض عن عهد النهضة في أوروبا ،  
ويمكن التدليل عليه من كتابات اليهود أو الأقباط ٠٠ فمثلا « المسيحية تقوم على  
اليهودية » يمكن البرهنة عليها بكلام المسيح عن أنه جاء ليهدى خراف بنى إسرائيل  
الضلالة ٠٠ « واليهودية ليست ديناً » هو ما يحكم به الأمر الواقع الذى وضعه اليهود  
أنفسهم لتحديد من هو اليهودى ، وتجعل من اليهودية شرعة عنصرية وأما آثار  
القدس بول على المسيحية التى جاء بها تبنى الناصرة وكيفها. طبقاً للمفاهيم اليونانية /  
الرومانية السائدة فهذا ما بعد من ألف بناء التاريخ المسيحى<sup>(٢)</sup> ٠٠ وأما ماجاء عن  
حدوث عبث أو تحريف فأنا أحيله على كتاب «لوثر» الذى وضعه مسيحي كاثوليكي  
يتحدث فيه عن عبث لوثر فى تصوص الإنجيل ٠٠٠ إلخ فهذا لا يقال عنه «تطاول»  
لأنه يعالج وقائع وقضايا ويتبع مناهج وأساليب علمية .

---

(١) لقد أحصاهم الله فأعادوا نشر هذا المقال البذى والتحريض السافر فى كتاب من كتب «المواجهة»  
المزعومة «إنها لاتسمى الأبهصار ولكن تسمى القلوب التى فى الصدور» .  
(٢) كمنال - من أمثلة لاحصر لها - انظر ماكتبه الأستاذ سلامة موسى فى كتابة «حرية الفكر» الذى  
أعادت طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب فى سلسلة كتب «المواجهة» وازادت بها التنوير اذ قال : والمسيح  
الذى كان يطلب من المسيحي أن يدخل غرفه ، ويقفل على نفسه ويصلى ، لم يفكر قط فى إنشاء كنيسة  
 وإقامة كهنة عليها ، وإنما جاءت هذه الفكرة من بولس . فالمسيحية الفاشية الآن ومنذ القرن الأول للميلاد  
هى مسيحية بولس ، وليست مسيحية المسيح (ص ٣٢) ومرة أخرى «ولما ظهرت المسيحية دخلتها طائفة  
كبيرة من العقائد الفاشية فى ذلك الوقت فى تلك الأديان - ومازلنا نحن المصريين نعرف فى المسيحية فكرة  
الثالوث الأب والابن وروح القدس ، وأنها هى الفكرة التى كانت فاشية عند المصريين باسم اورسوريس  
وايسيس وهورس . وقد يسر هذا التداخل على الناس الإيمان بالدين الجديد» (ص ٣٣) وتحدث فى الجزء  
الثانى عن الراهب الدومينيكي برونو الذى احرق سنة ١٦٠٠ لأنه كان «ينكر الإنجيل ويحارب بعدم ربوبية  
المسيح» ٠٠ وتحدث عن سرفيوس الذى أحرقه كالفين لأنه «ذهب فى أبحاثه الدينية إلى أن عقيدة التثليث  
عند المسيحيين ، وهى أن الأب والابن وروح القدس إله واحد خطأ لا أصل له» (ص ١٤١) أما ما افاض  
فيه وشرحه الدكتور لويس عوض عن تأثير المسيحية بالمصرية القديمة أول ظهورها . وتأثرها خلال القرن الخامس  
عشر الذى أدى إلى ظهور حركة الإصلاح الدينى ، وما أخذه كالفين ولوثر من الإسلام . فيضيق عنه المجال .

التطاول الحقيقي هو ماجاء في آخر كلمته والذي يمثل لنا أصدق تمثيل سياسة  
« العمل المهيج » . . فأى سفاهة وأى تحريض يمكن أن يجاوز ماجاء في فقرته  
الأخيرة ١٩

يا هذا . . .

من وكلك عن الأقباط لتحدث باسمهم أو نيابة عنهم ، وتنبأ بما سوف يعملون ؟  
لحساب من تحرض الأقباط وتوغر صدورهم وتغريهم بهذا المسلك الويل ؟  
« رجل عنهم » حتى لا يجيق بهم شؤم كل دعوة تناصرها وتنفخ فيها ، فيأتها الله  
من القواعد .

\*\*\*

وفي ٢٩ أبريل ١٩٩٢ وتمت عنوان «إنما . . .» حاول أن يستعدى نقيب  
الصحفيين على صحيفتى النور وأكتوبر ودعا النقابة لكى تتدخل « لكى تفرض على  
الجميع الاحتماء بمصريتهم من أية نوازع مدمرة لوحدة الوطن وتلزم الجميع باحترام  
الأديان . . كل الأديان . . واحترام معتقدات المصريين ، كل المصريين ، وتمنع الأيدي  
المستهجنة بمصر من أن توجه سهامها إلى قلب الوطن» .

وله نقول . . ألا تكفيه قوانين «القيم» والجهة الداخلية والسلام الاجتماعى . . .  
إنخ وقانون حماية الوحدة الوطنية وباقى ما أصدره السادات . . ولماذا إذن تضيقون  
بها وتدعون إلى إلغائها ، وتلصقون كل تهمة بالسادات ؟

وفي عدد ١٣ مايو ١٩٩٢ وجه رسالة طويلة للرئيس ، لانتقل على القارىء بما  
فيها ، وإنما ننقل له منها هذه الفقرات :

«ولعل الصراحة تكون موجهة إذ أقر أنى وأنا المصرى المسلم استنصر فرعا من هذا  
التمييز فما بالنا بالمصريين الأقباط .

وأسف ياسيدى الرئيس إذ أقر أن بعضا من هذا التمييز يأتي من جانب مؤسسة الرئاسة  
ولعل هذا يضى على الأمر كله مسحة كافية من الرسمية .

فمثلا هناك تلك القصة المقيمة للخط الهمايونى الذى يتحكم فى إنشاء وإصلاح نور  
العبادة للأخوة الأقباط ، وهو بكل المعايير منالف للمستور والمنطق والحق الطبيعي

للإيمان القبطى المصرى فى أن يقوم دور عبادته على قدم المساواة مثله مثل المصرى المسلم ، وفى أحيان تخف وطأة «الهمايونى» ، وفى أحيان تشتد ، هذه تأتى عندما تتشدد الجهة المعنية فتقبض بها عن اصدار الموافقات اللازمة لإصلاح الكنائس وبناؤها .

ولأنك - سيدى الرئيس - رئيس لكل المصريين ، فإذن أول واجباتك هو أن تعطهم حقوقا متكافئة فى العبادة ، والأجدر هو إلغاء هذا «الهمايونى» ، ثم وضع قانون مصرى وأكرر مصرى أى لكل المصريين ينظم هذا الأمر .

وبرغم وضوح هذا الأمر ، وبرغم أنه يمثل جرحا غالرا لدى الأخوة الأقباط فإنه يتم تجاهله ، بما يعطى انطبعا واضحا بالتمييز والتميز .

وهناك أيضا التعميم فى المواقع القيادية والعليا - وزراء/ محافظون/ قادة عسكريون/ سفراء ... إلخ .

ولمك تعرف - سيدى الرئيس - أن البعض يمسك بالآلة الحاسبة لكى يحسب النسبة التى غالبا ما تعطى للأقباط ( سفرا ) فى المائة بما يفرس فى قلوبهم وقلوبهم أنهم مواطنون من الدرجة الثانية ، ويفرس بالمقابل فى نفوس دعاة التطرف حمية المزيد من التسلط والتمييز .

وتكر المسيحية - كما يقول الأخوة الشوام - ويتوالى التمييز ويتولد معه وبه ما أسميناه فى البداية المناخ العام للتطرف .

فمناخ التعليم ، وأجهزة الإذاعة والتلفزيون والصحافة ، وحتى الصحافة القومية ، تضخ كلها رياح التفرقة والتفريق .

فهو وصل إلى مسامك - سيدى الرئيس - أن داعية إسلاميا لايتوانى عن التهكم على الديانة المسيحية فى برامج التلفزيون ، وأن صحفا قومية تنشر شيئا مثل ذلك !؟ .

وهل تتصور سيدى الرئيس أن موظفا فى مديرية طما التعليمية تجاوز صريح القانون والتعليمات الوزارية فحرم المدرسين الأقباط من حق العبادة صباح الأحد ، بل ووقف متباها أمام جمع من الناس فقال : نحن ( لنكن ) على قرارات الوزير ولا ننفذها . . فمن أين أتته مثل هذه الشجاعة !

وهل تصدق أن أستاذا جامعا فى المنيا لا يختار نبدء امتحانات النقل إلا يوم عيد القيامة المجيد ؟

وهل علمت ياسيدى أن أحدا من هؤلاء لم يسأل لماذا فعل ذلك ؟

وهل تعرف ياسيدى الرئيس أن الأمر قد وصل بالمتطرفين أن سيطروا على نقابة الأطباء فى دورتها السابقة وأتهم غيروا القسم الذى يتووه الطبيب عند التخرج ليصبح «قسما إسلاميا» ٠٠ بما وضع الأطباء الأقباط فى حرج أشعرهم أنهم مواطنون غير مرغوب فيهم ! بل هل تعلم إلى أى حد تجاوز المتطرفون فى قرى الصعيد كل حدود وفروضوا هناك دولتهم بلا منازع ، وفرضوا الجزية على الأقباط فدفعوها وهم صاغرين ، لأنهم لم يجدوا من يقف معهم فى وجه التطرف ٠٠٠ ، (انتهى) .

نحن لاندافع بالطبع عن الخط الهمايونى ونرى حرية إقامة المعابد من مساجد وكنائس دون قيد ٠٠ ولكن الكلمة تشير إلى الوظائف ، فإذا كان المطلوب أن يكون للأقباط نسبة معينة تتناسب مع عددهم ، فإن هذا هو أقصى ماتريده بعض الفئات التى ترى أن الأقباط يظفرون بما يجاوز نسبتهم العددية ، وهو على كل حال «تكريس» للطائفية !

\*\*\*

وفى كل عدد من أعداد المجلة الحمراء ، نجد تعليقا من القلم القمىء على رسالة جاءته من قبطى أو عن تصرف قام به أمين شرطة ، أو معلم أو موظف أرشيف ، فيقيم الدنيا ويقعدها ٠٠ مما يشجع آخرين على الكتابة سواء بالحق أو بالباطل مع صغير أو كبير ٠٠ أما حملاتها على «المتطرفين» فهى دائما تملأ الصفحة الأولى وتستأثر «بالمناشطات الحمراء الكبيرة» وفى سبيل الحملة على الإسلاميين وتلويث صفحاتهم تستكتب مجلتهم بعض الضباط الملوثة أيديهم بدماء التعذيب وتطلق عليهم «مستشارى أمن» ٠٠ وآخر إنجازاتها فى النصف الثانى من نوفمبر ١٩٩٣ أنها كتبت فى الصفحة الأولى نبأ مكالمة تليفونية خاصة بين أحد مسؤولى لجان الامتحان وأستاذ جامعى عن حرمان قبطى مراقبة الامتحانات وجعلت منها قضية قومية كبرى تشيع فيها لطما وندبا وتطالب الوزير بالرد ، فإذا رد ترد على الرد !

إن هذه المجلة وأمثالها يقترفون جنابة كبرى فى حق هذه البلاد ، ويلفون فى هذا مالا يمكن أن تبلغه إسرائيل نفسها ، لأنهم يعملون فى الداخل ، وتحت ستار «الوحدة القومية» المدعاة ، كما أنها تضخم الشائعات وتضرم التطلعات وتعمق الخبيصة القسوية

لدى الأقباط وتفرض الازدواجية في المجتمع المصري ، وكانت من أكبر عوامل التحول من الموضوع إلى الذات ،

والنقطة التي ترددها صحيفة الإثارة والفتنة ، وهي كتابات بعض المسلمين عن المسيحية تدخل في إطار حرية الفكر ، والبحث ، وإبداء الرأي وهي حرية مقدسة دعونا إليها في القسم الأول من هذا الكتاب في مواجهة الحصانات التي يريد السدنة - شيوخا أو قساوسة - أن يعطوها لمعتقداتهم وقد تكون الدراسة الموضوعية شياً ، والجدل شيء آخر . . والجدل بصفة عامة مدموم في القرآن ما لم يدفعه استثناء وهو يؤثر عدم الجدل في الأديان ويضع آدابها وتوجيهات في هذا كما توضحها الآيات التالية :

- ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

(الحل ١٢٥)

- ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا ، وأنزل إليكم ، وإلنا وإلهم واحد ونحن له مسلمون ﴾ .

(العنكبوت ٤٦)

- ﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾

(الحج ٦٨ ، ٦٩)

ولدى معظم الناس حساسية بالنسبة للذين يكتبون عن دين ما ، من غير أصحاب هذا الدين . فكثير من المسلمين يتهمون المستشرقين عندما يكتبون عن الإسلام ، وكثير من المسيحيين يتهمون المسلمين عندما يكتبون عن المسيحية وهذه الحساسية لا أساس لها ، فإنما يكون الحكم للمقولة وليس للقاتل !

وعلينا - مسلمين وأقباط - أن نتقبل بصدور رحب الآراء عن الأديان التي تختلف عما نعتقد ، مادام أصحابها يلتزمون بمبادئ الحوار وقواعد البحث . وقد يكون هذا خيراً لنا ، ويمكننا إذا أردنا الرد بمثل هذا المنهج ، وفيما نرى ، فإن هذا وذاك يثران العقيدة لا يضرانها .

ولا يخلو الحال من عدد من الحمقى من المعسكرين يسيئون القول وهم لا يستحقون أهمية ، وخير ما يتبع نحوهم هو توجيه القرآن : ﴿ وإذا مروا باللغو ، مروا كراماً ﴾ !

## نحو الحل :

نتيجة للعوامل السابقة ، أعنى سياسة الأنبا شنودة ، وظهور الاتجاه الدنيوى فى الكنيسة ، والاتجاهات المتشددة لبعض التيارات الإسلامية ، واغتراب المثقفين الأقباط بحكم ثقافتهم الاجنبية عن الإسلام ، وتمويهات العملاء المهيجين ، واللبس التاريخى الذى جعل الأقباط يظنون أن الإسلام انتزع مصر من الحكم القبطى والسيادة القبطية . كل هذا أوجد مناخا سيئا باء بائمه الأقباط بالدرجة الأولى ، وإن عاد بالضرر على البلاد كلها .

وفاقم فى ذلك السياسات الخاطئة للحكم فى مصر من ١٩٥٢ .٠٠ فعبد الناصر أعلنها شعواء على الإسلام وتبنى الاشتراكية العلمية ، أو بالتعبير المعروف الماركسية .٠٠ وحاول أن يستأصل أكبر هيئة إسلامية فى العصر الحديث .٠٠ فلما جاء السادات عكس الآية ، لا إيمانا منه بالإسلام ، ولكن مقاومة لخصومه السياسيين الشيوعيين والناصرين ، وعندما ظهرت الثمار المرة لهذا التخبط ، ارتفعت الدعوة عالية لتوحيد «عنصرى الأمة» وعاد الحديث الممل عن ( الهلال والصليب ) ، ( الجامع والكنيسة ) ، ( الشيخ والقسيس ) !!

وليس هذا علاجا ، إنه تضخيم للمشكلة وغرس للازدواجية وهو يغذى تصور غلاة القبط وغلاة المسلمين الذين يريدون للأقباط وجودا مستقلا ، الأولون يطالبون بمزيد من الحقوق له والآخرون يرون أنه جاوز ما يستحقه ، وإذا سمح لهذا التيار بأن يسير إلى غايته فسيتهى الأمر بأن يكون القبط «أقلية» لها وضع وحدود وحقوق الأقليات ، وسيخسرون كثيرا ، ولن يسعد به إلا الذين يفضلون أن يأكلوا طبيخهم الفاسد ، ولو أضر بصحتهم ، على أن يتخلصوا منه .٠٠ وهم للأسف كثيرون !

ولكن من حسن الحظ أن هناك حلا أفضل بكثير من هذا المصير السيئ يحقق للأقباط الاندماج فى المجتمع المصرى والوصول إلى أعلى المناصب ويحسم شاقة الحساسيات .٠٠ وهو حل ينطبق عليه القول :

«بالسير الطويل ، انتهنا الى الطريق القصير !»

يبدأ هذا الحل بمسئمة هى أن الإسلام والمسيحية - وإن اختلفا فى التفاصيل - فإنهما يتفقان فى الأهداف العليا .٠٠



وحتى القضية الشائكة ، قضية وحدة الله .. فإن الأقباط يبدأون «باسم الله الواحد ..» .

ويرى الإسلام أن المسيح لم يصلب وإنما رفع إلى السماء إكراما له ، وبصرف النظر عن أن هذا كان رأى لفيف من الأقباط القدامى على ما أشرنا في نبذة «اللبس التاريخي» ، فإن الرأى المقرر فى المسيحية أنه صلب فداء للبشر .. إكراما له أيضا ..

ويرى الإسلام شخصية المسفولية ، وأنه لاتزر وازرة وزر أخرى ، وترى المسيحية أن فى صلب المسيح فداء من الخطيئة الأصلية .

وهذه التصورات كلها تقوم على منطق وتستند إلى فكر .. وهناك اختلاف بينها ، ولكن الاختلاف لايعنى التناقض ، فلا يمكن أن يقال إن الرحمة حسنة ، والعدل سىء ، رغم أن منطقهما مختلف .. فالرحمة فضيلة ، والعدل فضيلة أيضا .. وللحقيقة أبعاد كثيرة قد تختلف ، ولكنها تعود إليها .

والأديان كلها تدور حول محور واحد هو وجود إله حكيم خالق هو مصدر القيم ، والحقيقة ، والمثل العليا .. والتوجيه الرئيسى للأديان جميعا هو حسن الخلق وسلامة القلب ، وطيب المعاملة .

والإسلام والمسيحية فى هذا سواء ..

فى مواجهة الأديان نجد دعوات لاثؤمن أصلا بالقيم المعنوية أو الروحية ، أو ترى فيها «بناء فوقيا» للعلاقات الإنتاجية أو فناعا للنفاق الاجتماعى ..

وهناك نظريات تقوم على مراكمة الثروة واكتساب الجاه والاستمتاع بالحياة .. وهناك أفكار عنصرية تؤمن أن عنصرا بعينه أفضل من العناصر الأخرى وله حق السيادة عليها !

وهناك دعوات «شوفونية» وطنية أو قومية مفرقة ، ترى أن وطنها فوق الجميع !

وهناك فلسفات تقوم على الصراع ، وتمجد القوة ، وتزدرى الرحمة !

هذه الفلسفات والنظريات تعادى الأديان ، وهى التى يجب أن يتضافر أهل الأديان جميعا لمقاومتها ، لأنها لاتفرق بين إسلام ومسيحية .

ومن المفارقات أن يكون أحد المسيحيين أقرب إلى الشيوعية منه إلى الإسلام ..

إذ الإسلام أقرب إلى المسيحية من الشيوعية . . بل إننا نرى أن الإسلام أقرب إلى القبطية من القبطية إلى المسيحية الأوروبية . . لأن المسيحية الأوروبية تأثرت بالوثنية الأوروبية ، في حين أن القبطية عايشت الإسلام وهو دين سماوى .

وإذا نظرنا إلى الكتب المقدسة في المسيحية والإسلام فلا نرى في احدها طعنا في الآخر .

لم يتحدث الإنجيل عن الإسلام ، وإذا كان هناك من يرى أنه بشر بالإسلام ، فمن المقطوع به أنه لم يندد بالإسلام .

وبالتالى فإن كل ما يقوله مسيحيون عن الإسلام فإنما يضعونه على لسان المسيح ، دون أن ينطق به المسيح ، والمسيحية الحقبة براء منه .

أما الإسلام ، فالقرآن واضح وصریح وهو يوجب على المسلمين الإيمان بكل الرسل ( لا نفرق بين أحد منهم ) والسيد المسيح هو رسول من أولى العزم ، والسيدة مريم صديقة وسيدة نساء العالمين .

وأحاديث الرسول عن الدين وأنه بناء واحد وجد فيه ثفرة جاء الإسلام ليسدها ، وعن الأنبياء كأخوة ، وعن المسيح كأقرب الأنبياء إلى الرسول ، معروفة . . وقد نبى الرسول عن أن يفضله أحد على بقية الأنبياء ، وهو يطبق في هذا أدب القرآن ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ .

وهو نبى عن الجدال ويقول : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ (المائدة ٤٧) . ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾ (المائدة ٤٣) . ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾ (المائدة ٦٦ المائدة) - ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ﴾ (المائدة ٦٨) .

فلنكن أمناء ، ونعترف أن الإسلام والمسيحية بريفان من كل ما ينسب إليهما ، أو يقال فيهما من عداوة ، وأن العداوة إنما جاءت من «الرجال» ، من المؤسسة ، من سوء الفهم ، من العوامل العديدة التى تنحرف بالناس من الموضوع إلى الذات .

ولا نبرئ المسلمين من هذا الانحراف ، ولكن الحقيقة أن المسلمين هم أقل أهل الأديان حساسية بالنسبة للأديان الأخرى وقد يكون مرجع ذلك ماقرره القرآن من

الإيمان بالأديان الأخرى . . ولم يشذ عن هذا الخط ، سوى تلك المجموعات الشاردة التي ظهرت أخيراً ، وكان أول ضحاياها شيخ جليل من شيوخ الأزهر !  
أما الأقباط فليس الذى يؤخذ عليهم هو «العداء» للإسلام ، ولكن  
السلبية إزاءه .

إن الموقف الموضوعى الأمثل يميل أن نقف جميعاً مع الحقيقة ، كل الحقيقة ، والإنصاف والعدالة يوجبان علينا الاعتراف بها .  
والموقف السلبي يحيف على الحقيقة ، أو يتجاهلها ، ومن أجل ذلك قيل إن الساكت عن الحق شيطان أخرس .

ونجد الألوفاً ، أو حتى المئات الألوفاً من المسلمين يزجون المدح للسيد المسيح ، ويتحدثون عنه بإيمان وإخلاص وتقدير وحب ، ويسمون أبناءهم باسمه ، وبناتهم باسم «مريم» ولا ينظر ببالهم أى حساسية نحو ذلك .

ولكن كم من الأقباط يتحدثون عن «محمد» وعن الإسلام كما يتحدث المسلمون عن السيد المسيح والمسيحية ؟

كاتب واحد ، وقيل إنه تعرض لتاعب من الكنيسة فى حياته ، وعند وفاته<sup>(١)</sup> .  
كم من الأقباط يسمى ابنه محمداً وابنته فاطمة ؟ لا أحد<sup>(٢)</sup> .

إن «محمداً» ليس فحسب أنجح الأنبياء وأعظمهم ، ولكنه أيضاً سيد العرب جميعاً ، وكل من يتكلم بلفظة عربية مدين له ، وهو مؤسس الأمة العربية ، ولن يزيده اعتراف المعترفىن ، ولن يخسره تجاهل المتجاهلين ، ولكن سيكسب المعترفون أنهم يكونون فى عداد المنصفين الذين يعترفون بالحقيقة .

إن كل المنصفين من الكتاب الأوروبيين اعترفوا بعظمته وبما قدمه للبشرية . . ومن المفارقات أن يعترف بذلك أوروبيون ، ويسكت عنه مصريون !

---

(١) هو الدكتور نظمى لوقا رحمه الله . وقد ذكرت لنا فيما ذكر كتابات ممتازة بوجه خاصة للدكتور وليم قلادة والأستاذ إدوار غالى الذهبى وغيرهما مما لم تتح لنا مطالعتها وبلحظ أن المسيحيين فى لبنان كانوا أكثر تقديراً للإسلام فكتب ميشيل عفلق عن الرسول ووضع جورجى جردان ستة مجلدات عن على بن أبى طالب وتحدث الرياشى عن الرسول وعمر . وكتب الدكتور فيكتور سحاب عن أثر القرآن الكريم فى حفظ الموسيقى الشرقية ، وأن التجويد هو أصل التلحين ، أما كتابات جورجى ريدان الإسلامية ، فأشهر من أن تذكر .

(٢) باستثناء ميشيل عفلق ، الذى سمي أبه باسم محمد . ولكن ميشيل عفلق ليس من الأقباط المصريين .

الغريب أننا قد نجد بعض كلمات عامة يزجها أقباط مجاملة للإسلام ، واعترافا ببعض جوانبه السمحة المشرفة . . . ولكننا قلما نظفر بكلمة واحدة عن الرسول .

إننا لانعدم من الأقباط من تحدث ، وكتب ، وألف عن ماركس وهيجيل ونابليون وفولتير الخ . . . فهل محمد أقل من هؤلاء ، أو أبعد عن هؤلاء الكتاب منهم ؟

أننى أترك للأقباط أنفسهم أن يفكروا فى هذه الظاهرة . . .

\*\*\*

إننا فى مقدمة هذه التبذة «حاجز الدين» قلنا إن ما يشجعنا على المعالجة الكاملة للقضية أننا نريد أن نجد للأقباط حلا ، بحيث يمكنهم المشاركة الإيجابية فى سياسات البلاد ، دون حساسيات .

هناك جوانب عديدة ، بعضها واضح ومسلم به ، وبعضها الآخر يحتاج الى توضيح . . .

من الجوانب الواضحة والمسلم بها أن مصر بلد الإيمان ، سواء كان اسلاما أو مسيحية ، وأن الأغلبية الكاسحة لشعبها يعتنق الإسلام منذ ألف وخمسمائة سنة . . . ومعلوم بالطبع أن الإسلام يضع خطوطا عريضة ولكنها مؤكدة عن الأقتصاد والسياسة بحيث لايعد المجتمع مسلما بلونها .

ومن الجوانب المسلم بها أيضا أن فى مصر أقلية قبطية وأنها جزء لا يتجزأ من شعب مصر ، وأنها بهذا الحق ، وبحكم المبادئ الإسلامية أيضا لها الحرية الكاملة فى الاعتقاد وممارسة مقتضيات الاعتقاد والإيمان .

لا خلاف على هذين . . .

ولكن هناك جوانب أخرى تحتاج الى ايضاح منها مساهمة الأقباط فى وضع السياسات والخطط الخاصة بمحاضر البلاد ومستقبلها .

وليس هناك قيد على أى مصرى فى المشاركة . . .

ولكن هذه المشاركة تصطدم بحقيقة ، هى أن الإسلام - كما ذكرنا - وضع خطوطا عريضة فى الأقتصاد والسياسة ، ولم تضع المسيحية مثل هذه الخطوط ، ولو أنها وضعت لما اختلفت ، فما من أحد يزعم أن المسيحية تدعو إلى الربا أو تقبل الظلم ، أو ترحب بالإباحية وإشاعة الفواحش .

فما هو موقف الأقباط مما يضعه الإسلام من قوانين عن السرقة أو الربا . . . الخ ؟  
ان مساهمة الأقباط ستحدد بدرجة تجاوبهم مع الخط الإسلامي . . . فإذا لم يكن  
هناك تجاوب فهي السلبية ، وإذا كان هناك معارضة - على أساس مسيحي - فهي  
تكريس الصفة الفئوية للأقباط .

وكان يمكن للأقباط في مثل هذه الحالات أن يقولوا نحن مع إخواننا المسلمين .  
فيكسبون المسلمين ، ويكسبون الحقيقة ، ولن يخسروا شيئاً ( لأنهم أقلية لا يمكن  
أن تقف أمام الأثرية طبقاً للأصول الديمقراطية ) .

ولكنهم لا يفعلون ، لأن هناك رواسب نفسية عميقة تمنعهم من هذا .

ويظهر أثر هذه الرواسب في أن يرى الأقباط أن كل مدح في الإسلام يعنى  
غضاً من المسيحية ، وأن كل كسب للإسلام يكون على حساب المسيحية وقد لا  
يخلص من هذا الأثر كثير من المسيحيين النابيين الذين يعملون في التقريب بين المسلمين  
والأقباط .

ففى كلمة للأب أنسطانس غريال في جريدة الشعب ( ١٧ سبتمبر ٩٣ ) جاء :  
«بل ماهو أكثر من ذلك ، فمحاضر اجتماعات مجلس الشعب منذ عهد ليس بعيد انتهت  
الى زيادة الجرعة الدينية الإسلامية في التلفزيون واقترح انشاء جامعة للقرآن ، حتى  
كاد القبطى يستشعر بأن الوطن لم يعد له ، بل للمسلمين ١٠٠٠»<sup>(١)</sup> .

وهذه الفقرة تمثل تمام التمثيل أثر الرواسب القديمة ، سلبا وإيجابا !

وكما قلنا من قبل ، فما من أحد يرغب الأقباط على الإيمان بشيء ، ولكن القضية  
أنهم يودون المساهمة بقوة ، وعلى قدم المساواة ، ولأبد في مثل هذه المساهمة من  
المشاركة الوجدانية .

إن البديل الوحيد الذى قد يراه بعض الأقباط هو التضحية بالقيم الدينية كلها -  
مسيحية وإسلامية - وإقامة المجتمع على أساس «علماني» مدنى يدور حول المصلحة -

---

(١) جريدة الشعب ١٧ سبتمبر ٩٣ ص . وقد عقب الأستاذ مجدى أحمد حسين لى نفس العدد ورد  
رداً قوياً . ورد الأب أنسطاس فى عدد تال على الرد .

كالمجتمع الأوروبي . وبهذا يخلصون من الإسلام ولو ضحوا في سبيل ذلك بالمسيحية  
أيضاً أخذاً بمنطق :

## «اقتلاني ومالكاً

واقطلا مالكاً معي !!»

ولكن المسيحية أعز على الأقباط من أن يقبلوا التضحية بها ، ولو بالثمن المرموق :  
التخلص من الإسلام !

وأهم من هذا أن المجتمع المدني قد يخسرهم حقوقاً يتمتعون بها في المجتمع الإسلامي ،  
لأنه سيضعهم تحت رحمة الأغلبية النزقة .

والمسلمون أيضاً سيرفضون فهي صفقة خاسرة . . .

\*\*\*

ومن المعالجات الخاطئة - التي تنتهي إلى هذه النتيجة نفسها - ما نشرته مجلة الأهالي  
يوم ١٢/٢٩/١٩٩٣ ص ١٢ بقلم الدكتور عبد القادر خليف «أمين لجنة الوحدة  
الوطنية بأسسيوط» تحت عنوان «في جذور الإرهاب والتطرف والتعصب» والكاتب يبدأ  
من مقولة هي وجود صور شائنة لماسماه التطرف الإسلامي والتعصب القبطي . وقد  
دلل على وجودهما بوقائع لمسها هو نفسه وحققتها خلال حياته الوظيفية الطويلة كمدير  
لمستشفيات جامعة أسسيوط وكأستاذ جامعي منها ما قاله له صديق قبطي من أنه لا يوجد  
قبطي واحد يرحب بجلاء الإنجليز «لأننا لاننسى عدوان الأخوان المسلمين على كنائسنا»  
ومنها إنكار طبيب قبطي مسغول عن وحدة نقل الدم بالمستشفى وجود دم لمريض مسلم  
كما قام طبيب مسلم بنفس التصرف حين كانت حاجة الدم لمريض قبطي . كما أنه  
أوضح لطلبته أسباب التمييز في كليات الطب بأن الأطباء الإنجليز - في فترة الاستعمار -  
قربوا الأطباء الأقباط ومنحوهم الأستاذية ، ليكيدوا المسلمين وليفرقوا وحدة الأمة .  
«وأذواق هؤلاء الأساتذة الأقباط زملاءهم المسلمين العذاب والمهانة مما دعا في مستقبل  
لاحق إلى الرد بتعصب الأغلبية ، وتفاقم التعصب بين الجانبين يصبح إحدى السمات  
الكبيرة لكليات الطب في مصر» .

وليست هذه هي كل الحالات ، ولكنها أهمها ، ومنها انتهى الكاتب إلى وجود  
تطرف إسلامي . . . وتعصب قبطي . . .

ومن هذه «الأرضية» انتقل لمحاولة العلاج ولما كانت تجارب الحياة قد علمته أن اتخاذ القرار السليم في المشاكل الصعبة يحتاج لأن يضع نفسه موضع الغير صاحب المشكلة «أرى بعينه ، وأفكر بعقله ، وأحس بقلبه» فقد وضع نفسه مرة موضع المتطرفين الإسلاميين والمنطق الذي يحكمهم ، ووضع نفسه مرة أخرى موضع المتعصبين الأقباط وما يحسونه ويستشعرونه . . . ووجد نفسه في الحالين أمام باب مسدود لا انتفاح له . . .

ولما كان يخاف أن ينتهى هذا إلى صدام ، تصبح مأساة لبنان بجانبه كلعبة أطفال ، فإنه انتهى إلى هذه النتيجة :

«انتلاع المشكلة من جنورها في حسم لاسبيل فيه إلى أى تردد ، وذلك بتتحية الدين عن حركة المجتمع ليصبح الدين لله والوطن للجميع قولاً وفعلاً . . . ولتكن تلك هو شعار الدولة وأساس دستورها - دولة تؤمن بالله وترعى الطوائف الدينية ( ١ ) وحرية ممارستها للجميع . . . والتغلى عن الموقف الغامض بأن تعلن رسمياً بأن تطبيق الشريعة الإسلامية السلفية غير ممكن لعدم ملائمتها لظروف المجتمع والناس كما تعلن عن فصل الدين عن الدولة كما فطت أمم الغرب في القرن السادس عشر لتتخذ من ذلك الموقف طريقها نحو التقدم والتحضّر . . .

ويبقى للدين طريقان : الإيمان والقطرة ، والدولة طريقها : العلم والعقل والسعى بلا هواده لإصلاح وتعديل المسارات التي اختلت بالتعصب في جميع المجالات في إدراك عميق ومسئول بأننا نواجه مسئولية مصير ، أن نكون أو لا نكون، انتهى . . .

ونحن نتسكّر ليلكاتب صراحته وواقعيته وإيراده لوقائع يتجاهلها أو ينكرها البعض ، ولكننا نقول إن النتيجة التي انتهى إليها نتيجة خاطفة تماماً لأنها بنيت على وقائع ، وإن كانت موجودة ، إلا أنها تمثل انحرافاً ولا يمكن أن نبني أوضاعنا على التسليم للانحراف ، وإنما المفروض أن نبحث عن سبب هذا الانحراف ونعالجه ، أما أن نسلم به ، أو نتجاهله ، وأسوأ منه أن نبني أوضاعنا على وجوده ، فهذا خطأ فادح ، وأسوأ منه أن نتصور أننا وقد سلمنا به ، فأننا ستممكن أن نقلعه . . . فهذا عبث . . .

إن وجود التعصب القبلي والتطرف الإسلامى إنما يعود إلى أسباب من سوء الفهم أو غلبة المصالح أو استغلال الفساد المستشري إلخ . . . وهذه الأسباب هي التي يجب أن تعالج ومعالجتها هي التي ستقتلع جذور المشكلة ، ولكن التسليم بها سمح بأن تستشري وتهدم كل ما بيننا . . .

إن فكرة أن يضع الإنسان نفسه موضع الطرف الآخر ، إنما يراد بها التعرف على نفسيته والعوامل التي دفعته لما انساق فيه ، بهدف معالجته ، أما أن نقف أنفسنا

موقفه لنسلم له فهذا يكون كمن أراد معالجة ظاهرة تفشى السرقة ، فيضع نفسه موضع السارق ليعرف الأسباب التي دفعته للسرقة ، وهل هي الحاجة ، أو البطالة ، أو الاحتجاج على التفارق الطبقي ما بين أغلبية جائعة وأقلية متخمة . ويكون الإجراء التالي هو معالجة الأسباب . أما الموقف الذى اتخذته الكاتب فهو كمن يقول إن السارق معذور ، وكان لا بد أن يسرق وعلينا أن نسلم بذلك ونتقبله .

وافترض أن تكون مصر كلبنان قياس ركيك وسخيف ومن الخطأ البالغ التلويح به لأن المارونيين في لبنان يقاربون عدداً الطوائف الإسلامية ، ويتخذون اللغة الفرنسية وثقافتها ويلوذون بحماية فرنسا إلخ . . . وهذه فروق لا توجد لدى الأقلية القبطية التي لم تنكر انتفاءها المصرى ، ولاتسمح لها نسبتها العددية بأن تكون عنصراً مرجحاً ، أو حتى مؤثراً ، فلاداعى للتخويف والتزييف ومن الخطأ أيضاً قياس مافعلته أوروبا من الفصل ما بين الدين والدولة على مصر ، لأن الهدف الأول لذلك كان درأ تدخل الكنيسة والإسلام ليعرف الكنيسة . .

والمقال في جملة يصور المأزق الذى يقع فيه الكاتب عندما يعالج المشكلة معالجة ظاهرية وسطحية لعدم توفر المعرفة بالأسباب العميقة ، وبطرق علاجها ويبرز خطورة أن تعالج هذا الموضوع الحيوى صحف لها اتجاه معين كالأهالى ، أو كتاب أو صحفيون لا يلمون بكل أبعاد الموضوع ، ولا اعماقه ولا يتوفر لهم النضج الضرورى عند معالجة هذه القضية .

فإذا كانت القضية قضية حرية ، فالأبواب مفتوحة . . .

وإذا كانت القضية قضية ديمقراطية فلتؤخذ الأصواب . .

ولكن الأقباط يريدون - كشرط لمساهمتهم - أن يتجرد المسلمون من الخطوط التي وضعها الإسلام<sup>(١)</sup> ، والتي تعد جزءاً من إسلامهم ، وهذا أمر مرفوض وهو يشبه أن يطالب أحد المسلمين المسيحيين بالتخلي عن شيء من معتقداته .

---

(١) ليس من هذه الخطوط الحديث عن «الجزية» أو «أهل الذمة» فهذه أوضاع تاريخية بنت وقتها ، وكان الإسلام فيها متقدماً على زمنه ، ولكنها الآن من حديث الماضى والذين يتكلمون عنها يعيشون في متحف التاريخ ويتجاهلون التطور والإسلام «تقدمى» دائماً لأنه يطلب الحكمة أنها كانت ، ولأن كل مايقضى به العقل يقضى به الشرع .



إن هذا ليس من الديمقراطية ، أو الحرية ، أو الحفاظ على وحدة الأمة أو القول  
أن الأقباط جزء لا يتجزأ من شعب مصر .

إن هذا الموقف يهدم كل ما يدعيه الأقباط ، ويثبت أنهم يعالجون القضية العامة  
كأقباط ، لا كمصريين ، ويرون أن تمسك المسلمين بالخطوط التي وضعها الإسلام  
يستتبع تلقائيا المعارضة .

وليس هناك ما هو أبقح من هذا التصور . . .

إنه تصور الصليبيين القدامى الجهلة !

إنها «الغيرة» التي تخرب البيوت ، وتتغذى على لحوم البشر ، على ما يقول شكسبير .

\*\*\*

قد يقول قائلهم : هل تريدون أن ننصاع لأحكام الإسلام قسرا ؟

نقول لهم إن قسمة الأقلية هي أن تنصاع للأغلبية ، ما من مفر من هذا لأنه حكم  
المنطق . . ومن حسن حظ الأقباط أن الإسلام يكفل لهم حقوقا لا يجوز للأغلبية المساس  
بها حتى لو أرادت وهم في هذا أسعد حظا من الأقليات الإسلامية في الدول المسيحية  
التي تجري عليها أحكام وقوانين الأغلبية ، وليس لهم حرية بالنسبة للزواج والطلاق  
أو الميراث ، أو حتى حماية الإسلام ، لأن الحماية مقصورة على المسيحية واليهودية  
فقط !

القضية في الحقيقة أعمق من أغلبية وأقلية . . .

فكما أثبتنا في فقرة «اللبس التاريخي» أن الوجود القبطي لا يمكن أن يقارن بالوجود  
الإسلامي ، لا من ناحية المدة ، ولا من ناحية العدد ، ولا من ناحية الشمول . .  
فالقبطية في مصر تعرضت لاضطهاد وصراع استمر طوال القرون الستة من ظهور  
المسيحية حتى الفتح الإسلامي ، ولم يقدر لهم الحكم والسيادة طواها ، كما أن المسيحية  
كدين ، وإن لم يكن هناك شك في عمق الإيمان بها ، إلا أنها هي نفسها لاتغطي المجالات  
الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، أو على الأقل ليس كما يغطيها الإسلام - على حين  
أن الإسلام أمضى خمسة عشر قرنا في مصر ، ويمثل أغلبية الشعب ، ويغطي مجالات  
الحياة . ومطلب الأقباط أن يكون هناك «وجود» قبطي لا بد وأن يحكم بهذه الحقائق  
التاريخية . . .

على أن هناك ما هو أفضل من هذا كله . . .

ذلك أن يستلهم الأقباط روح المسيحية ، وروح المسيحية هو «الحب» أن نحب العدو ، وأن نحب الجار ، ووصل بها هذا المعنى درجة قالت «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر» .

وفي الإسلام أيضا ظهر من قال :

أدين بدين الحب أنا توجهت

ركايبه فالحب ديني وإيماني

فلماذا لاندع الحب يقودنا ؟

لماذا لانستمع إلى دعوة القرآن التي تسعنا جميعا .

﴿ قل يا أهل الكتاب : تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله - ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله ﴾ . . (آل عمران ٦٤) .

لماذا لا يتجاوب أقباط مصر مع تقدير القرآن لهم .

﴿ . . . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا ، الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾ إن هذه الصفات : أن يكون منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون إنما تنطبق أكثر ما تنطبق على أقباط مصر الذين وضعوا أسس الرهبانية ، وكان من أصول ما وضعها القسيسون المصريون «أنهم لا يستكبرون» .

إن القرآن الذى يرى أن ﴿ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ﴾ هو نفسه الذى يقول عنهم : ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير ، فلن يكفروه والله عليم بالمتقين ﴾ . (آل عمران ١١٣ - ١١٥)

فإذا كان هذا هو تقدير القرآن لفريق من اليهود فماذا عسى أن يكون تقديره للذين قال عنهم إنهم أقربهم مودة للذين آمنوا . .

لماذا ندع وجوه الاختلاف ما بين المسيحية والإسلام تفرقتا ، ولاندع وجوه  
الائتلاف نجمعنا ؟

إن وجوه الاختلاف جزئية ، طوقسية .. بينا وجوه الائتلاف أساسية جوهرية .  
ونحن بعد ، في وطن واحد ...

تجمعنا أرض واحدة ، وتظللتنا سماء واحدة ...

إننا نقرأ في الكتابات الأوروبية تعبير (اليهودية / المسيحية) كأساس لحضارتهم ، فإذا  
كانوا قد قرنوا اليهودية بالمسيحية - رغم ما بينهما من تعارض - أفلا يسعنا أن نجمع  
ما بين المسيحية والإسلام ؟

ولماذا لا نرى أن تعدد الأديان أمر أرادته الله ، ولو شاء لجمعهم على دين واحد ،  
وهو معنى متكرر في القرآن .. وأنه بالتالي الأمر الطبيعي الذي لا يستتبع التزام عاطفة  
معينة نحو أصحاب الأديان الأخرى .

إننى أقرر أن من أعز أصدقائى زوجين من المسيحيين ، رأيت فيهما ما لم أر في  
الآخرين من المحبة الخالصة والإعزاز القلبي والرغبة في مساعدتي في نشاطى الإسلامى ،  
بما جعلنى اعتبرهما أخوين لى ، ولم يؤثر أبداً فينا اختلاف الأديان !

\*\*\*

إننا أخيراً نقول لإخواننا الأقباط ..

□ عندما يرتفع الأقباط فوق مستوى الفتوية وحساسياتها ومطامعها ويستلهمون  
روح المسيحية «الحب» ...

□ وعندما يتعلم الأقباط وقائع التاريخ وحقائق المجتمع التى تضعهم مكانهم فى  
المجتمع المصرى وتحدد لهم الحقوق والواجبات ...

□ وعندما يؤمن السياسيون الأقباط بما أمن به مكرم عبيد «أنا قبطى ديناً ومسلم  
وطناً» ويكتبون - كما كان يكتب فى مربع الكتلة «اللهم إنا نصارى لك .. ومسلمين  
لمصر<sup>(١)</sup>» ..

□ وعندما تتحول المعارضة الرشيدة التى ترفض أن تدور الكنيسة المصرية حول

---

(١) بالمعنى ، لأن النص الحرفى هو ما لم تحفظ به الذاكرة .

المطامع والتطلعات الدنيوية ، ولا تجد من ينشر لها سوى «الشعب» أو تقوم بطبع كتبها على حسابها . . . فتصبح هي الأغلبية . . . وهى صوت كنيسة مصر . . .

□ وعندما يظهر عشرون أو خمسون كاتباً قبطياً مثل نظمى لوقا يكتبون عن الإسلام ، وعن نبي الإسلام بعاطفة وإنصاف . . .

عندئذ يمكن أن يوجد رئيس وزارة قبطى دون حساسية من المسلمين ، ويمكن أن ينصهر الأقباط فى المجتمع المصرى/ الإسلامى الذى يدور على محور القيم الحضارية الإسلامية بلا حساسيات أو فتويات ولكن مجتمعا مصرياً واحداً : إسلامى الهوية ، متعدد الديانة . . .

\*\*\*

#### (د) سلطان الهوى :

قد يتصور البعض أنه مما لا يتناسب مع كتاب علمى أن ندخل حكم الهوى بين العوامل التى تحرف بأدعياء التنوير من الموضوع إلى الذات ، ولكن علينا أن نعرف أننا - ككائنات بشرية - يحدث كثيرا ، أن يغلبنا الضعف والهوى على أمرنا . . . ونحن بعد أبناء آدم الذى ﴿نسى ولم نجد له عزما﴾ و ﴿عصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى﴾ . . . وقد أشار القرآن فى آيات أخرى عديدة إلى أثر الهوى على النفوس . . . وحذر الرسول من أن يتبع «أهواءهم» ونص على أن اتباع الهوى من أكبر أسباب الانحراف والضلال . . . وصور القرآن الكريم فى آية بلغت الغاية من الإعجاز قوة الهوى الطاغية التى تستبد بالإنسان فتجعله عبدا لها ، وتعميه عن أى شيء آخر ، فلا يفيد معه علم ، أو بصر ، أو أذن . . . ﴿ أفأرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ .

وحقيقة الحال أنه اذا لم تكبح النفس الإنسانية قيم ومبادئ أكبر وأعظم من هواها ، فلا شيء يمكن أن يقف أمام الهوى إلا الحدود المادية ولا يمكن أن نجد المبادئ التى هى أكبر من الهوى إلا فى الأديان ، لأن كل القيم والمبادئ الأخرى التى يصنعها الإنسان لا بد وأن تكون مشوبة بالهوى نفسه ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يتحرر من ذاته وأعماقه ، ولأن مرد هذه القيم المجتمع ، والمجتمع فى حد ذاته أو وحده ليس لديه الموازين

الموضوعية (فليس المجتمع سوى تجمع الآحاد) ومن هنا يصبح حكم الهوى أو ما تهوى الأنفس هي الوجهة التي تتجه إليها «البوصلة» ونجد النظم والقوانين وهي مبطنة بحكم الهوى ! وقد تقبل المجتمع الأوروبي نظرية فرويد عن هيمنة الغريزة الجنسية على الإنسان ، وأن آثار هذه الهيمنة تمتد إلى كل تصرفات الفرد ، كما تتجلى في الفنون والآداب التي هي التعبير العاطفي للمجتمع . . . نقول تقبلها لأنه وجد فيها التنظير «العلمي» لاتجاه فرض نفسه على المجتمع وأصبح أمرا مقضيا .

وقد لمسنا بأنفسنا قوة وتأثير الهوى على كثير من أدياء التنوير . . . وفي السودان عندما وضعت مشروعات قوانين الشريعة ، كان المم الأول للذين ألفوا الشراب هو ماجاء حاصا بالخمر وتجرمها والعقوبة عليها ، فهذا وحده كان موضوع اهتمامهم ! وكان مما ضاعف من أثر هذا العامل أنهم تصوروا أن تطبيق الشريعة سيجعل حياتهم ححيما . . . فلا شراب ، ولا قمار ، ولا سهر ولا سمر ، ولا ملاهى ليلية ، ولا كباريات ، ولا مسارح . . . الخ .

فأين اذن ، وكيف يمكنهم أن يستمتعوا بوقتهم . . . وإذا كان دعاة الشريعة يبدؤون - بالنسبة للمرأة - من الحجاب هادفين إلى النقاب ، فكيف يمكنهم أن يعيشوا في مجتمع الأشباح السوداء الكثبية هذه !؟

لاجدال في أن المثل الإسلامى الأعلى لا يقر كثيرا من الموبقات التي يتساح فيها المجتمع الأوروبى ، ولكن هذا لايعنى إقامة دولة بوليسية للفضيلة ، ولا يستهدف إزجاء الناس قوة واقتدارا للصلاة !

ولا نريد أن نخل حراما ، ولكن يمكن القول ببساطة إن كل واحد يستطيع أن يفعل في بيته مايشاء ، مادامت أبوابه مغلقة عليه ، وأعماله لا تضر أحدا خارجها بصوت أو رائحة . . . إنخ وتكون العلاقة عندئذ بينه وبين الله ، لا بينه وبين الدولة والمجتمع . . . والله ستار والناس كلهم معافون إلا المجاهرون .

والإسلام بعد ، يضع في مكان ما يحرمه بديلا يخلو من سؤات ما حرمه ، وعندما يحرم الخمر فإنه يحل كل أنواع المشروبات التي تخلو من مسكر . . . والمفروض على كل حال أن تعالج قضية الخمر من المنظور العام لا من المنظور الخاص (أو على الأقل منها معا) إذ لا جدال أن إباحة الخمر تؤدي إلى الإدمان ، وهو وباء قومى أنقذ الإسلام

مجتمعه منه . . . وحاولت الولايات المتحدة أن تنقذ نفسها في العشرينات ولكنها فشلت ، لأن الامتناع عن الخمر لا يمكن أن يأتي من قبل القانون وحده .

وفي العلاقات المشروعة ما بين الرجال والنساء التي يمكن أن تتم في النوادي والجامعات والمساجد . . . إلخ ويسمح بها الإسلام ما يغني عن العلاقات المحرمة التي تحوطها الريب والشبهات وتفسح المجال للظنون والإساءات . ووجهة نظر معظم الجماعات الإسلامية عن المرأة في واد ، ونصوص القرآن الكريم وروح الإسلام في واد آخر .

ونحن نؤكد أن «مجمع الأشباح السوداء الكيبية» ليس من الإسلام في شيء ! وان المجتمع الإسلامي يمكن أن يكون جميلاً وبيحاً بل يفترض أن يكون جميلاً وبيحاً .

\*\*\*

إن حكم الهوى ، وإن أخذ شكلاً فردياً ، كما في الحالات التي أشرنا إليها ، قد يكون مرده في النهاية - المزاج العام ، الذي يعود بدوره إلى أصول عامة ، ففي المجتمع الأوروبي فإن الأصول العامة هي الفرد والحرية . . . ومن هنا لا يصبح حكم الهوى حكماً للهوى كما يراه أصحاب القيم الموضوعية . . . ولكن هذا التأصيل مقصور على الحضارة الأوروبية . . . أما في الدول التي تؤمن بالإسلام ، فإن القيم فيها تعود إلى ما هو أقدس وأكبر من الفرد ، كما يوجد نوع من الارتباط ما بين الحرية والحق الذي هو رمز القيم المطلقة ، وبالتالي يأخذ الانحراف عنها شكل الهوى الفردي .

والمفروض في كل من يتصدى للعمل العام ، ولتوجيه الجماهير والاصلاح أن لا يدع الميول الخاصة أو الهوى الفردي تؤثر على أحكامه ، فهذه الأحكام يجب أن تصدر عن ملاحظة المقصيات العامة والسلامة الموضوعية وهو الأمر الذي لم يطقه أدعياء التنوير ، وسمحوا للهوى بالتأثير عليهم وتوجيههم .

## **الباب الثالث**

### **عندما تتصافح اليدان**

---

**الفصل الأول : عندما تتصافح اليدان**  
**الفصل الثاني : مشروع للأجيال**

## الفصل الأول

### عندما تتصافح اليدين

---

يعرض لنا بعض الكتاب اليمين واليسار كما لو كانا يدين تنجعه إحداهما إلى اليمين ،  
وتتجه الثانية إلى اليسار ، وبالتالي فلا يلتقيان !

ولكن الله تعالى عندما جعل لنا يدين يمنى ويسرى ، فإنه ربطهما بالجسم وجعلهما  
يتلاقيان كل يوم ألف مرة ، وكانت الحكمة في هذا أنه لا يمكن إمساك شيء إمساكا  
محكما الا عندما يقبض عليه الإنسان بكلتا يديه . ولهذا فإن الحكمة في اليدين هي  
التلاقى ، وأن تكمل كل واحدة منهما الأخرى .

وثمة حديث نبوى يصل بتلك الحكمة إلى أقصاها يقول : « إن المؤمن للمؤمن  
كاليدين تغسل إحداهما الأخرى » . . فانظر إلى عمق تلك اللفتة : ( تغسل إحداهما  
الأخرى ) وما فيها من دلالة عميقة ، وإن كانت ممارسة يومية لاثير انتباها .  
ويمكن أيضا أن نقول إن تعبير اليمين واليسار ما كان يمكن أن يوجد أحدهما دون



الآخر ، فانما يُعدّ اليمين يمينا إذا وجد اليسار ، فاذا لم يوجد اليسار فلا يمين وهو ما يقال أيضا عن اليسار ، فالصفة الخاصة لكل واحد منهما إنما تعود إلى الآخر ، فاذا كان هناك افتراق في النهايات فهناك تلاقق في البدايات هو الذى سمح باختلاف النهايات .

وبعد كل شىء فهما جزء من حكمة « الزوجين » اللذين أقام الله عليهما الكائنات جميعا .

هكذا يجب أن نفهم « اليمين » و « اليسار » ويجب أن نتخلص من الجمود « الاستاتيكي » وأن نحل محله مفهوما حيويا متكاملا تتلاقق فيه الأطراف ، لالتصارعا - كما في الجدل الماركسى - ولكن ليتكاملا .

نقول هذا لنوضح أن تلك التفرقة ما بين يمين ويسار لاتقوم على أساس أصولى ، ولكن على خط وهمى ، وقد تمسك بها وأبرزها هواة « التصنيف » و « الخانات » أو الذين يستسهلون الأمور ويأخذونها على ظواهرها . . أو الذين يؤثرون التشدد .

وسوف نرى ، فيما سنقدمه من عرض ، أن دعاة التنوير حقا كانوا مثلا على هذا التلاقق ، وإن أنكرو ذلك فقهاء التقليد وأدعياء التنوير .

### التنويريون فئتان :

إذا استقصينا نشأة وتطور ونشاط الذين قاموا بدعوة التنوير أو حملوا عبء العمل العام من مستهل العصر حتى الآن ، نجد أنهما فئتان :

**الفئة الأولى -** نشأت في القرية ، الرحم البيئى للإيمان ، أو الريف قبل أن ينزحوا إلى المدينة لإتمام دراساتهم العالية ، أو أنهم نشأوا في المدينة ، ولكن فى أسرة محافظة ومن أبوين يلتزمان بأداب الإسلام وأداء شعائره .

يتعرف هؤلاء على الحضارة الأوروبية فى مستهل حياتهم ، فينبهرون بها تماما ، ويتزلزل إيمانهم إلى درجات متفاوتة - تعظم أو تقل - ويكونون فى هذه المرحلة دعاة تغريب أوروبى .

وبعد حقبة من الزمن - عشرين عاما على سبيل المثال - يتلاشى هذا الانبهار ، ويتعرفون على المثل والقيم الإسلامية ، وتنضج شخصياتهم وتأخذ أحكامهم طابع الاعتدال ، وينصرف بعضهم إلى نقد الحضارة الأوروبية التى أعجب بها شابا غريبا . .

بينما يعمل البعض الآخر لاستكشاف نواحي الإبداع في الإسلام مستخدماً في هذا ثقافته الأوروبية ، وما زودته به من أدوات بحث ، أو قد يعملون للجمع بين حسنات الحضارة الأوروبية والمثل والقيم الإسلامية بدرجات متفاوتة من التوفيق .

هذه هي الفئة الأولى ، وسنجد أن هذه الفئة هي التي حملت مشعل التنوير وجعلته رسالتها ، وحاولت أن تقدم إضافة منشقة لحل القضية الاجتماعية والفكرية من رفاة الطهطاوى حتى احسان عبد القدوس وزكى نجيب محمود .

وهناك فئة أخرى لم تنشأ في القرية ، ولكن في المدينة ، من آباء وأمهات غير ملتزمين بالقيم الإسلامية ، هؤلاء تغلب عليهم «الطبيعة البورجوازية» ، بمعنى أن يأخذ طموحهم طابعاً شخصياً يدور حول أنفسهم ويكفل لهم الثروة ، والنفوذ والمناصب والجاه ، وهم يسلكون الى هذا سبل الصناعة والتجارة وأهم من هذين الاحتراف السياسى ، وعندما يدخل أحدهم المجال العام ويصطدم بالإسلام ، فإنه اذا كان ذكياً يلجأ للمعاملة ، ولكنه قد لا يرى ضرورة لذلك لأن هذا قد يخسره أكثر مما يكسبه . . وقد يرى أن رضا السلطان أئمن وأهم من تجاوب القاعدة الشعبية ، فيلجأ للتجاهل ولا يجد سندا الا في «الشللية الحزبية» أو المالية أو الصحفية ، ويكون اتصاله بقاعدته الشعبية عبر قنوات المؤسسات والمناصب وليس بمخاطبة الوجدان أو من منطلق الدعوات والمثل !

وقد يصاب بعض أبناء هذه الفئة الثانية ممن وهبوا ذكاءً أو ثقافة خاصة ، أو ملوا الحياة البورجوازية بالماركسية ، وهي أقرب إليهم من الإسلام بحكم الثقافة والمزاج والبيئة ، فيصبحون كمن وقع في حب غانية جميلة : يعميه ويصمه فلا يرى فيها إلا جمالا ولا يستطيع عنها انفصالاً . . ولكن هذا عادة ينتهى مع تحقيق الأمل البورجوازى ، المنصب ، الجاه ، ومجازة سن الشباب والانبهار ، إلا اذا كان قد تورط في مناصب ومسئوليات قيادية ، فيغلب أن يعسر عليه التحلل منها .

ونجد بين هذه الفئة ( أدعياء التنوير ) ، كما نراها في القيادات التي تسيطر على المجتمع المصرى من انقلاب ٢٣ يوليو حتى الآن في الحزب الحاكم وفي الآداب والفنون ، وقد يكون من أبرز رموزهم الصحفيان هيكل ومصطفى أمين<sup>(١)</sup> ، وفلول الماركسية الناصرية .

---

(١١) إن المهمة التي تعرض لها الأستاذ مصطفى أمين كشفت له بعض الجوانب التي كان يحكم نشأته البورجوازية بعيداً عنها .

والفارق بين الفئتين هو الإسلام . . فالفئة الأولى كان لديها قدر من الالتزام الإسلامي ، ووعى بمنزلة الإسلام في الفكر ، والحضارة ، والمجتمع . . . الخ ، وقد غرست نشأتها هذا الوعي من الطفولة ، وظل كما نرى فترة الانبهار الأوروبي ، ثم عاد ليظهر بمجرد أن سمحت الظروف ، وهو ما يعطينا مؤشرا هاما على أهمية التنشئة سواء كان ذلك في القرية التي لا بد وأن تكون بحكم كونها قرية رحما للإيمان . . أو بالتنشئة في أسرة ملتزمة . . . وافتقاد هذا العنصر ، كما يحدث بالنسبة لأطفال آباء وأمهات من البورجوازية التي لا يمثل الإسلام فيها جذرا ، هو الذي يجعل مآلهم معسكر البورجوازية وتكون دعوتهم للتنوير دعوة غير مؤصلة ، لأن القيم الإنسانية ، وهي أئمن ما يمكن أن تقدمه الحضارة الأوروبية تعود في النهاية الى الفرد ، وتدوب في بوتقة الفردية لعدم قيامها على قيم مطلقة ولا توجد القيم المطلقة إلا في الأديان . ومن هنا تأخذ القيم البورجوازية الزيف التنويري . . .

\*\*\*

ويعترف أدياء التنوير بأن الذين حملوا مشعل التنوير هم رفاة الطهطاوى وعلى مبارك وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده والكواكبي وقاسم أمين ، ثم طه حسين وعلى عبد الرازق ومحمد حسين هيكل ومنصور فهمي ، ليختموا بخالد محمد خالد وزكى نجيب محمود واحسان عبد القدوس . . . الخ وفي الآداب والفنون شوقي وحافظ وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب .

ولكنهم يتجاهلون أن منطلق هؤلاء جميعا أو كثرتهم الكاثرة ، كان الإسلام ، وهم لا يربطون ما بين البدايات والنهايات ، أو ما بين دعواتهم وما بين الإسلام من اتفاق ، ولا يبرزون الا النتائج ، أو يبرزون ناحية معينة تتفق مع اتجاهاتهم . .

وفقهاء التقليد أيضا - على ما قد يبدو في ذلك من مفارقة - لا يرحبون باسلامية هؤلاء الرواد ، وقد يتحفظون عليها وأى واحد فيهم أقرب الى الإسلام من الشيخ محمد عبده ( المفتى ) وقد تعرض لسهام الأزهريين ومؤامرات فقهاء التقليد سحابة حياته .

والحقيقة أن هؤلاء الرواد والدعاة هم من الذين تتصافح فيهم اليان ، ويتلاقى اليان باليسار ، لأن الإسلام المتفتح الذى ينشد الحكمة جعلهم يبحثون عن الجديد الصالح فيأخذون به ، لصلاحيته الموضوعية من ناحية ولحث الإسلام عليه من ناحية أخرى ، فهم دعاة تنوير وفقهاء اجتهاد ، وهو شئ واحد . . .

## العنصر الإسلامى فى دعاة التنوير :

يتفق الجميع - أو الأغلبية العظمى - على أن رائد التنوير فى مصر هو رفاة الطهطاوى . فمن هو رفاة الطهطاوى ؟

إنه طالب أزهرى من أقصى صعيد مصر ، درس فى الأزهر حتى أصبح شيخا فيه ، ووقع عليه اختيار محمد على ليكون «إماما» لاحدى البعثات التى أوفدها الى فرنسا ، ولم يكن طالبا معها ، وكان المطلوب هو أن يؤمهم فى الصلوات ، ولكنه بنبوغه أصبح أبرز طلبة البعثة كلها ، وكان عددهم حوالى الأربعين . . . وعندما عاد جعل هدفه نشر العلم والمعرفة ، وترجمة الكتب الفرنسية الى العربية ، وهو الذى أسس مدرسة اللسان ، وقد وضع بالإضافة إلى ما ترجمه عددا كبيرا من الكتب فى علم الكلام والفقه والنحو وعلم الحديث والبلاغة والأدب والسيرة النبوية . . . فضلا عن كتبه المشهورة «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» و «مناهج الألباب المصرية فى الآداب العصرية» و «المرشد الأمين للبنات والبنين» . . .

فى رفاة رافع الطهطاوى نجد التنويرى/ الإسلامى كأفضل ما يكون . . . نجد فيه الوطنى من مدخل أن «حب الوطن من الإيمان» وهو الشعار الذى كان يكرره . . . ونجد فيه المقومان البارزان اللذان يفترض أن يتوفرا فى كل تنويرى / اسلامى .

الأول الإيمان بالعلم والحرص عليه والعمل على اشاعته ، وهذه فى صميم الإسلام والآيات والأحاديث عن ذلك أكثر من أن تحصى .

الثانى تحكيم العقل والشرع ، وهما يدا الإيمان الإسلامى أو ساقاه أو جناحاه ، فهما يمسك وعليهما يرتكز ويسير ، أو يخلق ويطير ، ولا يتصور أن يكون هناك تعارض ، وإنما تكامل وهما صورة من صور «الزوجين» التى أقام الله عليها العالم .

وبحكم الشرع فإنه يستنكر الحاد الفرنسيين ويقول : «ومن عقائدهم القبيحة قولهم إن حكماؤهم وطبائعيهم أعظم من عقول الأنبياء وأذكى منهم ، ولهم كثير من العقائد الشنيعة كانكار بعضهم القضاء والقدر مع أن من الحكم أن العاقل من يصدق بالقضاء ، ويأخذ الحزم فى سائر الأشياء» وهو ينتقد ضعف الحاسة الدينية عندهم «أكثر أهل هذه المدينة ( أى باريس ) إنما لهم من دين النصرانية الأسم فقط حيث لا ينتحل دينه ، دلالة غيرة عليه ، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل» .

وفي الوقت نفسه فإنه لا يدع فقه التقليد يشبه عما قضى به العقل ( والشرع أيضا ) من أحكام تتعلق بالمرأة ، فهو يستحسن الدور الذي تقوم به الزوجة الفرنسية والتي يضمن وجودها على المجلس «جمالا وأنسا وبهجة وانها تحيي الضيوف أصالة أو نيابة عن زوجها ، وزوجها يحبهم بالتبعية» ورأى أن عمل المرأة يصقل شخصيتها ويعددها عن البطالة . . كما امتدح التمثيل وما يمكن أن يقدمه من توجيه وتهذيب .

والحق أن من أهم ما قام به الشيخ رفاعه هو النهضة بالمرأة ، ولما كانت الطرق مسدودة أمامه فانه بدأ بالخطوة الأولى ( التعليم ) وكان في هذا يعمل في مجال تخصصه وإيمانه واتجاهه العاطفي الذي اكتسبه من باريس ، وقد يصور تقديره لمنزلة المرأة الوثيقة التي حررها على نفسه لزوجته ، والتي تعد الأولى من نوعها فيها نعلم . . ولعله أراد أن يضرب المثل بنفسه في دعوته .

وهذه الوثيقة المحفوظة في دار المحفوظات والتي كتبها الشيخ رفاعه بخطه وختمها بخاتمه ، نصها :

«التزم كاتب هذه الأحرف رفاعه بدوى رافع لبنت خاله المصونة الحاجة كريمة بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلى الأنصارى ، أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ، ولا جارية أيا كانت ، وعلق عصمتها على أخذ غيرها من نساء ، أو تمتع بجارية أخرى ، فإن تزوج بزوجة أيا ما كانت ، كانت بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة ، وكذلك اذا تمتع بجارية ملك يمين ، ولكنه أوعددها وعدا صحيحا لا ينتقض ولا يخلل أنها مادامت معه على المحبة المعهودة مقيمة على الأمانة والعهد لبيتها وأولادها ولخدمها ولجواربها ، ساكنة معه في محل سكنه ، لا يتزوج غيرها أصلا ، ولا يتمتع بجوارب أصلا ، ولا يخرجها من عصمته حتى يقضى الله لأحدهما بقضائه . . . » ( انتهى ) .

فنحن نرى الشيخ رفاعه سبق المشرع المصرى بأكثر من مائة سنة عندما أعطى زوجته الحق في الطلاق اذا تزوج بأخرى ، وحرّم على نفسه - ليس فحسب الزواج - بل أيضا التمتع بجوارب ، وكان هذا وقتئذ فاشيا !

وبعد رفاعة رافع الطهطاوى ، يأتي على مبارك وهو مؤسس وزارة التربية والتعليم ، ودار الكتب ، ودار العلوم ، ومؤلف «الخطط التوفيقية» وهو في كل أعماله وكتابه يصدر عن روح اسلامية عريقة منذ أن خرج من برنال طفلاً يطلب العلم حتى آخر أيام حياته .

بعد هذين الكوكبين ، يأتي دور جمال الدين الأفغانى وتلميذه الأثر محمد عبده ومنطلقهما الإسلامى لا يحتاج إلى ايضاح . .

وقد كان جمال الأفغانى فى الفكر كالنجم القطبى فى السماء . . يتجه إليه كل الملاحين ، وتضبط على موقعه كل الاتجاهات وكانت له جاذبية آسرة لم ينج منها أحد من مفكرى عصره حتى الذين عارضوه مثل «رينان» وحتى من يظن أن ليس لهم به علاقة ؛ فلطفى السيد مثلاً رائد العلمانية ، والديمقراطية إلخ . . هاجر إليه وتلمذ عليه وتأثر به . .

ثم يأتي رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده ، وهو وان كان يمثل اتجاهها نحو «السلفية» إلا أنه كان يذهب بها الى آخر مدى . . ويجب أن نذكر أن كتاب الكواكبى «طبائع الاستبداد» و«مذكرات أم القرى» وهى كتب ثورية «تنويرية» نشرت فى «المنار» أولاً . . وأن الشيخ رشيد رضا نفسه كان قطب حزب «اللامركزية» الذى ضم كل أحرار سوريا ولبنان فى العشرينات .

وكل مجموعة التنوير فى عهد محمد على و اسماعيل حتى مشارف القرن من الإسلام جاءت ، وعلى الإسلام ارتكزت فى دعوتها التنويرية التحريرية .

بعد هؤلاء يأتي الثالث الكبير : طه حسين - توفيق الحكيم - عباس العقاد . . . أما طه حسين فهو ابن الأزهر واللغة العربية ، وهو لا يستشعر زهوا بأنه يتحدث الفرنسية واليونانية كأحد أبنائها ، ولكن يحق له الفخر أنه احكم العربية حتى أصبح من شيوخها وقد ترجم ماشاء الله له أن يترجم عن الفرنسية مما لا يكاد يذكر الآن . . وانما تذكر اسلامياته : على هامش السيرة/ الفتنة الكبرى/ الشيخان إلخ . . وحقاً أنه فتن بفرنسا ، عندما تعرف عليها وتأثر بها تأثراً اتصل حتى بعد أن تركها لأنه احتفظ بزوجة ظلت فرنسية كاثوليكية وجعلت بيته قطعة من فرنسا ، ولكن جبه الأول كان ، رغم كل شيء ، هو أيامه الأولى وأدبه العربى . ومع أن التوفيق قد فاته فى احدى إشاراته الى القرآن فإنه تاب عنها وحذفها فى الطباعات. التالية ، وهى على كل حال ،

كبوة الجواد التي لاتذهب بصولاته وجولاته ، وليس أدل على ذلك من مواقفه ، عندما تخلص من أثر الانبهار القديم بأوروبا والمستشرقين ، وقد استلقت ذلك انتباه الكاتب الصحفي الأستاذ أحمد بهجت<sup>(١)</sup> ورأى فيه نموذجا لباحث شرد وأخطأ ثم رده العلماء إلى الصواب فعاد إليه واعتذر عن خطئه .

لقد وعى طه حسين التجربة التي وقعت له ، واستفاد من الدرس الذي صادفه في بداية حياته ، وكان له رأيه الحكيم بعد ذلك وهو رأى أنضجته التجارب والنضج التواضع الإنساني .

وفي لجنة مشروع الدستور ٠٠ ٨١ ص ٠٠ وفي جلسة ١٩٥٣/٦/٤ قال طه حسين .

إن من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج عند وضع الدستور على ما أمر به الإسلام ، ولكن لابد لنا من أن نحتاط فنقول إنه ليس هناك أى نص يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن . . أريد أن أقول أنه إذا وجد نص ديني صريح فالحكمة والواجب يقتضيان ألا نعارض النص ، وأن نكون من الحكمة والاحتياط بحيث لا تضر الناس في شعورهم ولا في ضمائرهم ولا في دينهم .

إذا احترمت الدولة الإسلام ، فلأبد أن تحترمه جملة وتفصيلا ، ولا يكون الإيمان ايمانا ببعض الكتاب وكفراً ببعضه الآخر .

أين حكمة هذه الكلمات التي قالها طه حسين من حماقة الباحثين الذين يريدون تحطيم المقدسات في بحوثهم الهزيلة ، فإذا حاول علماء الأزهر أن يصححوا له ارتفعت الأصوات أن حرية البحث في خطر ، وأن أبناء الظلام يريدون أن يطفئوا الشمس ليسود الظلام .

إن تأمل تجربة طه حسين واستعراض حياته يقولان لنا أن العالم الحقيقي هو الذي يدرك أنه يمكن أن يخطئ ، وأن الباحث الحقيقي هو القادر على أن يستمع لمن يصحح له الخطأ ويشثبه عنه . . فلا كمال إلا لله تعالى وحده .

والأمر في توفيق الحكيم أعجب ، فهذا الأديب الذي نشأ في أسرة بورجوازية ، وتشرذ في سبيل المسرح الفرنسي ، وأتقن الحوار حتى أصبح سيده ، كان أشد الثلاثة عناية بالإسلام ، فما الذي يجعل سيد المسرح يعنى بأن يلخص تفسير القرطبي ؟ وما الذي يجعله يدع نظرية اسلامية هي التعاودية الإسلامية ، وما الذي يجعله يصدر ( محمد ) وما الذي يجعله في آخر أيامه يصدر كتاباته تحت عنوان حديث نبوي شريف هو «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيله فليفرسها» لقد كان الإسلام أحد الهموم الأساسية في فكر توفيق الحكيم حتى مات وحاول أن يسهم بإضافة جديدة والى حد ما نجح في ذلك . . .

(١) جريدة الأهرام ص ٢ يوم ١٩٩٤/١/٢٥ .

أما العقاد ( الجبار ) فلم يبق من آثار جبروته شيء ، ولكن بقيت اسلامياته ، ولعله كان أبعدهم عن الإسلام بحكم مزاجه وثقافته ، ومع هذا فإن ما كان يطمح إليه في أيامه الأخيرة هو أن يضع تفسيراً للقرآن . وقد أنسيت معظم كتبه حتى كتابيه عن سعد زغلول وابن الرومي وهما أفضل ما كتب . . . والذي يعرفه الناس عن العقاد هو «عبرياته الإسلامية» .

فانظر إلى أثر الإسلام على هؤلاء الذين شادوا الإسلام فترة ما فعلهم وكسبهم وجعلهم كتاباً عنه وأنصاراً له . . .

وفي العدد الذي أصدرته مجلة الهلال خاصا بالرسول ( أغسطس ١٩٧٨ ) أشار توفيق الحكيم في كلمته التي كانت بعنوان «دفاع عن محمد» الى قصة تمثيلية لفولتير ( محمد ) سب فيها النبي ﷺ سباً قبيحاً ، وأهداها بهذا الإهداء الدليل الى البابا بنوا الرابع :

«فلتستغفر قداستك لعبد. خاضع من أشد الناس اعجاباً بالفضيلة اذا تجرأ ، فقدم الى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية ، الى من - غير وكيل رب السلام والحقيقة - أستطيع أن أتوجه بنقدي قسوة نبي كاذب وأغلاطه ، فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه ، وأن اجرؤ على سؤالك الحماية والبركة ، واني مع الأجلال العميق أجنو وأقبل قدميك القديستين ١١٠٠»<sup>(١)</sup> .

فولتير (١٧ أغسطس ١٧٤٥) .

ويقول توفيق الحكيم . . . «علمت أن روسو كان يتناول بالنقد أعمال فولتير التمثيلية ، فاطلعت على مقاله في قصة محمد علني أجد ما يرد الحق الى نصابه فلم أر هذا المفكر الحر أيضاً يدفع عن النبي ما ألصق به كذبا ، وكأن الأمر لا يعنيه ، وكأن ما قبل في النبي لا غبار عليه ولا حرج فيه ، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هي أدب وفن» . ويستطرد توفيق الحكيم :

«من ذلك اليوم وأنا أحس كأني فجعت في شيء عزيز لدى : الإيمان بنزاهة الفكر الحر . . .» .

(١) انتبهوا أيها السادة هذا هو فولتير وثن العلمانيين وبطل الليبراليين وعدو الطغاة والحاكمين ورمز حرية الفكر ، فهل يمكن أن تصل القمامة والحقارة بكاتب مبتدىء متعلق الى أكثر من هذا ؟!



ولى مقاله هذا امتدح الدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل لكتابتهما الإسلامية وقال :

«لقد صنع هيكل كثيرا في هذا السبيل بأسلوبه الجديد في «حياة محمد» ولكن كان قد أتم في دنياه ، فلقد اشترى بكتابه آثامه ، وسوف يتقدم يوم الدين وكتابه يمينه يشفع له بدخول الجنة ، متأبطا ذراع طه حسين بما قدمت يمناه هو أيضا من كتاب أدبى جميل «على هامش السيرة» ، كان له ولا ريب أبلغ الأثر في حمل الناس على استمراء أخبار النبى» .

ونحن نقول إن توفيق الحكيم سيصحبهما يوم العرض العظيم حاملا يميناه روايته ( محمد ) ويسراه كتابه «التعادلية الإسلامية» وستحلهم رحمة الله مكانا عليا . . .

\*\*\*

ويذكر أديبنا التنوير مع هؤلاء الثلاثة محمد حسين هيكل ومنصور فهمى ، وأول هذين هو صاحب رواية «زينب» التى يعطيها البعض وصف ريادة الرواية ، وكان هيكل «ليبراليا» تقليديا رأس فى العشرينات مجلة «السياسة» وكانت وقتئذ أقوى وأشهر مجلة ليبرالية ، وخاض غمار السياسة الحزبية ووصل الى أعلا مراكزها ، وأتسى هذا كله الآن ولم يبق له الا «حياة محمد» الذى كان نقطة تحول فى كتابة السيرة . . . وأعقبه «فى منزل الوحى» و«عمر» وهذا هو مابقى من هيكل . . .

أما منصور فهمى الذى - بتأثير استاذة الفرنسى اليهودى - لمس شخصية الرسول فى رسالة الدكتورة عن المرأة فى الإسلام . . . فإنه أدرك خطأه ، وتاب توبة نصوحا ، وأصبح فيما بعد من ائمة الفكر الإسلامى . وعندما كان عميدا لكلية الآداب وجبن الأساتذة عن فتح «مصلى» بالكلية لشباب الأخوان المسلمين بها كان هو الذى خصص أحسن قاعة لتكون مصلى ، وكتاباته الإسلامية عديدة .

ويعطى أديبنا التنوير للشيخ على عبد الرازق وكتابه «أصول الحكم فى الإسلام» والشيخ خالد محمد خالد وكتابه «من هنا نبدأ» أهمية كبرى ، ويدفعان بالاسمين فى كل حديث .

والشيخ على عبد الرازق شيخ من أسرة كلها شيوخ ، وقد ولى أخوه مشيخة الأزهر ، كما تولى هو نفسه وزارة الأوقاف ، وله فى كتابه اجتهاد - اذا كان يخالف

الجمهور ، فإنه استند على مارآه مقنعا من آيات وأحاديث وقيل إن الكتاب قد صدر ليفسد على مجموعة من الشيوخ دعائهم لجعل الملك فؤاد خليفة ، بعد أن قضى مصطفى كمال أتاتورك على الخلافة في تركيا . . فإذا كان هذا هو قصد الكتاب فنعماً به ، لأن الإسلام يبرأ من خلافة يتقلدها فؤاد وأمثاله ، وعلى كل حال فإن الرجل - لعوامل عديدة - قد يعود بعضها الى أنه غيّر فكره ، أو أنه وجد أن كتابه يستغل في غير ما استهدفه ، رفض إعادة طبع كتابه ، بل وأوصى بعدم طبعه ، مما حمل ورثته على رفع قضية على من أعاد الطبع !

والشيخ خالد محمد خالد شيخ جليل نشأ في الجمعية الشرعية ، واتصل بالأخوان المسلمين ، وتضمن كتابه «من هنا نبدأ» ثورة على دولة الكهنوت ودعوة الى تحرير المرأة ، ولم يخالف في هذا كله اطار الإسلام ودوائر الأجتهد .

وقد حاول اليساريون وأدعياء التنوير اجتذابه ، فأبى واستعصم ، وان لم ينف هذا أن يكون التعبير قد خاناه في احدى المقالات «والعصمة لا تكون الا للنبى» . . والمآثرة العظمى للشيخ خالد هي أنه كان الوحيد الذى طالب الطاغية وجها لوجه في المؤتمر القومى للقوى الشعبية بالحرية والديمقراطية ، وكان في هذا يرتكز على الإسلام وينطلق من الإسلام ويجرى على تقاليد العلماء الذين كانوا يجابهون السلاطين بكلمة الحق المرة .

وهم يشيرون الى قاسم أمين محرر المرأة ، وقاسم أمين هو صديق ومريد الشيخ محمد عبده وكان في كتابه يطالب بما اعطاه الإسلام للمرأة من حقوق ، ولعله لم يصل الى كل ما يسمح به الإسلام للمرأة مراعاة منه لظروف المجتمع المصرى وتشد .

ويشيرون الى يحيى حقى ، وقد لحص يحيى حقى رصده للحياة الاجتماعية فى رائعته «قنديل أم هاشم» التى تمثل الطبيب الذى تعلم فى إنجلترا ، وأحب الإنجليزية ، ثم ينتهى الى «أم هاشم» ويتزوج قريته . ويحيى حقى هو الذى قال فى حلقة «شاهد على العصر» التى بثتها الإذاعة سنة ١٩٨٣ - أن اسوأ لحظة مرت على مصر هى اللحظة التى قرر فيها محمد على فصل التعليم المدنى عن الأزهر . . ففى هذه اللحظة انقسمت الأمة ، وإن هذا كان مؤامرة من محمد على على الأزهر .

وقد ظهر كُتّاب رزقوا قدرا كبيرا من الأصالة والتمكن ولكنهم لم يكتبوا عن الإسلام ، أو يعنوا به عناية خاصة ، فلم يكتب لهم الخلود أو الشهرة الجماهيرية . . فالأستاذ المازنى كان استاذا فى الأسلوب والأدب ، ولكنه لم يكتب عن الإسلام ،

فلم تحفظ له الجماهير شيئا ، وهو ما يمكن أن يقال عن الأستاذ أحمد الصاوي محمد  
الذي أصدر «مجلتى» في الثلاثينيات وصاحب الأسلوب العاطفى الأنيق .

وقد قرأنا مقالا للدكتور محمد مندور نشره في «الرسالة» عدد ٦٠١ في  
٨ يناير ١٩٤٥ بعنوان «اعترافات مؤمن» قص فيه رحلته من الشك إلى  
الإيمان، . . وإيمانه لا يقوم على عقل ، لأن العقل يعجز عن الوصول إلى مقام الألوهية ،  
ولكنه مؤمن تماما لإيماننا راسخا وليست لى فى الحياة قوة غير هذا الإيمان ، فقد تهب  
أعاصيرها ، ومن الممكن أن تنتكر لى يوما عناصرها ذاتها ، ولكن ذلك لا أظنه ينال منى  
شيئا ، وذلك لا اعتزازا منى بعروض حياة أو مواهب نفس ، ولكن لأننى مؤمن بأنه عادل  
اطمأنت إليه نفسى بحيث لا أنكر أننى قد اتجهت إليه يوما فلم أجد تأييده .

وأعاد مندور هذا الاحساس الى العلاقة التى كانت بينه وبين أبيه الذى كان قد  
بنى بأحد الحقول ( خلوة ) له لا منفذ لها غير الباب ، وأنه هجر زوجته وابناه أربعين  
ليلة ليقيم فيها يعبد الله آناء الليل وأطراف النهار لا يرى أحدا ولا يراه أحد ، وإنما  
يحمل إليه الطعام من خصاص الباب . وأثار هذا الخير خيال مندور فكان يلاحق  
أباه بالسؤال ولكنه كان رجلا كتوما فلم يحظ منه بجواب حتى علم أخيرا أن الشباب  
كان قد ساقه فى مهاويه فلم يجد عصمه خيرا من معاهدة أحد علماء الدين على  
التوبة وعبادة الله . وكان هذا العالم نقشبندى المذهب وكان رجلا خيرا فقصر  
توجيهه لوالده على تجنب الأثم وعبادة الله والإحسان الى الناس وقراءة كتب الدين ،  
وحاول مندور أن يعرف شيئا من والده عن هذا الطريق ، فرفض ولكنه - أى  
مندور - توصل بطرقه الخاصة الى أن كلمة نقشبند تعنى النقش على القلب ، وأن  
سرهما هو أن يستشعر الفرد دائما أن اسم الله منقوش على قلبه . . وأخبر والده بهذا  
فسر الرجل ودهش !

ويستطرد د . محمد مندور فى مقاله :

«وعندما اختارتنى الجامعة لبعثتها ، حدث حادثان صغيران كان لهما فى نفسى أبلغ الأثر . .  
أولهما أننى قبل سفرى رتبت كتبى فى صندوق كبير وبغير وعى منى وضعت «المصحف»  
على قمة الكتب ، ورأى والدى ذلك عرضا فسر سرورا لم أقصد إليه ، ولربما جاء بتوفيق  
من الله وحدث أخوتى عما رأى قائلا : أن أحاكم فلان سيكون الله دائما معه وسوفيق فى  
كل ما يعمل . . . فسألوه : «ولم ذلك ؟» فأجاب : «لأننى لاحظت أنه وضع كتاب الله فوق كل  
كتاب» ثم اننى فى يوم السفر فوجئت بهدية من والدى أوصالى أن احتفظ بها مدة غيابتى  
وأن أعود بها إليه ، وكانت تلك الهدية عبارة عن مندوب للشيخ العالم النقشبندى الذى عاهده  
والدى على الهدى ، ولقد أخذت المندوب واحتفظت به تسعة أعوام التى مكثتها فى أوروبا

وعدت وهو لا يزال إلى اليوم بين ملاسي ، ولا أستطيع أن أزعم أنني قد علقت به إيمانا  
خاصا أو قوة معينة ، بل ولا فكرت في ذلك ، ولكنه نوع من الاطمئنان السلمى المريح .  
وقد اختلطت في نفسي قيمة الهدية بمحبتى لمهديها وإيماني به ، وكان لهذين الحادثين فضل  
دائم في ردى إلى الإيمان كلما توجهت لى الحياة .

ولقد اتخذ الإيمان في نفسي وجهة الإحسان إلى الغير ، حتى لأحسب أنني عاجز عجزا  
أصبلا عن بغض أحد ، فقد بقسو قلبي وقد يلدغ لساني ، ولكنى ما عدت إلى نفسي إلا  
أحسست بفيض من التسامح لأستطيع دفعه ، أكبر ظنى أن هذا الاتجاه كان أيضا لإشعاع  
من والدى ١٠٠٠ (التهلى) .

فهنا نرى إيماننا يقوم على الإيمان بالله تعالى ورحمته ورعايته ، وعلى الإحسان  
إلى الناس ، وهذا وذاك هما لباب الإسلام : إيمان بالله وإحسان إلى الناس . . .

\*\*\*

والحقيقة أن الإسلام وصل من القوة بحيث أنه يعد الأب الشرعى لكل الكتاب  
والدعاة الذين تصدروا للعمل العام ومعالجة قضايا الفكر والوجود والفرد والمجتمع .  
وقد يعقه بعضهم ، كما يعق بعض الأبناء آباءهم ، ولكن هذا لا ينفي بنوتهم ، ذلك  
لأن الإسلام يعنى القرآن والقرآن يعنى العربية فى أرفع وأعظم وأجمل صورها ، ولا بد  
لكل من يمسك قلمًا ويكتب سطرًا أن يتلمذ عليه وأن يتأثر به ونجد هذا التأثير  
فى كُتّاب يتصور الإنسان أنهم أبعد ما يكونون عنه .

فما الذى يدفع بنجيب محفوظ الذى صادر الأزهر إحدى رواياته بدعوى الإلحاد  
لأن يقول فى رسالته إلى لجنة نوبل فى حفل تسليمه الجائزة عن الحضارة الإسلامية :

«إن أحدثكم عن دعوتها إلى إقامة وحدة بشرية فى رحاب الخالق تنهض على الحرية  
والمساواة والتسامح ولا عن عقمة رسولها فمن مفكرىكم من كرسه كأعظم رجل فى تاريخ  
البشرية ولا عن فتوحاتها التى غرست آلاف المآذن الداعية للعبادة فى التقوى والخير على  
امتداد أرض مترامية ما بين مشارف الهند والصين وحدود فرنسا ، ولا عن المؤاخاة التى  
تحققت فى حضنها بين الأنيان والعناصر فى تسامح لم تعرفه الإنسانية من قبل ولا من بعد .  
ولكنى سأقمنها فى موقف درامى مؤثر يلخص سمة من أبرز سماتها ، فى إحدى معاركها  
الظاهرة مع الدولة البيزنطية ردت الأسرى فى مقابل عدد من كتب الفلسفة والطب والرياضة  
عن التراث الإغريقى العتيق ، وهى شهادة قيمة لروح الإنسان فى طموحه إلى العلم والمعرفة  
رغم أن الطائب يعتق نبأ سماويا والمطلوب ثمرة حضارية وثنية» . .

وما الذى جعل الدكتور مصطفى محمود وهو العضو النابه فى أسرة تحرير روز  
اليوسف وصباح الخير فى الخمسينيات ومؤلف لكتاب يتابع ظهور العقل . . بعيداً

عن الوجود الإلهي . . يتغير ليصبح نسيجاً فريداً في الداعية الإسلامية : الكاتب المثقف الذي يكتب في الأهرام . المؤلف النابه الذي يناقش قضايا المجتمع والعصر من زاوية الإسلام . والمصلح الاجتماعي الذي يقيم مؤسسة علاجية وثقافية رائدة . ما الذي حوله إلى هذا الاتجاه إلا قوة الإسلام ونصوح حجته . .

وما الذي يجعل الأستاذ عادل حسين يتحول من المفكر الشيوعي إلى المفكر الإسلامي ليصبح من أكبر دعاه الحركة الإسلامية وما الذي يجعل الأستاذ طارق البشرى يخترق - ببصيرة القاضي - الزيوف والادعاءات الظاهرة ليصل إلى الحقيقة فيعترف بها .

أؤخذ مثلاً الأستاذ محمد جلال كشك (رحمه الله) الذي بدأ حياته بنقد الإخوان المسلمين ، وآمن بالماركسية وكان من فرسانها ثم استبان له قصورها . فعاد إلى الإسلام ، وخاض معركة طويلة مع أدعياء التنوير الذين يسيطرون على الصحافة . أدت به لأن يفرغ لمعالجة قضايا الفكر الإسلامي . وأن يصدر ثمرة ذلك في كتب قدمت إضافة منشئة ومبدعة . . .

أؤخذ الدكتور يوسف إدريس ! فهو على اتجاهاته ظل يؤكد أن على من يريد التمكن من اللغة العربية وفهم أسرارها قراءة القرآن ، وأن ( جزء عم ) وصل إلى الغاية في البلاغة والتأثير والموسيقية . . . إلخ .

وعندما يسأله أحد الصحفيين :

- هل حقاً كنت تهاجم الأذان ؟

- وهل أنا مجنون ؟ إنني لم ولن أهاجم الأذان ، ولكنني هاجمت ، وسأظل أهاجم ، استخدام مكبرات الصوت . . لأن الإسلام دين متحضر . . والإسلام ينتشر بالحكمة والموعظة الحسنة ، وليس بالميكروفون !

وأضاف : إنني مسلم ابن مسلم ، وقد سافر جدي على أقدامه إلى الحج وظل هناك ثلاثة عشر عاماً كان يصنع هناك الحلوى ليعيش منها حبا في زيارة الرسول . . . (الأحرار ٢٩/١/٩٠ ص ٣) .

وفي مجال الشعر والتبثيل والسينما نجد أن شوقي وحافظ شاعران اسلاميان لحما ودما ، قصائد الأول الإسلامية « نهج البردة » و«مولد الرسول» . . وقصائده العديدة

عن الخلافة والخلفاء . . ونجد حافظ في « العمرية » التي تعد من أجود شعره ومن أفضل مائزته عن عمر بن الخطاب .

ونجد أن الغناء العربي والموسيقى العربية يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بنظم القرآن وعلم التجويد ومدائح الرسول ، وأن كبار الفنانين كانوا من القراء ، وأن محمد عبد الوهاب وأم كلثوم حفظا القرآن ، وأن الأول بدأ حياته الفنية بالأذان في جامع الشعرائي بباب الشعرية والذي حمل اسمه ، والثانية بمدائح الرسول وظل الوعي بالإسلام عميقاً في وجدانها . . وقد لا يعلم معظم الناس أن عبد الوهاب لم يدخل أبداً ، وأنه كان لا يشرب الخمر ، وعندما نصحه طبيب بتناول قليل منها في مرضه رفض . . ويمكن القول أيضاً إنه كان ملتزماً بالشعائر .

ولعلنا لسنا في حاجة للإشارة إلى ظاهرة تحول عدد كبير من الفنانات ممثلات ومغنيات وراقصات إلى إيمان بالإسلام حملهن على وضع الحجاب واعتزال نشاطهن الفني . . وبقدر ما في هذه الظاهرة من دلالة على قوة الاتجاه الإسلامي في «الوسط الفني» فقد ينم عن قدر من القصور في فهم الإسلام . . فقد كان يمكن لتلك الكوكبة الباهرة من الفنانات أن يخدمن الإسلام بصورة من النشاط الاجتماعي والثقافي ، بدلا من العكوف على العبادة . وإن كان الأمر بعد أمراً يعود لإهن والحالتهن النفسية .

وفي الأربعينات - أي قبل ظاهرة اتجاه الفنانات نحو الإسلام - فضل عدد من أكبر الفنانين أن يعتنق الإسلام مثل جورج أبيض وأسرته الفنية ومثل ليلى مراد ونجوى سالم ومارى منيب ، وكاد نجيب الريحاني يعتنق الإسلام لو أرجأه الأجل أسبوعاً . . .

\*\*\*

نريد أن نختتم هذه النبذة الطويلة عن أثر الإسلام في دعاة التنوير بالإشارة إلى شخصيتين قد يظن أنهما من أبعد الناس عن الاتجاه الإسلامي في حين أنهما من أقربهم إليه . . .

أولهما : الأستاذ احسان عبد القدوس الذي أسس دار روز اليوسف ورأسها سحابة حياته ، وكان هو ( روح ) صحيفتي روز اليوسف وصباح الخير .

وثانيهما : المفكر المشهور الدكتور زكي نجيب محمود .

ونحن نعتقد أن الأستاذ احسان عبد القدوس والأستاذ مصطفى أمين هما أكبر كاتبين اثرا

على الشخصية المصرية البورجوازية خلال الخمسين عاما الأخيرة ، وأن بصماتهما لا تزال ملموسة وأنها يتحملان أمام التاريخ جزءا كبيرا من مسئولية الزيف والضلال اللذين اكتنفا هذه الحقبة !

نقول إن إحسان عبد القدوس ، كان في الاجتماع - مثلما كان ميشيل عفلق في السياسة - أمضى كل واحد منهما عمره في البحث عن حلول - ليست إسلامية بالضرورة - لقضايا المجتمع ثم انتهى به الحال - كما انتهى بعفلق - أن آمن بالاسلام في النهاية ، ولو رُدَّ إلى شبابه قبيل موته - مرة أخرى فلربما اختلعت مناهجه عما سلكه أولا !

ترك احسان عبد القدوس قبل أن يموت وثيقة هامة يمكن أن نسميها :

«اعتراف كاتب مسلم» قال فيها :<sup>(١)</sup>

(١)

لقد نشأت في بيت جدى لأبى الشيخ أحمد رضوان وقد كان من خريجي الأزهر الشريف ومن رجال القضاء الشرعى . . وكان جدى حريصاً على تنشئة أفراد العائلة كلها على الإيمان الكامل بالإسلام وأداء كل الفروض والاستجابة لكل التعاليم . . ومن قبل أن أصل إلى السابعة من عمري وأنا أحاول استكمال قدرتى على أداء كل الفروض . . كالصلاة والصوم وحفظ آيات القرآن . . وربما كان جدى يعتبر مغالياً في تزمته على أداء الفروض . . حتى أنه كان يحرم علينا أن نؤدي الصلاة ونحن نرتدى ثوباً يكشف عن ساقينا فوق الركبة . . وقد كنت أذهب إلى المدرسة الأولية ثم المدرسة الابتدائية وأنا ارتدى بنطلونا قصيراً يكشف عن ركبتي . . فكيف أؤدي صلاة الظهر وأنا في المدرسة ؟ . . لذلك كانوا يضعون في حقيبتي التي أذهب بها إلى المدرسة جوربا طويلا يرتفع على ساقي حتى يغطي ركبتي حتى أنجأ إليه كلما حل موعد صلاة الظهر لأودعها داخل جامع المدرسة .

وكنت لم أصل إلى عمر السابعة عندما حفظت جزء عم، من القرآن الكريم ، ثم بدأت أحفظ من القرآن على مدى العمر . . وإن كنت لم أحفظه كله إلا أنى قرأته كله عشرات المرات واستوعبت كثيراً من الآيات . . لازلت إلى اليوم أرددنا دائما وفى كل يوم تبركا وتقربا إلى الله سبحانه وتعالى . . وتزوداً باستكمال راحتي النفسية وشخصيتى المسلمة .

ولكن بعد أن نما وعيى وتجاوزت سن الخامسة عشر بدأت تدهمنى حيرة دينية ربما كان

(١) نقلاً عن «صباح الخير» - ١ رجب ١٤١١ - ١٧/١/٩١ ص ٩ .

سببها أن بدأت ألاحظ اختلاف مظاهر الإيمان بين الأفراد المسلمين .. فكثير من مظاهر المجتمعات الإسلامية مختلفة في أداء ما يفرضه الإسلام .. وبدأ فكري يسيطر على حتى أقتنعى بأن لا يجب أن اكتفى بأن أكون مسلماً بالوراثة .. أى مسلم .. لأن أبى وجدى وجد جدى مسلمون .. بل يجب أن أكون مسلماً عن اقتناع بالإسلام أى أن اختار الإسلام إيماناً وليست مجرد مستسلماً له .. ولذلك بدأت أفوض في دراسة الإسلام .. دون أن أتخصص كرجل دين إنما لمجرد القناع نفسى بما أؤمن به .. ووهنت بي دراسته إلى حد أنى بدأت أحاول اكتشاف أسرار تعاليم الديانة اليهودية ثم الديانة المسيحية .. وكنت أتعهد لقاء رجال الدين اليهودى والمسيحى لأفهم منهم وأجادلهم .. وانتهى بي هذا البحث الذى استغرق شهوراً طويلة إلى أنى اخترت الإسلام ديناً عن إيمان قائم على الاقتناع .. ولكن هذا الجهد العنيف الذى بذلته خلال هذه الشهور أدى إلى حالة معاناة إلى حد أن ركدت في فراشى مريضاً بمرض عجز عن شفائي منه الأطباء .

وفي فترة مرضى جاعنى أبى المرحوم محمد عبد الكدوس رضوان بالمصحف الذى كان خاصاً بجدى وكانت العائلة تحتفظ به بعد أن مات تبركاً وتكريماً لذكراه .. وقال لى : اقرأ يابنى .. فالله هو القادر على شفائك .

وقد قرأت القرآن كله وأنا راقد في فراشى .. ولكنى أحسست بأنى قرأته تبركاً وتوسلاً إلى الله أن يشفينى .. ولم يكن هذا هو كل ما أريده .. فبدأت أقرأ القرآن مرة ثانية وأنا أحاول أن أفهم وأفسر كل آية وكل كلمة من كلمات الله .. وأستعين على الفهم بكتب التفسير التى ترجم بها المكتبة التى تركها جدى .. ولكنى مع هذا التتهيت من قراءة القرآن كله ولا أزل قاصراً عن فهم وتفسير بعض الآيات .. فبدأت أقرأه مرة ثالثة .. وأضع بنفسى تفسيراً لكل ما كنت عاجزاً عن استيعابه .. واسترحت .. واستكملت إيمانى على أساس اقتناعى وفهمى .. وشفيت فعلاً من مرضى .. ومما أدهشنى أن كثيراً من الآيات التى كنت أعتقد أنى وصلت إلى تفسيرها بنفسى ووفقاً لعقليتى كانت قد سبق أن فسرت وسجل تفسيرها نفس التفسير الذى وصلت إليه .. وهو ما أقتنعى بأن صدق وعمق الإيمان يمكن أن يصل بالمؤمن إلى التفسير الصحيح .. وإن كنت أتمنى وأدعو حتى اليوم فى أن يبذل رجال الدين الإسلامى مجهوداً أكبر فى إعلان التفسيرات المبسطة التى يمكن أن تصل إلى عقول البسطاء .. حتى تتم وحدة كل مظاهر الإيمان بين المسلمين .

(٢)

إنى أعيش كمسلم .. كل حياتى الخاصة والعامة تجرى تحت تأثير من وحى بالإسلام فلأن أصبت فى تصرفاتى فلأن الإسلام وفتنى إلى أن أصيب .. وأن أخطأت فلأنى عجزت عن اتباع ما يفرضه الإسلام على .

(٣)

الدين هو الأساس الذى يقوم عليه كيان الإنسانية كلها .. الدين هو محاولة الوصول إلى



حكم القدر .. والقدر هو ما يحكم به الله .. والكيان الإنساني متعدد الجبهات يتعدد الأيمان .. بما فيها من أيمان سماوية وأيمان أرضية .. وقد حاولت بعض جبهات هذا الكيان فى الإنسان أن تتكرر الأيمان .. أى تتكرر وجود الله .. ولكن هذه الجبهات مهما طال بها زمن الوجود فمصيرها أن تعود إلى الاعتراف بالله والخشوع له وللقدر الذى يفرضه على خلقه .. وإن يتحقق السلام بين بنى الإنسان إلا إذا تقاربت الأيمان إلى أن تتجمع فى دين واحد .. دين الإسلام .

إنى أعتقد أن أى كاتب باللغة العربية لا يستطيع أن يجمع حواراً قراءاً إلا إذا كان أساساً قد استوعب قراءة القرآن .. فالقرآن هو أساس أسلوب اللغة العربية .. أو هو الموسيقى للغة التى يقوم عليها أى تطور موسيقى فى اختيار أسلوب الكتابة بالعربية .. وحتى الكاتب إذا لم يكن مسلماً لا يستطيع أن يكتب باللغة العربية إلا إذا استوعب أسلوب أو رنات صياغة كلمات وآيات القرآن .. ومعروف أن المرحوم مكرم عبيد باشا كان عبقرى فى إلقاء الخطب وكتابة الرسائل باللغة العربية لأنه كان يحفظ القرآن رغم أنه قبطى الديانة .. وهكذا كل كاتب عربى .. وأنا نفسى لأعتقد أنى استطعت أن أكون كاتباً ولى قراء إلا لأنى بدأت باستيعاب أسلوب ورنات لغة القرآن .. أما بالنسبة للمفكرين فإن القرآن يعتبر الأساس الفكرى لأى محاولة فى تفسير الواقع والمستقبل الإنسانى .

ولا يمكن لأى فكر سواء فكر إسلامى أو غير إسلامى أن يستوعب أسس الكيان الإنسانى ومصير الإنسان إلا باستيعاب ما سجله القرآن وهو ما يشمل كل تفاصيل الحياة وما بعد الحياة .

(٥)

الهدف الذى يدعو إليه الإسلام هو أن يصل بوحدة الإيمان إلى وحدة الوجود أى أن يجمع المسلمون أنفسهم فى قوة موحدة مهما تفرقوا فى دول أو فى نظم إدارية أو شعوب منتشرة فى كل نواحي الأرض .. أى أن بصيرة الإسلام تقوم على وحدة المسلمين .

(٦)

الإسلام دين يحتفظ للمرأة بكامل شخصيتها وكامل حقوقها .. وهو دين يعترف بواقعية طبيعة المرأة وواقعية طبيعة الرجل .. يجمع بين الطبيعتين ويصونهما على أساس اشهار وإعلان العلاقة بينهما .. ومن وسائل الإشهار مثلاً هو عقد الزواج .. وإذا كان قد أباح للرجل الزواج بأربع نساء تحت شروط محددة مفروضة عليه .. فلأنه حريص على ألا تفرض عليه طبيعته علاقة خفية سرية بينه وبين أى امرأة .. ولكن شعوب أخرى لا تدين بالإسلام تفرض على نفسها علاقات خفية سرية بين الرجل والمرأة .. وهو ما يرفضه الإسلام ويعتبر جريمة يعاقب عليها .. وهى جريمة الزنا .. مهما كان الدافع إليها منطلقاً من الطبيعة التى خلق بها الرجل .. فالمرأة المسلمة أقوى فى مواجهة الواقع من أى امرأة تكذب بدين آخر .

انتهى اعتراف الكاتب الكبير (إحسان عبد القدوس .. رحمه الله .

وإذا كان إحسان عبد القدوس قد جعل من روز اليوسف وصباح الخير أكبر صحيفتين لمناهج تبدأ من التحرر ، وتنتهى بالتحلل وإذا كان قد أوى إليها أكبر مجموعة من أدعياء التنوير وقدمت تحميراً وتصويراً عدداً من أسوأ الكتابات وابعدها عن الموضوعية ، فإن إحسان عبد القدوس نفسه التزم بالتقاليد الإسلامية<sup>(١)</sup> فى بعض المجالات التى كانت كتاباته توحى التحلل ، كالمراة . فلم يسمح لزوجته بالظهور فى أجهزة الإعلام وكان حريصاً على أن تظل زوجة كاتب مشهور فقط .

وتضيف زوجته السيدة لواحظ المهيلمى - رحمها الله فقد توفيت اخيراً - هذه قاعدة كنا نسير عليها فى حياته ، ولا يمكن أن أخرج عنها بعد وفاته : كان محافظاً وكان إيمانه بالله قويا ، والده كانت لديه فلسفة فى الإسلام ، كان يصلى بإيمان وخشوع ، وكذلك إحسان كان عندما يصلى يغمض عينيه وكأنه لا يريد أن يرى شيئاً من العالم الموجود حوله ، طوال حياته كان حريصاً على أداء صلاة الصبح قبل أن يبدأ عمل ، وفى الـ ١٥ سنة الأخيرة كان حريصاً على أداء الفروض الخمسة فى أوقاتها .

يالىت كتاب رور اليوسف وصباح الخير يقرأون جيداً ما كتبه أستاذهم ويفكرون فيه مليا . . .

\*\*\*

وفى سبتمبر ١٩٩٣ توفى آخر «التنويريين العظام» ، كما قالوا ، وهو الدكتور زكى نجيب محمود صاحب الوضعية المنطقية التى تقوم على تحليل عقلى . واعتقد كثير من الإسلاميين أنه بعيد عن الفكر الإسلامى ، ان لم يكن مجافيا له . وحقيقة الحال غير ذلك ؛ فقد نشأ فى القرية ، وتعلم فى «الكتاب» ثم أصيب فى شبابه ، وعند ذهابه إلى أوروبا ، بصدمة الانبهار التى أشرنا إليها والتى يبدو أنها كانت ضربة لازب لكل الكتاب والمفكرين فى هذه الفترة عند لقاءهم الغرب ، وكتبه الأولى «جنة العبيط» و «شروق من الغرب» و «خرافة الميتافيزيقيا» تصور تلك المرحلة ، ولكنه بعد ذلك ألم بالجانب الآخر من الفكر ، وبدأ يعمل لتحقيق نوع من المصالحة بين الفكر الأوروبى والفكر الإسلامى . . بين الماضى والحاضر ، دون أن يفقد الأصول الفكرية العقلانية التى آمن بها . . وكتاباتهِ الأخيرة تصور هذا التحول .

(١) نقول بالتقاليد الإسلامية لأنه ليس فى الإسلام ما يمنع من ظهور المرأة فى المجتمع أو أن تقوم بدور فى النشاط العام إذا كان لديها ماتقدمه ، وما يمثل إضافة .

وفي ١٩٧٩/١٢/٩ كتب زكي نجيب محمود مقالا في الأهرام بعنوان «قلم يتوب» أهدها إلى الدكتور حسين فوزي المقيم بالحضارة الأوروبية ، يصور فيه تحوله من مرحلة الانبهار التي جعلته يتمنى «لو كنا نسخة من أوروبا ، حتى في الكتابة من الشمال الى اليمين ، وارتيدينا من الثياب ما يرتدون ، وأكلنا ما يأكلون ، ونفكر كما يفكرون ، وننظر إلى الدنيا بمثل ما ينظرون» !

ثم دارت الأيام ، وكتب «لقد تمنيت لأمتي فيما سبق أن تكون قطعة من الغرب ، لكنني اليوم أريد لها أن تكون أمتي هي أمتي ، وختم مقاله «رأيت القلم الذي شطح ذات يوم في تطرفه نحو الغرب قد عاد آخر الأمر إلى توبة يعتدل بها ١٠٠٠» !

وعقب وفاته نشر أحد الصحفيين كلمة عن «الله» في قلب زكي نجيب فنقل ما قاله زكي نجيب محمود عن ذلك وجاء فيه<sup>(١)</sup> :

انني التمس عدة طرق لكي أستشعر بأنتي في حضرة الخالق ، أولها وأكثرها تكرارا هي ما دريت عليه نفسي أثناء الصلاة فقد اعتدت أن أتأمل كل لفظ انطلقه ، وكل حركة أتحركها وأحاول أن أصل إلى المغزى البعيد لكل جزء من هذه الأجزاء وهو ما يوحى إلى بالشعور بجلالة الله وعظمته ورحمته ٠٠ وهذا الأمر اتبعه في بقية أركان الإسلام الخمسة ، ويضيف : «ان هذا الأسلوب اتبعه عند قراءة القرآن الكريم أيضا حيث وجدت نفسي - في النصف الثاني من حياتي - أمام إغراء قوي كلما قرأت شيئا من القرآن ، بأن أقف عند آية أو آيات معينة لأغوص غوصا في مفرداتها وأسلوب تركيبها ، وغالبا ما أخرج بما لم أكن رأيته عند القراءات الأولى التي تخاطب الأذن والقلب معا بمجرد تبياتها المعجز ونفحها الأخاذ ٠٠ ففي هذه الوقفات التحليلية المتأملنة أخرج بجانب آخر يضاف إلى ما سبق أن استخرجته من أبعاد المعنى وهو الشعور بشدة قربى من الله عز وجل ، لأنني وأنا غائص وراء الدر المغفور في كلمات الآية الكريمة ، تنقطع الصلات الحسية أو تكاد بيني وبين ما يحيط بي من مؤثرات الصوت والضوء والحركة فأين أكون إذن إلا في رحاب ربي منزل الوحي بالكتاب ؟ ، ويتبع مفكرنا أسلوبا آخر ليستشعر أنه قريب من خالقه وهو اللجوء إلى أسماء الله الحسنى ٠٠ قائلا : «ولما كنت أعلم أن هذه الأسماء - باستثناء لفظ الجلالة - هي في حقيقتها صفات ، إذا كانت مطلقة فهي صفات لله ، فأجنتي أنجأ إلى إن أمد آية صفة من هذه الصفات - من حدود وجودها في نفسي ، محاولا إن أتصورها وقد أصبحت بلا حدود ، فأشعر عنئذ بشيء من الشعور بأنتي في حضرة الخالق .

(١) الأهرام ي ١٧/٩/١٩٩٣ .

وكما لاحظنا في تفصيلنا ، فإن كل الدين نشأوا نشأة ريفية عادوا إلى الإيمان بعد شفائهم من صدمة الأنهار ، ولم يختلف الأمر بالنسبة للدكتور زكي نجيب محمود ، وما يتميز به هو أنه كان «عقلانيا» أكثر من دعاه التنوير السابقين ، ولذلك فإن اتجاهه أخذ شكلاً «أكاديمياً» إلى حد ما ، ولكنه في النهاية إسلامي ، وهو وإن كان «معتزلياً» في عقلانيته فإنه كان «متصوفاً» في عواطفه ، وقد أجرت إحدى الباحثات حديثاً معه نشرته في العدد الأسبوعي لجريمة الوفد تحت عنوان «قلبي ينبض بالتصوف ، وعقلي لا يعترف بغير العلم» قدمت له بمقدمة جاء فيها :

يحدث أحياناً في الحياة اليومية إذا مارينا إنساناً يبائع في الظهار تدينه وارتفاعه فوق الماديات والعالم الحسى ، يحدث أن تدعونا مبالغته إلى طرح سؤال مشاكس : هل هو يطبق مايردده باستمرار على نفسه ؟ وألا يكون في الأمر محاولة لإخفاء حقيقة مغايرة تدفعه لهذا الإفراط ؟!

وفي الغالب ماتكون الإجابة مطابقة للافتراض المطروح .

ويشكل ما طرح هذا المنهج في الفهم نفسه على بعد أن مضيت فترة من القراءة المكثفة لأهم ماكتبه د . زكي نجيب محمود وخاصة الجانب الأنبي من إنتاجه . . تساءلت بالحاح وإن كان بشكل عكسي : ألا تكون دعوة الأستاذ الدائمة للتجريبية والمنهج الحسى ، والعقلانية . . ألا تكون تلك محاولة منه للاقتصار على نفسية عاطفية ، ووجدان ملتهب ، ونزعة إلى التصوف ؟ وكانت الإجابة أيضاً : نعم نشرتها وقتها تحت عنوان زكي نجيب محمود يغالب تصوفه، وقد أتممت ذلك البحث بحديث مباشر مع الأستاذ الكبير - لم ينشر من قبل - عن الدين في حياته . . سأقدم نصه للقارئ اليوم .

وبداية فلنلق نظرة سريعة على د . زكي نجيب محمود من خلال رسالته العامة . .

أهم مايميز الكاتب هو اضطراره برسالة معينة يعمل على تحقيقها والدعوة الداللة لها بين قرائه ومواطنيه . . ويقدر ما تكون هذه الرسالة استكمالاً لنقص أو تعبيراً عن احتياج ومحاولة لإعادة التوازن لبناء ماثل بقدر ما تكون القيمة الإيجابية لهذه الرسالة فحينما ينتشر الخنوع نحتاج لكاتب ثائر . . وحين يتفشى الجهل نحتاج إلى الداعين للعلم . . وحين يهرب الناس إلى الماضى تكون الدعوة ملحة أيضاً لمعرفة لغة العصر .

وإذا كانت بضدها تتميز الأشياء فإن الكتابة الحققة تنتفى رسالتها إذا ماكانت محض ترديد لنقمة سائدة . . ولا ميل مع الريح حيث مالت والمزايدة على المعانى الرائجة في سوق القراءة .

وحتى إذا ماالتقى الكاتب مع الفكر الأساسى السائد فى مجتمعه فإن دوره إذا كان أصيلاً ومتعمقاً ومجتهداً لابد أن يجعل كلماته فى النهاية جديدة ومختلفة ومثيرة للمعارك الأذهنية .

يعتلى من أجل هذا كله رسالة الكاتب وكفاحه من أجلها، د . زكى نجيب محمود الفكرة التي يتبناها في الفكر العربي المعاصر .

فقد كانت رسالة د . زكى نجيب محمود في الشق الأول من حياته تركيزاً على النقص الذي رآه والحياة المصرية والعربية حيث يقرب الوجدان على العقل ويؤثر اللفظ والكلمة على حضارة الأداء والفعل ، وهو يقول في هذا :

«لاحظت في حياتنا الثقافية جهوداً تهذّب وحماسة لا تنطفئ نحو إخضاع العقل وعلومه لسلطان الوجد وفنونه فجعلته هدفاً أسمى إليه أن أدق طبول الحياة العلمية المرتكزة على العقل وحده وأما مجال الوجدان فله من السدنة الذين يقومون على خدمته ما يكفيه، وهو الموقف الذي دافع عنه إلى أقصى حد وحدد أركانه من أجل فلسفة علمية، .. ثم عاد واستكمل بنفسه مسيرته الجديدة من أجل إعمال العقل في التراث الفكري العربي وتحليله بغية الإفادة منه ومحاولة التفرقة ما بين الغث والسمين منه ولم يكتف بتسجيل نظري لموقفه الجديد فيما يقوله الكثيرون في غيبة الإبداع والاجتهاد بل عكف سنوات طوالاً منذ الستينات على دراسة الفكر العربي ، والدكتور زكى نجيب محمود يقابل نزعة صوفية تلح عليه وتظهر نفسها رغماً عنه في أكثر من موضع مما لا تفيض فيه الآن ؛ فيقول مثلاً : «لو كتبت ما يستريح إليه قلبي صادقاً لما انقطعت يوماً واحداً عن الكتابة في الحث على التصوف الزاهد لأن مثل هذه الحياة هي حقاً ما يتبص لها القلب بين ضلوعى كلما قرأت عنها ولكن الذي يحول بيني وبين أن أفعل ذلك هو صوت العقل قائللاً إن تصوف الزاهدين لا يحقق ما تريده لأمتنا العربية من أهداف، .

وعن الجانب الديني الذي لم يركز عليها للفكر الكبير قلتم كان لي معه هذا الحديث عن الدين في عالم زكى نجيب محمود .

## الدين في عالم زكى نجيب محمود

سألت د . زكى نجيب محمود عن موقع الدين وصورته عنده عبر المراحل الفكرية المختلفة في حياته ؟

فأجاب :

- منذ السن الباكورة التي لم تكن تجاوزت العاشرة أخذت في أداة الصلاة والصيام وهما الفريضةتان الممكنتان بالنسبة للطفل حتى لو كان والدي - على تدينه - يمنعني بالقوة من الصيام خصوصاً وقد كان الصيام (رمضان) في ذلك الحين خلال الصيف . ومع ذلك كنت أراؤه وأظن على صومي ولو لبضعة أيام ، هكذا بدأت متعلقاً بأداء الفرائض ولكن قد يقال إن من الطفولة الباكورة إنما تلجأ إلى المحاكاة التي لا تضمن أن يكون وراءه إيمان بالمعنى المفهوم ، ولكنني بعد أن تكلمت بي الأعوام وأصبحت على مشارف المراهقة أعنى بين الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة وجدت نفسي أوغل في التزام تلك الفروض بل إنني لأتكر أشياء كثيرة

قد يكون لها مغزاها إذ أنكر مثلاً أنني كنت أفضى أجازة الصيف في قرينتا بالريف وكنت على صغر سنى أصر أن أذهب إلى المسجد لصلاة الفجر بل أصر على الصعود إلى المنذنة لأشارك في أذان الفجر وكان أمراً يضعك الكبار عندئذ لکنهم تركوني خشية أن يكونوا بالوقوف في سبيلي يأتون بأمر يفضب الله . . كذلك أنكر أنني في تلك السن وما بعدها بقليل كنت أحرص جداً على أن أفضى الفترة ما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء في المسجد لأستمع للدرس الدينى الذى كان يلقيه عندئذ شيخ أحببته وأعجبت به وكان هو المصدر الأساسى الذى عرفت منه أموراً كثيرة تتعلق بتفصيلات العقيدة الدينية . ظلت على هذا النحو إلى نحو الثلاثين من عمرى ولكننى عندئذ أخذت بحكم تكوينى الدراسى والثقافى الذى حصلته من قراءتى الكثيرة جداً بدأت أميل إلى أن أحتكم إلى موقف العقل فيما أقبله وما لأقبله من التفصيلات التى كان يقولها ذلك الشيخ في دروسه أو التفصيلات التى كنت أسمعها من غيره أو أقرؤها ضمن ما أقرأ وإننى لأسأل الآن ماذا كنت أعنى يومئذ بالأحتكام إلى العقل في أمور هي من الدين وليس من العلم وأجيب على ذلك بل إننى أعتقد منذ ذلك الحين أن الدين وإن يكن شيئاً غير العلم إلا أنه يكون أقوى في نفس المؤمن عندما لا يكون متعارضاً مع مايقوله العلم . وتقدمت بي الأعوام بعد ذلك فازدت استمسكاً بهذه الوجهة من النظر لكن التمسك بهذه النظرة كثيراً جداً ماتوقع صاحبها في مواقف لا يعرف كيف يتخلص منها إذ كثيراً مايجد أشياء في تفصيلات العقيدة الدينية لا تتفق مع نتائج وصلت إليها العلوم المختلفة فعندئذ تأخذه الحيرة أيتنكر للعلم ؟ وهو مالم أكن أستطيعه مع نفسى يومئذ . . أم أتتكر للدين وهو كذلك مالم أكن أستطيعه بل ومالست أستطيعه في أى يوم من أيام حياتى الطويلة . ولكن هذا التصادم كان يحدث لى نوعاً من الحيرة العقلية ثم تكلمت بي الأعوام مرة أخرى وأتبع لى أن أقرأ بعض المذاهب الفكرية في الإسلام وأجد بينها مذهب المعتزلة ومذهب الأشاعرة فأجد عندئذ أن باب الخلاص قد انفتح أمامى . . ذلك لأن المعتزلة كانوا يحتكمون إلى منطق العقل في فهمهم لأركان الدين وكذلك الأشاعرة كانوا يأخذون بمبدأ أن ينبأ المسلم إلى عقله في فهم القرآن الكريم حتى آخر ما يستطيعه ذلك العقل . . فإذا بقيت بقية لا يستطيع العقل فهمها وتفسيرها على طريقته يقول المسلم عندئذ «الله أعلم بالمراد في هذه الحالة» .

وجاء الشيخ محمد عبده في تاريخنا الفكرى الحديث وأخذ بهذا المبدأ . . هذه الأمور كلها أدخلت في نفسى السكونة لأنى عرفت كيف ألق المواقف الذى يربح عقلى وضميرى الدينى في آن واحد .

فأنا الآن مازلت أستمسك بما يصل إليه العقل من نتائج تقام على البرهان الصحيح . . ثم إذا ماقرأت القرآن الكريم بعد ذلك فإبنى أحاول أن أفهمه على طريقة الشيخ محمد عبده بمعنى أن أفهمه الفهم الذى لا يتعارض مع نتائج العلم وفى معظم الأحيان يكون هذا التوفيق بين الطرفين أمراً ميسوراً ، إلا في الحالات التى يعجز العقل أن يجد لها الفهم فعندئذ أخذ بوصية الأشاعرة وأقول إن الله أعلم بالمعنى المراد .

ثم أضاف د . زكى نجيب محمود موضحاً :

«إننى أعتقد أنه يستحيل على أى إنسان أن يعيش بغير دين حتى أولئك الذين قد يتصورون أنهم يستطيعون ذلك فهم لم يحلوا أنفسهم التحليل الصحيح . وأقل ما أقوله فى هذا المجال هو أن الإنسان فى أعماق أعماق فطرته يريد أن يرى أن للخير ثوابه وأن للشر عقابه ولما كان هذا لا يتحقق دائماً فى هذه الدنيا فكل إنسان يتمنى أن يكون هناك العالم الآخر الذى ينتقم من باعث الشر ويثيب فاعل الخير وفى هذه الأمنية بذرة الإيمان باليوم الآخر حيث يكون الحساب .

\*\*\*

فهذا الاستعراض لعلاقة كاتبين ( الأستاذ إحسان عبد القدوس والدكتور زكى نجيب محمود) يعان من أعلام التنوير ويظن البعض أنهما بمفازة من الفكر الإسلامى . يوضح أنهما كان - إيماناً والتزاماً - من خيرة المسلمين . فهما يؤمنان بالله فى صورة رفيعة ، وبالرسول وما ينبغى له من تقدير ، ويلتزمان بأداء الشعائر . ولا جدال فى أنه لو وجد فكر إسلامى فوق مستوى فقه التقليد لكان لهما مشاركة إسلامية إيجابية أعظم ، وهو ما يمكن أن يقال بدرجات متفاوتة بالنسبة لكل الشخصيات التى أشرنا إليها .

## الفصل الثامن

### مشروع للأجيال

لكى يتحقق ما استهدفناه ، وتتصافح اليدان فإن من الضروري أن يلتزم كل من الفقهاء ودعاة التنوير بإطار فكرى يحدد الموقف الأمثل بالنسبة للقضايا الكبرى فى المجتمع المصرى وتتلاقى هذه المواقف بعضها مع بعض ليبدأ منها الانطلاق .

ونحن - عندما نضع هذا المشروع - لانتخالجنا أوهام عن درجة تقبله اليوم . فنحن نعلم حق العلم أنه من العسير أن نقتلع ما غرسته التقاليد جيلاً بعد جيل ، ولا ما اقامته المصالح من صروح ممردة ومزايا مكتسبة . ونحن نقدر أيضاً أن فقهاء التقليد وأدعياء التنوير لديهم صبابه من إيمان ما - بالإضافة إلى التقليد والمصلحة - يجعلهم جميعاً يتمسكون بما هم عليه . . ولا يفتون عنه حولاً .

ولكننا لانضعه لهم ، وإنما لجيل آت ، وربما لأجيال آتية . فنحن نفرس بذرة زيتونه لن نراها ، ولن نتذوقها . . ولكننا مالم نفرسها الآن فسيفوت الوقت على الأجيال .

والمشروع الذى نضعه يجعل من فقهاء التقليد دعاه تنوير ، ومن دعاة التنوير فقهاء



تجديد ، بمعنى أن اليمين لاتعارض اليسار ، ولا اليسار يناقض اليمين ، وإنما كل واحد يكمل الآخر . .

إن «خندقة» كل فريق في مكانه ليس من الإسلام ، ولا هو منطلق العصر ؛ الإسلام لم يشيد «كنيسة» أو مؤسسة لها حق التحليل والتحريم والتفسير والتأويل ، وإنما قال «أهل الذكر» وكل واحد يمكن أن يكون من أهل الذكر إذا ألم بعدة ذلك . كما أن كل صنوف العلم والمعرفة من جولوجيا أو هندسة تدخل في صميم العلم الإسلامى فليس هناك تعارض بين علماء وفقهاء . وكان العلماء الأول يحكمون الفقه والموسيقا والفلسفة والرياضة والطبيعة . . فإذا كان التخصص يفرض نفسه ، فليس له أن يخلق الأبواب . . .

إننا ندعو الفريقين لكى يغيرا مواقفهم التى تمزق المجتمع ، وتشل سيره وتحول دون وحدته ، ندعوهم مراراً وتكراراً لأن يعيدوا النظر . . .

\*\*\*

## ها هو ذا مشروع الأجيال

### أ - بالنسبة للفقهاء

- ١ -

الإسلام هو ختام الأديان السماوية ، وجماعها ، وهو يعترف بها ويرسلها جميعا ويرجع الاختلاف ماينها إلى التحريف والمصالح والأوضاع ، وهو يؤمن بالبشرية كلها . وأن الله تعالى أراد التعدد والاختلاف لإثراء الحياة وليحدث التعارف والتبادل والتلاحق ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ وهو برىء من الأحاسيس الدونية أو الاستعلاء أو الذاتية التى تثير العداوات وتقيم الحواجز ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ .

- ٢ -

جعل الله تعالى الإنسان خليفة على الأرض ، وعلمه الأسماء ، وأسجد له الملائكة ، وأنزل الإسلام لهديته . . فالغاية هى الإنسان والوسيلة لهديته هى الإسلام . . فالإسلام يريد الإنسان . . ولكن فقهاء التقليد يريدون الإسلام ، ومعنى هذا أن تصبح الغاية وسيلة ، والوسيلة غاية ، ومن هنا جاء الاختلاف بين منهج الإسلام الحق ، ومنهج فقهاء التقليد .

- ٢٤٩ -

إن الإنسان المستخلف ، المزود بالعقل ، والمتحمل لمسئولية إعمار الأرض بالعمل ،  
والعلم ، والقيم ، يجب أن يكون قاعدة المجتمع الإسلامى والفكر الإسلامى ، ويجب  
أن نلاحظ وكرامة الإنسان عند وضع النظم وعند ممارستها .

- ٣ -

الأساس فى فهم الإسلام والتعرف على هديه واستخلاص أحكامه هو القرآن الكريم  
دون الالتزام - ضرورة - بما وضعه المفسرون من أحكام شلت بعض الآيات بالنسخ  
المزعوم وكيفت آيات أخرى بأسباب النزول ، فضلا عن الإسرائيليات التى حشيت  
بها التفاسير وعلى كل حال فمن المسلم به أن النص القرآنى المقدس شئ - والتفسير  
والتأويل شئ آخر ولا يمكن معاملتهما على قدم المساواة .

كما أن المبادئ التى وضعها الفقهاء لأصول الفقه ، والمحدثون فى الجرح والتعديل  
ومصطلح الحديث . . إلخ ، كلها فى حاجة إلى إعادة النظر ، لأن السلف ليس  
معصوما ، وقد كان محكوما وهو يضع مناهجه ويصل إلى نتائجه بروح العصر وبقلة  
المعلومات ، ونحن اليوم أقدر على فهم حكمة التشريع واستخلاص النتائج بفضل ما  
تيسر من وسائل الطبع والنشر والإحصاء والتصنيف مما لم يكن متاحا للسلف ، فضلا  
عن أننا مأمورون بالتفكير ، منهيون عن التقليد واتباع الآباء والأجداد .

- ٤ -

التعددية طابع الإسلام، لأن التوحيد صفة الله تعالى التى استأثر بها ولا يشاركه فيها أحد أو  
شئ . أما بقية الكائنات فإنها تكونت على الأقل من «زوجين» أو تضمنت عددا من العناصر .  
وإنما كانت التعددية طابع الإسلام لأنه منهج حياة يضم مافيه من اقتصاد واجتماع  
وسياسة . . . إلخ ولأنه دين البشرية . . مامضى منها وما سياتى ، ولا بد فى مثل هذا  
من التعددية . ولهذا أيضا كان المثل الإسلامى الأعلى هو العدل ، لأن العدل يفترض  
التعددية ، ويصبح هو فضيلتها .

وتظهر التعددية فى الاستخدام القرآنى المعجز للكلمات والألفاظ الذى يفتح الباب أمام  
تأويلات عديدة ومتفاوتة أراد الله بها أن يجد كل جيل ما يتفق مع مستواه وتقدمه ، ولا يجوز  
مصادرة آية بآية أخرى . . . لأن القرآن لا يضرب بعضه بعضا ، وإنما يكمل بعضه بعضا .  
كما تظهر التعددية فى «انفتاح الإسلام» واستهدافه الحكمة أنها كانت ، واعترافه  
بالأديان والاختلاف فى الآراء «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» .

- ٢٥٠ -

وقد أدى عدم تعمق هذا المعنى في ذهن الألاف إلى أخذهم بفكرة «النسخ» ومحاولتهم التقريب بين النصوص المختلفة أو استبعاد بعضها . والأمر في حقيقته غير ذلك ، فتعدد النصوص وتفاوتها صورة من تعددية الإسلام أراد الله تعالى بها الفسحة والسعة في دائرة الاختيار ما بين بدائل متعددة .

- ٥ -

إن القرآن الكريم عندما اعتمد «المعروف» و «المنكر» ، أضفى غلالة إنسانية رقيقة على الشريعة ، وجعل الرأي العام من مصادرها ، وأى محاولة للحجر على هذين التعبيرين أو إعطائهما معنى معيناً إنما هي افتيات على النص ، إذ لو أراد الله تعالى تحديداً لوضع تعبيراً آخر ، ولكنه تعالى أراد بهذا التعبير أن يحقق المرونة والسعة في جوانب من التشريع بما يتفق مع التطور . وقد يثار احتمال تضارب النص مع مفهوم المعروف السائد عند قوم ما ، أو عهد ما ، والرد أن هذا لا يحدث بالنسبة للكليات والثوابت . فلن يكون الظلم والجهل والشرك والكذب معروفاً أبداً ، ولكنه يحدث بالنسبة للتقاليد والعادات الاجتماعية ، كالزنى والذوق ، وعندئذ تصبح القضية هي «فهم النص في إطار المعروف» أو الأخذ بالمعروف باعتباره ما أمر به النص نفسه بالأخذ به في إطار التعددية التي يسمح بها الإسلام .

والمهم أن لا يكون هناك اختيان أو استسلام للهوى عند تحديد المعروف والمنكر ، مع التسليم بأن الاختيان والاستسلام نسيان . فما يدخل في إطارهما في عصر سابق لا يدخل في إطارهما في عصر لاحق ، يجاوزهما . . والقلب السليم هو الفيصل .

- ٦ -

حرية الفكر والاعتقاد مطلقة يكفلها الإسلام إلى آخر مدى . . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . . ومذهب الإسلام في هذا أن حرية الفكر هي الطريق إلى الإيمان ، فلا إيمان يقوم على جهالة ، أو يفرض قسراً . . وإذا كان المجتمع الإسلامى هو مجتمع العقيدة ، فإنه بالتبعية والضرورة مجتمع الحرية فلا عقيدة دون حرية ، ولا إيمان دون نية . . وحرية الفكر هي التى تكفل الحيوية للعقيدة وتحول دون أن تتحول إلى «بركة آسنة» . وإذا أردنا أن نعزز الإيمان فبالمنطق والبرهان ، لا بالقمع والسلطان ، وفي مجال المقولات لا على أشخاص القائلين !

ولا يجوز مطلقاً تكفير آخرين ، أو الافتيات على عقائدهم . . فهذا ما استأثر الله

- ٢٥١ -

تعالى وحده بالحكم فيه يوم القيامة ، ولا يحاسب الناس في الدنيا على ما يؤمنون ،  
ولكن على ما يعملون . . .

- ٧ -

أبرز القرآن الكريم قداسة العلم عندما أمر الملائكة أن تسجد لآدم لأنه علمه «الأسماء كلها» وتحدثت الآيات ٢٧ و ٢٨ من سورة فاطر عن شموله ، وأمر الرسول بطلبه أينما كان (ولو في الصين) . . . (١) .

من هنا يجب على الفقهاء أن لا يقنعوا بثقافتهم الدينية التقليدية لأنها لم تعد كافية ،  
وعلمهم أن يلموا ويستوعبوا بقدر ما يمكن من ثقافات العصر ، ولا يصدنهم عنها أنها  
أمريكية أو هندية أو أوروبية . . . لأنها كلها «معرفة» تسهم في حل المشكلات والنهضة  
بالاجتماع والتجاوب مع العصر ، كلها حكمة نحن أحق بها أينما كانت ، وكيف يمكن  
لفقيه أن يفتى في قضية الربا وهو يجهل آليات البنوك ودورها في الاقتصاد الحديث ؟!

- ٨ -

يعمل الإسلام على مستويين : فهو يضع المثال الذي يفترض أن يستهدفه الإنسان ،  
ثم هو يعترف بالواقع الذي تتحكم فيه الضرورات ويخضع لسلسلة معقدة من العوامل  
بعضها يعود إلى الفرد وبعضها إلى الظروف والملابسات . . . إلخ . ويضع الإسلام  
«آليات» أو «ميكانيزم» للتفاعل ما بين المثال والواقع ، ومن مفردات هذه الآليات :

(١) اعتبار التيسير أصلاً في الممارسة ، والوسع أصلاً في التكليف .

(٢) المقاصة التي تقوم على مبدأ ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ .

(٣) ملاحظة الأولويات . . . (٤) ملاحظة الضرورات . . .

(٥) الاستغفار . . . (٦) التوبة . . .

وهذه الآليات تسع كل التصرفات التي لا تتفق مع المثال ويصدر فقهاء التقليد  
أحكاماً صارمة عليها !

- ٩ -

إن هذا يعطينا مدخلا لإزاء المستجدات في المجتمع : كالسينما ، والمسرح ،

(١) ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف  
ألوانها وخرائب سود (٢٧) ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء  
إن الله عزيز غفور (٢٨) ﴾ .

والتليزيون ، والصور المختلفة للهو والترفيه التي لم تكن معهودة في العصور الأولى ،  
ومجالات الجمال المفقودة في المجتمع الإسلامي ، فبعضها قد يتجافى مع المثال ، ولكن  
يقبل على أساس الواقع ، ويتعامل معه بالآليات المشار إليها آنفاً . . . وقد يعد بعضها  
من «اللمم» الذي لم يستبعد القرآن وقوع المؤمنين فيه ﴿الذين يجتنبون كبائر الأثم  
والفواحش إلا اللمم﴾ ولأني هريرة رأى عن اللمم يجعله كل ما هو دون الزنا  
الصريح<sup>(١)</sup> .

وفي الوقت الذي يقف فيه الإسلام هذا الموقف من الضعف الإنساني باعتباره جانباً  
من جوانب الطبيعة البشرية . . . فإنه يتوقع من الذين يلمون به أن يضاعفوا الحسنات  
والعمل الصالح ليجدوا نوعاً من الموازنة والمقاصة .

على أن الإسلام إذا تسامح مع الضعف البشري بتلك الضوابط المشار إليها ، فإنه  
لا يتسامح مع الشر كالأستغلال والظلم وإذلال الناس .

- ١٠ -

لا بد من الاعتراف بأن الفكر التقليدي لدى الفقهاء عن المرأة قد ظلماً ظلماً شديداً  
وجنى عليها لقرون متتالية ، وكان هذا من أسباب تخلف المسلمين .

وقد حكمت التقاليد ، وليس الإسلام ، كل ما يتعلق بالمرأة حتى اليوم . . . وآراء  
بعض الفقهاء عن المرأة يجعلها اليوم متخلفة عما كانت عليه أيام الرسول ﷺ ،  
وتعارض معارضة حادة روح القرآن وصرح الآيات . . .

إن كل ما يورده فقهاء التقليد عن الحجاب ، والاختلاط ، والزواج والطلاق ،  
والزنى ، والزينة يحتاج إلى مراجعة شاملة حتى يعود مرة أخرى إلى روح الإسلام الذي  
عبرت عنها البنود السابقة .

\*\*\*

وبالنسبة للكتاب والمفكرين و«التصويريين» فإن الإطار هو :

- ١ -

لا بد لكل من يعمل في مجال الفكر والإعلام والدعوة والسياسة أن يعلم أن مصر

---

(١) المستدرک للحاکم ص ٢٤٦ ج ع وقال : «هذا حديث صحيح ، ولم يخرجاه» .

هى بلد الإيمان ، وأن الدين هو أبرز مقوماتها . . . إن الشخصية المصرية تكونت تكونا إيمانيا على امتداد ثلاثة آلاف سنة متصلة قبل أى غزو خارجى ، فامتزجت الشخصية بالدين ، وكان الدين طوال هذه المدة هو محور المجتمع . . .

- ٢ -

إن إيمان مصر بالإسلام لم يكن مصادفة أو اعتباطا ، ولكنه كان أمرا مقضيا ، ولا بد منه لتتم مسيرتها الدينية ، ول يأخذ تصورهما القديم عن الخلود والعدالة الصورة المثل ، والأخيرة ، فقد وجدت مصر فى الإسلام دينها ، ووجد الإسلام فى مصر وطنه .  
وتجاهل إسلامية مصر هو حرمانها من الهوية والاسم والحضارة والشخصية المميزة لها وقطعها من تاريخها وأجدادها .

- ٣ -

لهذا فإن أية فكرة عن دولة علمانية ، ينفصل فيها التوجيه الدينى عن الحياة والمجتمع ، أو يكون الدين مجرد علاقة خاصة بين الفرد والله دون تأثير على الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، فكرة مرفوضة تماما ، ولن تقبلها مصر بحكم شخصيتها الإيمانية ، كما سرفضها الإسلام بحكم طبيعته . . . لقد كانت مصر - وستظل - دولة إسلامية .

- ٤ -

ليس هناك مبرر - على الإطلاق - للخوف من سؤات «الدولة الدينية» فهى متفنية من الإسلام لأنه عقلانى الطبيعة يجعل معجزته كتابا ويستبعد المؤسسة الدينية المحتكرة ، ويقيم فكرته عن الله على الفطرة السليمة ، لا اللاهوت الذى لا يفهمه إلا رجال الدين .

- ٥ -

إن الإسلام كجذر للمجتمع المصرى ومقوم للشخصية يتمحور حول القيم الحضارية للإسلام ، وهى الضمير للفرد ، والحرية للفكر ، والعدالة فى الاقتصاد والشورى فى السياسة . . . وأن يكون الحق هو المثل الأعلى للقيم ، والعدل هو المثل الأعلى للنظم .

- ٢٥٤ -

الأديان بصفة عامة هي أصل الفنون والآداب واستلهام الخير والفضيلة ومكانها  
مطلوب في كل مجتمع .

- ٦ -

إن وجود أقلية ٥% - ٧% قبطية في مصر لا تغير الحقائق . . فالأقليات موجودة  
في كل العالم ولا يمس وجودها حقوق الأغلبية ، والإسلام كحضارة إرث لكل  
البشرية ، وليس للمسلمين وحدهم ، ولغير المسلمين نحق فيه وقيمه الحضارية تكليل  
للقيم الحضارية في الأديان جميعا ، وقد كفل حقوق غير المسلم بتقريره حرية الاعتقاد،  
وليس فيه حساسية للآخرين وهو يسعهم تحت مظلة «لهم مالنا وعليهم ما علينا» ويمكن  
للأقباط أن يصلوا إلى أعلا المناصب تحت شعار «قبطى دينا ومسلم وطنا» ، وهو على  
كل حال أفضل من العلمانية التي تضعهم تحت رحمة الأغلبية النزقة .

أما إذا آثروا التوقع - كأقلية - فإن الإسلام يكفل لهم فوق ماتكفله القوانين  
الأوروبية من حقوق وحمايات للأقليات .

- ٧ -

لابد لدعاة التنوير أن يقلعوا عن عبادة الآلهة الزائفة . . ان الاشتراكية بالصورة  
التي دعا إليها ماركس وطبقها لينين، والقومية التي ظهرت خلال القرون الأخيرة قد  
أصبحت من سقط المتاع . . أما الحضارة الأوروبية فيجب النظر إليها في مضمون تجاوبها  
مع الطبيعة والقيم المصرية . . .

- ٨ -

لابد لدعاة التنوير أن يفسلوا أيديهم من قاذورات الناصرية ، وأن يحترفوا بما قامت  
عليه من زيف وما أدت إليه من كوارث على الوطن والمواطنين ، وأن يبدأوا بداية  
جديدة سليمة لاتقبل زيفا ، ولا تقوم على باطل فما قام على الباطل فهو باطل .

- ٩ -

لابد من تضافر الجهود للقضاء على السؤات التي غرستها الناصرية في المجتمع المصرى  
مثل ديكتاتورية الحاكم وتأليهه ، وانفراد حزب بالحكم ، والدولة البوليسية ، وإهدار  
كرامة المواطنين ، وتقييد الحريات ، وتزيف الانتخابات ، والفساد والتستور وراء الحصانات

- ٢٥٥ -

والمناصب والسؤات التي جرهما الانفتاح الطليق من تضخم الثروات الطفيلية  
والمشبوهة . . . وارتفاع الأسعار ومشكلات البطالة والإسكان . . . إلخ والقيم  
الحضارية للإسلام هي خير ما يقودنا وسط متاهة النظم والمذهبيات . . .

- ١٠ -

نشأ معظم دعاة التنوير في أحضان الصحافة ، وهي - إلى حد كبير - مدرسة  
الفوغائية ، والانتهازية ، والسطحية ، والجري وراء الإثارة والتصفيق والتليليل  
للحاكم . . . إلخ . . . وتأثروا بهذا الطابع قدر ما بعدوا عن الجدد ، والعمق ،  
والإخلاص ، وقد يصور هذا ، الفرق بين «أخبار» أمين الرافعي في العشرينات و  
«أخبار» إبراهيم سعدة اليوم ، أو أن يكون الجدد هو الكاتب الوطني النبيل أحمد  
حلمى<sup>(١)</sup> والحفيد هو صلاح جاهين صاحب الكاريكاتير المستهجن ولا ينفي هذا  
وجود صحافة جادة محدودة جدا ، وفي صف المعارضة . . .

ولا بد للصحفيين المصريين أن يتقفوا أنفسهم ثقافة جادة وعميقة ، وأن يجعلوا  
الصدق والحقيقة هدفهم وأن يتخلصوا من الآثار السيئة لصحافة الأثارة والصحافة  
الصفراء ، وصحافة التبعية للحاكم وصحافة الابتزاز والارتزاق الخ . . .

---

(١) كان أحمد حلمى هو أحد كتاب الحزب الوطنى وجريدة اللواء أيام محمد فريد . وكان مثالا للنبيل  
والوطنية .



## فهرست

رقم الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة .....
٩	الباب الأول : كلا لفقهاء التقليد
١١	الفصل الأول : عندما ينتطح العنزان .....
١٤	فقهاء التقليد وأدعياء التتوير .....
١٥	قانون الرده (١٩٧٧)
١٧	الفصل الثاني : شهادة الشيخ الغزالي وتوابعها .....
١٧	الشهادة نفسها .....
٢١	تعليقات الأستاذ صلاح منتصر بالأهرام .....
٣٤	تعليقات أخرى .....
٣٧	تحقيق جريدة الحياة .....
٤٢	كلمة المفتى الدكتور طنطاوى .....
٤٥	تحقيق مجلة أخبار الأدب .....
٥٣	الفصل الثالث : دلالات الشهادة وتوابعها .....
٥٣	قوة ونفوذ وتقليدية المؤسسة الدينية .....
٥٧	ضحالة الإيمان بالحرية .....
٦٢	الفصل الرابع : لا حد . . لا استتابه . . لا تعزير .....
٦٢	الأدلة من القرآن الكريم .....
٦٨	الأدلة من السنة - فتوى عدم استقلال .....
٧١	السنة فى إثبات الإيجاب والتحریم .....
٧٢	حديث العرنين - حديث لا يجوز قتل مسلم إلا . . . .
٧٣	حديث من بدل دينه فاقتلوه .....
٧٥	حديث معاذ .....
٧٧	الرسول لم يقتل مرتداً أو مرتده للإرتداد فحسب .....
٧٨	حروب الردة .....

- إضافة الفقهاء (١) صيغة «من أنكر معلوما من الدين بالضرورة» ٨٠  
 (٢) الاستتابة .  
 الاستفزاز ..... ٨٢  
 ملاحظات ختامية ..... ٩١

### الباب الثاني : كلا لأدعياء التنوير

- الفصل الأولى :**  
 التنوير والآلة الزائفة ..... ٩٤  
 الحضارة الأوروبية ..... ٩٥  
 الاشتراكية ..... ٩٨  
 القومية العربية ..... ١٠٠
- الفصل الثاني :**  
 التجارب الثلاث للتنوير في مصر ..... ١١٤  
 المشروع الشعبي في عهد محمد علي ..... ١١٥  
 التجربة البرجوازية ١٩١٩ - ١٩٥٢ ..... ١١٩  
 الناصرية : تعهير لا تنوير ..... ١٢٣  
 أثر الطبيعة السرية لتنظيم الضباط الأحرار على حركة ٢٣ يوليو . ١٣٨
- الفصل الثالث :**  
 أزمة أدعياء التنوير ..... ١٤٣  
 أزمة الصراع بين الذات والموضوع .  
 الموضوع : مصر - تكوينها الإيماني ..... ١٤٤  
 مصر والإسلام ..... ١٤٧  
 الذات والعوامل الذاتية (أ) الثقافة ..... ١٥١  
 (ب) الأنتاء السياسي ..... ١٥٩  
 (ج) حاجز الدين ..... ١٦٤  
 آفة الطموح ..... ١٦٨  
 معضلة الشنودية ..... ١٧٠  
 ظهور الجماعات الإسلامية ..... ١٨٢  
 اللبس التاريخي ..... ١٨٥  
 الأختراق الصهيوني للفكر المسيحي ١٩٣

رقم الصفحة	الموضوع
٢٠١ .....	العملاء المهيجون
٢٠٨ .....	نحو الحل
٢٠٨ .....	(د) سلطة الهوى

### الباب الثالث : عندما تتصافح اليدان

٢٢٤ .....	عندما تتصافح اليدان	الفصل الأول :
٢٢٤ .....	مدلول جديد لليمين واليسار	
٢٢٥ .....	التنويريون ففتان	
٢٢٨ .....	العنصر الإسلامى فى دعاة التنوير	
	[رفاعة الطهطاوى - جمال الدين الأفغانى - طه حسين - توفيق الحكيم - العقاد ١٠٠٠]	
٢٣٩ .....	اعتراف إحسان عبد القدوس	
٢٤٢ .....	موقف الدكتور زكى نجيب محمود	
٢٤٨ .....	مشروع للأجيال ٠٠	الفصل الثانى :
٢٤٩ .....	أ - مشروع للفقهاء	
٢٥٠ .....	ب - مشروع لدعاة التنوير	

## بقلم المؤلف أ - مؤلفات

- ١ - ثلاث عقبات فى الطريق الى المجد (١٩٤٥)
- ٢ - ديموقراطية جديدة (١٩٤٦)
- ٣ - على هامش المفاوضات (١٩٤٧)
- ٤ - مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة كما يوضحها القرآن الكريم (١٩٥٢)
- ٥ - ترشيد النهضة ( صودر قبل التوزيع ) (١٩٥٢)
- ٦ - الأزمة والبطالة فى الرأسمالية (١٩٥٣)
- ٧ - موقف المفكر العربى تجاه المذاهب السياسية المعاصرة (١٩٥٧)
- ٨ - قصة فرسان العمل (١٩٦٢)
- ٩ - دور المنظم فى الحركة النقابية (١٩٥٧)
- ١٠ - القانون والقضاء فى المجتمع الاشتراكى (١٩٦٣)
- ١١ - نشأة الحركة النقابية وتطورها ( طبعتان ) (١٩٦٦)
- ١٢ - التنظيم والبنيان النقابى ( ثلاث طبعات ) (١٩٦٦)
- ١٣ - فى التاريخ النقابى المقارن - طبعتان (١٩٦٧)
- ١٤ - دور النقابات فى المجتمع الاشتراكى (١٩٦٧)
- ١٥ - مسعولية القيادات النقابية ملحق مجلة العمل العدد ٣٦ سنة (١٩٦٧)
- ١٦ - الثقافة العمالية بين حاضرها ومستقبلها (١٩٦٩)
- ١٧ - منظمة العمل الدولية - ملحق مجلة العمل العدد ٦٤ سنة (١٩٦٩)
- ١٨ - الحركة العمالية الدولية - ملحق العمل العدد ٧٢ سنة (١٩٧٠)
- ١٩ - العمل فى الإسلام - ملحق مجلة العمل العدد ٨٥ سنة (١٩٧١)
- ٢٠ - محاضرات فى الإدارة النقابية (١٩٧٢)
- ٢١ - الحرية النقابية ملحق مجلة العمل مارس (١٩٧٢)
- ٢٢ - روح الإسلام (١٩٧٢)
- ٢٣ - العمال والدولة العصرية ملحق العمل عدد مايو سنة (١٩٧٥)
- ٢٤ - قضية الانتاج (١٩٧٣)

- ٢٥ - ظهور وسقوط جمهورية فايمار (١٩٧٧)
- ٢٦ - حرية الاعتقاد فى الاسلام (طبعتان) (١٩٧٧)
- ٢٧ - بحوث فى الثقافة العمالية (١٩٧٨)
- ٢٨ - الدعوات الإسلامية المعاصرة مالها وماعليها (١٩٧٨)
- ٢٩ - من محو الأمية حتى الجامعة العمالية ملحق مجلة العمل مايو (١٩٧٨)
- ٣٠ - الجامعة العمالية (١٩٧٩)
- ٣١ - الأصول الفكرية للدولة الإسلامية (١٩٧٩)
- ٣٢ - بيان رمضان ( طبعتان ) (١٩٧٩)
- ٣٣ - الأصولان العظيمان : الكتاب والسنة (١٩٨٢)
- ٣٤ - الفريضة الغائبة : جهاد السيف أم جهاد العقل (١٩٨٤)
- ٣٥ - الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشريعة (١٩٨٦)
- ٣٦ - الربا وعلاقته بالممارسات المصرفية والبنوك الإسلامية (١٩٨٦)
- ٣٧ - الحركة العمالية الدولية (كبير) (١٩٨٨)
- ٣٨ - مشروع لإصلاح الحركة النقابية (١٩٨٧)
- ٣٩ - تاريخ الثقافة العمالية فى مصر (١٩٨٧)
- ٤٠ - الحساسية الدينية (وسيط) دار الزهراء (١٩٨٨)
- ٤١ - الإسلام هو الحل (٨١٣ صفحة) (١٩٨٨)
- ٤٢ - تفسير حديث «من رأى منكم منكراً» . . . الخ (١٩٨٨)
- ٤٣ - خطابات حسن البنا الشاب الى ابيه (١٩٩٠)
- ٤٤ - الإسلام والعقلانية (١٩٩١)
- ٤٥ - العمل الإسلامى لإرساء سيادة الشعب والحكم الدستورى (١٩٩١)
- ٤٦ - رسالة الى الدعوات الإسلامية من دعوة العمل الإسلامى (١٩٩٢)
- ٤٧ - البرنامج الإسلامى (١٩٩٢)
- ٤٨ - الإيمان بالله (١٩٩٤)
- ٤٩ - الجمع بين الصلاتين (١٩٩٤)

## ب - كتب الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل

- ٥٠ - أزمة النقاية (١٩٨٠)
- ٥١ - الإسلام والحركة النقاية (١٩٨٠)
- ٥٢ - الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل (كتيب تعريفى) (١٩٨٠)
- ٥٣ - الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل يبدأ المسيرة (١٩٨١)
- ٥٤ - رسالة الإسلام (١٩٨١)
- ٥٥ - أخت الصلاة المهجرة (١٩٨٢)
- ٥٦ - الخيار الصعب (١٩٨٢)
- ٥٧ - الحركة النقاية من منطلق اسلامى (١٩٨٣)
- ٥٨ - الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل فى عامين (١٩٨٣)
- ٥٩ - الحساسية الدينية (وجيز) (١٩٨٣)
- ٦٠ - العودة إلى القرآن (١٩٧٠)
- ٦١ - نظم الثقافة العمالية فى الوطن العربى (١٩٨٤)
- ٦٢ - وجوه الائتلاف بين الرأسمالية والشيوعية والإسلام (١٩٨٤)
- ٦٣ - الدولة العصرية (١٩٨٥)
- ٦٤ - رؤية لمضمون الحكم بالقرآن (١٩٨٥)
- ٦٥ - محكمة العدل الدولية الإسلامية (١٩٨٥)
- ٦٦ - العودة الى القرآن (١٩٨٥)
- ٦٧ - لاجرح (قضية التيسير فى الإسلام) (١٩٨٦)
- ٦٨ - نحن ودعوتنا (١٩٨٦)
- ٦٩ - لست عليهم بمسيطر (قضية الحرية فى الإسلام) (١٩٨٦)
- ٧٠ - تعميق حاسة العمل (١٩٨٦)
- ٧١ - العهد (١٩٨٨)
- ٧٢ - الشورى فى الإدارة (١٩٨٨)
- ٧٣ - الحركة العمالية الدولية (وسيط) (١٩٨٨)
- ٧٤ - عمال السودان (مع الآخرين) (١٩٨٨)
- ٧٥ - الحرية النقاية ثلاثة أجزاء (١٩٨٩)
- ٧٦ - الحركة النقاية السودانية تجد نفسها (١٩٨٩)

- ٧٧ - نحو حركة نقابية مثقفة ودور الكتاب في ذلك (١٩٩٠)
- ٧٨ - الحركة النقابية حركة إنسانية (١٩٩٢)
- ٧٩ - الإضراب والمواثيق الدولية التي تعترف بها (١٩٩٢)
- ٨٠ - النقابات المهنية المصرية في معركة البقاء (١٩٩٣)
- ٨١ - لماذا يجب أن يكون للحركة النقابية عقيدة (١٩٩٣)
- ٨٢ - منظمة العمل الدولية ٧٥ عاماً في خدمة العدل والعمل والسلام (١٩٩٤)

## ج - مترجمات ومراجعات

- ٨٣ - النقابات في الولايات المتحدة (١٩٦٢)
- ٨٤ - النقابات في المملكة المتحدة (١٩٦٢)
- ٨٥ - النقابات في الاتحاد السوفيتي (١٩٦٢)
- ٨٦ - النقابات في السويد (١٩٦٢)
- ٨٧ - النقابات في روما (١٩٦٢)
- ٨٨ - النقابات في الملايو (١٩٦٢)
- ٨٩ - الأزمة المقبلة (١٩٦٣)
- ٩٠ - العمالة والتنمية الاقتصادية (١٩٦٦)
- ٩١ - مدخل لدراسة الأجور (١٩٦٦)
- ٩٢ - الإدارة العمالية في يوجوسلافيا (١٩٦٧)
- ٩٣ - الديمقراطية النقابية (١٩٦٩)
- ٩٤ - دستور منظمة العمل الدولية (١٩٧٠)
- ٩٥ - توصيات منظمة العمل الدولية (١٩٧١)
- ٩٦ - اتفاقيات العمل الدولية في مجلدين (١٩٧١)
- ٩٧ - البرنامج العالمي للعمالة (١٩٧١)
- «تقرير المدير العام لمكتب العمل الدولي»  
وكل هذه الكتب باستثناء الديمقراطية النقابية والأزمة المقبلة من مطبوعات منظمة  
العمل الدولية .

---

رقم الايداع ٤٠٤٥ / ٩٤

---

دار الطباعة الحديثة  
٧ كنيسة الأرمن - أول شارع الجيش  
تليفون ٩٠٨٣١٨